

مِنْ كِتابِ وَمَحَادِنِ الْجَوَاهِرِ

الإمام أبي الحسن بن علي
المسعودي

لِكِتَابِ الْجَوَاهِيرِ

شِهْرُ بَيْتِ الْمُحَاجَةِ

مِرْوِعُ الْزَّقَبُ

وَمَعَادِنُ الْجَوَهَرِ

تَصْلِيْفُ

أَبِي الْحَسَنِ عَلَى بْنِ الْحَسَيْنِ بْنِ عَلَى الْمَسْعُودِيِّ

الموافق ٩٥٧ هـ - ١٣٤٦ م

اعْتَدَّ بِهِ وَرَاجَعَهُ
كَمَالُ حَسَنِ مَرْعِي

الْجَزْءُ الثَّالِثُ

المكتبة العصرية

مكتبة - بيروت



جَمِيعُ الْحَقُوقِ حَفْوَظَةُ النَّاشرِ
الطَّبْعَةُ الْأُولَى

٢٠٠٥ - ١٤٢٥ م

ISBN 9953-34-320-9



9 7 8 9 9 5 3 3 4 3 2 0 4

ISBN 9953-34-317-9

شَرْكَةُ الْأَبْنَاءِ تَهْرِيفُ الْأَنْصَارِي
لِلطبَاعَةِ وَالنَّسْخَةِ وَالتَّوزِيعِ

المِكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّةُ

الدَّارُ السَّمْوِيَّةُ المَظْبِعَةُ الْغَضْرِيَّةُ

بَيْرُوت - ص.ب ٨٣٥٥ - تِلْفَاقْسُ ٦٥٥.١٥ - ٩٦١١ ..
صَيْدا - ص.ب ٢٢١ - تِلْفَاقْسُ ٧٢٣١٧ - ٩٦١٧ ..

E-mail: alassrya@terra.net.lb - alassrya@cyberia.net.lb

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكر خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهمَا!

موجز

ثم بُويع الحسنُ بن عليٍّ بن أبي طالب بالكوفة بعد وفاة عليٍّ أبيه بيومين، في شهر رمضان من سنة أربعين، ووجهَ عَمَّالِه إلى السَّوَادِ والجبل.

وُقْتُلَ الحسنُ عبد الرحمن بن مُلجم، على حسب ما ذكرنا، ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن بن عليٍّ، لخمس بقين من شهر ربيع [الأول] في سنة إحدى وأربعين.

وكانت وفاة الحسن - وهو يومئذ ابنُ خمسِ وخمسين سنة - بالسم.

وُدُفِنَ بالقيع مع أمِّه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، والله ولي التوفيق.

ذكر لمع من أخباره وسيره، رضي الله عنهمَا!

سم الحسن رضي الله عنه

حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، قال: دخل الحسين على عمي الحسن [بن علي] لما سقي السم، فقام لحاجة الإنسان ثم رجع، فقال: لقد سقيت السم عدة مرار فما سقيت مثل هذه، لقد لفظت طائفه من كبدِي فرأيتني أقبله بعود في يدي، فقال له الحسين: يا أخي، مَن سقاك؟ قال: وما تريد بذلك؟ فإن كان الذي أطنه فالله حسيبه، وإن كان غيره فما أحِب أن يؤخذ بي بريء، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثة حتى توفى، رضي الله عنه.

ذكر الذي سمه

وذكر أن امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي سقته السم، وقد كان معاوية دس إليها: إنك إن احتلت في قتل الحسن وجّهت إليك بمائة ألف درهم، وزوجتك [من] يزيد، فكان ذلك الذي بعثها على سمه، فلما مات وفَى لها معاوية بالمال، وأرسل إليها: إننا نحب حياة يزيد، ولو لا ذلك لوفينا لك بتزووجه.
وذكر أن الحسن قال عند موته: لقد حَافَتْ شربته، وبلغ أمنيته، والله لا وَفَى [لها] بما وَعَدَ، ولا صدق فيما قال.

وفي فعل جعدة يقول النجاشي الشاعر، وكان من شيعة علي، في شعر له طويل:

جَعْدَةَ بَكَيْهِ وَلَا تَسَامِي بَعْدُ بُكَاءَ الْمُغُولِ الشاكل
لَمْ يُسْبِلِ السُّترَ عَلَى مَثْلِهِ فِي الْأَرْضِ مِنْ حَافِ وَمِنْ نَاعِلِ
[كَانَ إِذَا شُبِّئَ لَهُ نَارَهُ يَرْفَعُهَا بِالسَّنْدِ الْغَاتِلِ]
[كَيْمَا يَرَاهَا بَائِسٌ مُرْزِمٌ وَفَرْدٌ قَوْمٌ لَيْسَ بِالْأَهْلِ]
[يَغْلِي بَنِيَ اللَّهِ، حَتَّى إِذَا أَنْضَجَهُ لَمْ يَغْلِي لَمْ يَغْلِي لَمْ يَغْلِي]
[أَعْنَى الَّذِي أَسْلَمَنَا هُلْكَهُ لِزَمِنِ الْمُسْتَحْرِجِ الْمَاحِلِ]

وفي ذلك يقول آخر من شيعة علي رضي الله عنه:
 تأس فكم لك من سلوة تُفرج عنك غليل الحزن
 بموت الشَّبِيْ، وقتل الوَصِيْ، وقتل الْحَسِنْ، وسم الْحَسِنْ

قال المسعودي رحمه الله: ووُجِدَت في كتاب «الأخبار» لأبي الحسن علي بن محمد بن سليمان التوفلي عن صالح بن علي بن عطية الأصم قال: حدثنا عبد الرحمن بن العباس الهاشمي، عن أبي عون صاحب الدولة، عن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عن أبيه، عن جده، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت عند رسول الله ﷺ إذ أقبل علي بن أبي طالب، فلما رأه أسفَرَ في وجهه، فقلت: يا رسول الله، إنك لتشفِّر في وجه هذا الغلام، فقال: يا عَمَ رسول الله، والله أشد حبا له ميّي، إنه لم يكن نبي إلا وذريته الباقيه بعده من صلبه، وإن ذريتي بعدي من صلب هذا، إنه إذا كان يوم القيمة دعي الناس بأسمائهم وأسماء أمها them سترًا من الله عليهم، إلا هذا وشيته فإنهم يذعنون بأسمائهم وأسماء آبائهم لصحة ولادتهم.

رثاء ابن الحنفية للحسن

ولما دُفِنَ الحسن رضي الله عنه وقفَ محمد ابن الحنفية أخوه على قبره، فقال: لَئِنْ عَزَّتْ حَيَاتُكَ، لَقَدْ هَدَتْ وَفَاتِكَ، وَلَنْعَمُ الرُّوحُ رُوحُ تضمنه كفنك، وَلَنْعَمُ الْكَفْنُ كفن تضمن بدنك، وكيف لا تكون هكذا وأنت عقبة الهدى، وَخَلَفُ أهْلِ التَّقْوَىِ، وخامس أصحاب الكسae، عَذَنْتَكَ بِالْتَّقْوَىِ أَكْفُ الْحَقِّ، وَأَرْضَعْتَكَ ثُدُّي الإِيمَانِ، وَرُبِّيْتَ فِي حِجَرِ الإِسْلَامِ، فَطَبَّتْ حَيَاً وَمِيتًا، وإن كانت أنفسنا غير سخية برفاقك، رحمك الله أبا محمد! .

ومن رثاء ابن الحنفية للحسن

ووُجِدَت في وجه آخر من الروايات في أخبار أهل البيت أن محمداً وقف على قبره فقال: أبا محمد، لَئِنْ طَابَتْ حَيَاتُكَ، لَقَدْ فَجَعَ مَمَاتِكَ، وكيف لا تكون كذلك وأنت خامس أهل الكسae، وابن محمد المصطفى، وابن علي المرتضى، وابن فاطمة الزهراء، وابن شجرة طوبى؟ ثم أنشأ يقول رضي الله عنه:

أَدْهَنَ رَأْسِيْ أَمْ تَطِيبَ مَجَالِسِيْ وَخَدَنَكَ مَعْفُورَ وَأَنْتَ سَلِيب؟
 [أَشَرَّبَ ماءَ الْمَزْنَ منْ غَيْرِ مَائِهِ] وقد ضمن الأحساء منك لهيب؟[؟]
 سَأْبِكِيكَ مَا نَاحَتْ حَمَامَةَ أَيْكَةِ وما اخْضَرَ في دُؤُجْ الحِجَازِ قضيب

غريب وأكثاف الحجاز تُحْوَطَهُ ألا كل من تحت التراب غريب

ووُجِدَتْ فِي بَعْضِ كُتُبِ التَّوَارِيخِ فِي أَخْبَارِ الْحَسَنِ وَمَعاوِيَةِ أَنْ بِخَلَافَةِ الْحَسَنِ صَحَّ
الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «الخلافة بعدي ثلاثين سنة» لَأَنَّ أَبَا بَكْرَ الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
تَقَلَّدَهَا سَتَّينَ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرَ وَثَمَانِيَّةَ أَيَّامَ وَعُمُرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَعْرَ سَنِينَ وَسَتَّةَ أَشْهُرَ وَأَرْبَعَ
لِيَالٍ، وَعَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِحدَى عَشَرَ سَنَةً وَأَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَثَلَاثَةَ عَشَرَ يَوْمًا وَعَلَى
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْبَعَ سَنَينَ وَسَبْعَةَ أَشْهُرَ إِلَّا يَوْمًا، وَالْحَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَمَانِيَّةَ أَشْهُرَ وَعَشْرَةَ
أَيَّامَ، فَذَلِكَ ثَلَاثُونَ سَنَةً.

سرور معاوية بموت الحسن

وَحَدَثَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرِ الطَّبَرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حُمَيْدٍ الرَّازِيِّ، عَنْ عَلَيِّ بْنِ
مَجَاهِدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ بْنِ رَبِيعَةَ، قَالَ: وَفَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ
الْعَبَّاسِ عَلَى مَعَاوِيَةَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي الْمَسْجِدِ إِذَا كَبَّرَ مَعَاوِيَةَ فِي الْخَضْرَاءِ فَكَبَرَ أَهْلُ
الْخَضْرَاءِ، ثُمَّ كَبَرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ بِتَكْبِيرِ أَهْلِ الْخَضْرَاءِ، فَخَرَجَتْ فَاطِّةُ بْنَ قَرْظَةَ بْنَ
عُمَرَ بْنِ نُوفَّلٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافَ مِنْ خَوْخَةِ لَهَا، فَقَالَتْ: سَرَّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا هَذَا
الَّذِي بَلَغَكَ فَسَرَرْتَ بِهِ؟ قَالَ: مَوْتُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، فَقَالَتْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِحُونَ،
ثُمَّ بَكَّتْ وَقَالَتْ: مَاتَ سَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ، وَابْنُ بَنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ: نَعَما
وَاللَّهِ مَا فَعَلْتَ، إِنَّهُ كَذَلِكَ أَهْلًا أَنْ تَبْكِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ بَلَغَ الْخَبَرُ أَبْنَى عَبَّاسَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا، فَرَاحَ فَدْخُلُ عَلَى مَعَاوِيَةَ، قَالَ: عَلِمْتُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَنَّ الْحَسَنَ تَوَفَّى، قَالَ:
أَذْلَكَ كَبِرَتْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: [أَمَا] وَاللَّهِ مَا مَوْتُهُ بِالَّذِي يَؤْخُرُ أَجْلَكَ، وَلَا حُفْرَتْهُ بِسَادَةٍ
حُفْرَتَكَ، وَلِئَنْ أَصْبَنَا بِهِ [قَبْلَهُ] بِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَإِمامِ الْمُتَقِّينَ وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ
بَعْدِهِ بِسَيِّدِ الْأَوْصِيَاءِ، فَجَبَرَ اللَّهُ تَلْكَ الْمُصْبِيَّةَ، وَرَفَعَ تَلْكَ الْعَثَرَةَ، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ
عَبَّاسٍ! مَا كَلْمَتَكَ [قَطٌّ] إِلَّا وَجَدْتَكَ مَعَدًا.

وَفِي نَسْخَةٍ أَنَّهُ لَمَّا صَالَحَ الْحَسَنَ مَعَاوِيَةَ كَبَرَ مَعَاوِيَةَ فِي الْخَضْرَاءِ، وَكَبَرَ أَهْلُ
الْخَضْرَاءِ، ثُمَّ كَبَرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ بِتَكْبِيرِ أَهْلِ الْخَضْرَاءِ، فَخَرَجَتْ فَاطِّةُ بْنَ قَرْظَةَ مِنْ خَوْخَةِ
لَهَا، فَقَالَتْ: سَرَّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَكَ؟ قَالَ: أَتَانِي الْبَشِيرُ بِصَلَحِ
الْحَسَنِ وَانْقِيادِهِ، فَذَكَرَتْ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَسَيَصْلَحُ اللَّهُ
بَيْنَ فَتِينَ عَظِيمَتِينِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فَتَيَّ إِحدَى الْفَتَيَّتَيْنِ.

وَلَمَّا صَالَحَ الْحَسَنَ مَعَاوِيَةَ لَمَّا نَالَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَمَا نَزَلَ بِهِ أَشَارَ عُمَرُ بْنُ
الْعَاصِمِ عَلَى مَعَاوِيَةَ - وَذَلِكَ بِالْكُوفَةِ - أَنْ يَأْمُرَ الْحَسَنَ فَيَقُولُ فِي خُطْبَةِ النَّاسِ، فَكَرِهَ ذَلِكَ

معاوية، وقال: ما أريد أن يخطب [بالناس]، قال عمرو: لكني أريد أن يبدو عليه في الناس بأنه يتكلم في أمور لا يذري ما هي، ولم يزل به حتى أطاعه؛ فخرج معاوية خطيب الناس، وأمر رجلاً أن ينادي بالحسن بن علي، فقام إليه، فقال: قم يا حسن فكلم الناس، [فقام] فتشهد في بيته، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإن الله هداكم بأولنا، وَحَقَنْ دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دُولٌ، قال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ قل: «وَإِنْ أَدْرِي أَقْرِبُ أَمْ بَعْدُ مَا تُوعَدُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُ الْجَهَرُ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّمُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَسْعَ إِلَى حِينٍ» [الأنباء: ١١١-١٠٩]، ثم قال في كلامه ذلك: يا أهل الكوفة، لو لم تدخلن نفسي عنكم إلا لثلاث خصال لذهبكم: مقتلكم لأبي، وسلبكم ثقلي، وطعنكم في بطني، وإنني قد بايعت معاوية، فاسمعوا له وأطعوا.

وقد كان أهل الكوفة انتبهوا سرادق الحسن ورحله، وطعنوا بالخنجر في جوفه، فلما تيقن ما نزل به انقاد إلى الصلح.

خطبة للحسن

وقد كان علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه اعتلَّ، فأمر ابنه الحسن رضي الله عنه أن يصلِّي بالناس يوم الجمعة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله لم يبعث نبياً إلا اختار له نقيناً ورَهطاً وبيتاً، فوالذي بعث محمداً بالحق نبياً لا يتقصى من حقنا أهل البيت أحد إلا نقصه الله من عمله مثله، ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة، ولتعلمنَّ نبأه بعد حين.

خطبة أخرى

ومن خطب الحسن رضي الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال: نحن حزب الله المفلحون، وعترة رسول الله ﷺ الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله ﷺ، والثاني كتاب الله، فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، والمعول عليه في كل شيء، لا يخطئنا تأويله، بل نتلقن حقائقه، فأطاعونا؛ فإن طاعتكم مفروضة إذ كانت بطاعة الله [والرسول وأولي الأمر] مقرونة «فَإِنْ تَنْزَعُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» [النساء: ٥٩] ولو ردُوه إلى الرسول، «وَإِنَّ أَوْلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لِعِلْمَةُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ» [النساء: ٨٣] وأخذركم الإصلاح لهنف الشيطان إنه لكم عدو مبين؛ فتكونون كأولئك الذين قال لهم: «لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ جَارَ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفَتَنَانَ تَكَبَّصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ

مَنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴿٤٨﴾ [الأفال: ٤٨] فتلقون للرماح أزراً، وللسیوف جزراً، وللعمد خطأ، وللسهام غرضاً، ثم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، والله أعلم.

ذكر خلافة معاوية بن أبي سفيان

موجز

[و] بُويع معاوية في شوال سنة إحدى وأربعين، ببيت المقدس، فكانت أيامه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، وتوفي في رجب سنة إحدى وستين، وله ثمانون سنة، ودُفن بدمشق بباب الصغير، وقبره يُزار إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة - وعليه بيت مبني يفتح كل يوم اثنين وخميس.

ذكر لمع من أخباره وسيره ونوادر من بعض أفعاله

مقتل حجر الكندي

وفي سنة ثلاثة وخمسين قُتِلَ معاوية حُبْر بن عدي الكندي، وهو أول من قُتِلَ صِبَرًا في الإسلام: حمله زِياد من الكوفة ومعه تسعه نَفَرٍ من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها، فلما صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أشأت ابنته تقول، ولا عقب له من غيرها:

تَرَفَّعُ إِلَيْهَا الْقَمَرُ الْمُنْتَرِ
يَسِيرُ إِلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبِ
وَيَضْلِبُهُ عَلَى بَابِي دَمْشَقِ
[تَخِيرُتُ الْخَبَائِرِ بَعْدَ حُبْرِ]
أَلَا يَا حُبْرَ حُبْرَ بْنِي عَدِيِّ
أَخَافُ عَلَيْكَ مَا أَرْدَى عَلَيْاً
أَلَا يَا لَيْتَ حُبْرَ مَا تَوَتاً
فَإِنْ تَهْلِكَ فَكُلْ عَمِيدَ قَوْمٍ
لَعْلَكَ أَنْ تَرَى حُبْرًا يَسِيرُ

لِيَقْتَلَهُ، كَذَا رَعَمَ الْأَمِيرِ
وَتَأْكُلُ مِنْ مَحَاسِنِهِ النَّسُورُ
وَطَابَ لَهَا الْخُورُونَقُ وَالسَّدِيرُ
تَلْقَتُكَ السَّلَامَةُ وَالسُّرُورُ
وَشَيْخًا فِي دَمْشَقٍ لَهُ زَئِيرٌ
وَلَمْ يُنْخَرْ كَمَا نَحْرَ الْبَعْيرِ
فَإِنْ تَهْلِكَ فَكُلْ عَمِيدَ قَوْمٍ

ولما صار إلى مرج عندراء على اثنى عشر ميلًا من دمشق تقدم البريد بأخبارهم إلى معاوية، فبعث برجل أغور، فلما أشرف على حُبْر وأصحابه قال رجل منهم: إن صدق الزَّجَر فإنه سيقتل مِنَ النصف وينجو الباقون، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: أما ترون الرجل المُقْبَل مُصَابًا بِأَحَدِي عَيْنِيهِ، فلما وصل إِلَيْهِمْ قَالَ لِحُبْر: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ [قد] أَمْرَنِي بِقْتَلِكَ يَا رَأْسَ الضَّلَالِ وَمَعْدَنَ الْكُفَّرِ وَالْطُّغْيَانِ وَالْمَتْوَلِيِّ لَأَبِي تَرَابِ وَقُتْلَ أَصْحَابِكَ، إِلَّا أَنْ تَرْجِعوا عَنْ كُفْرِكُمْ، وَتَلْعَنُوا صَاحِبِكُمْ وَتَبْرُؤُوا مِنْهُ، فَقَالَ حُبْرُ وَجْمَاعَةُ مَنْ كَانَ مَعَهُ: إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى حَدِ السَّيفِ لَا يُسْرِّ عَلَيْنَا مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، ثُمَّ الْقَدْوُمُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى نَبِيِّهِ وَعَلَى وَصِيهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دُخُولِ النَّارِ، وَأَجَابَ نَصْفُ مَنْ كَانَ مَعَهُ

إلى البراءة من علي ، فلما قُدِّمَ حجر ليقتل قال: دعوني أصلبي ركعتين ، فجعل يطول في صلاته ، فقيل له: أجزأا من الموت؟ فقال: لا ، ولكنني ما تطهرت للصلوة قط إلا صلية ، وما صلية قط أخف من هذه ، وكيف لا أجزع ، وإنني لأرى قبراً محفوراً ، وسيفاً مشهوراً [وَكَفَنَا مَنْشُوراً] ، ثم تقدم فتحر ، وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه ، وقيل: إن قتلهم كان في سنة خمسين .

عدي بن حاتم و معاوية

وذكر أن عدي بن حاتم الثاني دخل على معاوية ، فقال له معاوية: ما فعلت الطرفات؟ يعني أولاده ، قال: قتلوا مع علي ، قال: ما أنصفك علني قتل أولادك وبقى أولاده ، فقال عدي: ما أنسفت علينا إذ قتل وبقيت بعده ، فقال معاوية: أما إنه قد بقيت قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلا دم شريف من أشراف اليمن ، فقال عدي: والله إن قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإن أسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عوانتنا ، ولئن أدنيت إلينا من الغدر فترا لندين إلينك من الشر شبراً ، وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المسأة في علي ، فسلم السيف يا معاوية لباعث السيف ، فقال معاوية: هذه كلمات حكم فاكتبوها ، وأقبل على عدي محادثاً له كأنه ما خاطبه بشيء .

بين عمرو بن عثمان وأسامة عند معاوية

وذكر أن معاوية بن أبي سفيان تنازع إليه عمرو بن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ في أرض ، فقال عمرو لأسامة: كأنك تنكرني ، فقال أسامة: ما يسرني نسبك بولائي ، فقام مروان بن الحكم فجلس إلى جانب عمرو بن عثمان ، وقام الحسن فجلس إلى جانب أسامة ، فقام سعيد بن العاص فجلس إلى جانب مروان ، فقام الحسين فجلس إلى جانب الحسن ، وقام عبد الله بن عامر فجلس إلى جانب سعيد ، فقام عبد الله بن جعفر فجلس إلى جانب الحسين ، وقام عبد الرحمن بن الحكم فجلس إلى جانب ابن عامر ، فقام عبد الله بن العباس فجلس إلى جانب ابن جعفر ، فلما رأى ذلك معاوية قال: لا تعجلوا ، أنا كنت شاهداً إذ أقطعها رسول الله ﷺ وأسامة ، فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين ، وأقبل الأمويون عليه فقالوا: ألا كنت أصلحت [بيتنا] قال: دعوني فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لبس على عقلي ، وإن الحرب أولها نجوى ، وأوسطها شكوى ، وأآخرها بلوى ، وتمثل بأبيات امرئ القيس المتقدمة في هذا الكتاب في أخبار عمر رضي الله عنه ، وأولها:

الحرب أول ما تكون فتية تدنو بزيانتها للكل جهول
ثم قال: ما في القلوب يشب الحروب، والأمر الكبير يدفعه الأمر الصغير،
وتتمثل:

قد يلحق الصغير بالجليل وإنما القرم من الأفيلي
وتسحق التخل من الفسيلي

إلحاق زياد بأبي سفيان

قال المسعودي: ولما هم معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان أبيه - وذلك في سنة أربع وأربعين - شهد عنده زياد بن أسماء الحرمازي ومالك بن ربيعة السلولي والمنذر بن الزبير بن العوام أن أبو سفيان أخبر أنه ابنه، وأن أبو سفيان قال لعلي عليه السلام حين ذكر زياد عند عمر بن الخطاب:

أما والله لولا خوف شخص يراني يا علي من الأعدادي
لبين أمره صخر بن حرب ولم يكن المجمجم عن زياد
ولكنني أخاف صروف كف لها نقم وتفادي عن بلادي
فقد طالت محاولتي ثقيفاً وتركني فيهم ثمر الفؤاد
ثم زاده يقيناً إلى ذلك شهادة أبي مريم السلولي، وكان أخير الناس بيده
الأمر [وذلك] أنه جمع بين أبي سفيان وسمية أم زياد في الجاهلية على زنا، وكانت سمية
من ذوات الرؤى بالطائف تؤدي الضريبة إلى الحارث بن كلدة، وكانت تنزل بالموضع
الذي تنزل فيه البغايا بالطائف خارجاً عن الحضر في محله يقال لها حارة البغايا.

وكان سبب ادعاء معاوية [له] فيما ذكر أبو عبيدة معمراً بن المثنى أن علياً كان ولأه
فارس حين أخرج منها سهل بن حنيف، فضرب زياد ببعضهم بعضاً حتى غلب عليها،
وما زال يتنقل في كورها حتى صلح أمر فارس، ثم ولاه على إضطخر، وكان معاوية
يتهدده، ثم أخذ بشر بن أرطاة عبيد الله وسالماً ولديه وكتب إليه يقسم ليقتلنهم إن لم
يراجع ويدخل في طاعة معاوية [وكتب معاوية إلى بشر لا يعرض لابني زياد، وكتب إلى
 زياد أن يدخل في طاعته] ويرده إلى عمله، فقدم زياد على معاوية، فصالحه على مال
وحله، ودعاه معاوية إلى أن يستحلفه، فأبى زياد ذلك [ـ]، وكان المغيرة بن شعبة قال
لزياد قبل قدومه على معاوية: ازم بالغرض الأقصى، ودع عنك الفضول، فإن هذا الأمر
لا يمد إليه أحد يدا إلا الحسن بن علي وقد بايع لمعاوية، فخذ لنفسك قبل التوطين،

قال زياد: فأشير على ، قال: أرى أن تنقل أصلك إلى أصله، وَتَصِلَ حبلك بحبله ، وأن تعير الناس منك أذناً صماء ، فقال زياد: يا ابن شعبة ، أَغْرِس عوداً في غير منبته ولا مَدَرَّة فتحيه ولا عِزْقَ فيسيقه؟! ثم إن زياداً عزم على قبول الدعوى وأخذ برأي ابن شعبة ، وأرسلت إليه جويرية بنت أبي سفيان عن أمر أخيها [معاوية] ، فأتاها فأذنت له وَكَشَفَت عن شعرها بين يديه ، وقالت: أنت أخي أخبرني بذلك أبو مريم ، ثم أخرجه معاوية إلى المسجد ، وجمع الناس ، فقام أبو مريم السلولي فقال: أشهد أن أبي سفيان قدِم علينا بالطائف وأنا خَمَّار في الجاهلية ، فقال: ابغني بغياً ، فأتيته وقلت له: لم أجد إلا جارية الحارث بن كَلَدة سمية ، فقال: ائتنى بها على ذفرها وقدرها ، فقال له زياد: مهلاً يا أبي مريم ، إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً ، فقال أبو مريم: لو كتمت أعفیتمنی لكان أحبابي ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما وقعدت دهشاناً ، فلم ألبث أن خرج علَيَّ يمسح جبينه ، فقلت: مَهْ يا أبي سفيان ، فقال: ما أصبحت مثلها يا أبي مريم ، لولا استرخاء من ثديها وذفر من فيها ، فقام زياد فقال: أيها الناس ، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم ، ولست أدرى حق ذلك من باطله ، وإنما كان عبيد ربيباً مبروراً أو ولئما مشكوراً ، والشهود أعلم بما قالوا ، فقام يونس بن عبيد أخو صفية بنت عبيد بن أسد بن علاج الثقفي - وكانت صفية مولاًة سمية - فقال: يا معاوية ، قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقضيت أنت أن الولد للعاهر وأن الحجر للفراش ، مُخالفة لكتاب الله تعالى ، وانصرافاً عن سنة رسول الله ﷺ ، بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان ، فقال معاوية: والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيناً وقوعها ، فقال يونس: هل إلا إلى الله ثم أقع؟ قال: نعم وأستغفر الله ، فقال عبد الرحمن ابن أم الحكم في ذلك ويقال: إنه لزيد بن مفرغ الحميري:

ألا أبلغ معاوية بن حرب مُغَلْغَلَةً عن الرجل اليماني
أتعصب أن يقال: أبُوكَ عَفْ وترضى أن يقال: أبُوكَ زاني؟
فأشهد أن رِحْمَكَ من زياد كَرِحْمُ الفيل من ولد الأنان

وفي زياد وإخوته يقول خالد النجاري:

إن زياداً ونافعاً وأبا بكره عندى من أعجب العجب
إن رجالاً ثلاثة خلقوا من رحْمِ أنسى مخالفى النسب
ذا قُرْشِيَ فيما يقول، وَذَا مَوْلَى، وهذا بِزَعْمِهِ عَرَبِي

بين معاوية وعبد الله بن هاشم المرقال

ولما قتل علي كرم الله وجهه كان في نفس معاوية من يوم صفين على هاشم بن عقبة بن أبي وقاص المز قال ولو لد عبد الله بن هاشم إحن، فلما استعمل معاوية زياداً على العراق كتب إليه، أما بعد: فانظر عبد الله بن هاشم بن عتبة، فشد يده إلى عنقه، ثم أبْعَثَ به إلى، فحمله زياد من البصرة مُقَيَّداً مغلولاً إلى دمشق، وقد كان زياد طرقة بالليل في منزله بالبصرة، فأدخل إلى معاوية وعنده عمرو بن العاص، فقال معاوية لعمرو بن العاص: هل تعرف هذا؟ قال: لا، قال: هذا الذي يقول أبوه يوم صفين:

إِنِّي شَرِيتُ النَّفْسَ لِمَا اعْتَلَّا وَأَكْثَرَ اللَّوْمَ وَمَا أَقْلَّا
أَغْوَرَ يَبْغِي أَهْلَهُ مَحْلًا قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى مَلَّا
لَا بُدَّ أَنْ يَفْلَأَ أَوْ يُفَلَّأَ أَشْلُهُمْ بَنْيَ الْكُعُوبَ شَلَا^١
لَا خَيْرَ عَنِّي فِي كَرِيمٍ وَلَّى

فقال عمرو متمثلاً:

وقد يئُبُّ المَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حَرَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا
دونك يا أمير المؤمنين الضب المضب فاشخصب أو داجه على أسباجه، ولا ترده
إلى [أهل] العراق، فإنه لا يصبر عن النفاق، وهم أهل غدر وشقاق، وحزب إبليس ليوم
هي جاء، وإن له هوَى سَيْرِدِيه، ورأياً سِيطَغِيه، وبطانة ستقويه، وجذاء سيئة مثلها،
قال عبد الله: يا عمرو، إن أقتلن فرجل أسلمه قومه، وأدركه يومه، أفلًا كان هذا منك إذ
تحيد عن القتال، ونحن ندعوك إلى التزال، وأنت تلوذ بسمال النطاف، وعقبائق
الرصاص، كالآمة السوداء، والنعجة القذاء، لا تدفع يد لامس، فقال عمرو: أما والله
لقد وقعت في لهازم شذئم للأقران ذي لبد، ولا أحسبك منفلتاً من مخالفب أمير
المؤمنين، فقال عبد الله: أما والله يا ابن العاص إنك لبطر في الرخاء، جبان عند اللقاء،
غضوم إذا وليت، هيبة إذا لقيت، تهدر كما يهدر العوذ المنكوس المقيد بين مجرى
الشول لا يستعجل في المدة، ولا يرجي في الشدة، أفلًا كان هذا منك إذ غمرك أقوام لم
يعنعوا صغاراً، ولم يمرقوا كباراً، لهم أيد شداد، وألسنة حداد، يدعمون العوج،
ويذهبون الحرج، يكثرون القليل، ويشفون الغليل، ويعزون الذليل، فقال عمرو: أما
والله لقد رأيت أباك يومئذ تتحقق أحشاؤه، وتبق أمعاؤه، وتضطرب أطلاوه، كأنما انطبق
عليه صمد، فقال عبد الله: يا عمرو، إننا قد بلوناك ومقاتلتك فوجدنا لسانك كذوباً غادراً،
خلوت بأقوام لا يعرفونك، وجند لا يسامونك، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام

لحظ إلَيكَ عَقْلَكَ، ولتُلْجِجَ لسانَكَ، ولا ضُرُبَ فَخَذَاكَ اضْطَرَابَ الْقَعُودِ الَّذِي أَنْقَلَهُ حَمْلَهُ، فَقَالَ معاوية: إِيَّاهَا عَنْكُمَا، وَأَمْرَ بِإِطْلَاقِ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ عُمَرُ لِمَاوِيَةَ:

أَمْرُكَ أَمْرًا حَازِمًا فَعَصَيْتَنِي
أَلِيسَ أَبُوهُ يَا معاوية الَّذِي
أَعْانَ عَلَيْاً يَوْمَ حَزَّ الْغَلَاصِمِ
بِصَفَيْنِ أَمْثَالِ الْبَحُورِ الْخَضَارِمِ
وَهَذَا ابْنُهُ، وَالْمَرْءُ يُشْبِهُ شِيخَهُ

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ يَجْبِيهُ:

مُعاوِيَةَ إِنَّ الْمَرْءَ عَمِرًا أَبْتَلَهُ
يَرِى مَا يَرِى عُمَرُ مُلُوكَ الْأَعْاجِمِ
إِذَا مَنَعَتْ عَنْهُ عَهُودَ الْمَسَالِمِ
عَلَيْكَ جَنَاحَاهَا هَاشِمٌ وَابْنُ هَاشِمٍ
وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَاضْعَاثَ حَالَمِ
وَإِنَّ تَرَ قُتْلِيَ تَسْتَحْلَ مَحَارِمِي

فَقَالَ معاوية:

أَرَى الْعَفْوَ عَنْ عُلَيْاً قَرِيشَ وَسِيلَهُ
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَيَ الْعَدَاءَ ابْنَ هَاشِمٍ
بِلِ الْعَفْوَ عَنْهُ بَعْدَمَا بَانَ جُرْمُهُ
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صَفَيْنِ جَمْرَةَ
عَلَيْنَا فَأَرْدَتَهُ رِمَاحَ نَهَارِ

وَحَضَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمٍ ذَاتَ يَوْمِ مَجْلِسِ معاوِيَةَ، فَقَالَ معاوِيَةَ: مَنْ يَخْرُنِي عَنِ الْجَوْدِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمَرْوِعَةِ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَا الْجَوْدَ فَابْتِدَالُ الْمَالِ،
وَالْعَطْيَةُ قَبْلَ السُّؤَالِ، وَأَمَا النَّجْدَةُ فَالْجَرْأَةُ عَلَى الْأَقْوَامِ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ ازْوَارِ الْأَقْدَامِ، وَأَمَا
الْمَرْوِعَةُ فَالصَّلَاحُ فِي الدِّينِ، وَالْإِصْلَاحُ لِلْمَالِ، وَالْمَحَاكَمَةُ عَنِ الْجَارِ.

بَيْنَ معاوِيَةَ وَمُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ

وَلَمَّا صَرَفَ عَلَيْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَيْسَ بْنُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ عَنْ مَصْرَ وَجَهَ مَكَانَهُ
مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا كَتَبَ إِلَيْهَا معاوِيَةَ كِتَابًا فِيهِ: مَنْ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ،
إِلَى الْغَاوِي معاوِيَةَ بْنَ صَخْرٍ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ بِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ خَلَقَ خَلْقَهُ بِلَا عَيْثَ مِنْهُ،
وَلَا ضَعْفَ فِي قُوَّتِهِ، وَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى خَلْقِهِمْ، وَلَكِنَّهُ خَلَقَهُمْ عَبِيدًا، وَجَعَلَ مِنْهُمْ غُرَيْبًا

ورشيداً، وشقياً وسعيداً، ثم اختار على علم واصطفى وانتخب منهم محمداً ﷺ، فانتخبه بعلمه، واصطفاه برسالته، وائتمنه على وحيه، وبعثه رسولاً وبشراً ونذيراً [ووكيلاً] فكان أول من أجاب وأمن وصدق وأسلم وسلم أخيه وابن عمه علي بن أبي طالب: صدقه بالغيب المكتوم، وأثره على كل حميم، ووَفَاهُ بنفسه كل هَوْلٍ، وحارب حَزِبَهُ، وسالم سِلْمَهُ، فلم يرِحْ مبتدلاً لنفسه في ساعات الليل [والنهار] والخوف والجوع والخضوع حتى بَرَزَ سابقاً لا نظير له فيما اتبَعَهُ، ولا مقارب له في فعله، وقد رأيتك تُسَامِيهِ وأنت أنت، وهو هو، أصدق الناس نية، وأفضل الناس ذرية، وخير الناس زوجة، وأفضل الناس ابن عم: أخوه الشاري بنفسه يوم موته، وعمه سيد الشهداء يوم أحد، وأبُوه الذَّابُ عن رسول الله ﷺ وعن حُزْنَتِهِ، وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبُوك تَبَغِيَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الغَرَائِلَ، وتتجهدان في إطفاء نور الله، تجمعان على ذلك الجموع، وتبدلان فيه المال، وتؤلِيان عليه القبائل، [و] على ذلك مات أبوك، وعليه خَلْفَتِهِ، والشهيد عليك من تدْنَى ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق، والشاهد لعلي - من فضله المبين القديم - أنصاره الذين معه [وهم] الذين ذكرهم الله بفضلهم، وأئنَّ عليهم من المهاجرين والأنصار، وهم معه كتائب وعصائب، يَرَوْنَ الحَقَّ فِي اتِّبَاعِهِ، وَالشَّقَاءَ فِي خَلَافِهِ، فَكَيْفَ - يَا لَكَ الْوَيْلُ! - تَعْدِلُ نَفْسَكَ بِعَلَيِّيْهِ وَهُوَ وَارِثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَصِيِّهِ وَأَبُو وَلَدِهِ: أَوْلُ النَّاسِ لِهِ اتِّبَاعًا، وَأَقْرَبُهُمْ بِهِ عَهْدًا، يخبره بسره، ويطلعه على أمره، وأنت عدوه وابن عدوه، فتَمْتَعَ في دنياك ما استطعت بباطلك، ولم يدرك ابن العاص في غوايتك، فكان أجملك قد انقضى، وكيدك قد وَهَىْ، ثم يتبيَّن لك لمن تكون العاقبة العلية، واعلم أنك إنما تكابد ربك الذي أمنتَ كَيْنَهُ، وينتَ من رُوحِهِ؛ فهو لك بالمرصاد، وأنت منه في غرور، والسلام على من اتبع الهدى.

فكتب إليه معاوية: من معاوية بن صخر، إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر. أما بعد: فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في عظمته وقدرته وسلطانه، وما اصطفى به رسول الله ﷺ، مع كلام [كثير لك] فيه تضييف، ولأبيك [فيه] تعنيف، ذكرت فيه فضل ابن أبي طالب، وقديم سوابقه، وقرباته إلى رسول الله ﷺ، ومُؤاساته إياه في كل هَوْلٍ وخوف، فكان احتاجاجك علىَّ وعيك لي بفضل غيرك لا بفضلك، فاحمد ربَّا صرف هذا الفضل عنك، وجعله لغيرك، فقد كنا وأبُوك فيما نعرف فضل ابن أبي طالب وحْقَهُ لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتَمَ له ما وعدَهُ، وأظهرَ دعوته، وأبلَجَ حُجَّتَهُ، وقبضه الله إليه صلوَاتُ الله عليه، فكان

أبوك وفاروقة أول من ابته حَقَّهُ، وخالفه على أمره، على ذلك اتفقاً واتسقاً، ثم إنهم دَعْوَاه إلى بيعتهم فأبطنَا عنهمَا، وتلوكاً عليهمَا، فهمما به الهموم، وأرادا به العظيم، ثم إنه بايع لهمَا وسَلَمَ لهمَا، وأقاما لا يشراكاً في أمرهمَا، ولا يُطْلِعَانَه على سرهما، حتى قضيَّهما الله، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهمَا وسار بسيرهمَا، فعيته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأفاصي من أهل المعاشي، فطلبتما له الغوائل، وأظهرتما عداوتكمَا [فيه] حتى بلغتما فيه مُناكمَا، فخذ حذرك يا ابن أبي بكر، وقس شبرك بفترك، يقصر عن أن توازي أو تساوي مَنْ يَرْزُنُ الْجَبَالَ بِحَلْمِهِ، لا يلين عن قَسْرِ قناته، ولا يدرك ذو مقال أناه [أبوك] مَهَدَ مَهَادِهِ، وبنى لملكه وساده، فإن يك ما نحن فيه صواباً فأبوك استبَدَّ به ونحن شركاؤه، ولو لا ما فعل أبوك من قبل ما خلفنا ابن أبي طالب، ولسلمتنا إليه، ولكن رأينا أباك فعل ذلك به [من] قبلنا فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك أو دَعْ ذلك، والسلام على من أتاب .

من معاوية إلى علي

ومما كتب به معاوية إلى علي: أما بعد، فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضاً على بعض، وإن وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها نَرْمَ به ما مضى، ونُصلِحُ به ما بقي، وقد كنت سألك الشام على أن لا تلزمني لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتكم إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف، وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز، ويسترق به حر، والسلام .

جواب علي لمعاوية

فكتب إليه علي كرم الله وجهه: من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضاً على بعض، وأنا وإياك نلتمس منها غاية لم تبلغها بعد، فأما طلبك مني الشام فإني لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا في الخوف والرجاء فلست بأمضي على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام على الدنيا بأخرَصَ من أهل العراق على الآخرة، وأما قولك نحن بنو عبد مناف فكذلك نحن، وليس أمية كهاشم، ولا حزب بعد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا الطليق كالمهاجر، ولا المُبْطَل كالمحقق، وفي أيدينا فضل النبوة التي قَتَلْنَا بها العزيز، وبعنا بها الحر، والسلام .

بين سعد ومعاوية

وحدث أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، عن محمد بن حمد الرازى، عن أبي مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، قال: لما حجج معاوية طاف بالبيت ومعه سعد، فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة، فأجلسه معه على سريره، ووقع معاوية في علي وشَّاعَ في سَبَّهِ، فزحف سعد ثم قال: أجلسنِي معك على سريرك ثم شرعت في سب علي، والله لأن يكون في خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب إلى من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأن تكون صهراً لرسول الله ﷺ وأن لي من الوالد ما لعلني أحب إلى من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأن يكون رسولاً [ويحب الله ورسوله] ليس بفَرَارٍ، يفتح الله على يديه» أحب إلى من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ما قال له في غزوة تبوك: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى» أحب إلى من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، وأيم الله لا دخلت لك داراً ما بقىتك، ثم نهض.

ووُجِدَتْ فِي وَجْهِ آخَرَ مِنَ الرِّوَايَاتِ، وَذَلِكَ فِي كِتَابِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَلِيمَانِ التَّوْفِلِيِّ فِي الْأَخْبَارِ، عَنْ أَبْنَى عَائِشَةَ وَغَيْرِهِ، أَنْ سَعْدًا لَمَا قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ لِمَعَاوِيَةَ وَنَهَضَ لِيَقُومَ ضَرَطَ لِهِ مَعَاوِيَةَ، وَقَالَ لَهُ: اقْعُدْ حَتَّى تَسْمَعْ جَوَابَ مَا قَلْتَ، مَا كُنْتَ عَنِي قَطُّ أَلَمْ مِنْكَ الْآنَ، فَهَلَا نَصْرَتِهِ، وَلَمْ قَعِدْتْ عَنْ بَيْعَتِهِ؟ فَإِنِّي لَوْ سَمِعْتُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ الَّذِي سَمِعْتُ فِيهِ لَكُنْتُ خَادِمًا لِعَلِيٍّ مَا عَشْتُ، فَقَالَ سَعْدٌ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْقَ بِمَوْضِعِكَ مِنْكَ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ: يَا أَبَى عَلِيِّكَ ذَلِكَ بْنُ عَذْرَةَ، وَكَانَ سَعْدٌ فِيمَا يَقَالُ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَذْرَةَ، قَالَ التَّوْفِلِيُّ: وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ السَّيِّدُ أَبْنُ مُحَمَّدٍ الْحَمِيرِيُّ:

سَائِلٌ قَرِيشِيٌّ بِهَا إِنْ كُنْتَ ذَا عَمِّيْهِ مَنْ كَانَ أَثْبَتَهَا فِي الدِّينِ أَوْتَادًا
مِنْ كَانَ أَقْدَمَهَا سَلِيمًا، وَأَكْثَرُهَا عَلِمًا، وَأَطْهَرُهَا أَهْلًا وَأَوْلَادًا
مِنْ وَحْدَ اللَّهِ إِذْ كَانَتْ مَكْذِبَةً
مِنْ كَانَ يُقْدِمُ فِي الْهَيْجَاءِ إِنْ نَكْلُوا
مِنْ كَانَ أَعْدَلَهَا حَكْمًا، وَأَقْسَطَهَا حَلْمًا، وَأَصْدَقَهَا وَعْدًا وَإِعْدَادًا
إِنْ يَصْدُقُوكَ فَلِمْ يَعْدُوا أَبَا حَسْنَ
إِنْ أَنْتَ لَمْ تَلْقَ لِلْأَبْرَارِ حَسَادًا
وَمِنْ عَدِيَّ لِحَقِّ اللَّهِ جُحَادًا
أَوْ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، أَوْ مِنْ بَنِي أَسْدٍ
رَهْطُ الْعَبِيدِ ذُوِّي جَهْلٍ وَأَوْغَادًا

أو رهط سعد، وسعد كان قد علموا عن مستقيم صراط الله صدّاداً
قوم تَدَاعُوا زَنِيما شَمْ سَادُهُمْ لَوْلَا خَمْوَلْ بْنِي زَهْرَ لَمَّا سَادَاهُ
وكان سعد وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن سلمة ممن قعد عن
علي بن أبي طالب، وأبوا أن يبايعوه هم غيرهم ممن ذكرنا من القَعْدَاد وذلك أنهم قالوا:
إنها فتنة، ومنهم من قال لعلي: أُغطّنا سيفاً نقاتل بها معك، فإذا ضربنا بها المؤمنين لم
تعمل فيهم وَبَثَ عن أجسامهم، وإذا ضربنا بها الكافرين سَرَّثَ في أبدانهم، فأعراض
عنهم على، وقال: **﴿وَلَوْلَوْ عَلَمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْعَهُمْ وَلَوْ أَسْعَهُمْ لَتَوَلُّوْ وَهُمْ مُعَرِّضُونَ﴾**
[الأنفال: ٢٣].

بين معاوية وأبي الطفيلي الكناني

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى وغيره من الأخباريين أن الأمر لما أفضى إلى
معاوية أتاه أبو الطفيلي الكناني فقال له [معاوية]: كيف وَجَدْتَ على خليلك أبي الحسن؟
قال: كوجد أم موسى على موسى، وأشكو إلى الله التقصير، فقال معاوية: أكنت فيمن
حضر قتل عثمان؟ قال: لا، ولكنني فيمن حضر فلم ينصره، قال: فما منعك من ذلك
وقد كانت نصرته عليك واجبة؟ قال: منعني ما منعك إذ ترَيْصُ به رَبِّ المتنون وأنت
بالشام، قال: أو ما ترى طليبي بدمه نصرة له؟ قال: بلى، ولكنك وإياك كما قال الجعدي:

لا أَفِيتَكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبِنِي وَفِي حَيَاةِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادَا
وَدَخَلَ عَلَى معاوية ضرار بن الخطاب فقال له: كيف حُزِنْتَ على أبي الحسن؟
قال: حزن من دُبُح ولدها على صدرها فما ترقَّعْتَهَا وَلَا يَسْكُنْ حَزْنَهَا.

بين معاوية وقيس بن سعد

ومما جرى بين معاوية وبين قيس بن سعد بن عبادة حين كان عاملاً لعلي على
مصر، فكتب إليه معاوية: أما بعد، فإنك يهودي ابن يهودي، إن ظفر أَحَبُّ الفريقين
إليك عَزَّلَكَ واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك نَكَلَ بك وقتلك، وقد كان أبوك أوَّرَ
قوسه، ورمي غَرَضَه، فأكثر الحز وأخطأ المفصل، فخذله قومه، وأدركه يومه، ثم مات
بحوران طريداً.

فكتب إليه قيس بن سعد: أما بعد، فإنما أنت وثنى ابن وثنى، دخلت في الإسلام
كرهاً، وخرجت منه طوعاً، لم يقدم إيمانك، ولم يحدث نفاقك، وقد كان أبي أوَّرَ

قوسه، ورمى غرضه، فشغب به من لم يبلغ عقبه، ولا شق عباره، ونحن أنصار الدين الذي منه خرجت، وأعداء الدين الذي فيه دخلت.

ودخل قيس بن سعد بعد وفاة علي ووقوع الصلح في جماعة من الأنصار على معاوية، فقال لهم معاوية: يا عشر الأنصار، يمْ تطلبون ما قبلي؟ فوالله لقد كتم قليلاً معي كثيراً عليّ، ولقللتكم حَدِي يوم صِفَيْنَ حتى رأيت المنايا تلظى في أستكم، وهجوتمني [في أسلافي] بأشدّ من وقع الأسنة، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله قلت: ازغ [فينا] وصية رسول الله ﷺ، هيهات يأبى الحَقِيقَينَ العذرة، فقال قيس: نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله، لا بما تمت به إليك الأحزاب، وأما عداوتنا لك فلو شئت كفتها عنك، وأما هجاوْنا إياك فقول يزول باطله، ويثبت حقه، وأما استقامة الأمر فعلى كره كان منا، وأما فُلْتَا حدقك يوم صفين فإنما كنا مع رجل نرى طاعته طاعة الله، وأما وصية رسول الله بنا فمن آمن به رعاها بعده، وأما قولك يأبى الحَقِيقَينَ العذرة فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية، فقال معاوية يمهو: ارفعوا حوائجكم.

من مناقب قيس بن سعد

وقد كان قيس بن سعد من الزهد والديانة والميل إلى علي بالوضع العظيم، وبلغ من خوفه الله وطاعته إياه أنه كان يصلي فلما أهوى للسجود إذا في موضع سجوده ثعبان [عظيم] مطوق، فمال عن الثعبان برأسه، وسجد إلى جانبه، فتطوّق الثعبان برقبته، فلم يقصر من صلاته ولا نقص منها شيئاً، حتى فرغ، ثم أخذ الثعبان فرمى به، كذلك ذكر الحسن بن علي بن عبد الله بن المغيرة عن معمر بن خلاد عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا.

بين معاوية وعمرو

وقال عمرو بن العاص لمعاوية ذات يوم: قد أعلم أجَبَانَ أنت أم شجاع، لأنّي أراك تتقدم حتى أقول: أراد القتال، ثم تتأخر حتى أقول: أراد الفرار، فقال له معاوية: والله ما أنقدم حتى أرى التقدم غماً، ولا تتأخر حتى أرى التأخر حَزْماً، كما قال القَطَاطِي:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصةٌ وإنْ تكن لي فرصةٌ فجبان

العباس بن ربيعة

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى عن أبي الأغر التميمي، قال بينما أنا واقف بصفين إذ

مر بي العباس بن ربيعة مغفراً بالسلاح، وعيناه تبسان من تحت المغفر كأنهما شغلتا نار أو عيناً أرقَمْ، وبهذه صفيحة له يمانية يقلُّبها، والمنايا تلوح في شفترتها، وهو على فرس صَبَغْ، فيما هو يبعثه ويمنعه ويلين من عريكته إذ هتف به هاتف يقال له عَرَارُ بن أدهم من أهل الشام يا عباس، هلْم إلى التزال، قال: فالنزول إذاً، فإنه إياس من الحياة، فنزل إليه الشامي وهو يقول:

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فإنما عشر نُزُلُ

وثني العباس وركه وهو يقول:

الله يعلم أنا لا نحبكم ولا نلومكم أن لا تحبونا

ثم عصر فضلات درعه في محزمته يريد منطقته ودفع فرسه إلى غلام له أسود كأني والله أنظر إلى فلافل شعره، ثم زحف كل واحد منهمما إلى صاحبه، وكف الفريقان عننة الخيول ينظرون ما يكون من الرجلين، فتكافحا بسيفيهما مليئاً [من] نهارهما لا يصل واحد منهمما إلى صاحبه لكمال لأمهِّته، إلى أن لحظ العباس وهنَا في درع الشامي فأهوى إليه بيده وheticه إلى ثندوته، ثم عاد لمحاولته، وقد أفرج له مفتق الدرع، فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره، فخر الشامي لوجهه، فكبر الناس تكبيراً ارتَجَثْ لها الأرض من تحتهم، وانساب العباس في الناس، فإذا قائل يقول من ورائي: «**قَتَلُوكُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ**» [التوبة: ١٤] الآية فالتفت فإذا بعلي رضي الله عنه، فقال: يا ابن الأغر، من المبارز لعدونا؟ قلت: ابن أخيكم العباس بن ربيعة، قال: وإنَّه لـهـ العباس؟ قلت: نعم، فقال: يا عباس، ألم أنهكَ عبد الله بن عباس أن تحلا بمركز أو تبارزاً أحداً؟ قال: إن ذلك كما قلت قال علي: فـمـاـ عـدـاـ مـمـاـ بـدـاـ؟ قال: فأـدـعـيـ إـلـىـ الـبـرـازـ فـلاـ أـجـبـ؟ قال: طـاعـةـ إـمـامـكـ أـولـىـ بـكـ من إـجـابـةـ عـدوـكـ، وـتـغـيـظـ وـاسـطـارـ، ثـمـ تـطـامـنـ وـسـكـنـ وـرـفـعـ يـدـيـهـ مـبـهـلـاـ، فـقـالـ: اللـهـ أـشـكـ لـلـعـبـاسـ مـقـامـهـ، وـاـغـفـرـ ذـنـبـهـ، اللـهـمـ إـنـيـ قـدـ غـفـرـتـ لـهـ فـاـغـفـرـ لـهـ، وـتـأـسـفـ مـعـاوـيـةـ عـلـىـ عـرـارـ بنـ أـدـهـمـ، فـقـالـ: مـتـىـ يـنـطـقـ فـحـلـ بـمـثـلـهـ أـبـطـلـ دـمـهـ! لـاـهـ اللـهـ، أـلـاـ رـجـلـ يـشـرـيـ نـفـسـهـ يـطـلـبـ بـدـمـ عـرـارـ، فـأـنـتـدـبـ لـهـ رـجـلـانـ مـنـ لـخـمـ مـنـ أـهـلـ الـبـأـسـ وـمـنـ صـنـادـيدـ الشـامـ، فـقـالـ: أـذـهـبـاـ فـأـيـكـمـ قـتـلـ العـبـاسـ فـلـهـ مـائـةـ أـوـقـيـةـ مـنـ التـبـرـ وـمـثـلـهـ مـنـ الـلـجـيـنـ وـبـعـدـهـمـاـ مـنـ بـرـودـ الـيـمـنـ، فـأـتـيـاهـ فـدـعـوـاهـ إـلـىـ الـبـرـازـ، وـصـاحـاـ بـيـنـ الصـفـيـنـ: يـاـ عـبـاسـ يـاـ عـبـاسـ، اـبـرـزـ إـلـىـ الدـاعـيـ، فـقـالـ: إـنـ لـيـ سـيـداـ أـرـيدـ أـنـ أـوـامـرـهـ، فـأـتـيـاهـ عـلـيـاـ وـهـوـ فـيـ جـنـاحـ الـمـيـمـنـ يـحـرـضـ النـاسـ، فـأـخـبـرـهـ الـخـبـرـ، فـقـالـ عـلـيـ: وـالـلـهـ لـوـدـ مـعـاوـيـةـ أـنـهـ مـاـ بـقـيـ مـنـ بـنـيـ هـاشـمـ نـافـخـ ضـرـمـةـ

إلا طعن في بطنه إطفاء لنور الله ﴿وَيَأْبُكَ اللَّهُ إِلَّا أَن يُتَمَّمَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَفَرُونَ﴾ [التوبه: ٣٢] أما والله ليملئنهم منا رجال ورجال يسومونهم سوم الخسف حتى تعفو الآثار، ثم قال: يا عباس، ناقلن سلاحك بسلاحي، فناقله، ووثب على فرس العباس، وقصد اللخميين، فلم يشكا أنه العباس، فقال له: أذن لك صاحبك؟ فتخرج أن يقول نعم، فقال: ﴿أَذِنْ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِيمُوا وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى نَصِيرِهِ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] وكان العباس أشبه الناس في جسمه وركوبه بعلي، فبرز له أحد هما فما أخطأه، ثم برز له الآخر فالحقه بالأول، ثم أقبل وهو يقول ﴿الثَّرُثُرُ الْحَرَامُ يَا الشَّهِرُ الْحَرَامُ وَالْمُرْمَدُ قَصَاصٌ فَمَنْ أَعْنَدَهُ عَلَيْكُمْ فَأَعْنَدُوا عَنَّهُ يُمِثِّلُ مَا أَعْنَدَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] ثم قال: يا عباس، خذ سلاحك وهات سلاحي، فإن عاد لك أحد فعد لي، ونما الخبر إلى معاوية فقال: قبج الله اللجاج إنه لعقول ما ركبته فقط إلا خذلت، فقال عمرو بن العاص: المخدول والله اللخميان، والمغدور من غررته، لا أنت المخدول، قال: اسكت أيها الرجل فليس هذا من شأنك، قال: وإن لم يكن، رحم الله اللخميين، ولا أراه يفعل، قال: ذلك والله أضيق لحجتك، وأحسن لصفقتك، قال: قد علمت ذلك، ولو لا مصر وولايتها لركبت المنجا منها، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده، فقال معاوية: مصر والله أعمتك، ولو لا مصر لألفيت بصيراً، ثم ضحك معاوية ضحكاً ذهب به كل مذهب، قال: ممْ تضحك يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك؟ قال: أضحك من حضور ذهنك يوم بارزت علياً، وإيدائك سوأتك، أما والله يا عمرو لقد واقتعت المنايا، ورأيت الموت عياناً، ولو شاء لقتلك، ولكن أبي ابن أبي طالب في قتلك إلا تكرماً، فقال عمرو: أما والله إني لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فاخوّلت عيناك [ويبدأ سخرك] وبـأـدـاـ منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك أو دع.

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن معاوية برب في بعض أيام صفين أمام الناس وكَرَ على ميسرة علي، وكان علي فيها في ذلك الوقت يعيِّن الناس، فغير علي لأمهه وجوداته، وخرج بلا ملة بعض أصحابه، وصَمَدَ له معاوية، فلما تدايني أبايه معاوية فغمز برجليه على جواده وعلى وراءه، حتى فاته ودخل في مصاف أهل الشام، فأصابه علي رجلاً من مطافهم دونه، ثم رجع وهو يقول:

يا لهفَّ نفسي فـأـتـيـ مـعـاوـيـه فوق طـمـير كالعقاب الضاريه
وقدم عمرو بن العاص من مصر على معاوية في بعض الأيام، فلما رأه معاوية
قال:

يموت الصالحون وأنت حيٌ تخطأ المنايا لا تموت

فأجابه عمرو:

فلست بمت ما دمت حيًّا ولست بمت حتى تموت

وذكر أن معاوية لما نظر إلى عسكر أهل العراق - وقد أشرف وأخذت الرجال مراتبها من الصنوف - ونظر إلى عليٍّ على فرس أشقر حاسِر الرأس يرتُّب الصنوف كأنه يغرسهم في الأرض غرساً فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص، قال لعمرو: يا أبا عبد الله، أما تنظر إلى ابن أبي طالب وما هو عليه؟ فقال له عمرو: منْ طلب عظيماً خاطر بعظيم.

بسر بن أرطاة

وقد كان معاوية في سنة أربعين بعث بُسرَ بن أرطاة في ثلاثة آلاف حتى قدم المدينة وعليها أبو أيوب الأنباري فتنحى، وجاء بُسر حتى صعد المنبر وتهدد أهل المدينة بالقتل، فأجابوه إلى بيعة معاوية، وبلغ الخبر علياً فأنفذ حارثة بن قدامة السعدي في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين، ومضى بُسر إلى مكة، ثم سار إلى اليمن، وكان عبيد الله بن العباس بها، فخرج عنها ولحق بعلي واستخلف عليها عبد الله بن عبد المدان الحارثي، وخلف ابنيه عبد الرحمن وقُتهم عند أحدهما جويرية بنت قارظ الكناني، فقتلها بُسر وقتل معهما خالاً لهما من ثقيف وقد كان بُسر بن أرطاة العامري - عامر بن لؤي بن غالب - قُتل بالمدينة وبين المسجدتين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرهم، وكذلك بالجرف قتل بها خلقاً كثيراً من رجال همدان، وقتل بصنعاء خلقاً [كثيراً] من الأبناء، ولم يبلغه عن أحد أنه يماليء علياً أو يهواه إلا قتله، ونما إليه خبر حارثة بن قدامة السعدي فهرب، وظفر حارثة بابن أخي بُسر مع أربعين من أهل بيته، فقتلهم، وكانت جويرية أمُّ ابني عبيد الله بن العباس اللذين قتلهم بُسر تدور حول البيت ناشرة شعرها وهي من أجمل النساء وهي تقول ترثيهم:

ها من أحسن من ابني اللذين هما كالدرتين تُشَطَّى عنهم الصدف
ها من أحسن من ابني اللذين هما سمعي وقلبي، فعقلني اليوم مختطف
ها من أحسن من ابني اللذين هما مني العظام فمخي اليوم مزدهف
نبئت بُسراً، وما صدقت ما زعموا
من قولهم ومن الإفك الذي وصفوا
مشحونة، وكذلك الإثم يُقْتَرَف
أنجى على وَدَجِي ابني مرهفة

بين معاوية وعمرو بن العاص ووردان

وذكر الواقدي قال: دخل عمرو بن العاص يوماً على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وزدآن، فأخذنا في الحديث، وليس عندهما غير وردان، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، ما بقي مما تستلذه؟ فقال: أما النساء فلا أربَّ لي فيهن، وأما الشياط فقد لبست من لينها وجیدها حتى وهي بها جلدی فما أدری أيها ألين، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطیبه حتى ما أدری أيها أللذ وأطيب، وأما الطیب فقد دخل خیاشیمی منه حتى ما أدری أيه أطيب، فما شيء أللذ عندي من شراب بارد في يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنی وبني بنی يدورون حولي، فما بقي منك يا عمرو؟ قال: مال أغرسه فأصيبح من ثمرته ومن غلتَه، فالتفتَ [معاوية] إلى وزدآن فقال: ما بقي منك يا وزدآن؟ قال: صنیعة کریمة سنیة أعلقها في عنق قوم ذوي فضل وأخطار لا يکافئونی بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعکبی في أعقابهم بعدي، فقال معاوية: تَبَّا لمجلسنا سائر [هذا] اليوم، إن هذا العبد غلبني وغلبك.

وفاة عمرو بن العاص

وفي سنة ثلاثة وأربعين مات عمرو بن العاص بن وائل بن سهيم بن سعيد بن سعد بمصر، وله تسعون سنة، وكانت ولایته مصر عشر سنین وأربعة أشهر، ولما حضرته الوفاة قال: اللهم لا براءة لي فأعتذر، ولا قوة لي فانتصر، أمرتنا فعصيتنا، ونهيتنا فركينا، اللهم هذه يدي إلى ذقني، ثم قال: خُذُوا لي [في] الأرض خَذَا، وسُثُروا على التراب سُثَا، ثم وضع أصبعه في فيه حتى مات، وصلى عليه ابنه عبد الله يوم الفطر؛ فبدأ بالصلاحة عليه قبل صلاة العيد، ثم صلى بالناس بعد ذلك صلاة العيد، وكان أبوه من المستهذئين، وفيه نزلت ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ أَلْأَبْرَؤُ﴾ [الکوثر: ٣].

ولى معاوية ابنه عبد الله بن عمرو ما كان لأبيه.

ترجمته

وخلف عمرو من العین ثلاثة ألف دینار وخمسة وعشرين ألف دینار، ومن الورق ألف درهم [وغلة مائتي ألف دینار بمصر] وضيغته المعروفة [بمصر] بالوهط قيمتها عشرة آلاف [ألف] درهم.

وفيه يقول ابن الزَّبَر الأَسْدِي الشاعر من أبيات:

أَلَمْ ترَ أَنَّ الدَّهْرَ أَحْتَنْتُ صُرُوفَهُ عَلَى عُمَرَ السَّهْمِيِّ تُجْبِيَ لِهِ مَصْرُ

فلم يُعْنِ عنه حَزْمَه واحتياله ولا جمعه لَمَّا أتىح له الدهر وأمسى مقيماً بالعراء وضللت مكايده عنه وأمواله الْدَّلْرُ وفي سنة خمس وأربعين ولَى معاوية زياد ابن أبيه البصرة وأعمالها، وقال لما دخلها:

الَا رَبِّ مسرور بنا لا نسره وآخر محزون بنا لا نضره
وقد كان معاوية أغزى في هذه السنة سفيان بن عوف العامري، وأمره أن يبلغ الطوانة فأصيب معه خلق من الناس، فعمَّ الناس الحزنُ بمن أصيب بأرض الروم، وبلغ معاوية أنَّ يزيد ابنته لما بلغه خبرهم وهو على شرابه مع ندمائه قال:

أهُوْنُ عَلَيَّ بما لاقت جموعُهُمْ يوم الطوانة من حُمَّى ومن مُومِ
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مُرَآنَ عندي أم كلثوم

أبو أيوب الأنصاري

فحلف عليه ليغزوَنَّ، وأردف به سفيان، فسميت هذه الغزاة غزاة الرادفة، ويبلغ الناسُ فيها إلى القسطنطينية، وفيها مات أبو أيوب الأنصاري ودُفن [هناك] على باب القسطنطينية، واسم أبي أيوب خالد بن زيد، وقد قيل: إنَّ أبي أيوب مات في سنة إحدى وخمسين غازياً مع يزيد، وقد أتينا على خبر هذه الغزاة، وما كان من يزيد فيها في الكتاب الأوسط.

المغيرة بن شعبة

وفي سنة تسع وأربعين كان الطاعون بالكوفة، فهرب منها المغيرة بن شعبة وكان إليها، ثم عاد إليها فطعن فمات، فمرَّ أعرابي عليه وهو يدفن فقال:

أرْسَمْ دِيَارِ الْمَغِيرَةِ تَعْرِفُ عَلَيْهَا دَوِيُّ الْإِنْسِ وَالْجَنِ تَعْرِفُ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ لَاقِيْتَ هَامَانَ بَعْدَنَا وَفَرْعَوْنَ فَاعْلَمْ أَنَّ ذَا الْعَرْشِ مُنْصِفٌ

وذكر أنَّ المغيرة ركب إلى هند بنت النعمان بن المنذر، وهي في دير لها في الحيرة مترهبة، وهو أمير الكوفة يومئذ، وقد كانت [هند] عميّة، فلما جاء الدير استأذن عليها، فأتتها جاريتها فقالت: هذا المغيرة يستأذن عليك، فقالت للجارية: ألقني إليه أثاثاً، فألقت إليه وسادة من شَعْرٍ، فلما دخل قعد عليها وقال: أنا المغيرة، فقالت له: قد عرفتك عامل المدرة، فما جاء بك؟ قال: أتيتك خاطباً إليك نفسك، قالت: أما

والصليب لو أردتني لِدِينِي أو جمال ما رَجَغْتَ إِلَّا بِحاجتكَ، ولَكُنِي أَخْبُرُكَ الَّذِي أَرَدْتَ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَتْ: أَرَدْتَ أَنْ تَزْوِجْنِي حَتَّى تَقُومَ فِي الْمَوْسِمِ فِي الْعَرَبِ فَتَقُولَ: تَزَوَّجْتِ ابْنَةَ النَّعْمَانَ، قَالَ: ذَلِكَ أَرَدْتُ، وَلَكِنْ أَخْبَرِنِي مَا كَانَ أَبُوكَ يَقُولُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ ثَقِيفٍ؟ قَالَتْ: كَانَ يَنْسِبُهُمْ فِي إِيَادِهِ، وَقَدْ افْتَخَرَ عَنْهُ رَجُلًا مِنْ ثَقِيفٍ أَحَدُهُمَا مِنْ بَنِي سَالِمَ وَالْآخَرُ مِنْ بَنِي يَسَارٍ، فَسَأَلَهُمَا عَنْ أَنْسَابِهِمَا، فَاتَّسَبَ أَحَدُهُمَا إِلَى هَوَازِنَ وَالْآخَرُ إِلَى إِيَادِهِ، فَقَالَ [أَبِي]: مَا لِهِ مَعْدٌ عَلَى إِيَادِ فَضْلٍ، فَخَرَجَا وَأَبِي يَقُولُ: إِنْ ثَقِيفًا لَمْ تَكُنْ هَوَازِنًا وَلَمْ تَنْسَبْ عَامِرًا وَمَا زَانَا إِلَّا حَدِيثًا وَأَفْسَقَ الْمَحَاسِنَ

فَقَالَ الْمُغَيْرَةُ: أَمَّا نَحْنُ فَمِنْ هَوَازِنَ وَأَبُوكَ أَعْلَمُ، قَالَ: فَأَخْبَرِنِي أَيِّ الْعَرَبِ كَانَ أَحَبَ إِلَيْكَ؟ قَالَتْ: أَطْوَعُهُمْ لَهُ، قَالَ: وَمِنْ أُولَئِكَ؟ قَالَتْ: بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ، قَالَ: فَأَيْنَ بْنُو تَمِيمٍ؟ قَالَتْ: مَا اسْتَعْتَهُمْ فِي طَاعَةٍ، قَالَ: فَقَيْسُ؟ قَالَتْ: مَا اقْتَرَبُوا إِلَيْهِ بِمَا يُحِبُّ إِلَّا اسْتَعْقِبُوهُ بِمَا يَكْرَهُ، قَالَ: فَكَيْفَ أَطْاعَ فَارَسَ؟ قَالَتْ: كَانَ طَاعَتْهُ إِيَاهُمْ فِيمَا يَهُوَ، فَانْصَرَفَ الْمُغَيْرَةُ.

وَلَمَّا هَلَكَ الْمُغَيْرَةُ ضَمَّ معاوية الْكُوفَةَ إِلَى زِيَادَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ جَمَعَ لَهُ وَلَاهُ الْعَرَاقِينَ الْبَصَرَةَ وَالْكُوفَةَ.

وَفِي سَنَةِ ثَمَانِ وَأَرْبَعِينَ قَبَضَ معاوية فَدَكَّ مِنْ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكْمَ، وَقَدْ كَانَ وَهْبَهَا لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَاسْتَرَدَهَا.

وَقَدْ كَانَ معاوية حَجَّ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ، وَأَمْرَ بِحَمْلِ مِنْبَرِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الشَّامِ، فَلَمَّا حَمَلَ كَسْفَ الشَّمْسِ وَرَفِيتَ الْكَوَاكِبَ بِالنَّهَارِ، فَجَزَعَ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْظَمَهُ، وَرَدَّهُ إِلَى مَوْضِعِهِ، وَزَادَ فِيهِ سَتْ مَرَاقِيَ.

موت زياد

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثَ وَخَمْسِينَ هَلَكَ زِيادُ بْنُ أَبِيهِ بِالْكُوفَةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكَانَ يَكْنِي أَبَا الْمُغَيْرَةِ، وَقَدْ كَانَ كَتَبَ إِلَى معاوية أَنَّهُ قَدْ ضَبَطَ الْعَرَاقَ بِيَمِينِهِ، وَشَمَالُهُ فَارَعَةُ، فَجَمَعَ لَهُ الْحَجَازَ مَعَ الْعَرَاقِينَ، وَاتَّصَلَتْ وَلَايَتُهُ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَاجْتَمَعَ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ بِمَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَضَجَّوْا إِلَى اللَّهِ، وَلَادُوا بَقْرَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعَسْفِ، فَخَرَجَتِي كَفَهُ بَثَرَةً ثُمَّ حَكَهَا ثُمَّ سَرَتْ وَاسْوَدَتْ فَصَارَتْ آكِلَةُ سُودَاءَ، فَهَلَكَ بِذَلِكَ وَهُوَ بْنُ خَمْسَ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَقَيلَ: اثْنَتِينَ وَخَمْسِينَ، وَدُفِنَ بِالثَّوْيَةِ مِنْ أَرْضِ الْكُوفَةِ.

وقد كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرضهم على لغزن علي، فمن أبي ذلك عرضه على السيف، فذكر عبد الرحمن بن السائب، قال: حضرت فصرت إلى الرحبة ومعي جماعة من الأنصار، فرأيت شيئاً في منامي وأناجالس في الجماعة، وقد حفّثت، وهو أني رأيت شيئاً طويلاً قد أقبل، فقلت: ما هذا؟ فقال: أنا النقاد ذو الرقبة، بعثت إلى صاحب هذا القصر، فانتبهك فزعاً، فما كان إلا مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر فقال: انصرفوا فإن الأمير عنكم مشغول، وإذا به قد أصابه ما ذكرنا من البلاء، وفي ذلك يقول عبد الله بن السائب من أبيات:

ما كان منتهياً عما أراد بنا حتى تأتي له النقاد ذو الرقبة
فأسقط الشق منه ضربة ثبتت لما تناول ظلماً صاحب الرحبة

يعني بصاحب الرحبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه! وقد ذهب جماعة إلى أن علياً دفن في القصر بالكوفة؛ ويقال: إن زياداً طعن في يده، وإن شاور شريحاً في قطعها، فقال له: لك رزق مقسم، وأجل معلوم، وإنك أكره إن كانت لك مدة أن تعيش أخذم، وإن حمّ أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد فإذا سألك: لم قطعتها؟ قلت: بغضنا للقائك، وفراراً من قضائك، فلام الناس شريحاً، فقال [لهما]: إنه استشارني والمستشار مؤمن، ولو لا [أمانة] المشورة لوددت أن الله قطع يده يوماً ورجله يوماً، وسائر جسده يوماً.

البيعة ليزيد

وفي سنة تسع وخمسين وفدي على معاوية وفد الأمصار من العراق وغيرها، فكان من وفد من أهل العراق الأخفنُ بن قيس في آخرين من وجوه الناس، فقال معاوية للضحاك بن قيس: إني جالس من غد للناس فأتكلم بما شاء الله، فإذا فرغت من كلامي فقل في يزيد الذي يحق عليك، وادع إلى بيته، فإني قد أمرت عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، وعبد الله بن عصابة الأشعري، وثور بن معن السلمي أن يصدقوك في كلامك، وأن يجيئوك إلى الذي دعوتهم إليه، فلما كان من الغد قعد معاوية فأعلم الناس بما رأى من حسنِ رغبة يزيد ابنه وهذيه، وأن ذلك دعاه إلى أن يوليه عهده، ثم قام الضحاك بن قيس فأجابه إلى ذلك، وحضر الناس على البيعة ليزيد، وقال لمعاوية: اعزم على ما أردت، ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن عصابة الأشعري وثور بن معن فصدقوا قوله، ثم قال معاوية: أين الأخفن بن قيس؟ فقام الأخفن فقال: إن الناس قد أنسوا في منكر زمان قد سلف، والمعروف زمان يؤتنف، ويزيد حبيب قريب، فإن توله عهده فعن غير كبر مُفْنَ، أو مرض مُضْنَ، وقد حَلَّت الدهور، وجَرَّبت الأمور، فاعرف من تُسند إليه عهده، ومن توليه الأمر من بعدك، واعص رأي من يأمرك ولا يقدر لك،

ويشير عليك ولا ينظر لك، فقام الصحاك بن قيس مُغضباً فذكر أهل العراق بالشقاقي والنفاق، وقال: اردد رأيهم في نحورهم، وقام عبد الرحمن بن عثمان فتكلم بنحو كلام الصحاك، ثم قام رجل من الأزد، فأشار إلى معاوية وقال: أنت أمير المؤمنين، فإذا مُتْ فأمير المؤمنين يزيد، فمن أبي هذا فهذا، وأخذ بقائم سيفه فسله، فقال له معاوية: اقعد فأنت من أخطب الناس، فكان معاوية أول من بايع ليزيد ابنه بولاية العهد، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن همام السلوبي:

فَإِنْ تَأْتُوا بِرَمْلَةً أَوْ بِهَنْدٍ
إِذَا مَا مَاتَ كَسْرَى قَامَ كَسْرَى
نَعْدُ ثَلَاثَةً مُتَنَاسِقِينَا
فِي لَهْفَأَ لَوْ أَنَّ لَنَا أَنْوَافاً
وَنَكْنُ لَا نَعُودُ كَمَا عَنِينَا
إِذَا لَضَرَبْتُمْ حَثَّى تَعُودُوا
بِمَكَةَ تَلْعَقُونَ بِهَا السَّخِينَا
خَشِينَا الْغَيْظَ حَثَّى نُو شَرِينَا
دَمَاءَ بَنِي أَمَيَّةَ مَا رَوِينَا
لَقَدْ ضَاعَتْ رَعِيَّتُكُمْ وَأَنْتُمْ
تَصِيدُونَ الْأَرَابَ غَافِلِينَا

وأنفذت الكتب ببيعة يزيد إلى الأمصار، وكتب معاوية إلى مروان بن الحكم - وكان [عامله] على المدينة - يعلمه باختياره يزيد، ومبايته إياه بولاية العهد، ويأمره بمبايته، وأخذ البيعة له على من قبله، فلما قرأ مروان ذلك خرج مُغضباً في أهل بيته وأخواله منبني كنانة، حتى أتى دمشق فنزلها، ودخل على معاوية يمشي بين السُّمَاطِينِ، حتى إذا كان منه بقدر ما يسمعه صَوْتَه سَلَمَ، وتكلم بكلام كثير يوبخ به معاوية، منه: أقم الأمور يا ابن أبي سفيان، واعدل عن تأميرك الصبيان، واعلم أن لك من قومك نُظَرَاءُ، وأن لك على مناؤتهم وزراء، فقال له معاوية: أنت نظير أمير المؤمنين، وعُدْته في كل شديدة، وعَضْدُه، والثاني بعد ولِي عهده، وجعله ولِي عهد يزيد، ورَدَه إلى المدينة، ثم إنه عزله عنها، وولاه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ولم يَفِ لمروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد بن معاوية.

ذكر جمل من أخلاقه وسياسته وطرائف من عيون أخباره

قد ذكرنا فيما تقدم جُملًا من أخبار معاوية وسيره، فلنذكر الآن في هذا الباب جملًا من أخلاقه وسياسته وأخباره، وغير ذلك مما لحق هذا المعنى إلى وفاته.

من أخلاق معاوية وعاداته

كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات: كان إذا صلى الفجر جلس للخاص حتي يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلي أربع ركعات، ثم يخرج إلى مجلسه، فيأذن لخاصته الخاصة فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي، ثم يؤتى بالغداء الأصغر، وهو قضلة عشائه من جَدِّي بارد أو فرخ أو ما يشبهه، ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله لما أراد، ثم يخرج فيقول: يا غلام أخرج الكرسي، فيخرج إلى المسجد فيوضع فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسي، ويقوم الآخْرَاسُ فيتقدّم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له، فيقول: ظلمت، فيقول: أعزُّوهُ، ويقول: عُدِيَّ على، فيقول: ابثوا معه، ويقول: صنع بي، فيقول: انظروا في أمره، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير، ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم، ولا يشغلني أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين أطّال الله بقاءه؟! فيقول: بنعمة [من] الله، فإذا استروا جلوساً قال: يا هؤلاء، إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده، ويقول آخر: غاب فلان عن أهله، فيقول: تعاهدوهم، أعطوهم، اقضوا حوائجهم، أخدموهم، ثم يؤتى بالغداء، ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له: اجلس على المائدة، فيجلس، فيمدُّ يده فيأكل لقمتين أو ثلاثة والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمره، فيقال: يا عبد الله أعقب، فيقوم ويتقدّم آخر، حتى يأتي على أصحاب الحاج

كلهم، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء ويقال للناس: أجيروا، فينصرفون، فيدخل منزله، فلا يطعم فيه طامع، حتى ينادي بالظهر، فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلي أربع ركعات، ثم يجلس فإذا ذن لخاصية الخاصة، فإن كان الوقت وقت شتاء أثارهم بزاد الحاج من الأخينة اليابسة والخشکناج والأقراص المعجونة باللبن والسكر ودقيق السميد والكعك المسمّن والفواكه اليابسة [والذانجوج] وإن كان وقت صيف أثارهم بالفواكه الرطبة، ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم، ويجلس إلى العصر، ثم يخرج فيصلي العصر، ثم يدخل إلى منزله فلا يطعم فيه طامع، حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادي بالمغرب، ولا ينادي له أصحاب الحوائج، ثم يرفع العشاء وينادي بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلي بعدها أربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهز تارة ويخافت أخرى، ثم يدخل منزله فلا يطعم فيه طامع حتى ينادي بالعشاء الآخرة، فيخرج فيصلي، ثم يؤذن للخاصية وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية، فيؤامر الوزراء فيما أرادوا صدرأً من ليتهم، ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعايتها وسيئ ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعايتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطرف الغربية من عند نسائه من الحلوي وغيرها من المأكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايده، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم.

وقد كان هم بأخلاقه جماعةً بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه للسياسة، ولا التأني للأمور، ولا مداراته للناس على منازلهم، ورفقه بهم على طبقاتهم.

من دهاء معاوية

وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حالة من صفين عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي، أخذت مني بصفين، فارتفاع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته، فقضى معاوية على الكوفي، وأمره بتسليم البعير

إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله! إنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره، وسأله عن ثمن بيته، فدفع إليه ضعفه، وبيره، وأحسن إليه، وقال له: أبلغ علياً أنني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل، وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء، وأغاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، ورکنا إلى قول عمرو بن العاص: إن علياً هو الذي قتل عمّار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعنَ على سُنة، ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير.

من غفلة أهل الشام وال العراق

قال المسعودي: وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب [هذا] الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصاً من لصوص الفتنة.

وحكى الجاحظ قال: سمعت رجلاً من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيت يقول: إذا أتيته من يكلمني منه؟ وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمد ﷺ: ما تقول في محمد هذا؟ أربنا هو؟ .

وذكر ثمامة بن أشرس قال: كنت ماراً في السوق ببغداد، فإذا أنا برجل عليه الناس مجتمعون، فنزلت عن بغلتي، وقلت: شيء ما هذا الاجتماع، ودخلت بين الناس، وإذا برجل يصف كحلاً معه أنه ينفع من كل داء يصيب العين، فنظرت إليه فإذا عينه الواحدة بزشاء والأخرى مأسوكة، فقلت له: يا هذا، لو كان كحلك كما تقول ففع عينيك!! فقال لي: [يا جاهل] أهاهنا اشتكت عيناي؟ إنما اشتكتنا بمصر، فقال كلهم: صدق، وذكر أنه ما انفلت من نعالهم إلا بعد كد.

وذكر لي بعض إخوانِي أن رجلاً من العامة بمدينة السلام رفع إلى بعض الولاة الطالبين لأصحاب الكلام على جار له أنه يتزندق، فسألَه الوالي عن مذهب الرجل، فقال: إنه مُزجيءٌ قدرٍ ناصبيٌ رافضيٌ، فلما قصه عن ذلك قال: إنه يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي ابن العاص، فقال له الوالي: ما أدرِي على أي شيء أحسدك: علىي علمك بالمقالات، أو علىي بصرك بالأنساب؟ .

وأخبرني رجل من إخواننا من أهل العلم، قال: كنا نقعدين ننتظر في أبي بكر وعمر وعلى معاوية، ونذكر ما يذكره أهل العلم، وكان قوم من العامة يأتون فيستمعون منا، فقال لي ذات يوم بعضهم وكان [من] أعقّلهم وأكبرهم لحية: كم تُطْبُنون في علي ومعاوية وفلان وفلان، فقلت له: بما تقول [أنت] في ذلك؟ قال: من تريده؟ قلت:

علي، ما تقول فيه؟ قال: أليس هو أبو فاطمة؟ قلت: ومن كانت فاطمة؟ قال: امرأة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بنت عائشة أخت معاوية، قلت: فما كانت قصة علي؟ قال: قتل في غزوة حنين مع النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه.

وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان إلى الشام، وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر، ونزل عبد الله بن علي الشام، ووجه إلى أبي العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة [من سائر أجناد الشام] فلحفوا لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا الرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قرابة ولا أهل بيته يرثونه غيربني أمية حتى ولitem الخلافة، فقال في ذلك إبراهيم بن المهاجر البجلي:

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجبًا زاد على كل العجب
عجبًا من عبد شمس؛ إنهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلم يحرز الميراث إلا من قرب

متطلب في عهد الرشيد

وقد كان بيغداد رجل في أيام هارون الرشيد متطلب يطلب العامة بصفاته وكان دهرياً يظهر أنه من أهل السنة [والجماعة] ويلعن أهل البدع ويعرف بالسني تقاد إليه العامة؛ فكان يجتمع إليه في كل يوم بقوارير الماء خلق من الناس، فإذا اجتمعوا وثبت قائمًا على قدميه فقال لهم: معاشر المسلمين، قلتم لا ضار ولا نافع إلا الله فلا ي شيء [مصيركم إلي] تسألوني عن مضاركم ومنافعكم؟ الجئوا إلى ربكم وتوكروا على بارئكم حتى يكون فعلكم مثل قولكم، فيقبل بعضهم على بعض فيقولون: إيه والله قد صدقنا، فكم من مريض لم يعالج حتى مات، ومنهم من كان يتركه حتى يسكن ثم يريه الماء فيصف له الدواء، فيقول: إيمانك ضعيف، ولو لا ذلك لتركك على الله كما أمرتك فهو يترئك، فكان يقتل بقوله هذا خلقاً كثيراً لترهيد إياهم في معالجة مرضاهم.

من أخلاق العامة

ومن أخلاق العامة أن يسودوا غير السيد، ويفضلوه غير الفاضل، ويقولوا بعلم غير العالم، وهم أتباع من سبق إليهم من غير تمييز بين [الفاضل والمفضول، و] الفضل والتقصان، ولا معرفة للحق من الباطل عندهم، ثم انظر هل ترى إذا اعتبرت ما ذكرنا ونظرت في مجالس العلماء هل تشاهدها إلا مشحونة بالخاصة من أولي التمييز والمرودة

والحجـا ، وتفقدـ العـامـة في اـحـشـادـها وجـمـوعـها ، فـلا تـراـهمـ الـدـهـرـ إـلـا مـزـقـلـينـ إـلـى قـائـدـ دـبـ ، وضـارـبـ بـدـفـ عـلـى سـيـاسـة قـرـدـ ، أو مـتـشـوـقـينـ إـلـى اللـهـوـ وـالـلـعـبـ ، أو مـخـتـلـفـينـ إـلـى مـشـعـبـدـ مـتـنـمـسـ مـمـخـرـقـ ، أو مـسـتـمـعـينـ إـلـى قـاصـ كـذـابـ ، أو مـجـتمـعـينـ حـولـ مـضـرـوبـ ، أو وـقـوفـأـ عـنـ مـصـلـوبـ ؛ يـنـعـقـ بـهـمـ فـيـتـبعـونـ ، وـيـصلـحـ بـهـمـ فـلـا يـرـتـدـعـونـ ، لـا يـنـكـرـونـ مـنـكـرـأـ ، وـلـا يـعـرـفـونـ مـعـرـوفـاـ ، وـلـا يـبـالـونـ أـنـ يـلـحـقـواـ الـبـارـ بالـفـاجـرـ ، وـالـمـؤـمـنـ بـالـكـافـرـ ، وـقـدـ بـيـنـ ذـلـكـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ فـيـهـمـ حـيـثـ يـقـولـ «الـنـاسـ اـثـنـانـ : عـالـمـ ، وـمـتـلـعـمـ ، وـمـاـعـداـ ذـلـكـ هـمـجـ رـعـاعـ كـلـ نـاعـقـ ، لـمـ يـسـتـضـيـوـنـ بـنـورـ الـعـلـمـ ، وـلـمـ يـلـجـأـوـاـ إـلـى رـكـنـ وـثـيقـ ، وـأـجـمـعـ النـاسـ فـيـ تـسـمـيـتـهـ عـلـىـ أـنـهـ عـوـغـاءـ ، وـهـمـ الـذـيـنـ إـذـ اـجـتـمـعـواـ غـلـبـوـاـ ، وـإـذـ تـفـرـقـواـ لـمـ يـعـرـفـواـ ، ثـمـ تـدـبـرـ تـفـرـقـهـمـ فـيـ أـحـوـالـهـ وـمـذـاهـبـهـ ، فـاـنـظـرـ إـلـىـ إـجـمـاعـ مـلـئـهـمـ ، إـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ أـقـامـ يـدـعـوـ الـخـلـقـ إـلـىـ اللـهـ اـثـنـيـنـ وـعـشـرـيـنـ سـنـةـ وـهـوـ يـنـزـلـ عـلـيـهـ الـوـحـيـ وـيـمـلـيـهـ عـلـىـ أـصـحـابـهـ ، فـيـكـتـبـوـنـهـ وـيـدـوـنـوـنـهـ وـيـلـتـقطـوـنـهـ لـفـظـةـ لـفـظـةـ ، وـكـانـ مـعـاوـيـةـ فـيـ هـذـهـ الـمـدـةـ بـحـيـثـ عـلـمـ اللـهـ ، ثـمـ كـتـبـ لـهـ ﷺ قـبـلـ وـفـاتـهـ بـشـهـورـ ، فـأـشـادـوـاـ بـذـكـرـهـ ، وـرـفـعـوـاـ مـنـ مـنـزـلـهـ ؛ بـأـنـ جـعلـوـهـ كـاتـبـاـ لـلـوـحـيـ ، وـعـظـمـوـهـ بـهـذـهـ الـكـلـمـةـ ، وـأـضـافـوـهـ إـلـيـهـ ، وـسـلـبـوـهـاـ عـنـ غـيرـهـ ، وـأـسـقـطـوـهـ ذـكـرـ سـوـاهـ ، وـأـصـلـ ذـلـكـ الـعـادـةـ وـالـإـلـفـ ، وـمـاـ لـدـوـاـ عـلـيـهـ .

كلـامـ فـيـ العـادـةـ

وـمـاـ نـشـؤـوـاـ فـيـهـ ، فـأـلـفـواـ وـقـتـ التـحـصـيلـ وـالـبـلوـغـ ، وـقـدـ عـمـلـتـ الـعـادـةـ عـمـلـهـاـ ، وـبـلـغـتـ مـبـالـغـهـاـ ، وـفـيـ الـعـادـةـ قـالـتـ الشـعـرـاءـ وـتـكـلـمـ أـهـلـ الدـرـاـيـةـ وـالـأـدـبـاءـ ، قـالـ الشـاعـرـ :

لـاـ أـنـسـيـ بـسـدـ إـذـ أـكـرـمـتـيـ فـشـدـيـدـ عـادـةـ مـُـشـرـعـةـ

وقـالـ آخـرـ مـعـاتـبـاـ لـصـاحـبـهـ :

لـكـ فـيـ قـصـامـ النـفـسـ أـثـقـالـ مـحـمـلاـ مـنـ الصـخـرـةـ الصـمـاءـ حـيـنـ تـرـوـمـهـاـ

وـقـدـ قـالـتـ حـكـماءـ الـعـربـ : الـعـادـةـ أـمـلـكـ بـالـأـرـبـ ، وـقـالـتـ حـكـماءـ الـعـجمـ : الـعـادـةـ هـيـ الـطـبـيـعـةـ الثـانـيـةـ ، وـقـدـ صـنـفـ أـبـوـ عـقـالـ الـكـاتـبـ كـتـابـاـ فـيـ أـخـلـاقـ الـعـوـامـ يـصـفـ فـيـ أـخـلـاقـهـمـ وـشـيـمـهـمـ وـمـخـاطـبـاـتـهـمـ ، وـسـمـاءـ بـالـمـلـيـيـ .

وـلـوـلـاـ أـكـرـهـ التـطـوـيلـ وـالـخـرـوجـ عـماـ قـصـدـنـاـ إـلـيـهـ فـيـ هـذـاـ الـكـتـابـ مـنـ الإـيـجازـ لـشـرـحـتـ مـنـ نـوـادـرـ الـعـامـةـ وـأـخـلـاقـهـاـ ، وـظـرـافـتـ أـفـعـالـهـاـ عـجـائـبـ ، وـلـذـكـرـتـ مـرـاتـبـ النـاسـ فـيـ أـخـلـاقـهـمـ ، وـتـصـرـفـهـمـ فـيـ أـحـوـالـهـمـ .

فلنرجع الآن إلى أخبار معاوية وسياساته، وما أوسع الناس من أخلاقه، وما أفاض عليهم من بره وعطائه، وشملهم من إحسانه، مما اجتذب به القلوب، واستدعاى به النفوس، حتى آثروه على الأهل والقرابات.

عقيل بن أبي طالب ومعاوية

من ذلك أنه وفد عليه عَقِيلُ بن أبي طالب متوجعاً وزائراً، فرَحِبَ به معاوية، وسُرِّ بوروده، لاختيارة إيهاه على أخيه، وأوسعه حلماً واحتمالاً، فقال له: يا أبا يزيد، كيف تركت علياً؟ فقال: تركته على ما يحب الله ورسوله وألفيتك على ما يكره الله ورسوله، فقال له معاوية: لو لا أنك زائر متوجع [جنابنا] لرددت عليك أيا يزيد جواباً تألم منه، ثم أَحَبَّ معاوية أن يقطع كلامه مخافة أن يأتي بشيء يخصبه، فوثب عن مجلسه، وأمر له بتثليل، وحمل إليه مالاً عظيماً، فلما كان من غد جلس وأرسل إليه فأناته، فقال له: يا أبا يزيد، كيف تركت علياً أخاك؟ قال: تركته خيراً لنفسه منك، وأنت خير لي منه، فقال له معاوية: أنت والله كما قال الشاعر:

وإذا عدلت فخار آل محرق فالمنجد منهم من بنى عتاب
فمحل المجد من بنى هاشم مئوط فيك يا أبا يزيد ما تغيرك الأيام والليالي ، فقال
عقبا :

أصبر لحرب أنت جانبيها لا بد أن تصلى بحاميها
وأنت والله يا ابن أبي سفيان كما قال الآخر:

وإذا هزوّن أفبَلْت بِمُخَارِهَا
يُوماً فخرْتَهُم بِأَلْ مجَاشِع
بِالحَامِلِين عَلَى الْمَوَالِي غَرْمَهُم
وَالضَّارِبِين الْهَامِ يَوْمَ الفَازِع

وصف بنی صوحان

ولكن أنت يا معاوية إذا افتخرت بنو أمية فبمن تفخر؟ فقال معاوية: عزمت عليك
أبا يزيد لما أمسكت، فإني لم أجلس لهذا، وإنما أردت أن أسألك عن أصحاب علي
فإنك ذو معرفة بهم، فقال عقيل: سل عما بدا لك، فقال: ميّز لي أصحاب علي، وابداً
بالصوحان فإنهم مخاريق الكلام، قال: أما صعصعة فعظيم الشأن، عصب اللسان،
قائد فرسان، قاتل أقران، يرتفق ما فتق، ويقتن ما رتق، قليل النظر، وأما زيد وعبد الله
فإنهما نهران جاريان، يصب فيهما الخُلجان، ويغاث بهما البلدان، رجالاً جدلاً لا لعب
معه، وبين صوحان كما قال الشاعر:

إذا نزل العدوُّ فإنَّ عندي أسوداً تخلَّس الأسدُ النفوسا

من صعصعة إلى عقيل

فأتصل كلام عقيل بصعصعة فكتب إليه «بسم الله الرحمن الرحيم، ذكر الله أكبر»، وبه يستفتح المستفتون، وأنتم مفاتيح الدنيا والآخرة؛ أما بعد، فقد بلغ مولاك كلامك لعدو الله وعدو رسوله، فحمدت الله على ذلك، وسألته أن يفيء بك إلى الدرجة العليا، والقضيب الأحمر، والعمود الأسود فإنه عمودٌ من فارقه فارق الدين الأزهر، ولئن نزعت بك نفسك إلى معاوية طلباً لماله إنك لذو علم بجميع خصاله، فاحذر أن تعلق بك ناره فيضلك عن الحجة، فإن الله قد رفع عنكم أهل البيت ما وضعه في غيركم، فما كان من فضل أو إحسان فبكم وصل إلينا، فأجل الله أقداركم، وحمي أخطاركم، وكتب آثاركم، فإن أقداركم مرضية، وأخطاركم محمية، وأناركم بدريّة، وأنتم سلم الله إلى خلقه، ووسيلته إلى طرقه، أيند عليه، ووجوه جلية، وأنتم كما قال الشاعر :

فما كان من خير أثره فلأنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل يثبت الخطى إلا وشيجه وتعرس إلا في منابتها التخل

بين علي ووجوه أصحابه

وحدث الهيثم عن أبي سفيان عمرو بن يزيد، عن البراء بن يزيد، عن محمد بن عبد الله بن الحارث الطائي ثم أحد بنى عفان، قال: لما انصرف علي من الجمل قال لآذنه: من بالباب من وجوه العرب؟ قال: محمد بن عمير بن عطارد التيمي والأحنف بن قيس، وصعصعة بن صوحان العبدى، في رجال سماهم، فقال: ائذن لهم، فدخلوا فسلموا [عليه] بالخلافة، فقال لهم: أنتم وجوه العرب عندي، ورؤساء أصحابي، فأشاروا علي في أمر هذا الغلام المترَّف - يعني معاوية - فافتت بهم المسورة عليه، فقال صعصعة: إن معاوية أثْرَفَ الهوى، وجبت إليه الدنيا، فهانت عليه مصارع الرجال، وابتاع آخرته بدنياه، فإن تعامل فيه برأي ترشد وتُصبِّ، إن شاء الله، والتوفيق بالله وبرسوله وبك يا أمير المؤمنين، ولرأي أن ترسل له عيناً من عيونك وثقة من ثقائلك، بكتاب تدعوه إلى بيتك، فإن أجب و أنا كان له مالك وعليه ما عليك، وإنما جاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين، فقال علي: عزمت عليك يا صعصعة إلا كتبت الكتاب بيديك، وتوجهت به إلى معاوية، واجعل صدر الكتاب تحذيراً وتخويفاً، وعجزه استتابة واستنابة، ول يكن فاتحة الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله

علي أمير المؤمنين إلى معاوية سلام عليك، أما بعد» ثم اكتب ما أشرت به علىي، واجعل عنوان الكتاب «ألا إلى الله تصرير الأمور»، قال: أغفني من ذلك، قال: عزمت عليك لتفعلنَّ، قال: أفعل، فخرج بالكتاب وتجهز وسار حتى ورد دمشق، فأتى بباب معاوية فقال لآذنه: استأذن لرسول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - وبباب أرقلة منبني أمية - فأخذته الأيدي والنعال لقوله، وهو يقول: «أنقتوه رجلاً أن يقول ربى الله» وكثرت الجلة واللغط، فاتصل ذلك بمعاوية فوجئه من يكشف الناس عنه، فكشفوا، ثم أذن لهم فدخلوا، فقال لهم: من هذا الرجل؟ فقالوا: رجل من العرب يقال له صعصعة بن صوحان معه كتاب من علي، فقال: والله لقد بلغني أمره، هذا أحد سهام علي وخطباء العرب، ولقد كنت إلى لقائه شيئاً، أذن له يا غلام، فدخل عليه، فقال: السلام عليك يا ابن أبي سفيان، هذا كتاب أمير المؤمنين، فقال معاوية: أما إنه لو كانت الرسُّلُ قُتِلَ في جاهلية أو إسلام لقتلتكم، ثم اعترضه معاوية في الكلام، وأراد أن يستخرجه ليعرف قريحته أطْبَعاً أم تكلاً فقال: من الرجل؟ قال: من نزار، قال: وما كان نزار؟ قال: كان إذا غزا نكساً، وإذا لقي افترس، وإذا انصرف احترس، قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من ربيعة، قال: وما كان ربيعة؟ قال: كان يطيل التَّجَادُدَ، ويَعُولُ العباد، ويضرب بيقاع الأرض العِمَادَ، قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من جَدِيلَةَ، قال: وما كان جَدِيلَةَ؟ قال: كان في الحرب سيفاً قاطعاً، وفي المكرمات غيثاً نافعاً، وفي اللقاء لهباً ساطعاً، قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من عبد القيس، قال: وما كان عبد القيس؟ قال: كان خصيماً خضرماً أبيض وهاباً لضيوفه ما يجد، ولا يسأل عما فقد، كثير المرق، طيب العرق، يقوم للناس مقام الغيث من السماء، قال: ويحك يا ابن صوحان! فما تركت لهذا الحي من قريش مجدًا ولا فخرًا، قال: بل والله يا ابن أبي سفيان، تركت لهم ما لا يصلح إلا بهم، ولهم تركت الأبيض والأحمر، والأصفر والأشقر، والسرير والمنبر، والملك إلى المحشر، وأتى لا يكون ذلك كذلك وهم مَنَّارُ الله في الأرض ونجموه في السماء؟ ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها، فقال: صدقت يا ابن صوحان، إن ذلك لكذلك، فعرف صعصعة ما أراد، فقال: ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد، بعدتم من أثْفَى المرعى وعلوتم من عذب الماء، قال: فلم ذلك ويلك يا ابن صوحان؟!! قال: الويل لأهل النار، ذلك لبني هاشم، قال: قم، فأخرجوه، فقال صعصعة: الصدق يبنيك لا الوعيد، من أراد المشاجرة قبل المحاورة، فقال معاوية: لشيء ما سَوَّدَ قومه، وددت والله أني من صلبه، ثم التفت إلى بني أمية فقال: هكذا فلتكن الرجال.

معاوية وجماعة من أصحاب علي

وحدث منصور بن وحشى، عن أبي الفياض عبد الله بن محمد الهاشمى، عن الوليد بن البختري العبسى، عن الحارث بن مسمار البهارى، قال: حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدى وعبد الله بن الكوأء اليشكري ورجالاً من أصحاب علي مع رجال من قريش، فدخل عليهم معاوية يوماً فقال: نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقأً، أي الخلفاء رأيتمنى؟ فقال ابن الكوأء: لو لا أنك عزمنا علينا ما قلنا لأنك جبار عنيد، لا ترافق الله في قتل الآخيار، ولكننا نقول: إنك ما علمنا واسع الدنيا، ضيق الآخرة، قريب الشرى، بعيد المزغى، تجعل الظلمات نوراً، والنور ظلمات، فقال معاوية: إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذين عن بيضته، التاركين لمحارمه، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المتهاكين لمحارم الله، والمحللين ما حرم الله، والمحربين ما أحل الله، فقال عبد الله بن الكوأء: يا ابن أبي سفيان، إن لكل كلام جواباً، ونحن نخاف جبروتك، فإن كنت تطلق ألسنتنا ذيئنا عن أهل العراق بالسنة حذراً لا تأخذها في الله لومة لائم، وإنما صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه قال: والله لا يطلق لك لسان، ثم تكلم صعصعة فقال: تكلمت يا ابن أبي سفيان فأبلغت، ولم تقصر عما أردت، وليس الأمر على ما ذكرت، أني يكون الخليفة من ملك الناس قهراً، ودانهم كبراً، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكرأ؟؟ أما والله ما لك في يوم بدر مضرب، ولا مرمى وما كنت فيه إلا كما قال القائل: «لا حل لي ولا سيري» ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير من أجلب على رسول الله ﷺ، وإنما أنت طليق ابن طليق، أطلقكمما رسول الله ﷺ، فأنى تصلح الخلافة لطليق؟ فقال معاوية: لو لا أني أرجع إلى قول أبي طالب حيث يقول:

قابلت جهالهم حلماً ومغفرة والعفو عن قدرة ضربٍ من الكرم

لقتلكم.

صعصعة بن صوحان عند معاوية يصف له أهل البلاد

وحدث أبو جعفر محمد بن حبيب، قال: أخبرنا أبو الهيثم يزيد بن رجاء الغنوي، قال: أخبرنا الوليد بن البختري، عن أبيه، عن ابن مردوع الكلبي قال: دخل صعصعة بن صوحان [العبدى] على معاوية فقال له: يا ابن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها، فأخبرني عن أهل البصرة، وإياك والحمل على قوم لقوم، قال: البصرة واسطة العرب، ومتنه الشرف والسؤدد، وهم أهل الخطط في أول الدهر وأآخره، وقد دارت بهم سرّوات العرب كدوران الرحا على قطبهما، قال: فأخبرني عن أهل الكوفة، قال:

قبة الإسلام، وذروة الكلام، ومظاًن ذوي الأعلام، إلا أن بها أجلاً منع ذوي الأمر الطاعة، وتخرجهم عن الجماعة، وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة، قال: فأخبرني عن أهل الحجاز، قال: أسرع الناس إلى فتنة، وأضعفهم عنها، وأقلهم عَنَاءً فيها، غير أن لهم ثباتاً في الدين، وتمسكاً بعروة اليقين، يتبعون الأئمة الأبرار، ويخلعون الفسقة الفجّار، فقال معاوية: من البررة والفسقة؟ فقال: يا ابن أبي سفيان، ترك الخداع من كشف القناع، على وأصحابه من الأئمة الأبرار، وأنت وأصحابك من أولئك، ثم أحب معاوية أن يمضي صعصعة في كلامه بعد أن باع فيه الغضب، فقال: أخبرني عن القبة الحمراء في ديار مصر، قال: أسد مصر بُشْلَانٌ بين غيلين، إذا أرسلتها افترست، وإذا تركتها احترس، فقال معاوية: هنالك يا ابن صوحان العز الراسي، فهل في قومك مثل هذا؟ قال: هذا لأهله دونك يا ابن أبي سفيان، ومن أحَبَّ قوماً حُشِرَ معهم. قال: فأخبرني عن ديار ربيعة ولا يستخفنك الجهل وسابقة الحمية بالتعصب لقومك. قال: والله ما أنا عنهم براض، ولكنني أقول فيهم وعليهم: هم والله أعلام الليل، وأذناب في الدين والميل لن تُغلب ليتها إذا رسخت، خوارج الدين، برازخ اليقين، من نصره فلنج، ومن خذلوه زلنج، قال: فأخبرني عن مصر، قال: كثانة العرب، ومعدن العز والحسب، يقذف البحر بها آذية، والبر ردية، ثم أمسك معاوية، فقال له صعصعة: سَلْنَ يا معاوية وإلا أخبرتك بما تحيد عنه، قال: وما ذاك يا ابن صوحان؟ قال: أهل الشام، قال: فأخبرني عنهم، قال: أطْوَعُ الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق، عصاة الجبار، وخلفة الأشرار، فعليهم الدار، ولهم سوء الدار، فقال معاوية: والله يا ابن صوحان إنك لحامِلْ مُذْيَتَكَ منذ أزمان، إلا أن حلم ابن أبي سفيان يرد عنك، فقال صعصعة: بل أمر الله وقدرته، إن أمر الله كان قَدْرًا معدوراً.

صعصعة أيضًا

وحدث أبو الهيثم قال: حدثني أبو البشير محمد بن بشر الفزارى، عن إبراهيم بن عقيل البصري، قال: قال معاوية يوماً - وعنه صعصعة وكان قد علم عليه بكتاب علي وعنه وجوه الناس - : الأرض لله، وأنا خليفة الله، مما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزًا لي، فقال صعصعة:

تَمَنَّيْكَ تَفَسِّكَ مَا لَا يَكُونُ وَجْهًا مَحَاوِيًّا لَا تَأْثِمُ

قال معاوية: يا صعصعة، تعلمت الكلام، قال: العلم بالتعلم، ومن لا يعلم يجهل، قال معاوية: ما أخوَجَكَ إِلَى أَذْيَقَكَ وَبَالَ أَمْرِكَ! قال: ليس ذلك بيديك، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، قال: ومن يحول بيدي وبيتك؟ قال: الذي يحول

بين المرء وقلبه ، قال معاوية : اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشاعر ، قال : اتسع بطن مَنْ لا يشبع ، ودعا عليه من لا يجمع .

من أخبار صعصعة

قال المسعودي : ولصعصعة بن صوحان أخبار حسان ، وكلام في نهاية البلاغة والفصاحة والإيضاح عن المعاني ، على إيجاز واختصار .

ومن ذلك خبره مع عبد الله بن العباس ، وهو ما حدث به المدائني ، عن زيد بن طليح الذهلي الشيباني ، قال : أخبرني أبي ، عن مصقلة بن هَبَّةَ الشيباني ، قال : سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن عباس : ما السُّؤُدُدُ فِيهِمْ؟ فقال : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، وبذل النَّوَال ، وكف المرء نفسه عن السُّؤَال ، والتودد للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شَرِعاً ، قال : فما المروءة؟ قال : أخوان اجتمعا [فإن لقيا قهرا] حارسهما قليل ، وصاحبها جليل ، يحتاجان إلى صيانة مع نزاهة وديانة ، قال : فهل تحفظ في ذلك شعراً؟ قال : نعم ، أما سمعت قول مرة بن ذهل بن شيبان حيث يقول :

إِنَّ السِّيَادَةَ وَالْمَرْوِعَةَ عَلَّقَا
وَإِذَا تَقَابَلَ مُجْرِيَانِ لِغَايَةِ
عَشْرِ الْهَجَيْنِ وَأَسْلَمَتْهُ الْأَرْجَلُ
وَيَجِيَ الصَّرِيحُ مَعَ الْعَتَاقِ مَعُودًا
قَرْبَ الْجِيَادِ فَلَمْ يَجِئْهُ الْأَفْكَلُ

في أبيات ، فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباء مشرقاً ومغارباً لفائدته هذه الأبيات ما عنفته ، إنما منك يا ابن صوحان لعلي علم وحكم واستنباط ما قد عفا من أخبار العرب ، فمن الحكم فيكم؟ قال : مَنْ مَلَكَ غَضْبَهُ فَلَمْ يَعْجُلْ ، وَسَعَى إِلَيْهِ بِحَقِّ أَوْ
بَاطِلِ فَلَمْ يَقْبِلْ ، وَوَجَدَ قَاتِلَ أَيْهِ وَأَخِيهِ فَصَفَحَ وَلَمْ يَقْتُلْ ، ذَلِكُ الْحَكْمُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ،
قال : فَهَلْ تَجِدُ ذَلِكَ فِيهِمْ كَثِيرًا؟ قال : وَلَا قَلِيلًا ، وَإِنَّمَا وَصَفَتْ لَكَ أَقْوَامًا لَا تَجِدُهُمْ إِلَّا
خَائِفِينَ رَاهِبِينَ لِلَّهِ مُرِيدِينَ يَنْيِلُونَ وَلَا يَنْالُونَ ، فَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّهُمْ سَبَقُ جَهَلَهُمْ حَلْمَهُمْ ،
وَلَا يَبْلِي أَحَدُهُمْ إِذَا ظَفَرَ بِعِيْتَهُ حِينَ الْحَفِيْظَةَ مَا كَانَ بَعْدَ أَنْ يَدْرِكَ زَعْمَهُ وَيَقْضِي بِعِيْتَهُ ،
وَلَوْ وَتَرَهُ أَبُوهُ لَقْتَلَ أَبَاهُ ، أَوْ أَخْوَهُ لَقْتَلَ أَخَاهُ ، أَمَّا سَمِعْتُ إِلَى قَوْلِ زَيْبَانَ بْنِ عَمْرَوْ بْنِ
زَيْبَانَ ، وَذَلِكَ أَنْ عَمْرَاً أَبَاهُ قَتَلَهُ مَالِكُ بْنُ كَوْمَةَ ، فَأَقْامَ زَيْبَانَ زَمَانًا ، ثُمَّ غَزَا مَالِكًا ، فَأَتَاهُ فِي
مَائِيَّةِ فَارِسٍ صَبَاحًا وَهُوَ فِي أَرْبِيعِينَ بَيْتًا فَقُتِلَ ، وَقُتِلَ أَصْحَابُهُ وَقُتِلَ عَمُهُ فِيمَنْ قُتِلَ ،
وَيَقُولُ : بَلْ كَانَ أَخَاهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَاَوِرَهُمْ ، فَقَيْلَ لِزَيْبَانَ فِي ذَلِكَ : قُتِلَتْ صَاحِبِنَا ،
فَقَالَ :

فَلَوْ أَمِي شَقَقْتُ بِحِيْثَ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَلَقْ صَبَبْ

ولو كانت أمية أخت عمرو بهذا الماء ظل لها نحيب
شهرت السيف في الأذئن مني ولم تعطف أواصرنا قلوب

فقال [له] ابن عباس: فمن الفارس فيكم؟ حَدَّ لي حداً أسمعه منك فإنك تضع
الأشياء مواضعها يا ابن صوحان، قال: الفارس من قصر أجله في نفسه، وضغم على أمره
بضرسه، وكانت الحرب أهون عليه من أمره، ذلك الفارس إذا وقدت الحروب،
واشتدت بالأنفس الكروب، وتدعوا للنزال، وتزاحفوا للقتال، وتخالسوا المهج،
واقتحموا بالسيوف للحجج، قال: أحسنت والله يا ابن صوحان، إنك لسليل أقوام كرام
خطباء فصحاء، ما ورثت هذا عن كَلَّالة، زدني قال: نعم، الفارسُ كثير الحذر، مدير
النظر، يلتفت بقلبه، ولا يدير خرزات صلبه، قال: أحسنت والله يا ابن صوحان
الوظيفَ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر؟ قال: نعم، لزهير بن جناب الكلبي يرثي ابنه
عمراً حيث يقول:

فارس تكلاً الصحابة منه بحسام يمِّرْ مَرَّ الحريري
لا تراه لَدَى الوعى في مجان بعقل الظرف، لا، ولا في مضيق
من يراه يَخْلُه في الحرب يوماً أَنَّه أَخْرَق مضل الطريق

في أبيات، فقال له ابن عباس: فأين أخواك منك يا ابن صوحان؟ صِفْهُمَا لأعرف
وزنكُم. قال: أما زيد فكما قال أخو غني:

فتى لا يبالى أن يكون بوجهه إذا سد خلات الكرام شُحُوب
إذا ما تراه آه الرجال تحفظوا فلم ينطقو العوراء وهو قريب
حليف الندى يدعوه الندى فيجيبه إليه، ويدعوه الندى فيجيبه
بيت الندى يا أم عمرو ضَجِيعه إذا لم يكن في المنقيات حلوب
كأن بيوت الحي ما لم يكن بها بَسَابِسْ ما يُلْفَى بهن عَرِيبُ

في أبيات، كان والله يا ابن عباس عظيم المروءة، شريف الأخوة، جليل الخطر،
بعيد الأثر، كميش العروة، أليف البدرة، سليم جوانح الصدر، قليل وساوس الدهر،
ذاكراً الله طرفي النهار وزُلْفَا من الليل، الجوع والشبع عنده سيان، لا ينافس في الدنيا،
وأقل أصحابه من ينافس فيها، يطيل السكوت، ويحفظ الكلام، وإن نطق نطق بعقام،
يهرب منه الدُّعَارُ الأشرار، ويأنفه الأحرار الآخيار، فقال ابن عباس: ما ظنك برجل من
أهل الجنة، رحم الله زيداً! فأين كان عبد الله منه؟ قال: كان عبد الله سيداً شجاعاً، مألفاً
مطاعاً، خيره وساع، وشره دفاع، قُلْبِي التحيزة، أحوذى الغريرة، لا ينهنه منهِنَّه عمما

أراده، ولا يركب من الأمر إلا عتاده، سمام عدي، وباذل قري، صعب المقادة، جَزْلُ الرفادة، أخو إخوان، وفتى فتيان، وهو كما قال البرجمي عامر بن سنان:

سِمَامُ عَدِيٍّ، بِالنَّبْلِ يَقْتَلُ مِنْ رَمَىٰ وَبِالسِّيفِ وَالرَّمْحِ الرُّدَيْبِيِّ مُشَغَّبٌ
مَهِيبٌ مَفِيدٌ لِلنَّوَالِ مُعَوْدٌ بِفَعْلِ النَّدِيِّ وَالْمَكْرَمَاتِ مَجْرِبٌ
فِي أَيَّاتٍ، فَقَالَ ابْنُ لَهِ عَبَّاسٌ: أَنْتَ يَا ابْنَ صَوْحَانَ بَاقِرُ عِلْمِ الْعَرَبِ.

ومن أخبار صعصعة ما حديث أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي، عن أبي الهيثم يزيد بن رجاء الغنوبي، قال: [أخبرني رجل منبني فزيارة ثم منبني عدي، قال:] وقف رجل منبني فزيارة على صعصعة، فأسمعه كلاماً منه: بسطت لسانك يا ابن صوحان على الناس فتهيوك، أما لئن شئت لأكون لك لصاقاً، فلا تنطق إلا حذرت لسانك بأذرب من ظبة السيف، بغضب قوي، ولسان علي، ثم لا يكون لك في ذلك حل ولا ترحال، فقال صعصعة: لو أجد غرضاً منك لرميتك، بل أرى شيئاً ولا أرى مثلاً، إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، أما لو كنت كفؤاً لرميتك حسائلك بأذرب من ذلك السنان، ولرشقتك بنابل تردعك عن النضال، ولخطمتك بخطام يخزم منك موضع الزمام، فاتصل الكلام بابن عباس فاستضحك من الفزارى، وقال: أما لو كلف أخو فزيارة نفسه نقل الصخور من جبال شمام إلى الهضام، لكان أهون عليه من متازعة أخي عبد القيس، خاب أبوه، ما أجهله!! يستجهل أخا عبد القيس، وقواه المريرة، ثم تمثل:

صُبِّتْ عَلَيْكَ وَلَمْ تَنْصِبْ مِنْ أَمٍِّ إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَسْقَيْنِ مَصْبُوبٌ

أبو أيوب وصعصعة

وحدث المبرد، عن الرياشي، عن ربيعة بن عبد الله التميري، قال: أخبرني رجل من الأزد، قال: نظرت إلى أبي أيوب الأنباري، في يوم النهروان، وقد علا عبد الله بن وهب الراسبي، فضربه ضربة على كتفه، فأبان يده، وقال: بُؤْبِهَا إِلَى النَّارِ يَا مَارِقَ، فقال عبد الله: ستعلم أينا أولى بها صليباً، قال: وأبيك إني لأعلم؛ إذ أقبل صعصعة بن صوحان فوقف وقال: أولى بها والله صليباً من ضلَّ في الدنيا عمياً، وصار إلى الآخرة شقياً، أبعدك الله! وأنزحك! أما والله: لقد أنذرتك هذه الصرعة بالأمس، فابتلاك إلا نكوصاً على عقبيك، فذق يا مارق وبال أمرك، وشراك أبا أيوب في قتلته: ضربه ضربة بالسيف أبان بها رجله، وأدركه بأخرى في بطنه، وقال: لقد صرت إلى نار لا تطفأ، ولا

بيوخ سعيرها، ثم احتزا رأسه، وأتيا به علياً، فقالا: هذا رأس الفاسق، الناكث، المارق: عبد الله بن وهب، فنظر إليه فقطبَ، وقال: شاه هذا الوجه! حتى خيل إلينا أنه يبكي، ثم قال: قد كان أخو راسب حافظاً لكتاب الله، تاركاً لحدود الله، ثم قال لهما: اطلبلا لي ذا الثديَّة، فطُلِبَ فلم يوجد، فرجعوا إليه وقالا: ما أصبتنا شيئاً، فقال: والله لقد قتل في يومه هذا، وما كذبَني رسول الله ﷺ، ولا كذبْتُ عليه، قوموا بجمعكم فاطلبوه، فقامت جماعة من أصحابه، فتفرقوا في القتلى، فأصابوه في دهاس من الأرض، فوقه زهاء مائة قتيل، فآخر جوه يجر برجله، ثم أتى به علي ، فقال: اشهدوا أنه ذو الثديَّة، وقد ذكرنا أخبار ذي الثديَّة فيما سلف من هذا الكتاب.

من قول علي في ربيعة

ولعلني في ربيعة كلام كثير يمدحهم فيه، ويرثيهم شعراً ومتورأً، وقد كانوا أنصاره وأعوانه، والركن المنيع من أركانه، فمن بعض ذلك قوله يوم صفين:

لمن راية سوداء يخفق ظلها إذا قيل قدمها خضين تقدما
فيوردها في الصف حتى يعلها حياض المنيا تنطر الموت والدما
جزي الله قوماً قاتلوا في لقائه لدى الموت قُدُّماً ما أعز وأكر ما
وأطيب أخباراً، وأكرم شيمة، إذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعة أغبني، إنهم أهل نجدة وبأس إذا لاقوا خميساً عمراما

معاوية وجميل بن كعب

وذكر المدائني أن معاوية أسر جميل بن كعب التعلبي - وكان من سادات ربيعة وشيعة علي وأنصاره - فلما وقف بين يديه قال: الحمد لله الذي أمكنتني منك، ألسست القائل يوم الجمل:

أصبحت الأمة في أمر عَجَبْ والملك مجموع غداً لمن غالب
قد قلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب

قال: لا تقل ذلك فإنها مصيبة، قال معاوية: وأي نعمة أكبر من أن يكون الله قد أطفرني بربجل قد قتل في ساعة واحدة عدة من حمَّة أصحابي؟ اضربوا عنقه، فقال: اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك، ولا لأنك ترضي قتلي، ولكن قتلني على حطام الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله؛ فقال معاوية:

فاتلك الله! لقد سببت فأبلغت في السب، ودعوت بالغت في الدعاء، ثم أمر به فأطلق، وتمثل معاوية بأبيات للنعمان بن المنذر، لم يقل النعمان غيرها، فيما ذكر ابن الكلبي، وهي:

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها
ولقد تُعاقب في اليسير، وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها ويُخاف شدة نكلها

معاوية عند موته

وذكر لوط بن يحيى وابن دأب والهيثم بن عدي وغيرهم من نَقْلَةِ الأخبار أن معاوية لما اخْتُصَرَ تمثل:

هو الموت، لا مُنجى من الموت، والذي تحاذر بعد الموت أدهى وأفظع
ثم قال: اللهم أَقْلِلِ العَثْرَةَ، واعف عن الزلة، وجذب حلمك على جهل من لم يَرْجُ
غيرك، ولم يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة، وليس الذي خطيئة مهرب، فبلغ ذلك
سعيد بن المسيب، فقال: لقد رغب إلى مَنْ لا مرغوب إليه مثله [وانني لأرجو أن لا
يُعذبَ الله].

وذكر محمد بن إسحاق وغيره من نَقلَةِ الآثار أن معاوية دخل الحمام في بَدْءِ علته
التي كانت وفاته فيها، فرأى نحو جسمه، فبكى لفناه وما قد أشرف عليه من الدثور
الواقع بالخلقة، وقال ممثلاً:

أرى الليالي أسرعت في نقضي أخذن بعضِي وتركت بعضِي
حنين طولي وحَنِين عرضي أَقْعَدْتني من بعد طول نهضي
ولما أزفَ أمره، وحان فراقه، واشتدت علته، وأيس من برئه، أنشأ يقول:
فَيَا لَيْتَنِي لَمْ أَعْنَ في الْمَلْكِ سَاعَةً وَلَمْ أَكِنْ في الْمَذَادِ أَعْشِي النَّوَاطِرَ
وَكُنْتُ كَذِي طَمَرِينْ عاش بِلْعَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى زَارَ أَهْلَ الْمَقَابِرِ

قال المسعودي: ولمعاوية أخبار كثيرة مع علي وغيره، وقد أتينا على الغرر من
أخباره، وما كان في أيامه في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وغيرهما من كتابنا، مما
أفرد للآثار، وهذا باب كبير، والكلام فيه وفي غيره مما تقدم وتتأخر في هذا الكتاب كثير،
ومَنْ ضَمَّنَ الاختصار لم يَجُزْ له الإكثار.

وإنما نذكر في كل باب [من هذا الكتاب] طرفاً من كل نوع من العلوم والأخبار، وما انتخبناه من طرائف الآثار؛ ليستدل الناظر فيه بما ذكرنا على المراد مما تركنا ذكره، وقد تقدم وصفه وبسطه فيما سلف من كتبنا.

وإذ قد تقدم ما ذكرنا، فلنذكر الآن جملًا من فضل الصحابة، وغيرهم عليهم السلام ، إذ كانوا حجة على من بعدهم، وقدوة لمن تأخر عنهم، وبالله التأييد.

ذكر الصحابة ومدحهم وعليّ، والعباس، وفضلهما

معاوية وعبد الله بن العباس

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وُجُوه قريش، فلما سلم وجلس قال له معاوية: إني أريد أن أسألك عن مسائل؟ قال: سُلْنَ عما بدا لك، قال: ما تقول في أبي بكر؟.

وصف أبي بكر

قال: رحم الله أبو بكر، كان والله للقرآن تالياً، وعن المنكر [ات] ناهياً، وبذنبه عارفاً، ومن الله خائفاً، وعن الشبهات زاجراً، وبالمعروف آمراً، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، فاق أصحابه ورَعَا وكفافاً، وسادهم زهداً وعفافاً، فغضب الله على منْ أبغضه وطعن عليه.

وصف عمر

قال معاوية: إيهَا يا ابن عباس، فما تقول في عمر بن الخطاب؟.

قال: رحم الله أبو حفص [عمر]، كان والله حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومنتهى الإحسان، ومحل الإيمان، وكَهْفَ الضعفاء، ومَعْقِلَ الحنفاء، قام بحق الله عز وجل صابراً محتسباً، حتى أوضح الدين، وفتح البلاد، وأمَّن العباد، فأعقب الله على منْ تنقصه اللعنة إلى يوم الدين.

قال: فما تقول في عثمان؟.

وصف عثمان

قال: رحم الله أبو عمرو، كان والله أكرم الحَفَدَة، وأفضل البررة، هَجَاجاً بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نَهَاضاً عند كل مكرمة، سَبَاقاً إلى كل منحة، حبيباً

أبياً وفيأاً، صاحب جيش العُسْرَة، خَتَّنَ رسول الله ﷺ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين، إلى يوم الدين.

قال: فما تقول في علي؟ .

وصف علي

قال: رضي الله عن أبي الحسن، كان والله عليٌ عَلِمُ الْهَدِي، وكهف التقى، ومحل الحجا، وبحر الندى، وطَوَّدَ النهْي، وكهف العلا، للورى داعياً إلى المحجّة العظمى، متمسكاً بالعروة الْوُثْقَى، خير مَنْ آمنَ واتقى، وأفضل من تقمص وارتدى، وأبر من اتعلّق وسَعَى، وأفصح من تنفس وقرأ، وأكثر من شهد النجوى، سوى الأنبياء والنبي المصطفى، صاحب القبلتين فهل يوازيه أحد؟ وهو أبو السبطين فهل يقارنه بشر؟ وزوج خير النساء فهل يفوقه قاطن بلد؟ للأسود قتال، وفي العروب ختال، لم تر عيني مثله ولن تَرَى، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد إلى يوم التnad.

قال: إيهَا يا ابن عباس، لقد أكثرت في ابن عمك، فما تقول في أبيك العباس؟ .

وصف العباس

قال: رحم الله [ال Abbas] أبا الفضل، كان صِنْوَنِي الله ﷺ وقرة عين صفي الله، سيد الأعمام، له أَخْلَاقُ آبائِهِ الْأَجَوَادُ، وأَحَلَامُ أَجَادَهُ الْأَمْجَادُ، تباعدت الأسباب في فضيلته، صاحب البيت والسقاية، والمشاعر والتلاوة، ولم لا يكون كذلك وقد ساسه أكرم من ذَبَّ؟ .

فقال معاوية: يا ابن عباس، أنا أعلم أنك كَلْماني في أهل بيتك.

قال: ولم لا أكون كذلك، وقد قال رسول الله ﷺ:

«اللهم فَّهُهُ في الدين وعلمه التأويل»؟ .

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام:

وصف الصحابة على

يا معاوية، إن الله جل ثناوه، وتقدست أسماؤه، خَصَّ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ بـ صحابة آثروه على الأنفس والأموال، وبدلوا النفوس دونه في كل حال، ووصفهم الله في كتابه فقال: «رُحَمَاءُ بَنِيهِم» [الفتح: ٢٩] الآية، قاموا بمعاملم الدين، وناصحوا الاجتهد لل المسلمين، حتى تهذبت طرقه، وقويت أسبابه، وظهرت آلاء الله، واستقر دينه،

ووضحت أعلامه، وأذل الله بهم الشرك، وأزال رؤوسه، ومحا دعائمه، وصارت كلمة الله العليا، وكلمة الذين كفروا السفلی، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك الفوس الزاكية، والأرواح الطاهرة العالية، فقد كانوا في الحياة لله أولياء، وكانوا بعد الموت أحياء، وكانوا لعباد الله نصائح، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها، وخرجوا من الدنيا وهم يَغْدُ فيها.

فقطَّع عليه معاوية الكلام، وقال: إيهَا يا ابن عباس، حدثاً في غير هذا.

ذكر أيام يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

موجز

وبويع يزيد بن معاوية، فكانت أيامه ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا ثمانى ليال، وأخذ يزيد لابنه معاوية بن يزيد البيعة على الناس قبل موته، ففي ذلك يقول عبد الله بن همام السّلولي:

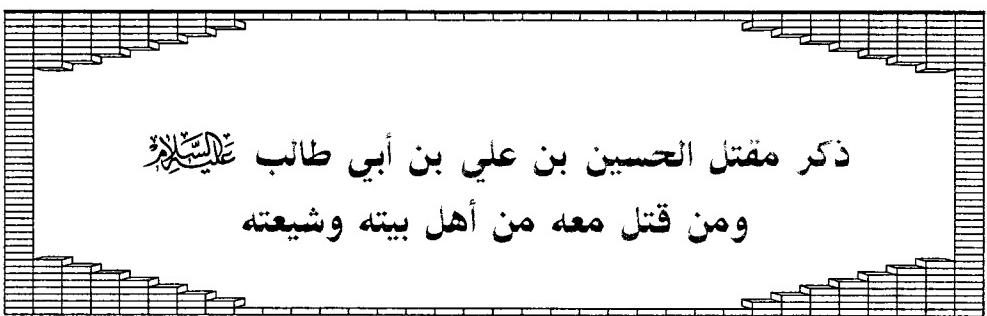
تَلْقَفَهَا يَرِيزِيلُ عَيْنَ سَبَهِ طَخَلُهَا يَا مُعَاوِيَةَ عَيْنَ يَرِيزِيلَا
لَقِدْ عَلِقْتَ بِكُمْ قُتْلَهَا كَفَرْتُ شَرِّمَا بِهَا الْغَرْضُ الْبَعِيدَا

وهلك يزيد بحوارين من أرض دمشق لسبع عشرة ليلة خلت من صفر سنة أربع وستين، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وفي ذلك يقول رجل من عنزة:

بِأَهْلِهَا التَّقْسِيرُ بِحَخَّارِيَّةِهَا حَسِّمَتْ شَرُّ النَّاسِ أَجْمَعِينَا

وقد رثاه الأخطل النصراوي، فقال من قصيدة:

لَعْنُورِي لَقِدْ دَعَى إِلَى الْمَجْدِ حَنَّالَهُ جَهَنَّمَةُ لَا يَنْكِسُ الْفَرْضَادُ وَلَا غَمْرُ
مَقْيِيمُ بِحَخَّارِيَّنِ تَسْبِيَهَا يَرِيزِيلَهَا سَمْنَهُ الْغَوَادِيَ مِنْ شَوَّيْيَ وَمِنْ قَبْرِ
فِي أَيَّاتٍ.



ذكر مقتل الحسين بن علي بن أبي طائب عليه السلام ومن قتل معه من أهل بيته وشيعته

أهل الكوفة يدعون الحسين

ولما مات معاوية أرسل أهل الكوفة إلى الحسين بن علي : إننا قد حبسنا أنفسنا على
بيعتك ، ونحن نموت دونك ، ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك .
وطولب الحسين بالبيعة ليزيد بالمدينة فسام التأخير ، وخرج يتهادى بين مواليه
ويقول :

لَا دَعَرْتُ السَّوَامِ فِي فَلَقِ الصِّحَّ مُغَيْرًا، وَلَا دُعِيتُ يَزِيدًا
يُومَ أَعْضَى مَخَافَةِ الْمَوْتِ ضِيمًا وَالْمَنَيَا تَرْصُدُنِي أَنْ أَجِيدًا

مسلم بن عقيل يتقدم إلى الحسين إلى الكوفة

ولحق بمكة ، فأرسل بابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ، وقال له : سر إلى أهل
الكوفة ، فإن كان حقاً ما كتبوا به عرفني حتى الحق بك ، فخرج مسلم من مكة في النصف
من شهر رمضان حتى قدم الكوفة لخمس خلوات من شوال ، والأمير عليها النعمان بن
بشير الأنباري ، فنزل على رجل يقال له عَوْسَاجَةَ مَسْتَرَأ ، فلما ذاع خبر قدومه بايعه من
أهل الكوفة اثنا عشر ألفاً ، وقيل : ثمانية عشر ألفاً ، فكتب بالخبر إلى الحسين ،
وسأله القدوم إليه .

ابن عباس ينصح الحسين

فلما هم الحسين بالخروج إلى العراق أتاه ابن العباس ، فقال له : يا ابن عم ، قد
بلغني أنك تريد العراق ، وإنهم أهل عذر ، وإنما يدعونك للحرب ، فلا تعجل ، وإن أبىت
إلا محاربة هذا الجبار وكرهت المقام بمكة فاشخص إلى اليمن ، فإنها في عزلة ، ولك
فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وَبِئْثَ دعاتك ، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق
فيخرجوها أميرهم ، فإن قَوَّوا على ذلك ونفوه عنها ، ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم ، وما

أنا لغدرهم بأمن، وإن لم يفعلوا أقمت بمكانتك إلى أن يأتي الله بأمره، فإن فيها حصوناً وشعاباً، فقال الحسين: يا ابن عم، إني لأعلم أنك لي ناصح وعلي شقيق، ولكن مسلم بن عقيل كتب إلى باجتماع أهل مصر على بيعتي ونصرتي، وقد أجمعنا على المسير [إليهم]، قال: إنهم من خبرت وجررت وهم أصحابك وأخوك وقتلتك غداً مع أميرهم، إنك لو قد خرجمت فبلغ ابن زياد خروجك واستنفرهم إليك، وكان الذين كتبوا إليك أشدّ من عدوك، فإن عصيتك وأبىت إلا الخروج إلى الكوفة فلا تخرجن نساءك وولدك معك، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه، فكان الذي رد عليه: لأن أقتل والله بمكان كذا أحبت إلى من أن استحل بمكة، فيئس ابن عباس منه، وخرج من عنده، فمر بعد الله بن الزبير، فقال: قرت عينك يا ابن الزبير، وأنشد:

يا لك من قبرة بمعمر خلائق الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري
هذا حسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاج.

الحسين وابن الزبير

وبلغ ابن الزبير أنه يريد الخروج إلى الكوفة وهو أقل الناس عليه، قد غمه مكانه بمكة؛ لأن الناس ما كانوا يعدلونه بالحسين، فلم يكن شيء يؤتاه أحبت إليه من شخص الحسين عن مكة، فأتأهله فقال: أبا عبد الله ما عندك، فوالله لقد خفت الله في [ترك] جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد الله، فقال حسين: قد عزفت على إitan الكوفة، فقال: وفَقَكَ الله!! أما لو أن لي [بها] مثل أنصارك ما عدلت عنها، ثم خاف أن يتهمه فقال: لو أقمت بمكانتك فدعوتنا وأهل الحجاز إلى بيعتك أجبناك وكنا إليك سراعاً، وكنت أحق بذلك من يزيد وأبي يزيد.

نصيحة أبي بكر بن هشام

ودخل أبو بكر بن الحارث بن هشام على الحسين فقال: يا ابن عم، إن الرحم يُطأثيرني عليك، ولا أدرى كيف أنا في النصيحة لك، فقال: يا أبا بكر ما أنت من يُستعَشُ [ولا يُتَّهم، فقل]، فقال أبو بكر: كان أبوك [أقدم ساقية، وأحسن في الإسلام آثراً، و] أشد بأساً، والناس له أرجى، ومنه أسمع وعليه أجمع، فسار إلى معاوية والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام وهو أعز منه، فخذلوه، وتشاقلوه عنه، حرضاً على الدنيا،

وضناً بها، فجرعوه الغيظ، وخالفوه حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه، ثم صنعوا بأخيك بعد أخيك ما صنعوا، وقد شهدت ذلك كله ورأيته، ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عذوا على أخيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ومن هو أعدٌ منك وأقوى، والناس منه أخوف، وله أرجحى، ولو بلغهم مسيرك إليهم لاستطغوا الناس بالأموال، وهم عبيد الدنيا، فيقاتلوك منْ وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحب إليه من ينصره، فاذكر الله في نفسك فقال الحسين: جراك الله خيراً يا ابن عم، فقد أجهدك رأيك، ومهما يقضى الله يكن، فقال: [إنا لله] وعند الله تحاسب [يا] أبا عبد الله، ثم دخل على الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي والي مكة وهو يقول: كم نرى ناصحاً يقول فَيُعْصِي وَظَنِّينَ الْمَغِيبِ يُلْفِي نصيحاً فقال: وما ذاك؟ فأخبره بما قال للحسين، فقال: نصحت له ورب الكعبة.

يزيد يستعد

واتصل الخبر بيزيد، فكتب إلى عبيد الله بن زياد بتولية الكوفة، فخرج من البصرة مسرعاً حتى قدم الكوفة على الظهر، فدخلها في أهلها وحشمه وعليه عمامة سوداء، قد تأثم بها، وهو راكب بغلة والناس يتوقعون قدوم الحسين فجعل ابن زياد يسلم على الناس فيقولون: وعليك السلام يا ابن رسول الله! قدمت خير مقدم، حتى انتهى إلى القصر وفيه النعمان بن بشير، فتحصن فيه، ثم أشرف عليه، فقال: يا ابن رسول الله ما لي ولك؟ وما حملك على قصد بلدي من بين البلدان؟ فقال ابن زياد: لقد طال نومك يا نعيم، وَحَسَرَ اللَّامَ عنْ فِيهِ فَعْرَفَهُ، ففتح له، وتندى الناس: ابن مَرْجَانَةَ، وَخَصَبُوهُ بِالْحَصَبَاءِ، فقاتهم ودخل القصر.

أول الغدر

ولما اتصل خبر ابن زياد بمسلم تحول إلى هانيء بن عروة المرادي، ووضع ابن زياد الرَّصَدَ على مسلم حتى علم بموضعه، فوجَّهَ محمد بن الأشعث بن قيس إلى هانيء، فجاءه فسألَه عن مسلم، فأنكره، فأغْلَظَ له ابن زياد القول، فقال هانيء: إن لزياد أخيك عندي بلاه حسناً، وأنا أحب مكافأته به، فهل لك في خير؟ قال ابن زياد: وما هو؟ قال: تَشَخَّصُ إلى أهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم، فإنه قد جاء [حق] منْ هو أحق من حنك وحق صاحبك، فقال ابن زياد: أدنوه مني، فأدنوه منه، فضرب وجهه بقضيب كان في يده [حتى] كسر أنفه وشق حاجبه، ونشر لحم وجنته، وكسر القضيب على وجهه ورأسه، وضرب هانيء بيده إلى قائم سيف شرطي من تلك الشرط، فجادبه

الرجل، ومنعه السيف، وصاح أصحاب هانئ بالباب: قتل صاحبنا، فخافهم ابن زياد، وأمر بحبسه في بيت إلى جانب مجلسه، وأخرج إليهم ابن زياد شريحاً القاضي، فشهد عندهم أنه حي لم يقتل، فانصرفوا، ولما بلغ مسلماً ما فعل ابن زياد بهانئ، أمر منادياً فنادي «يا منصور» وكانت شعارهم، فننادي أهل الكوفة بها، فاجتمع إليه في وقت واحد ثمانية عشر ألف رجل، فسار إلى ابن زياد، فتحصن منه، فحصروه في القصر فلم يمس مسلم ومعه غير مائة رجل، فلما نظر إلى الناس يتفرقون عنه سار نحو أبواب كثيرة، فما بلغ الباب إلا ومعه منهم ثلاثة، ثم خرج من الباب فإذا ليس معه منهم أحد، فبقي حائراً لا يدرى أين يذهب، ولا يجد أحداً يدخله على الطريق، فنزل عن فرسه ومشى متلداً في أزقة الكوفة لا يدرى أين يتوجه، حتى انتهى إلى باب مولا للاشعث بن قيس، فاستسقاها ماء فَسَقَتْهُ، ثم سأله عن حاله، فأعلمهها بقضيته، فرققت له وآثرته، وجاء ابنها فعلم بموضعه، فلما أصبح غداً إلى محمد بن الأشعث فأعلمه، فمضى ابن الأشعث إلى ابن زياد فأعلمه، فقال: انطلق فأتنبه به، ووجهه معه عبد الله بن العباس السليمي في سبعين رجلاً، فاقتحموا على مسلم الدار، فثار عليهم سيفه، وشدّ عليهم فآخر جهم من الدار، ثم حملوا عليه الثانية، فشدّ عليهم وأخرجهم أيضاً، فلما رأوا ذلك علواً ظهر البيوت فرميوا بالحجارة، وجعلوا يلهبون النار بأطراف القصب، ثم يلقونها عليه من فوق البيوت.

قتل مسلم بن عقيل

فلما رأى ذلك قال: أكل ما أرى من الأحلاب لقتل مسلم بن عقيل؟ يا نفس اخرجني إلى الموت الذي ليس عنه محicus، فخرج إليهم مُضلياً سيفه إلى السكّة، فقاتلهم، واختلف هو وبكير بن حمران الأحرمي ضربتين: فضرب بكير قمّ مسلم فقطع السيف شفته العليا وشرع في السفلة، وضربه مسلم ضربة منكرة في رأسه، ثم ضربة أخرى على جبل العاتق فكاد يصل إلى جوفه، وهو يرتجز ويقول:

أَفَسِمْ لَا أُفْتَلُ إِلَّا خَرًا وَإِنْ رَأَيْتَ الْمَوْتَ شَيْئًا مُّرًا
كُلَّ امْرَئٍ يَسُومًا مُّلَاقِ شَرًا أَخَافُ أَنْ أُكَلَّ أَوْ أَغْرَى

فلما رأوا ذلك منه تقدم إليه محمد بن الأشعث فقال له: فإنك لا تكذب ولا تغدر، وأعطيك الأمان، فأنكناهم من نفسه، وحملوه على بغلة وآتاؤه ابن زياد، وقد سلبه ابن الأشعث حين أعطيه الأمان سيفه وسلاحه، وفي ذلك يقول بعض الشعراء في كلمة يهجوها فيها ابن الأشعث:

وَتَرْكُتْ عَمَكَ أَنْ تُقَاتِلَ دُونَه فَشَلَّا، وَلَوْلَا أَنْتَ كَانَ مَيِّعَا

وقتلت وافد آل بيت محمد وسلبت أسيافاً له وذرعوا
 فلما صار مسلم إلى باب القصر نظر إلى قلة مبردة، فاستسقاهم منها، فمنعهم
 مسلم بن عمرو الباهلي - وهو أبو قتيبة بن مسلم - أن يسقوه، فوجه عمرو بن حرث
 فأناه بما في قدره، فلما رفعه إلى فيه امتلاً القدر دماً، فصبةً وملاه لـه الثانية، فلما رفعه
 إلى فيه سقطت ثيابه فيه وامتلاً دماً، فقال: الحمد لله، لو كان من الرزق المقسم
 لشربته، ثم أدخل إلى ابن زياد، فلما انقضى كلامه و المسلمين يُغاظ له في الجواب أمر به
 فأصعد إلى أعلى القصر، ثم دعا الأحمرى الذي ضربه مسلم، فقال: كُنْ أنت الذي
 تضرب عنقه لتأخذ بثأرك من ضربته، فأصعدوه إلى أعلى القصر، فضرب بكير الأحمرى
 عنقه، فأهوى رأسه إلى الأرض، ثم أتبعوا رأسه جسده.

مقتل هانئ بن عروة

ثم أمر بهانئ بن عروة فأخرج إلى السوق، فضرب عنقه صبراً، وهو يصبح: يا
 آل مراد وهو شيخها وزعيمها، وهو يومئذ يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف
 راجل، وإذا أحبتها أحلافها من كندة وغيرها كان في ثلاثين ألف دارع، فلم يجد زعيمهم
 منهم أحداً فشلاً وخذلاناً، فقال الشاعر، وهو يرثي هانئ بن عروة ومسلم بن عقيل
 وبذكر ما نالهما:

إذا كُنْت لا تَدْرِين ما الموت فانظري إلى هانئ في السوق ذات ابن عَقِيل
 إلى بَطْلٍ قد هشمَ السيفُ وجهه وأخْرَى يَهْوِي في ظهار قتيل
 أصحابه ما أَمْرَ الأَمِيرِ فاصْبَحَ حُرَى جَسَداً قد عَيَّرَ الْمَوْتُ لونه
 ونَضَحَ دمُ قد سَالَ كَلَّ مَسِيلٍ
 ليترك أسماء المهاجرَجَ آثِيناً
 فَتَّى هو أَحْيَى من فتاة حَيَّةٍ واقْطَعَ من ذي شَفَرَيْنِ صَفِيلٍ

ثم دعا ابن زياد بكير بن حمران الذي ضرب عنق مسلم فقال: أقتلته؟ قال: نعم،
 قال: فما كان يقول وأنت تصعدون به لقتلوه؟ قال: كان يكبر ويسبح الله ويهلل ويستغفر
 الله، فلما أدنيناه لنضرب عنقه قال: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرُونا وكذبونا ثم خذلنا
 وقتلتنا، فقلت: الحمد لله الذي أقادني منك، وضربته ضربة لم تعمل شيئاً، فقال لي: أو
 ما يكفيك وفي خذش مني وفأة بدمك أيها العبد، قال ابن زياد: أو فخرأ عند الموت؟
 قال: وضربته الثانية فقتلتنه، ثم أتبعنا رأسه جسده.

وكان ظهور مسلم بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان ليل ماضين من ذي الحجة سنة ستين، وهو اليوم الذي ارتحل فيه الحسين من مكة إلى الكوفة، وقيل: يوم الأربعاء يوم عرفة ليُنسَعَ ماضين من ذي الحجة سنة ستين.

ثم أمر ابن زياد بجثة مسلم فصلبت، وحمل رأسه إلى دمشق، وهذا أول قتيل صلبت جثته من بني هاشم، وأول رأس حمل من رؤوسهم إلى دمشق.

الحسين يقاتل جيش ابن زياد

فلما بلغ الحسين القادسية لقيه الحر بن يزيد التميمي فقال له: أين تريد يا ابن رسول الله؟ قال: أريد هذا مصر، فعَرَفَهُ بقتل مسلم وما كان من خبره، ثم قال: ارجع فإني لم أذْعُ خلفي خيراً أرجوه لك، فَهُمْ بالرجوع فقال له إخوه مسلم: والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل كلنا، فقال الحسين: لا خير في الحياة بعدكم، ثم سار حتى لقي خيل عبد الله بن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبي وقاص، فعدل إلى كربلاء - وهو في مقدار خمسمائة فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة راجل - فلما كثرت العساكر على الحسين أيقن أنه لا محيسن له، فقال: اللهم احکم بيننا وبين قوم دَعَونَا لينصرونا ثم هم يقتلونا، فلم يزل يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه.

مقتل الحسين

وكان الذي تولى قتله رجل من مذحج واحتر رأسه، وانطلق به إلى ابن زياد وهو

يرتجز:

[أُوْرِقْ رَكَابِي فِضَّة وَدَمَبَا] أنا قاتلُ الْمَلِكِ الْمَحْجَبَا
قاتلتُ خَيْرَ النَّاسِ أَمَا وَأَبَا وَخَيْرَهُمْ إِذ يُئْسَبُونَ نَسْبَا
فبعث به [ابن زياد إلى] يزيد بن معاوية ومعه الرأس، فدخل إلى يزيد وعنده أبو بَرْزَةُ الْأَسْلَمِيُّ، فوضع الرأس بين يديه، فأقبل ينكث القسيب [في فيه] ويقول:
نَفَلُّ هَامًا من رجال أَحِبَّةِ عَلَيْنَا، وَهُمْ كَانُوا أَعْقَ وَأَظْلَمَا
قال له أبو بَرْزَةُ: ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله ص يضع فمه على
فمه يلشه، وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر وحاربه وتولى قتله من أهل
الكوفة خاصة، لم يحضرهم شامي.

من قتل مع الحسين

وكان جميع من قتل مع الحسين في يوم عاشوراء، بكرباء سبعة وثمانين، منهم

ابنه علي بن الحسين الأكبر، وكان يرتجز ويقول:

أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ تَحْنُّ وَبَيْتُ اللَّهِ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ
تَالَّهُ لَا يَحْكُمُ فِينَا ابْنُ الدَّاعِي

وقتل من ولد أخيه الحسن بن علي: عبد الله بن الحسن، والقاسم بن الحسن، وأبو بكر بن الحسن، ومن إخوته: العباس بن علي، وعبد الله بن علي، وجعفر بن علي، وعثمان بن علي، ومحمد بن علي؛ ومن ولد جعفر بن أبي طالب: محمد بن عبد الله بن جعفر، وعُونُ بن عبد الله بن جعفر؛ ومن ولد عقيل بن أبي طالب: عبد الله بن عقيل، وعبد الله بن مسلم بن عقيل، وذلك لعشر حلوان من المحرم سنة إحدى وستين.

وقتل الحسين وهو ابن خمس وخمسين سنة، وقيل: ابن تسع وخمسين سنة، وقيل غير ذلك.

ووُجِدَ بالحسين يوم قتل ثلث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة، ضَرَبَ زرعة بن شريك التميمي كفه اليسرى، وطعنه سنان بن أنس النخعي، ثم نزل فاحتر رأسه، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَأَيُّ رَزِيَّةَ عَدَلَتْ حَسَيْنًا عَدَادَةَ تَبَيَّنَهُ كَفًا سِنَانًا؟
وَقُلْ مَعَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةَ، وَبَاقِي مَنْ قُتِلَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ - عَلَى مَا قَدَّمَا مِنَ

الْعِدَّةِ - مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مُسْلِمُ بْنُ قَتِيَّةَ مَوْلَى بْنِ هَاشِمَ:

عَنِيْسُ جَرْدِي بِعَبْرَةِ وَعَوْرِيلَ وَأَنْدِيَيْ إِنْ نَدْبَتْ آلَ الرَّسُولَ
أَنْدِيَيْ تَسْعَةَ لِصَبَّ عَلَيَّ قَدْ أَصْبَيْتُهُ وَخَمْسَةَ لِعْتِيلَ [أَنْدِيَيْ]
وَلَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ عَرْنَادَ أَخَاهُمْ لَيْسَ فِيمَا يَشَوِّبُ بِالْمَخْنَدُولِ
وَسَبِيْلِ النَّبِيِّ غَوِيرَ فِيهِمْ قَدْ خَلَوْهُ بِضَارِمَ نَضْقَوْلَ
وَأَنْدِيَيْ كَهْلَهُمْ فَنِيسَ إِذَا مَا شَدَ فِي الْخَيْرِ كَهْلَهُمْ كَالْكَهَوْلِ
لَعْنَ اللَّهِ حَيْثُ شَكَانْ زَيْدًا وَابْنَ وَالْمَخْرَزَ دَاتَ الشَّمَوْلَ

وأمر عمرو بن سعد أصحابه أن يوطئوا خيلهم الحسين، فانتدب لذلك إسحاق بن حيوة الحضرمي في نفر معه، فوطئوه بخيتهم، ودفع أهل العاصمية - وهم قوم من بني عاضر من بني أسد - الحسين وأصحابه بعد قتلهم بيوم، وكان عدّة من قتل من أصحاب [عمرو بن] سعد في حرب الحسين عليه السلام ثمانية وثمانين رجلاً.

ذكر أسماء ولد علي بن أبي طالب

رضي الله عنه!

أسماء ولد علي وأمهاتهم

الحسن، والحسين، ومُحَسِّن، وأم كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى، أمهم فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، و Mohammad وأمه خولة بنت إيس الحنفية، وقيل: ابنة جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفي، وعيادة الله، وأبو بكر أمهما ليلي بنت مسعود النهشلي، وعمر، ورقية أمهما تغلبية، ويحيى وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن جعفرا الطيار استشهد وخلف عليها عزناً ومحمدًا وعبد الله، وأن عقب جعفر منها من عبد الله بن جعفر، وأن أبا بكر الصديق تزوجها بعده، وخلف عليها محمدًا، ثم تزوجها علي فخلف عليها يحيى، وأنها ابنة العجوز الحرشية التي كانت أكرم الناس أصهاراً، وقد تقدم فيما سلف من هذا الكتاب تسمية أصهار العجوز الحرشية، وأن أولهم رسول الله ﷺ، وجعفر، والعباس، وعبد الله أمهم أم البنين بنت حرام الوحيدة، ورملة وأم الحسن أمهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود التقفي، وأم كلثوم الصغرى، وزينب الصغرى، وجمانة، وميمونة، وخديجة، وفاطمة، وأم الكرام، ونبيلة، وأم سلمة، وأم أيها.

وقد أتينا على أنساب آل أبي طالب، ومنْ أعقب منهم ومصارعهم، وغير ذلك من أخبارهم في كتابنا «أخبار الزمان».

ذو العقب من أولاد علي

والعقب لعلي من خمسة: الحسن، والحسين، ومُحَسِّن، وعمر، والعباس، وقد استقصى أنسابهم، وأتى على ذكر مَنْ لا عقب له منهم ومنْ له العقب، وأنساب غيرهم من قريش من بني هاشم، وغيرهم: الزبير بن بكار في كتابه في «أنساب قريش» وأحسن من هذا الكتاب في أنساب آل أبي طالب الكتاب الذي سمع من طاهر بن يحيى العلوي الحسيني بمدينة النبي ﷺ، وقد صنف في أنساب آل أبي طالب كتب كثيرة: منها كتاب

العباس من ولد العباس بن علي ، وكتاب أبي علي الجعفري ، وكتاب المهلوس العلوي من ولد موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

رثاء قتيل الطف

وفي قتيل الطف يقول سليمان بن قتيبة عليه ما ذكره الزبير بن بكار في كتاب «أنساب قريش» من أبيات :

فِيَنْ قَتِيلَ الطَّفَّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَدْلَّ رَقَابًا مِنْ فُرَيْشَ فَذَلِكَ
فِيَنْ يُشْبِعُوهُ عَائِدَ الْبَيْتِ يُضْبِحُوا كَعَادٍ تَعْمَتْ عَنْ هُدَاهَا فَضَلَّتِ
أَنَّمَّ تَرَى أَنَّ الْأَرْضَ أَصْبَحَتْ مَرِيْضَةً بَقْتُلَ حُسَيْنَ وَالْبَلَادَ افْشَعَرَتِ
فَلَا يَبْعِدُ اللَّهُ الْدِيَارَ وَأَهْلُهَا وَإِنْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ بِرَغْمِيَ تَخَلَّتِ

ذكر لمع من أخبار يزيد، وسيره ونوادر من (بعض) أفعاله

خروج يزيد لوفود العرب

ولما أفضى الأمر إلى يزيد بن معاوية دخل منزله، فلم يظهر للناس ثلاثة، فاجتمع ببابه أشرافُ العرب ووفودُ البلدان وأمراءُ الأجناد لتعزيةِ أبيه وتهنئته بالأمر، فلما كان في اليوم الرابع خرج أشعثَ أغبرَ فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن معاوية كان حبلاً من جبال الله مَدَّ الله ما شاء، أن يمده ثم قطعه حين شاء أن يقطعه، وكان دون من [كان] قبله، وخير من بعده، إن يغفر الله له فهو أهلة، وإن يعذبه فبذنبه، وقد وليت الأمر بعده، ولست أعتذر من جهل، ولا أشتغل بطلب علم، فعلى رسلكم فإن الله لو أراد شيئاً كان، اذكروا الله واستغفروه، ثم نزل، ودخل منزله، ثم أذن للناس.

فدخلوا عليه لا يدرؤون أيهنتونه أم يعُزُّونه، فقام عاصم بن أبي صيفي، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أصبحت قد رُزِّئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله، ومنحت هبة الله، قضى معاوية نحبه، فغفر الله له ذنبه، وأعطيت بعده الرياسة؛ فاحتسب عند الله أعظم الرزية، وأحمدته على أفضل العطية، فقال يزيد: أذنْ مني يا ابن أبي صيفي، فدنا حتى جلس قريباً منه.

ثم قام عبد الله بن مازن فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، رزئت خير الآباء، وسميت خير الأسماء، ومنحت أفضل الأشياء، فهناك الله بالعطية، وأعانك على الرعية، فقد أصبحت قريش مفجوعة بفقد سائسها مسروقة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك، والعقبى من بعده، ثم أنشأ يقول:

الله أطراك التي لا فوقها وقد أراد الملحدون عوْقها
عنك فيأبى الله إلا سُوقها إليك حتى قَلَدوك طَوْقها

قال له يزيد: ادن مني يا ابن مازن، فدنا حتى جلس قريباً منه.

ثم قام عبد الله بن همام فقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزية، وصبرك

على المصيبة، وبارك لك العطية، ومنحك محبة الرعية، مضى معاوية لسيله غفر الله له، وأورده موارد السرور، ووقفك [بعده] لصالح [الأمور، فقد رزئت جليلاً، وأعطيت جزيلاً، حيث بعده للرياسة، ووليت] السياسة، أصبحت بأعظم المصائب، ومنحت أفضل الرغائب، فاحتسب عند الله أعظم الرزية، واشكره على أفضل العطية، وأخذت لخالقك حمداً، والله يمتعنا بك ويحفظك، ويحفظ بك وعليك، وأنشا يقول:

اَسْبِرْ يَزِيدْ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَامَةَ وَاشَكَرْ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ اَصْفَاكَا
اَصْبَحْتَ لَا رَزَءَ فِي الْأَقْرَامِ نَعْلَمْ كَمَا رُزِئْتَ وَلَا عَقْبَى كَعْقَبَاكَا
اَعْطَيْتَ طَاعَةَ خَلْقِ اللَّهِ كُلَّهُمْ وَأَنْتَ تَرْعَاهُمْ وَاللَّهُ يَرْعَاكَا
وَفِي مَعاوِيَةِ الْبَاقِي لَنَا خَلْفٌ إِمَا نُعِيَّتْ وَلَا نَسْمَعْ بِمَتْعَاكَا

فقال يزيد: ادن مني يا ابن همام، فدنا حتى جلس قريباً منه.

ثم قال الناس يعزوونه ويهتئونه بالخلافة، فلما ارتفع عن مجلسه أمر لكل واحد منهم بمآل على مقداره في نفسه، ومحله في قومه، وزاد في عطائهم، ورفع مراتبهم، وقد أتينا في كتابنا «أخبار الزمان» على ما كان من خبر يزيد وغيته في حال وفاة أبيه معاوية، ومسيره من ناحية حمص حين بلغه ما بأبيه من العلة، ووروده على ثنية العقاب من أرض دمشق، فأغنى ذلك عن إعادة هذا الخبر في هذا الكتاب.

بين يزيد وعبد الملك

وذكر عدة من الأخباريين وأهل السير أن عبد الملك بن مروان دخل على يزيد، فقال: أَرِينَّة لك إلى جانب أرض لي، ولني فيها سعة، فأقطعنيها، فقال: يا عبد الملك، إنه لا يتعاظمني كبير، ولا أجزع من صغير، فأخربني عنها وإنما سألت غيرك، فقال: ما بالحجاز أعظم منها قدرأ، قال: قد أقطعتك، فشكراً عبد الملك ودعاه، فلما ولّ قال يزيد: إن الناس يزعمون أن هذا يصير خليفة، فإن صدقوا فقد صانعناه، وإن كذبوا فقد وصلناه.

فسوق يزيد وعماله

وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وفروع و فهو ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وبذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اَسْقِنِي شَرْبَةً شَرْقِي مَشَاشِي شَمْ مِلْ فَاسِقَ مَثْلُهَا اِبْنُ زِيَادَ

صاحب السر والأمانة عئدي ولتسنيد مغنمي وجهادي
ثم أمر المغنين فغنوا [به].

وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكى بأبي قيس يحضره مجلس منادته، ويطرح له متكاً، وكان قرداً خيئاً وكان يحمله على أثاث وحشية قد ریضت وذلللت لذلك بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة، فجاء في بعض الأيام سابقاً، فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل، وعلى أبي قيس قيامه من الحرير الأحمر والأصفر مشمر، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات اللوان بشقائق، وعلى الأثاث سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان، فقال في ذلك بعض شعراء الشام في ذلك اليوم:

الآن رأى الفرد الذي سبقت به جياد أمير المؤمنين آنذاك
مسك أبا قيس يفضل عذابها سيس عليها إن سقطت صمام

وفي يزيد وتملكه وتجبره وانقياد الناس إلى ملكه يقول الأخوَصُ:

صلتك تدين له الملك مباركة ندامت لنيبيته الجبال تزول
نجسسي له بُشّرَةً ورد حسنةً كجهةٍ شفهَ النجدات وما سقى والنيل

وقيل: إن الأخوَص قال هذا في معاوية بعد وفاته يرثيه:

شیعی مقتول الحسین

ولما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهم بكرباء وحمل رأسه ابن زياد إلى يزيد
خرجت بنت عقيل بن أبي طالب في نساء من قومها حواسر [حائرات]، لما قد ورد
عليهن من قتل السادات، وهي تقول:

ماذا تقولون إلّا قال أبايٌ كجهٍ مالا فعْلَجَهُ وأَنْتَمْ أَحْرَى الْأَمْسِكِ
وَمَسْكُرَتِي (أبايلٌ سعيدٌ مُشَبَّهٌ بِالْمَلِئَةِ)
ما كان هنا جزاءي إلّا أصْحَّمْتُ نَفْسِي
أَنْ يَمْلأَهُو فِي سَقْرٍ فِي دُوَيِ رَحْمِي

وفي فعل ابن زياد بالحسين يقول أبو الأسود الدؤلي من قصيدة:

أَتَكُوْلُ وَذَلِكَ مِنْ جَحِيْعِ وَرْجِيْهِ إِنَّمَا اللَّهُ مُسْكِنٌ بِسَبِيلِ زَيْادٍ
وَأَيْعَدَهُمْ، بِمَا عَدْرَوا وَحَانُوا كَمَا يَعْدُثُ ثَمَوْدٌ وَقَوْمٌ عَادٌ

أهل المدينة وعمال يزيد

ولما شمل الناس جوز يزيد وعماله وعمّهم ظلمه، وما ظهر من فسقه: من قتله ابن بنت رسول الله ﷺ وأنصاره، وما أظهر من شرب الخمور، وسيره سيرة فرعون، بل كان فرعون أعدل منه في رعيته، وأنصف منه لخاصته وعامتها؛ أخرج أهل المدينة عامله عليهم - وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان - ومروان بن الحكم، وسائربني أمية، وذلك عند تنسك ابن الزبير وتآلّه، وإظهار الدعوة لنفسه، وذلك في سنة ثلاثة وستين، وكان إخراجهم لما ذكرنا من بني أمية وعامل يزيد عن إذن ابن الزبير، فاغتنمتها مرwan منهم؛ إذ لم يقابضوا عليهم ويحملوهم إلى ابن الزبير، ففتحوا السير نحو الشام.

صنع مسلم بن عقبة بالمدينة

ونمي فعل أهل المدينة ببني أمية وعامل يزيد إلى يزيد - فسيّر إليهم بالجيوش من أهل الشام عليهم مسلم بن عقبة المري الذي أخاف المدينة ونهبها، وقتل أهلها، وبایعه أهلها على أنهم عبيد لزيد، وسمّاها نتنة، وقد سماها رسول ﷺ طيبة، وقال: «من أخاف المدينة أخافه الله» فسمي مسلم هذا لعنة الله بمجرم ومسرف؛ لما كان من فعله، ويقال: إن يزيد حين جرد هذا الجيش وعرض عليه أنشأ يقول:

أَبْلَغَ أَبَا بَكْرَ إِذَا الْأَمْرُ اَنْبَرَىْ وَأَشْرَفَ الْقَوْمَ عَلَىْ وَادِيِ الْقَرَىْ
أَجْمَعَ السَّكَرَانَ مِنْ قَوْمٍ تَرَىْ
يُرِيدُ بِهَا الْقَوْلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزَّبِيرِ، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ يَكْنَى بِأَبِيهِ بَكْرًا، وَكَانَ يُسَمَّى
يَزِيدُ السَّكَرَانُ الْخَمِيرِ، وَكَتَبَ إِلَىِّ ابْنِ الزَّبِيرِ:

أَدْعُوكَ إِلَيْهِكَ فِي السَّمَاءِ إِنْتِي أَدْعُوكَ رِجَالَ عَكَ وَأَشْعَرَ
كِيفَ النَّجَاهَ أَبَا خُبَيْبٍ مِنْهُمْ فَاخْتَلَنَ لِنَفْسِكَ قَبْلَ أَثْيَ الْعَسْكَرِ

وقعة الحرّة

ولما انتهى الجيش من المدينة إلى الموضع المعروف بالحرّة وعليهم مُسرف خرج إلى حربه أهلها عليهم عبد الله بن مطیع العدوی وعبد الله بن حنظلة الغسیل الأنصاري، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس من بني هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس؛ فمن قتل من آل أبي طالب اثنان: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وجعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب؛ ومن بني هاشم من غير

آل أبي طالب: الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وال Abbas بن عقبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، وبضع وتسعون رجلاً من سائر قريش، ومثلهم من الأنصار، وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الإحصاء، دون من لم يعرف.

وبایع الناس على أنهم عيید لیزید، ومنْ أبی ذلک أمره مُشرف على السيف، غير علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب السجاد، وعلى بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وفي وقعة الحرة يقول محمد بن أسلم:

فإن تَقْتُلُونَا يَوْمَ حَرَّةَ وَاقِمْ فَنَحْنُ عَلَى إِسْلَامِ أَوَّلِ مَنْ قُتِلَ
وَنَحْنُ تَرَكْنَاكُمْ بِبَدْرٍ أَذْلَةً وَأَبْنَاهَا بِأَسْيَافٍ لَنَا مِنْكُمْ تَفْلِ

ونظر الناس إلى علي بن الحسين السجاد وقد لاذ بالقبر وهو يدعو، فأتى به إلى مُشرف وهو مغتاظ عليه، فتبرأ منه ومن آبائه، فلما رأه وقد أشرف عليه ارتعد، وقام له، وأقعده إلى جانبه، وقال له: سألني حواejك، فلم يسأله في أحد ممن قدم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه، فقيل لعلي: رأيناك تحرك شفتيك، مما الذي قلت؟ قال: قلت: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد وآل الطاهرين، أعوذ بك من شره، وأدرا بك في نحره، أسألك أن تؤتيني خيره، وتكتفي بي شره، وقيل لمسلم: رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتى به إليك رفعت منزلته، فقال: ما كان ذلك لرأي مني، لقد ملىء قلبي منه رعباً.

وأما علي بن عبد الله [بن العباس] فإن أخواله من كندة مئوه منه، وأناس من ربيعة كانوا في جيشه، فقال علي في ذلك:

أَبِي الْعَبَّاسِ قَرْمَ بْنِي لَزْيَيْ رَأْخَوَائِي الْمُلُوكُ بَشَرُ وَلِيْعَه
هُمْ سَنَعُوا ذَمَارِي يَوْمَ جَاءَتْ كَتَائِبُ مُشْرِفٍ وَبَنِي الْلَّكِيْعَه
أَرَادَنِي الَّتِي لَا عَرَّ فِيهَا صَحَّاتْ دُونَهِ أَيْدِي رَبِيعَه

ولما نزل بأهل المدينة ما وصفنا من القتل والنهب والرق والسببي وغير ذلك مما عنه أعرضنا من مُشرف خرج عنها يريد مكة في جيشه من أهل الشام؛ ليوقع بابن الزبير وأهل مكة، بأمر يزيد، وذلك في سنة أربع وستين.

فلما انتهى إلى الموضع المعروف بقديد مات مُشرف لعنه الله! واستخلف على الجيش الحصين بن نمير، فسار الحصين حتى أتى مكة وأحاط بها، وعاذ ابن الزبير

باليت الحرام، وكان قد سمى نفسه العائد باليت، وشهر بهذا حتى ذكرته الشعراء في أشعارها، من ذلك ما قدمنا من قول سليمان بن فضة.

فإن تُشِّعُوه عائذَ الْبَيْتِ تُضْبِحُوا كَعَادٍ تَعَمَّثُ عنْ هُدَاهَا فَضَلَّتِ

ونصب الحصين فيمن معه من أهل الشام المجانيق والعادات على مكة والمسجد من الجبال والفتحات، وابن الزبير في المسجد، ومعه المختار بن أبي عبيدة الثقيفي داخلاً في جملته، منضافاً إلى بيته، منقاداً إلى إمامته، على شرائط شرطها عليه لا يخالف له رأياً، ولا يعصي له أمراً.

رمي الكعبة بالمجانيق

فتورادت أحجار المجانيق والعادات على البيت، ورمي مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحركات، وانهدمت الكعبة، واحتراقت البنية، ووُقعت صاعقة فأحرقت من أصحاب المجانيق أحد عشر رجلاً، وقيل: أكثر من ذلك [وذلك] يوم السبت لثلاث خلوة من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، قبل وفاة يزيد بأحد عشر يوماً، واشتد الأمر على أهل مكة وابن الزبير، واتصل الأذى بالأحجار والنار والسيف؛ ففي ذلك يقول أبو واجحة المدني:

أَبْنُ نُمَيْرٍ بِئْسَ مَا تَوَلَّ قَدْ أَخْرَقَ السَّمَّامَ وَالْمُصَلَّى

وليزيد وغيره أخبار عجيبة، ومثالب كثيرة: من شرب الخمر، وقتل ابن [بنت] الرسول، ولعن الوصي، وهدم البيت وإحرقه، وسفك الدماء، والفسق والفحotor وغير ذلك مما قد ورد في الوعيد باليأس من غفرانه، كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسالته، وقد أتينا على الغرر من ذلك فيما [تقدما و] سلف من كتبنا، والله ولي التوفيق.

ذكر أيام معاوية بن يزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم
والمحتار بن أبي عبيد، وعبد الله بن الزبير
ولمع من أخبارهم، وبعض ما كان في أيامهم

موجز أخبار معاوية بن يزيد

قال المسعودي: ومَلَكَ معاوية بن يزيد بن معاوية بعد أبيه، فكانت أيامهأربعين يوماً إلى أن مات، وقيل: شهرين، وقيل غير ذلك، وكان يكنى بأبي يزيد، وكني حين ولـيـ الـخـلـافـةـ بـأـبـيـ لـيـلـيـ، وكانت هذه الـكنـيـةـ لـلـمـسـطـضـعـفـ منـالـعـرـبـ، وـفـيهـ يـقـولـ الشـاعـرـ:

إِنِّي أَرَى فِتْنَةً هَاجَتْ مَرَاجِلُهَا وَالْمَلَكُ بَعْدَ أَبِي لَيْلَى لَمْنَ غَلَبَا

ولما حضرته الوفاة اجتمعـتـ إـلـيـهـ بـنـوـ أـمـيـةـ فـقـالـواـ لـهـ: اـغـهـذـ إـلـيـ منـ رـأـيـ منـ أـهـلـ بيـتـكـ، فـقـالـ: وـالـلـهـ مـاـ ذـفـتـ حـلـاوـةـ خـلـافـتـكـمـ فـكـيفـ أـتـقـلـدـ وـرـزـهاـ؟ وـتـعـجـلـونـ أـنـتمـ حـلـاوـلـتـهاـ، وـأـتـعـجـلـ مـرـارـتـهاـ، اللـهـمـ إـنـيـ بـرـيءـ مـنـهاـ مـتـخـلـ عنـهـاـ، اللـهـمـ إـنـيـ لـاـ أـجـدـ نـفـراـ كـأـهـلـ الشـورـىـ فـأـجـعـلـهـاـ إـلـيـهـمـ يـنـصـبـونـ [لـهـاـ]ـ مـنـ يـرـونـهـ أـهـلـ لـهـاـ، فـقـالـتـ لـهـ أـمـهـ: لـيـتـ أـنـيـ خـرـقةـ حـيـضـةـ وـلـمـ أـسـمـعـ مـنـكـ هـذـاـ الـكـلـامـ، فـقـالـ لـهـ: وـلـيـتـنـيـ يـاـ أـمـاهـ خـرـقةـ حـيـضـ وـلـمـ أـتـقـلـدـ هـذـاـ الـأـمـرـ، أـتـفـوزـ بـنـوـ أـمـيـةـ بـحـلـاوـتـهاـ وـأـبـوـءـ بـوـزـرـهاـ وـمـعـهـاـ أـهـلـهـاـ؟ـ كـلـاـ إـنـيـ لـبـرـيءـ مـنـهـاـ.

وقد تـنـوـزـعـ فـيـ سـبـبـ وـفـاتـهـ، فـمـنـهـمـ مـنـ رـأـيـ أـنـ سـقـيـ شـربـةـ، وـمـنـهـمـ مـنـ رـأـيـ أـنـ مـاتـ خـتـفـ أـنـفـهـ، وـمـنـهـمـ مـنـ رـأـيـ أـنـ طـعنـ، وـقـبـضـ وـهـوـ اـبـنـ اـثـتـيـنـ وـعـشـرـيـنـ سـنـةـ، وـدـفـنـ بـدـمـشـقـ، وـصـلـىـ عـلـيـهـ الـوـلـيدـ بـنـ عـتـبةـ بـنـ أـبـيـ سـفـيـانـ، لـيـكـونـ الـأـمـرـ لـهـ مـنـ بـعـدـهـ، فـلـمـاـ كـبـرـ الـثـانـيـةـ طـعـنـ فـسـقـطـ مـيـتاـ قـبـلـ تـامـ الصـلـاـةـ، فـقـدـمـ عـشـمـانـ بـنـ عـتـبةـ بـنـ أـبـيـ سـفـيـانـ، فـقـالـواـ: نـبـاـيـعـكـ؟ـ قـالـ: عـلـىـ أـنـ لـاـ أـحـارـبـ وـلـاـ أـبـاـشـرـ قـتـالـاـ، فـأـبـرـأـ ذـلـكـ عـلـيـهـ، فـصـارـ إـلـىـ مـكـةـ، وـدـخـلـ فـيـ جـمـلةـ اـبـنـ الزـبـيرـ.

وـزـالـ الـأـمـرـ عـنـ آـلـ حـزـبـ فـلـمـ يـكـنـ فـيـهـمـ مـنـ يـرـومـهـاـ، وـلـاـ يـتـشـوـفـ نـحـوـهـاـ، وـلـاـ يـرـتـجـيـ أـحـدـ مـنـهـمـ لـهـ.

وـبـايـعـ أـهـلـ الـعـرـاقـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ الزـبـيرـ، فـاـسـتـعـمـلـ عـلـىـ الـكـوـفـةـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ مـطـيـعـ .ـالـعـدـوـيـ.

المختار في الكوفة

فقال المختار بن أبي عبيد الثقفي لابن الزبير : إنني لأعرف قوماً لو أن لهم رجلاً له رفقٌ وعلم بما يأتي لاستخراج لك منهم جنداً تغلب بهم أهل الشام ، فقال : من هم؟ قال : شيعةبني هاشم بالكوفة ، قال : كن أنت ذلك الرجل ، فبعثه إلى الكوفة ، فنزل ناحية منها ، وجعل يُظْهِر البكاء على الطالبين وشيعتهم ، ويظهر الحنين والجزع لهم ، ويحث علىأخذ الثأر لهم ، والمطالبة بدمائهم ، فمالت الشيعة إليه ، وانضافوا إلى جملته ، وسار إلى قصر الإمارة فأخرج ابن مطیع منه ، وغلب على الكوفة ، وابتلى لنفسه داراً ، واتخذ بستانًا أنفق عليه أموالاً عظيمة أخرجها من بيت المال ، وفرق الأموال على الناس بها تفرقةً واسعة ، وكتب إلى ابن الزبير [يعلمه أنه إنما أخرج ابن مطیع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها ، ويسمون ابن الزبير] أن يحسب له بما أنفقه من بيت المال ، فأبى ابن الزبير ذلك عليه ، فخلع المختار طاعته ، وجحد بيته ، وكتب المختار كتاباً إلى علي بن الحسين السجاد يريده على أن يبایع له ، ويقول بإمامته ، ويظهر دعوته ، وأنفذ إليه مالاً كثيراً ، فأبى علي أن يقبل ذلك منه أو يجيئه عن كتابه ، وسبه على رؤوس الملا في مسجد النبي ﷺ ، وأظهر كذبه وفجوره ، ودخوله على الناس ياظهار الميل إلى آل أبي طالب ، فلما يئس المختار من علي بن الحسين كتب إلى عمّه محمد ابن الحنفية يريده على مثل ذلك ، فأشار عليه علي بن الحسين أن لا يجيئه إلى شيء من ذلك ، فإن الذي يحمله على ذلك اجتنابه لقلوب الناس بهم ، وتقربه إليهم بمحبتهم ، وباطلته مخالف لظاهره في الميل إليهم ، والتَّوَلِي لهم ، والبراءة من أعدائهم ، بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم ، والواجب عليه أن يشهر أمره ويظهر كذبه ، على حسب ما فعل هو وأظهر [ما] من القول في مسجد رسول الله ﷺ ، فأتى ابن أبي الحنفية ابن عباس فأخبره بذلك ، فقال له ابن عباس : لا تفعل ، فإنك لا تدرى ما أنت عليه من ابن الزبير ، فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار .

واشتد أمر المختار بالكوفة ، وكثُر رجاله ، ومال الناسُ إليه ، وأقبل يدعوه الناس على طبقاتهم ومقاديرهم في أنفسهم وعقولهم ، فمنهم من يخاطبه بإمامته محمد ابن الحنفية ، ومنهم من يدفعه عن هذا فيخاطبه بأنَّ المَلَكَ يأتيه بالوحى ويخبره بالغيب ، وتبع قتلة الحسين فقتلهم : قتل عمرو بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، وهو الذي تولى حرب الحسين يوم كربلاء وقتله ومن معه ، فزاد ميل أهل الكوفة إليه ، ومحبتهم له .

حال ابن الزبير

وأظهر ابن الزبير الزهد في الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة، وقال: إنما بطني شبر، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا، وأنا العائد بالبيت، والمستجير بالرب، وكثرت أديتها لبني هاشم مع شحه بالدنيا على سائر الناس، ففي ذلك يقول أبو وجزة مولى الزبير:

إِنَّ الْمَوَالِيَ أَمْسَتُ وَهِيَ عَاتِبَةٌ
عَلَى الْخَلِيفَةِ تَشْكُوُ الْجُوعَ وَالْحَرَبَ؟
مَاذَا عَلَيْنَا وَمَاذَا كَانَ يَرْزُقُنَا
أَيُّ الْمُلُوكَ عَلَى مَا حَوْلَنَا غَلَبَاً؟

و فيه يقول بعد مفارقه إياه:

مَا زَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ يَقْرُؤُهَا
لَوْ كَانَ بِطْنِكَ شِبْرًا قَدْ شَيْعَتْ، وَقَدْ
إِنْ امْرًا كُنْتَ مَوْلَاهُ فَضَيْعَنِي
يَرْجُو الْفَلَاحَ لِعُمْرِي حَقُّ مَغْبُونٍ
وَفِيهِ يَقُولُ أَيْضًا:

فِيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبِلَعْنَ
كَبِيرَ بْنِي الْعَوَامِ إِنْ قِيلَ: مَنْ تَعْنِي
تَخْبِرُ مَنْ لَاقِيتَ أَنْكَ عَائِدٌ
وَتَكْثُرَ قَتْلًا بَيْنَ زَمْرَمْ وَالرُّكْنِ
وَفِيهِ يَقُولُ [أَيْضًا] الصَّحَاكَ بْنَ فِيروزَ الدِّيلِمِيِّ:

تَخْبِرُنَا أَنْ سَوْفَ تَكْفِيكَ قَبْضَةٌ
وَبِطْنُكَ شِبْرٌ أَوْ أَقْلَ منَ الشِّبْرِ
وَأَنْتَ إِذَا مَا نَلْتَ شَيْئًا قَضَمْتَهُ
كَمَا قَضَمْتُ نَارُ الغُصَى خَطْبَ السُّدُرِ
فَلَوْ كُنْتَ تَجْزِي إِذْ تَبِيتَ بِنَعْمَةٍ
قَرِيبًا لِرَدْتُكَ الْعَطْوفَ عَلَى عَمْرَو

ابن الزبير وأخوه عمرو

وذلك أن يزيد بن معاوية كان قد ولى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة فسرح منها جيشاً إلى مكة لحرب ابن الزبير عليه عمرو بن الزبير أخيه، وكان عمرو منحرفاً عن عبد الله، فلما تصفّ القوم انهزم رجال عمرو وأسلموه، فظفر به أخيه عبد الله، فأقامه للناس بباب المسجد الحرام مجردًا، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات.

ابن الزبير والحسن بن محمد ابن الحنفية

وحبس عبد الله بن الزبير الحسن بن محمد ابن الحنفية في الحبس المعروف بحبس عارم، وهو حبس موحش مظلم، وأراد قتله، فعمل الحيلة حتى تخلص من

السجن، وتعسّف الطريق على الجبال حتى أتى مني وبها أبوه محمد ابن الحنفية ففي ذلك يقول كثير:

تخيّرُ من لاقيتْ أَنْك عائِدْ
بل العائد المظلوم في سجن عارم
ومن ير هذا الشّيخ بالخيف من مُنْيٍ
من الناس يعلم أنه غيْرُ ظالِم
سمّي نبِيَ الله وابن وصيَّه وفَكَاكُ أغلاَلٍ وفاضي مغامِر
وقد كان ابن الزبير عمد إلى من بِمَكَةَ من بني هاشم فحضرهم في الشُّغُبِ، وجمع
لهم حَطَباً عظيماً لو وقعت فيه شارة من نار لم يسلم من الموت أحد، وفي القوم محمد
ابن الحنفية.

ابن الزبير وأل بيته الرسول

وحدث النّوْفَلِيُّ علي بن سليمان، عن فضيل بن عبد الوهاب الكوفي، عن أبي عمران الرازي، عن فطر بن خليفة، عن الديال بن حرملة، قال: كنت فيمن استقره أبو عبد الله الجدلي من [أهل] الكوفة من قبل المختار، فنفرنا معه في أربعة آلاف فارس، فقال أبو عبد الله: هذه خيل عظيمة، وأخاف أن يبلغ ابن الزبير الخبر فيتعجل على بني هاشم، ف يأتي عليهم، فانتدبوا معي، فاتدبتنا [معه] في ثمانمائة فارس جريدة خيل، فما شعر ابن الزبير إلا والرأيَات تتحقق على رأسه، قال: فجئنا إلى بني هاشم، فإذا هم في الشُّغُبِ، فاستخر جناتهم، فقال لنا ابن الحنفية: لا تقاتلوا إلا من قاتلوكم، فلما رأى ابن الزبير تنمرة له وإندامنا عليه لاذ بأستار الكعبة، وقال: أنا عائد الله.

وحدث النّوْفَلِيُّ في كتابه في الأخبار، عن ابن عائشة، عن أبيه، عن حماد بن سلمة، قال: كان عروة بن الزبير يعذر أخاه إذا جرى ذكر بني هاشم وحضره إياهم في الشُّغُبِ وجمعه [لهم] الحطب لحرثيقهم، ويقول: إنما أراد بذلك إرهابهم [ليدخلوا في طاعته] إذ هم أبوا البيعة فيما سلف، وهذا خبر لا يتحمل ذكره هنا، وقد أتينا على ذكره في كتابنا في مناقب أهل البيت وأخبارهم المترجم بكتاب «حدائق الأذهان».

وخطب ابن الزبير فقال: قد بايعني الناس، ولم يتخلَّفْ [عن بيعتي] إلا هذا الغلام محمد ابن الحنفية، والموعد بيني وبينه أن تغرب الشمس، ثم أضرم داره عليه ناراً، فدخل ابن العباس على ابن الحنفية فقال: يا ابن عم، إني لا آمنه عليك فباعيه، فقال: سيمعنيه عني حجاب قوي، يجعل ابن عباس ينظر إلى الشمس ، ويفكر في كلام ابن الحنفية، وقد كادت الشمس أن تغرب، فوافاهم أبو عبد الله الجدلي فيما ذكرنا من الخيل، وقالوا لابن الحنفية: ائذن لنا فيه، فأبى، وخرج إلى أئلَةَ فأقام بها سين، ثم قتل

ابن الزبير، كذلك حدث عمر بن شبة النميري، عن عطاء بن مسلم، فيما أخبرنا به أبو الحسن المهراني المصري بمصر، وأبو إسحاق الجوهري بالبصرة، وغيرهما.

الكيسانية وقولهم في ابن الحنفية

وهو لاء الذين وردوا إلى ابن الحنفية هم الشيعة الكيسانية، وهم القائلون بإماماة محمد ابن الحنفية، وقد تنازعوا الكيسانية بعد قولهم بإمامرة محمد ابن الحنفية: فمنهم من قطع بموته، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه حي في جبال [رضوى]، وقد تنازع كل فريق من هؤلاء أيضاً، وإنما سموا بالكيسانية لإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي، وكان اسمه كisan، ويكتنى أبا عمرا، [وأن علي بن أبي طالب سماه بذلك، ومنهم من رأى أن كisan أبا عمرا] هو غير المختار، وقد أتينا على أقاويل فرق الكيسانية وغيرهم من فرق الشيعة وطوائف الأمة في كتابنا في «المقالات في أصول الديانات» وذكرنا قول كل فريق منهم، وما أيد به مذهبها، وقول من ذكر منهم أن ابن الحنفية دخل إلى شعب رضوى في جماعة من أصحابه فلم يعرف لهم خبر إلى هذه الغاية.

وقد ذكر جماعة من الأخباريين أن كثيراً الشاعر كان كيسانياً، ويقول: إن محمد ابن الحنفية هو المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت [شراً و] جوراً.

وحكى الزبير بن يكار في كتابه «أنساب قريش» في أنساب آل أبي طالب وأخبارهم منه قال: أخبرني عمي، قال: قال كثير أبياتاً له يذكر ابن الحنفية رضي الله عنه، وأولها:

هو المهدئ خبرناه كُفْبُ أخو الأحبار في الحَقِّ الخوالى
أَفَرَّ اللَّهُ عَيْنِي إِذْ دَعَانِي أَمِينُ اللَّهِ يَلْطُفُ فِي السُّؤَالِ
وَأَنْسَى فِي هَوَى عَلَيَّ خَيْرًا وَكَيْفَ حَالِي
وَفِيهِ يَقُولُ أَيْضًا كَثِيرًا:

وَلَا الْحَقُّ أَرِبْعَةَ سَوَاء
عَلَيَّ وَالثَّلَاثَةَ مِنْ بَنِيهِ
فَسَبَطَ سَبَطَ إِيمَانَ وَبِرَّ
وَسَبَطَ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ حَتَّى
تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا
أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قَرِيشٍ

وَفِيهِ يَقُولُ السَّيِّدُ الْحَمِيرِيُّ، وَكَانَ كَيْسَانِيًّا:

أَطْلَتْ بِذَلِكَ الْجَبَلَ الْمُقَامَا
أَضَرَّ بِمُعْشَرِ وَالْوَكْ مَنَا
وَعَادُوا فِيهِ أَهْلُ الْأَرْضِ طُرَّا
وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ
لَقَدْ أَمْسَى بِمَرْدَفِ شِعْبِ رَضْوَى
وَفِيهِ يَقُولُ السَّيِّدُ أَيْضًا:

يَا شَعْبَ رَضْوَى مَا لَمْنَ بَكَ لَا يَرِي
وَبِنَا إِلَيْهِ مِنَ الصَّبَابَةِ أُوْلَئِنَّ
حَتَّى مَتَى؟ وَإِلَى مَتَى؟ وَكَمِ الْمَدَى؟ يَا ابْنَ الرَّسُولِ وَأَنْتَ حَيٌّ ثُرَّزَفَ
وَلِلْسَّيِّدِ فِيهِ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ لَا يَأْتِي عَلَيْهَا كَتَابُنَا هَذَا.

وذكر علي بن محمد بن سليمان التوفلي في كتابه الأخبار مما سمعناه من أبي العباس بن عمار، قال: حدثنا جعفر بن محمد التوفلي، قال: حدثنا إسماعيل الساحر، وكان راوية السيد الحميري، قال: ما مات السيد إلا على قوله بالكريسانية، وأنكر قوله في القصيدة التي أولها:

* تَجَعَّفَرْتُ بِاسْمِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ *

قال أبو الحسن علي بن محمد التوفلي عقب هذا الخبر: وليس يشبه هذا شعر السيد؛ لأن السيد مع فصاحة قوله وجزالة قوله لا يقول تَجَعَّفَرْتُ باسم الله.

وذكر عمر بن شَيْبَةَ النَّمِيرِيَّ، عن مساور بن السائب، أن ابن الزبير خطب أربعين يوماً لا يصلی على النبي ﷺ، وقال: لا يمنعني أن أصلی عليه إلا أن تَشَمَّخَ رجالاً باأنفها.

بين ابن عباس وابن الزبير

وذكر سعيد بن جبیر أن عبد الله بن عباس دخل على ابن الزبير فقال له ابن الزبير: أنت الذي تؤنبني وتبخلي بي؟ قال ابن عباس: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس المسلم الذي يشبع ويجوع جاره» فقال ابن الزبير: إني لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة، وجرى بينهم خطب طويل، فخرج ابن عباس من مكة خوفاً عن نفسه فنزل الطائف، فتوفي هناك، ذكر هذا الخبر عمر بن شَيْبَةَ النَّمِيرِيَّ، عن سويد بن سعيد، يرفعه إلى سعيد بن جبیر فيما حدثنا به المهراني بمصر، والكلابي بالبصرة، وغيرهما، عن عمر بن شَيْبَةَ.

بين ابن الحنفية وابن الزبير

وحدث النوفلي في كتابه في الأخبار عن الوليد بن هشام المخزومي ، قال: خطب ابن الزبير فنال من علي ، فبلغ ذلك ابنه محمد ابن الحنفية [فجاء] حتى وضع له كرسي قدامه ، فعلاه ، وقال : يا عشر قريش ، شاهت الوجوه ! أينتقص علي وأنت حضور ؟ علياً كان سهّماً صادقاً أحد مرادي الله على أعدائه يقتلهم لكرفهم ويُهُوّعُهُم مَاكّلهم ، فنفل عليهم ، فرموه بقرفة الأباطيل ، وإنما عشر له على ثبع من أمره بنو النخبة من الأنصار ، فإن تكن لنا في الأيام دولة نشر عظامهم ونحسّر عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية ، «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلِبٍ يَنْقَلِبُونَ» [الشعراء: ٢٢٧] ، فعاد ابن الزبير إلى خطبته ، وقال : عذرّتبني الفواطم يتكلّمون ، فما بال ابن الحنفية ؟ فقال محمد : يا ابن أم رومان ، وما لي لا أنكلّم ؟ أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبي وأم إخوتي ؟ أوليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتي ؟ أوليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبي ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركت فيبني أسد عظّماً إلا هشمتها ، وإن نالتني فيه المصائب صبرت .

ابن الزبير ينتقص ابن العباس

حدثنا ابن عمار ، عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، قال : حدثني ابن عائشة والعتبي جميعاً عن أبويهما ، وألفاظهما متقاربة ، قالا : خطب ابن الزبير .

قال : ما بال أقوام يفتون في المتعة ، وينقصون حواري الرسول وأم المؤمنين عائشة ، ما بالهم أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم ، يُعرّض بابن عباس ، فقال [ابن عباس] : يا غلام ، اصمدني صمده ، فقال : يا ابن الزبير :

قد أنصف القارة منْ راماها إنما إذا ما فئة نلقاها
* نَرُدُّ أولاً دها على آخرها *

أما قولك في المتعة فسل أملك تخبرك ، فإن أول متعة سطع مجرّها لمجر سطع بين أملك وأملك ، يريد متعة الحج ، [وأما قولك «أم المؤمنين» فبنا سميت أم المؤمنين ، وبنا ضرب عليها الحجاب] وأما قولك «حواري رسول الله ﷺ» فقد لقيت أباك في الزّحف وأنا مع إمام هدى ، فإن يكن على ما أقول فقد كفر بقتلنا ، وإن يكن على ما تقول فقد كفر بهربه عنا ، فانقطع ابن الزبير ودخل على أمه اسماء ، فأخبرها ، فقالت : صدق . قال المسعودي : وفي هذا الخبر زيادات من ذكر البردة والعوسجة ، وقد أتينا على

الخبر بتمامه وما قاله الناس في مُتعة النساء ومتنة الحج وتنازعهم في ذلك وما ذكر عن النبي ﷺ من أنه حرمتها عام خير [ولحوم الحمر الأهلية] وما ذكر في حديث الريبع بن سبئه عن أبيه وقول عمر «كانت في عهد رسول الله ﷺ، ولو تقدمت بالنهي لفعلت بفاعل ذلك كذا وكذا» وما روي عن جابر قال: تمنتنا في عهد رسول الله ﷺ، وخلافة أبي بكر، وصدر من خلافة عمر، وغير ذلك من أقاويلهم، في كتابنا المترجم بكتاب «الاستبصار» وفي كتاب «الصفوة» وفي كتابنا المترجم بالكتاب «الواجب في الفروض اللوازم» وما قال الناس في غسل الرجلين، ومسحهما، والمسح على الخفين، وطلاق السنة، وطلاق العدة وطلاق التعدي، وغير ذلك.

وقد حدث التوفلي، عن أبي عاصم، عن ابن جريج، قال: حدثني منصور بن شيبة، عن صفية بنت أبي عبيد، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما قدمتنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع أمرَ مَنْ لم يكن معه هَذِي أَنْ يَحْلِ، قالت: فَأَحْلَلتْ، فلبست ثيابي، وتطيبت، وجئت حتى جلست إلى جنب الزبير، فقال: قومي عنِّي، فقلت: ما تخاف؟ قال: أَخَافُ أَنْ أُثْبَطَ عَلَيْكَ؟ فَهَذَا الَّذِي أَرَادَ أَبُو عَبَّاسَ.

وقد ذكر هذا الحديث عن أبي عاصم غير التوفلي، وقد تنازع الناس في ذلك: فمنهم من رأى أنه عَنِّي متعة النساء، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج؛ لأن الزبير تزوج أسماء بكرًا في الإسلام، زوجة أبو بكر معلناً، فكيف تكون متعة النساء.

بين ابن الزبير والحسين بن نمير

ولما هلك يزيد بن معاوية ووليهما معاوية بن يزيد نمي ذلك إلى الحسين بن نمير ومن معه في الجيش من أهل الشام، وهو على حرب ابن الزبير، فهادنوا ابن الزبير، ونزلوا مكة، فلقي الحسين عبد الله في المسجد، فقال له: هل لك يا ابن الزبير أن أحملك إلى الشام وأبأي لك بالخلافة؟ فقال عبد الله رافعًا صوته: أبعد قتل أهل الحرّة، لا والله حتى أقتل بكل رجل خمسة من أهل الشام، فقال الحسين: مَنْ زعم يا ابن الزبير أنك داهية فهو أحمق، أكلمك سرًا وتتكلمني علانية، أدعوك [إلى] أنني أستخلفك فترفع الحرب وتزعم أنك تقاتلنا، فستعلم أينما المقتول، وانصرف أهل الشام إلى بلادهم مع الحسين، فلما صاروا إلى المدينة جعل أهلها يهتفون بهم، ويتوعدونهم، ويذكرون قتلاهم بالحرّة، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهَيَّجُوهَا صعد روح بن زنباع الجذامي على منبر رسول الله ﷺ، وكان في ذلك الجيش، فقال: يا أهل المدينة، ما هذا الإيذاد الذي تعودوننا؟ إنا والله ما دعوناكم إلى كلب لمبايعة رجل منهم، ولا إلى رجل من يأقين، ولا إلى رجل من لخم أو جذام، ولا غيرهم من العرب [والموالي]، ولكن

دعوناكم إلى هذا الحي من قريش، يعني بني أمية، ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية، وعلى طاعته قاتلناكم، فإيانا توعدون؟ أما والله إنما لأنباء الطعن والطاعون، وفضلات الموت والمنون، فما شئتم، وممضى القوم إلى الشام.

ابن الزبير يبني الكعبة على قواعد إبراهيم

وحمل إلى ابن الزبير من صنائع الفسيفساء التي كان بناها أبرهة الحشبي في كنيسته التي اتخذها هنالك، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيه وشی منقوش قد حشى النقش السنديروس وأنواع الألوان من الأصباغ، فمن رأه ظنه ذهباً، وشرع ابن الزبير في بناء الكعبة، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أثيناً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذي أسسه هو وإسماعيل ﷺ، فبناء ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين، وجعل له بابين: باباً يدخل منه، وباباً يخرج منه، فلم يزل البيت على ذلك حتى قتل الحجاج عبد الله بن الزبير، وكتب إلى عبد الملك [بن مروان] يعلمه بما زاده ابن الزبير في البيت، فأمره عبد الملك بهدمه، ورده إلى ما كان عليه آنفاً من بناء قريش وعصر الرسول ﷺ، وأن يجعل له باباً واحداً، ففعل الحجاج ذلك.

واستوثق الأمر لابن الزبير، وأخذت له البيعة بالشام، وخطب له على سائر منابر الإسلام، إلا منبر طبرية من بلاد الأردن، فإن حسان بن مالك بن بجدل أبي أن يباع لابن الزبير، وأرادها لخالد بن يزيد بن معاوية، وكان القيم بأمر بيعة ابن الزبير بمكة عبد الله بن مطيع العدوبي؛ ففي ذلك يقول قضاة الأسدية، وكان بائع لابن الزبير ثم نكث: دعا ابن مطيع للبيع فجئته إلى بيعة قلبي لها غير ألف فناولني خشنة لما لمستها بكفي ليست من أكف الخلائف

عبيد الله بن زياد والخلافة

وهلك يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد، وعبيد الله بن زياد على البصرة أمير، فخطب الناس وأعلمهم بموتهم، وأن الأمر شورى لم ينصب له أحد، وقال: لا أرض اليوم أوسع من أرضكم، ولا عدّ أكثر من عدكم، ولا مال أكثر من مالكم، في بيته مالكم مائة ألف ألف درهم، ومقاتلتكم ستون ألفاً، وعطاؤهم وعطاء العيال ستون ألف ألف درهم، فانظروا رجالاً ترضونه يقوم بأمركم، ويواجهون عدوكم، وينصف مظلومكم من ظالمكم، ويوزع بينكم أموالكم، فقام إليه أشراف أهلها - ومنهم الأحنف بن قيس التميمي، وقيس بن الهيثم السلمي، ومسمع بن مالك العبدلي - فقالوا: ما نعلم ذلك

الرجل غيرك أيها الأمير، وأنت أحق منْ قام على أمرنا حتى يجتمع الناس على خليفة،
فقال: أما لو استعملتم غيري لسمعت وأطعـت.

ال Kovfah Taby al-Anqiyad li

وقد كان على الكوفة عمرو بن حرث الخزاعي عاملاً لعيبد الله بن زياد، فكتبه إليه عيبد الله يعلمه بما دخل فيه أهل البصرة، ويأمره أن يأمر أهل الكوفة بما دخل فيه أهل البصرة، [فقصد عمرو بن حرث على المنبر، فخطب الناس وذكر لهم ما دخل فيه أهل البصرة] فقام يزيد بن رويم الشيباني فقال: الحمد لله الذي أطلق أيماننا، لا حاجة لنا في بنى أمية، ولا في إمارة ابن مرجانة، وهي أم عيبد الله، وأم أبيه زياد سمية على ما ذكرنا آنفاً، إنما البيعة لأهل الحجاز - يعني أهل الحجاز - فخلع أهل الكوفة ولالية بنى أمية وإمارة ابن زياد وأرادوا أن ينصبو لهم أميراً إلى أن ينظروا في أمرهم، فقال جماعة: عمرو بن سعد بن أبي وقاص يصلح لها، فلما هموا بتأميره أقبل نساء من همدان وغيرهن من نساء كهلان [والأنصار] وربيعة والنخع حتى دخلن المسجد الجامع صارخات باكيات مغولات يندبن الحسين ويقلن: أما رضي عمرو بن سعد بقتل الحسين حتى أراد أن يكون أميراً علينا على الكوفة، فبكى الناس، وأعرضوا عن عمرو، وكان المبرزات في ذلك نساء همدان، وقد كان على الله مائلاً إلى همدان مؤثراً لهم، وهو القائل:

فله كنت بَوَايَا عَلِمْ بَاب حَنَة لَقْت لَهُمْ دَان ادْخُلُوا بَسْلَام

وقال:

* عَنْتُ هَمْدَانٍ وَعَنْهَا حَمِيَّاً *

ولم يكن بصفين منهم أحد مع معاوية وأهل الشام إلا ناس كانوا بغوطه دمشق،
بقرية تعرف بعين ثرما، فيها منهم قوم إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين
وثلاثمائة.

ولما اتصل خبر أهل الكوفة بابن الزبير أخذ إليهم عبد الله بن مطیع العدوی على ما قدمنا آنفاً، فتولی أمرهم حتى وَجَهَ المختار في أثره.

تدبير مروان بن الحكم

ونظر مروان بن الحكم في إطباقي الناس على مبادئ ابن الزبير، وإنجابهم له، فأراد أن يلحق به وينضاف إلى جملته، فمنعه من ذلك عبيد الله بن زياد عند لحاقه بالشام، وقال له: إنك شيخ بني عبد مناف فلا تتعجل، فصار مروان إلى الجاوية، من أرض الجولان، بين دمشق والأردن، واستتمال الضحاك بن قيس الفهري الناس، ورؤسهم،

وانحاز عن مرwan، وأراد دمشق، فسبقه إليها الأشدق، عمرو بن سعيد بن العاص [فدخلها] وصار الضحاك إلى حوران [والبئنة] وأظهر الدعوة لابن الزبير، والتقوى الأشدق ومروان، فقال الأشدق لمروان: هل لك فيما أقوله لك فهو خير لي ولنك؟ قال مروان: وما هو؟ قال: أدعو الناس إليك وأخذها لك على أن تكون لي من بعده، فقال مروان: لا، بل بعد خالد بن معاوية، فرضي الأشدق بذلك، ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا، ومضى الأشدق إلى حسان بن مالك بالأردن، فأرغبه عن بيعة مروان، فجنه لها.

البيعة لمروان

وبويع مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ويكنى أبو عبد الملك، وأمه آمنة بنت علقة بن صفوان، وذلك بالأردن، وكان أول من بايعه أهلها، وتمت بيعته.

وكان مروان أول من أخذها بالسيف كرهاً على ما قيل بغير رضا من عصبة من الناس، بل كلُّ خوفه إلا عددًا يسيراً حملوه على وثوبه عليها، وقد كان غيره ممن سلف أخذها بعد وأعون، إلا مروان، فإنه أخذها على ما وصفنا!

وبایع مروان بعده لخالد بن يزيد، ولعمرو بن سعيد الأشدق بعد خالد وكان مروان يلقب بخيط باطل، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن الحكم [أخوه]:

لَحَا اللَّهُ قَوْمًا أَمْرُوا خِيطَ بَاطِلٍ عَلَى النَّاسِ يَعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ

واشتربط حسان بن مالك - وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام - على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية، وابنه يزيد، وابنته معاوية بن يزيد: منها أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عميه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي، وصدر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة، فرضي مروان بذلك، فانقاد إليه، وقال له مالك بن هيبة اليشكري: إنه ليست لك في أعناقنا بيعة، وليس نقاتل [إلا] عن عَرَضِ دنيا؛ فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك، وإن تكن الأخرى فوالله ما قریش عندنا إلا سواء، فأجابه مروان إلى ما سأله! .

لقاء مروان والضحاك بن قيس

وسار مروان نحو الضحاك بن قيس الفهري، وقد انحازت قيس وسائر مصر وغيرهم من نزار إلى الضحاك، ومعه أناس من قضاة، عليهم وائل بن عمرو العدواني،

وكانـت معه راية عَقَدَها رسول الله ﷺ لأـيهـهـ، وأـظـهـرـ الضـحـاكـ وـمـنـ معـهـ خـلـافـةـ ابنـ الزـبـيرـ،ـ والـتـقـىـ مـرـوانـ وـالـضـحـاكـ وـمـنـ معـهـماـ بـمـرـجـ رـاهـطـ عـلـىـ أـمـيـالـ مـنـ دـمـشـقـ؛ـ فـكـانـ بيـنـهـمـ الـحـرـوبـ سـجـالـاـ،ـ وـكـثـرـ الـيـمانـيـةـ عـلـيـهـمـ وـبـوـادـيـهـاـ مـعـ مـرـوانـ؛ـ فـقـتـلـ الضـحـاكـ بنـ قـيسـ رـئـيـسـ جـيـشـ ابنـ الزـبـيرـ،ـ قـتـلـهـ رـجـلـ مـنـ ثـيـمـ الـلاتـ،ـ وـقـتـلـ مـنـ مـعـهـ مـنـ نـزارـ،ـ وـأـكـثـرـهـمـ مـنـ قـيسـ،ـ مـقـتـلـةـ عـظـيمـةـ لـمـ يـرـ مـثـلـهـ قـطـ،ـ وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ مـرـوانـ بنـ الـحـكـمـ:

لـمـ رـأـيـتـ النـاسـ صـارـواـ حـزـبـاـ وـالـمـالـ لـاـ يـؤـخـذـ إـلـاـ عـصـبـاـ
ذـعـرـوتـ عـسـانـاـ لـهـمـ وـكـلـبـاـ وـالـسـكـسـكـيـيـنـ رـجـالـاـ غـلـبـاـ
وـالـقـيـنـ تـمـشـيـ فـيـ الـحـدـيدـ نـكـبـاـ وـالـأـغـوـجـيـاتـ يـثـبـنـ وـنـبـاـ
بـحـمـلـنـ سـرـوـاتـ وـدـيـنـاـ ضـلـبـاـ

وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ أـخـوـهـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بنـ الـحـكـمـ:

أـرـىـ أحـادـيـثـ أـهـلـ الـمـرـجـ قدـ بـلـغـتـ أـهـلـ الـفـرـاتـ وـأـهـلـ الـفـيـضـ وـالـنـيلـ
وـكـانـ زـفـرـ بنـ الـحـارـثـ الـعـامـرـيـ،ـ ثـمـ الـكـلـابـيـ،ـ مـعـ الضـحـاكـ،ـ فـلـمـ أـمـعـنـ السـيفـ فـيـ
قـوـمـهـ وـلـىـ وـمـعـهـ رـجـلـانـ مـنـ بـنـيـ سـلـيمـ،ـ فـقـصـرـ فـرـسـاهـمـاـ وـغـشـيـهـمـاـ الـيـمانـيـةـ مـنـ خـيلـ مـرـوانـ،ـ
فـقـالـاـ لـهـ:ـ اـنـجـ بـنـفـسـكـ فـإـنـاـ مـقـتـولـانـ،ـ فـوـلـىـ رـاـكـضـاـ،ـ وـلـحـقـ الـرـجـلـانـ،ـ فـقـتـلـاـ،ـ وـفـيـ هـذـاـ الـيـومـ
يـقـولـ زـفـرـ بنـ الـحـارـثـ الـكـلـابـيـ مـنـ أـبـيـاتـ كـثـيرـةـ:

لـعـمـرـيـ لـقـدـ أـبـقـتـ وـقـيـعـةـ رـاهـطـ
فـقـدـ يـبـنـتـ المـرـعـىـ عـلـىـ دـمـنـ الـثـرـىـ
أـرـىـنـيـ سـلاـحـيـ لـاـ أـبـالـكـ إـنـيـ
أـتـدـهـبـ كـلـبـ لـمـ تـنـلـهـ رـمـاحـنـاـ
فـلـمـ تـرـ مـيـنـيـ نـبـوـةـ قـبـلـ هـذـهـ
عـشـيـةـ أـغـدـوـ فـيـ الـفـرـيقـيـنـ لـاـ أـرـىـ
أـيـذـهـبـ يـوـمـ وـاحـدـ إـنـ أـسـأـثـهـ
أـبـعـدـ اـبـنـ عـمـروـ وـابـنـ مـعـنـ تـتـابـعـاـ

وـتـلـاحـقـ النـاسـ مـنـ حـضـرـ الـوـقـعـةـ بـأـجـنـادـهـمـ مـنـ أـرـضـ الشـامـ،ـ وـكـانـ النـعـمـانـ بـشـيرـ
وـالـيـاـ عـلـىـ حـمـصـ قـدـ خـطـبـ لـاـبـنـ الزـبـيرـ مـمـالـيـاـ لـلـضـحـاكـ،ـ فـلـمـ بـلـغـهـ قـتـلـهـ وـهـزـيـمةـ الـزـيـنـيـةـ
خـرـجـ عـنـ حـمـصـ هـارـبـاـ،ـ فـسـارـ لـيـلـتـهـ [ـجـمـعـاءـ]ـ مـتـحـيـراـ لـاـ يـدـريـ أـينـ يـأـخـذـ،ـ فـأـتـبـعـهـ خـالـدـ بـنـ
عـدـيـ الـكـلـاعـيـ فـيـمـنـ حـفـفـ مـعـهـ مـنـ أـهـلـ حـمـصـ،ـ فـلـحـقـهـ وـقـتـلـهـ،ـ وـبـعـثـ بـرـأـسـهـ إـلـىـ مـرـوانـ،ـ

وانتهى زُفر بن الحارث [الكلابي] في هزيمته إلى قرقيسيا، فغلب عليها، واستقام الشام لمروان، وبَئَثَ فيه رجاله وعَمَالَه.

وسار مرwan في جنوده من الشام إلى [أهل] مصر، فحاصرها وخندق عليها خندقاً مما يلي المقبرة، وكانوا زُبُرِيَّة عليهم لابن الزبير [عبد الرحمن بن عتبة] بن جحدم، وسيد الفسطاط يومئذ وزعيمها أبو رشد بن كريب بن أبرهة بن الصباح، فكان بينهم وبين مرwan قتال يسير، وتوافقوا على الصلح، وقتل مرwan أكيدر بن الحمام صبراً، وكان فارس مصر، فقال أبو رشد لمروان: إن شئت والله أغدناها جَذَّعَة، يعني يوم الدار بالمدينة، فقال مرwan: ما أشاء من ذلك شيئاً، وانصرف عنها وقد استعمل عليها ابنه عبد العزيز.

وقدم مرwan الشام فنزل الصميرون على ميلين من طبرية من بلاد الأردن، فأحضر حسان بن مالك، وأرغبه وأرهبه، فقام حسان في الناس خطيباً، ودعاهم إلى بيعة عبد الملك بن مرwan [بعد مرwan]، وبيعة عبد العزيز بن مرwan بعد عبد الملك، فلم يخالفه في ذلك أحد.

موت مرwan بن الحكم

وهلk مرwan بدمشق في هذه السنة، وهي سنة خمس وستين، وقد تنازع أهل التواريχ وأصحاب السير ومن عُنِيَّ بأخبارهم في سبب وفاته: فمنهم من رأى أنه مات مطعوناً، ومنهم من رأى أنه مات حَنْفَتَ أَنْفَهُ، ومنهم من رأى أن فاختة بنت أبي هاشم بن عتبة أم خالد بن يزيد بن معاوية هي التي قتله، وذلك أن مرwan حين أخذ البيعة لنفسه ولخالد بن يزيد بعده وعمرو بن سعيد بعد خالد، ثم بدأ له غير ذلك فجعلها لابنه عبد الملك بعده، ثم لابنه عبد العزيز بعد عبد الملك ودخل عليه خالد بن يزيد فكلمه وأغْلَظَ له، فغضب من ذلك وقال: أتكلمني يا ابن الرَّطْبَة؟ وكان مرwan قد تزوج بأمه فاختة ليذلُّه بذلك ويَضَعَ منه، فدخل خالد على أمها فقبع لها تزوجها بمرwan، وشكَا إليها ما نزل به منه، فقالت: لا يعييك بعدها؛ فمنهم من رأى أنها وضعت على نَقَسِه وسادة وقعدت فوقها مع جواريها حتى مات، ومنهم من رأى أنها أَعْدَثَت له لبناً مسماً فلما دخل عليها ناولته إياه فشرب، فلما استقر في جوفه وقع وجود بنفسه وأمسك لسانه، فحضره عبد الملك وغيره من ولده؛ فجعل مرwan يشير إلى أم خالد [برأسه] يخبرهم أنها قتلت، وأم خالد تقول: بأبي [وأمي] أنت، حتى عند النزع لم تشتعل عنِّي، إنه يوصيكم بي، حتى هلك، فكانت أيامه تسعة أشهر وأياماً قلائل، وقيل: ثمانية أشهر،

وقيل غير ذلك مما سنورده عند ذكرنا للمدة التي ملكت فيها بنو أمية من الأعوام، فيما يرد من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

ترجمة مروان

وهلك مروان وهو ابن ثلاط وستين سنة، وقد ذكر غير ذلك في سنه، وكان قصيراً أحمر، ومولده لستين خلطاً من الهجرة، ولهلك بعدأخذ البيعة لولده بثلاثة أشهر، وقد ذكر ابن أبي خيثمة في كتابه في التاريخ أن النبي ﷺ توفي وموان ابن ثمان سنين، وكان لموان عشرون أخاً وثمانين أخوات، وله من الولد أحد عشر ذكراً وثلاث بنات، وهم: عبد الملك، وعبد العزيز، وعبد الله، وأبان، وداود، وعمر، وأم عمر، وعبد الرحمن، وأم عثمان، وعمرو، وأم بشر، ومحمد، ومعاوية، وقد ذكرنا هؤلاء ومن أعقب منهم ومن لم يعقب.

ولد يزيد بن معاوية

وقد كان يزيد بن معاوية خلف من الولد أكثر مما خلف مروان، وذلك أنه خلف: معاوية، وخالداً، وعبد الله الأكبر، وأبا سفيان، وعبد الله الأصغر، وعمر، وعاتكة، وعبد الرحمن، وعبد الله الذي لقبه الأصغر، وعثمان، وعتبة الأعور، وأبا بكر، ومحمدأ، ويزيد، وأم يزيد، وأم عبد الرحمن، ورملة.

ولد معاوية

[وخلف أبوه معاوية بن أبي سفيان من الولد: عبد الرحمن، ويزيد، وعبد الله، وهنداً ورملة، وصفية]

ذكر أيام عبد الملك بن مروان

موجز

ويُوَبِّعْ عبدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِيَلَةَ الْأَحْدَى غَرَةَ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَتِينَ، ثُمَّ بَعَثَ الْحَجَاجَ بْنَ يَوسُفَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ النَّاسِ بِمَكَّةَ، فُقْتَلَ عَبْدُ اللَّهِ يَوْمَ الْثَّلَاثَاءِ لِعَشْرِ مَضَيْنَ مِنْ جَمَادِيِّ الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، وَكَانَتْ وَلَايَةُ ابْنِ الزَّبِيرِ تَسْعَ سَنِينَ وَعَشْرَ لَيَالٍ، وَسَنْدَكْرُ مَدَةُ ابْنِ الزَّبِيرِ بَعْدَ هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَ ذَكْرِنَا لِجَامِعِ [مَدَة] مَلِكِ بَنِي أُمَيَّةَ، ثُمَّ هَاجَتْ فَتْنَةُ ابْنِ الْأَشْعَثِ فِي شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ اثْتَيْنِ وَسَمَانِينَ، ثُمَّ تَوَفَّى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بِدَمْشِقِ يَوْمَ السَّبْتِ لِأَرْبَعِ عَشَرَةِ مَضَيْنَ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ سَتِ وَسَمَانِينَ، وَكَانَتْ وَلَايَتُهُ مِنْذَ بَوْيَعَ إِلَى أَنْ تَوَفَّى إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً وَشَهْرًا وَنَصْفًا، وَبَقَى بَعْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ وَاجْتِمَاعِ مَنْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ مِنَ النَّاسِ ثَلَاثَ عَشَرَةِ سَنَةً وَأَرْبَعَةِ أَشْهَرٍ إِلَّا سَبْعَ لَيَالٍ، وَسَنْدَكْرُ مَا فَعَلَهُ مِنْ وَقْتٍ اسْتِقَامَةً مِنْ اسْتِقَامَةِ لِهِ مِنَ النَّاسِ، وَقَبِضَ وَهُوَ ابْنُ سَتِ وَسَتِينَ سَنَةً، وَقِيلَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ يُحِبُّ الشِّعْرَ وَالْفَخْرَ وَالتَّقْرِيبَ وَالْمَدْحَ [وَكَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْبَخْلُ، وَكَانَ لَهُ إِقْدَامٌ عَلَى الدَّمَاءِ]، وَكَانَ عُمَالَهُ عَلَى مَثْلِ مَذْهَبِهِ، كَالْحَجَاجِ بِالْعَرَاقِ، وَالْمَهَلْبِ بِخَرَاسَانِ، وَهَشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بِالْمَدِينَةِ، وَغَيْرُهُمْ [بِغَيْرِهَا]، وَكَانَ الْحَجَاجُ مِنْ أَظْلَمِهِمْ وَأَسْفَقِهِمْ لِلَّدَمَاءِ، وَسَنْدَكْرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ جَوَامِعَ مِنْ ذَكْرِهِ فِيمَا يَلِي هَذَا الْبَابَ.

ذكر جمل من أفعاله، وسيره ولمع مما كان في أيامه، ونواذر من أخباره

منادمة الشعبي لعبد الملك

ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان تأقث نفسه إلى محادثة الرجال والإشراف على أخبار الناس، فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشعبي، فلما حُجِّل إليه ونادمه [وَحَظِيَّ عَنْهُ] قال له يا شعبي لا تساعدني على ما قبح، ولا تردد على الخطأ في مجلسي، ولا تتكلّفي جواب التسفيت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية، ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى، وكلمني بقدر ما أستطيعك واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع مني، واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول.

أدب النديم

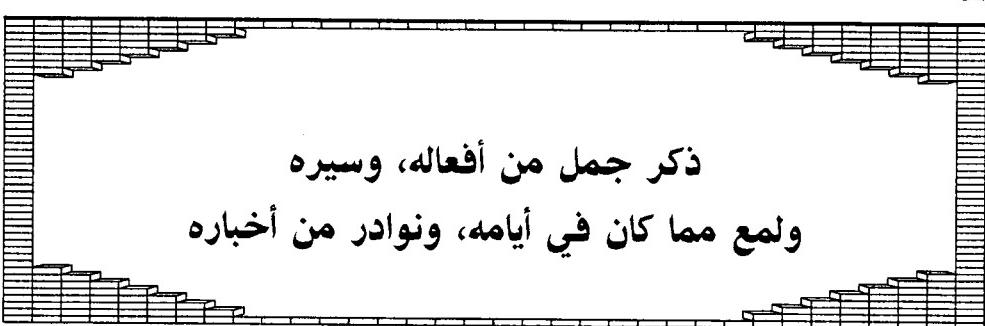
وإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتنك منه شيء، وأرني فهمك في طرفك وسمعك، ولا تجهد نفسك في تطريّة جوابي، ولا تستدعي بذلك الزيادة في كلامي؛ فإن أنسوا الناس حالاً من استكداد الملوك بالباطل، وإن أنسوا حالاً منهم من استخفّ بحقهم، واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان، ويسقط حق الحرمة؛ فإن الصمت في موضعه ربما كان أبلغ من المنطق في موضعه، وعند إصابته فرصة.

مهر الرياح

وقال عبد الملك للشعبي يوماً: من أين تهب الريح؟ قال: لا علم لي يا أمير المؤمنين قال عبد الملك: أما مهُبُّ الشَّمَال فمِنْ مَطْلَعِ بَنَاتِ نَعْشَ [إِلَى مَطْلَعِ الشَّمْسِ]، وأما مهُبُّ الصَّبَابَا فمِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلَى مَطْلَعِ سَهَنْلِ [إِلَى مَطْلَعِ سَهَنْلِ] إلى مغرب الشَّمْسِ، وأما الدَّبُور فمِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ إِلَى مَطْلَعِ بَنَاتِ نَعْشَ.

حركة للشيعة

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة، وتلاقو بالتلاؤم والتنادم حين قتل



الحسين فلم يغشوه، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً، بداعي الحسين إياهم ولم يجيئوه، ولمقتله إلى جانبهم فلم ينتصروه، ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم: سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجية الفزارى، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن وال التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي، ففسكروا بالخيلة، بعد أن كان لهم مع المختار بن أبي عبيدة الشفوي خطب طويل بتسيطه الناس عنهم من أراد الخروج معهم، ففي ذلك يقول عبد الله بن الأحمر يحرض على الخروج والقتال من أبيات:

صحوت ووذعْت الصبا والغوانيا وقلت لأصحابي: أجيروا العنادِيَا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى وقبل الدعا: لَبَّيْكَ لَبِيكَ دَاعِيَا
في شعر طويل يبحث فيه على الخروج، ويرثي الحسين ومن قتل معه، ويلوم
شيعته بتخلفهم عنه، ويدرك أنهم قد تابوا إلى الله [وأنابوا إليه] من الكبائر التي ارتكبواها إذ
لم ينتصروه، ويقول أيضاً في هذا الشعر:

ألا وانعَ خير الناس جداً ووالدَا
لَبَّيْكَ حسيناً مُرْمِلَ ذو حَصَاصَة
عديم وأيتام تشَكَّى المواليا
فأَصْحَى حسین للرماح دریئة
وغودر مسلوباً لدى الطَّفْ ثاویا
فیا ليتنی إذ ذاك كنت شهده
فضاربت عند الشائين الأعداء
بغربیة الطف الغمام الغواديا
سقی الله قبراً ضُمِنَ المجد والتقوى
فیا أمةً تاهَتْ وضلَّتْ سفاهة
أنيبوا فأرضاًوا الواحد المتعاليا

ثم ساروا يقدمهم من سَمِينا من الرؤساء وعبد الله بن الأحمر يقول:

خرجن يلمعن بنا أرسالا
عوابساً يحملننا أبطالا
ن يريد أن نلقى بها الأقيالا
القاسطين العُذْرَ الضُّلَّالا
وقد رَفَضْنَا الْوُلْدَ والأموالا
والخَفِراتَ البيضَ والحجالا
نرضى به ذا النعم المفضلا

موقع عين الوردة

فانتهوا إلى قرقيسيا من شاطيء الفرات وبها زُفْرُ بن العارث الكلابي، فأخرج إليهم الأنزال، وساروا من قرقيسيا ليسبقو إلى عين الوردة، وقد كان عبيد الله بن زياد توجّه من الشام إلى حربهم في ثلاثين ألفاً، وانفصل على مقدمته من الرقة خمسة أمراء،

منهم الحصين بن نمير السكوني، وشَرَحْبَيلُ بْنُ ذِي الْكَلَاعِ الْحَمِيرِيِّ، وأدْهَمُ بْنُ مَحْرَزِ الْبَاهْلِيِّ، ورَبِيعَةُ بْنُ الْمَخَارِقِ الْغَنْوَيِّ، وَجَبَلَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَثْعَمِيِّ، حَتَّى إِذَا صَارُوا إِلَى عَيْنِ الْوَرَدَةِ التَّقِيِّ الْأَقْوَامِ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ لَهُمْ مُتَأْوِشَاتٍ فِي الطَّلَائِعِ، فَاسْتَشَهَدَ سَلِيمَانُ بْنُ صُرَدِ الْخَزَاعِيِّ، بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنَ الْقَوْمِ مَقْتُلَةً عَظِيمَةً، وَأَبْلَى وَحْشٌ وَحَرَضٌ، وَرَمَاهُ يَزِيدُ بْنُ الْحَصِينِ بْنَ نَمِيرٍ بِسَهْمٍ فَقُتِلَ، فَأَخْذَ الرَايَةَ الْمُسَيْبَ بْنَ نَجْبَةَ الْفَزَارِيِّ، وَكَانَ مِنْ وَجْهِ أَصْحَابِ عَلَيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَرَّ عَلَى الْقَوْمِ وَهُوَ يَقُولُ:

قد علمتْ مَيَالَةَ الْذَوَابِ وَاضْحَاءَ الْلَبَابِ وَالْتَرَابِ
أَنِي غَدَةُ الرُّوعِ وَالْمَقَابِ أَشْجَعُ مِنْ ذِي لَيْدَةٍ مُؤَابِ

فَقَاتِلَ حَتَّى قُتِلَ، وَاسْتُقْتَلَ التَّرَابِيُّونَ، وَكَسَرُوا أَجْفَانَ السَّيْوِفِ، وَسَالَتْ عَلَيْهِمْ عَسَاكِرُ أَهْلِ الشَّامِ بِاللَّيلِ يَنَادُونَ الْجَنَّةَ إِلَى الْبَقِيَّةِ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي تَرَابِ الْجَنَّةِ إِلَى التَّرَابِيَّةِ، وَأَخْذَ رَايَةَ التَّرَابِيِّينَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدَ بْنَ نَفِيلَ، وَأَتَاهُمْ إِخْوَانُهُمْ يَحْثُوُنَ السَّيْرَ خَلْفَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَصَرَةِ وَأَهْلِ الْمَدَائِنِ فِي نَحْوِ مَنْ خَمْسَمِائَةَ فَارِسٍ عَلَيْهِمْ الْمُشْتَنِيُّ بْنُ مُخْرَمَةَ، وَسَعْدُ بْنُ حَذِيفَةَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: أَقْلَلْنَا رَبِّنَا تَفْرِيظَنَا فَقَدْ ثُبَّنَا، فَقَيْلَ لَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدَ بْنَ نَفِيلِ وَهُوَ فِي الْقَتَالِ: إِنَّ إِخْوَانَنَا قَدْ لَحَقُونَا مِنَ الْبَصَرَةِ وَالْمَدَائِنِ، فَقَالَ: ذَلِكَ لَوْ جَاءُوا وَنَحْنُ أَحْيَاءٌ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَشَهَدَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَمْنُونُ لَحْقَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَدَائِنِ كَثِيرُ بْنُ عَمْرُو الْمَدْنِيِّ. وَطَعَنَ سَعْدُ بْنُ أَبِي سَعْدِ الْحَنْفِيِّ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْخَطَّلِ الطَّائِيِّ، وَقُتِلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدَ بْنَ نَفِيلَ.

فَلَمَّا عَلِمَ مَنْ بَقِيَ مِنَ التَّرَابِيِّينَ: أَنَّ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِمَنْ يَازَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ انْحَازُوا عَنْهُمْ، وَارْتَحَلُوا، وَعَلَيْهِمْ رَفَاعَةُ بْنُ شَدَادِ الْبَجْلِيِّ، وَتَأْخِرُ أَبُو الْحَوَيْرَةِ الْعَبْدِيِّ فِي جَابِيَّةِ النَّاسِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَهْلُ الشَّامِ الْمَكَافَةَ وَالْمَتَارِكَةَ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ بَأْسِهِمْ وَصَبَرُوهُمْ مِنْ قَلْتَهُمْ، فَلَحِقَ أَهْلُ الْكَوْفَةِ بِمَصْرِهِمْ، وَأَهْلُ الْمَدَائِنِ وَالْبَصَرَةِ بِبَلَادِهِمْ، وَسَمِعَ مِنَ التَّرَابِيِّينَ فِي مَسِيرِهِمْ وَرَجْوِهِمْ مِنْ عَيْنِ الْوَرَدَةِ قَائِلًا يَقُولُ، رَافِعًا عَقِيرَتَهُ:

يَا عَيْنَ بَكَى ابْنُ الصَّرَدَ بَكَى إِذَا اللَّيلَ حَمَدَ
كَانَ إِذَا الْبَأْسِ نَكَدَ تَخَالَهُ فِيهِ أَسْدَ
مضِيَ حَمِيدًا قَدْ رَشَدَ فِي طَاعَةِ الْأَعْلَى الصَّمَدَ
وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو مَخْنَفَ لَوْطَ بْنَ يَحْيَى وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ التَّوَارِيخِ وَالسَّيْرِ مَنْ قُتِلَ مِنَ التَّرَابِيِّينَ مَعَ سَلِيمَانَ بْنَ صُرَدِ الْخَزَاعِيِّ عَلَى عَيْنِ الْوَرَدَةِ وَأَسْمَاءِهِمْ، فَقَلَلُوهُمْ.
وَحَكَى أَبُو مَخْنَفَ فِي كِتَابِهِ فِي أَخْبَارِ التَّرَابِيِّينَ بِعَيْنِ الْوَرَدَةِ قَصِيَّةً عَزَّاها إِلَى أَعْشَى

هَمْدَانَ طويلة يرثي بها أهل عين وردة من الترابيين ويصف ما فعلوه، منها:

توجّة من دون الشنية سائراً
إلى ابن زياد في الجموع الكتائب
فساروا وهم من بين ملتمس التقى
وآخر مما جرّ بالأمس تائب
عليهم فحيوهم ببعض قواضب
جماع كموج البحر من كل جانب
ولم ينفع منهم ثمّ غير عصائب
تَعَاوَرُهُمْ رِيحُ الصَّبَا والجنايب
كأن لم يقاتل مرة ويحارب
جميعاً مع التيمي هادي الكتائب
وبكر وزيد والحليس بن غالب
وطعن بأطراف الأسنة صائب
سُقِيَّثُمْ روايا كل سُحْمَ ساكب
إذا البيض أبدت عن خدام الكوابع
فلا تَبْعَدُوا فرساننا وحُمَّاتنا
فإن تقتلوا فالقتل أكرم ميته
وما قتلوا حتى أصابوا عصابة
وقيل: إن وقعة عين الوردة كانت في سنة ست وستين.

وصف القرآن لعلى كرم الله وجهه

وفي [سنة ست وستين، في] أيام عبد الملك بن مروان توفي الحارث الأعور صاحب علي عليه السلام، وهو الذي دخل على عليٍّ فقال: يا أمير المؤمنين ألا ترى إلى الناس قد أقبلوا على هذه الأحاديث وتركوا كتاب الله؟ قال: وقد فعلوها؟ قال: نعم، قال: أما إني رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه يقول: «ستكون فتنة» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما [كان] قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قضمه الله، ومن أراد الهدى في غيره أصله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ عنه العقول، ولا تلتبس به الألسن، ولا تنقضى عجائبه، ولا يعلم علم مثله، هو الذي لما سمعته الجن قالوا: «إنا سمعنا قرئاناً عجباً يهدى إلى الرشيد» [الجن: ٢، ١]، من قال به صدق، ومن زال عنه عدا، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم» خذها إليك يا أعور.

مقتل عبيد الله بن زياد

ولما كان من وقعة عين الوردة ما قدمنا سار عبيد الله بن زياد في عساكر الشام يؤمُّ العراق، فلما انتهى إلى الموصل - وذلك في سنة ست وستين - التقى هو وإبراهيم بن الأشتر النخعي، وإبراهيم على خيل العراق من قبل المختار بالخازر.

فكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها ابن مرجانة عبيد الله بن زياد، والحسين بن نمير، وشريبيل بن ذي الكلاع، وابن حوشب ذي ظليم، وعبد الله بن إياس السلمي، وأبو أشرس، وغالب الباهلي، وأشرف أهل الشام، وذلك أن عمير بن العباب السلمي كان على ميمنة ابن زياد في ذلك الجيش، وكان في نفسه ما فعل بقومه من مضر وغيرهم من نزار يوم مرج راهط، فصاح: يا لثارات قيس يا لمضر، يا لنزار، فتزاحمت نزار من مضر وربيعة على من كان معهم في جيشهم من أهل الشام من قحطان، وقد كان عمير كاتب إبراهيم بن الأشتر [سراً] قبل ذلك، والتقيا، فتوطاً على ما ذكرنا، وحمل إبراهيم بن الأشتر رأس ابن زياد وغيره إلى المختار، فبعث به المختار إلى عبد الله بن الزبير بمكة.

اضطراب في كل حية

وقد كان عبد الملك بن مروان سار في جيوش أهل الشام فنزل بطنان يتنتظر ما يكون من [أمر] ابن زياد، فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل، أتاه في تلك الليلة مقتل حبيش بن دلجة، وكان على الجيش بالمدينة لحرب ابن الزبير، ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مصعب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين، ثم جاءه مسیر ملك الروم لاوي بن فلنط ونزلوه المصيصة يريد الشام، ثم جاءه خبر دمشق، وأن عبيدها وأبا شها وذئارها قد خرجوا على أهلها، ونزلوا الجبل، ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكببة، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع، وغير ذلك مما نمى إليه من المفزعات في تلك الليلة، فلم يُرْ عبد الملك في ليلة قبلها أشد ضحكاً، ولا أحسن وجهأ، ولا أبغض لساناً، ولا أثبتَ جناناً منه تلك الليلة، تجلداً وسياسية للملوك، وترك إظهار الفشل.

من سياسة عبد الملك

وبعث بأموال وهدايا إلى ملك الروم، فشغله وهادنه، وسار إلى فلسطين وبها ناتل بن قيس على جيش ابن الزبير، فالتقوا بأجنادين، فقتل ناتل بن قيس وعامة أصحابه،

وانهزم الباقيون، ونفي خبر قتله وهزيمة الجيش إلى مصعب بن الزبير وهو في الطريق فولى راجعاً إلى المدينة، ففي ذلك يقول رجل من كلب من المروانية:

قَاتَلْنَا بِأَجْنَادِينْ سَعْدًا وَنَاتِلًا قَصَاصًا بِمَا لَاقَى حَبِيشَ وَمَنْذُرَ

ورجع عبد الملك إلى دمشق فنزلها، وسار إبراهيم بن الأشتر فنزل نصيبيين، وتحصن منه أهل الجزيرة، ثم استخلف على نصيبيين، ولحق بالمحتار بالكوفة.

بين مصعب والمختار والثقفي ومقتل المختار

وفي سنة سبع وستين سار مصعب بن الزبير من البصرة، وقد كان آخره عبد الله بن الزبير أنفذه إلى العراق والياً، فنزل حَرُورَاءَ، والتقي هو والمختار فكانت بينهم حروب عظيمة، وقتل ذريع، وانهزم المختار، وقد قتل محمد بن الأشعث وابناته، ودخل قصر الإمارة بالكوفة وتحصن فيه، وجعل يخرج كل يوم لمحاربة مصعب وأصحابه من أهل الكوفة [وغيرهم] والمختار معه خلق كثير من الشيعة قد سمووا الخشبية من الكنيسانية وغيرهم، فخرج إليهم ذات يوم وهو على بغلة [له] شهباء، فحمل عليه رجل من بني حنيفة يقال له عبد الرحمن بن أسد، فقتله واحتزَّ رأسه، وتنددوا بقتله، فقطعه أهل الكوفة وأصحاب مصعب أعضاء، وأبى مصعب أن يعطي الأمان لمن بقي في القصر من أصحابه، فحاربوا إلى أن أضَرَّ بهم الجهدُ، ثم أمنهم وقتلهم بعد ذلك، فكان من قتل مع المختار عبد الله بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وله خبر مع المختار في تخلصه منه ومضييه إلى البصرة وخوفه على نفسه من مصعب إلى أن خرج معه في جيشه، وقد أتينا على خبره وسائر ما أؤمننا إليه في كتابنا «أخبار الزمان» فكان جملة من أدركه الإحصاء من قتله مصعب مع المختار سبعة آلاف رجل، كل هؤلاء طالبون بدم الحسين، وقتلة أعدائه، فقتلهم مصعب، وسماهم الخشبية، وتبع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها، وأتى بحرم المختار فدعاهن إلى البراءة منه ففعلن إلا حرمتين له إحداهما بنت سمرة بن جندب الفزاري والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنباري، وقالتا: كيف تبراً من رجل يقول ربى الله؟ كان صائم نهاره قائم ليلاً، قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول الله عليه السلام وأهله وشييعته، فأمكنته الله منهم حتى شفي النفوس، فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله بخبرهما وما قالته، فكتب إليه إن هما رجعنا عما هما عليه وتبرأنا منه وإنما فاقتلهما، فعرضهما مصعب على السيف، فرجعت بنت سمرة ولعنته وتبرأت منه، وقالت: لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لکفرت: أشهد أن المختار كافر، وأبى ابنة النعمان بن بشير، وقالت: شهادة أرزقها فأتركتها؟ كلاماً!! إنها موتة ثم الجنة

والقدوم على الرسول وأهل بيته، والله لا يكون، آتني مع ابن هند [فأتبعه] وأترك ابن أبي طالب؟ اللهم اشهد أنني متبع لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته، ثم قَدَّمَها فقتلت صبراً، ففي ذلك يقول الشاعر:

إِنْ مِنْ أَعْجَبِ الْأَعْجَابِ عَنِي قُتْلَ بَيْضَاءَ حَرَةَ عَطْبُولِ
قَتَلُوهَا ظَلْمًا عَلَى غَيْرِ جُرمٍ إِنَّ اللَّهَ دَرَهَا مِنْ قَتْلٍ
كَتَبَ الْقَتْلَ وَالْقَتَالَ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الذِّيولِ

ولم نتعرض في هذا الكتاب لذكر المهلب وقتله لนาفع [بن الأزرق]، وذلك في سنة خمس وستين، ونافع هو الذي تنسب إليه الأزارقة من الخوارج؛ إذ كنا أتينا في كتابنا «أخبار الزمان» على ذكر حروب الخوارج مع المهلب وغيره من سلف وخلف، وذكرنا شأن مرداس بن عمرو بن بلال التميمي، وعطاءة بن الأسود الحنفي، وأبي فديك، وشوزب الشيباني [وسعيد الشيباني وقطامة الشيباني، والمهدب السكوني، وقطري بن الفجاءة، والضحاك بن قيس الشيباني] ووقعة ابن المحوز الخارجي مع المهلب ومقتله، وظفر المهلب بهم في ذلك اليوم، وخبر عبد ربه وأخبار خوارج اليمن كأبي حمزة المختار بن عوف الأزدي، [وابن] يهس الهيصمي، مع ما تقدم من ذكرنا لفرق الخوارج في كتابنا «المقالات في أصول الديانات» من الأباضية وهم شرّاة عمان من الأزد وغيرهم من الأزارقة والنجادات والحرمية [والجافية] والصفيرية وغيرهم من فرق الخوارج وبلدانهم من الأرض، مثل بلاد سنجر وتل أغفر من بلاد ديار ربعة والسن والبواريج والحدائق مما يلي بلاد الموصل، ثم من سكن من الأكراد بلاد أذربيجان وهم المعروفون بالشرارة منهم، وأسلم المعروف بابن شادلويه، وقد كان تملك على أعمال ابن أبي الساج من بلاد أذربيجان وأران والبيلقان وأرمينية، ومن سكن منهم بلاد سجستان وجبال هرّة وكوهستانة وبوشنج من بلاد خراسان ومن بلاد مكران على ساحل البحر بين بلاد السند وكرمان وأكثرهم صفيرية وحرمية، ومنهم ببلاد حمران إصطخر وصاهك بين كرمان وفارس، ومنهم ببلاد تيهرت المغرب، ومنهم ببلاد حضرموت وغيرها من بقاع الأرض.

وفاة عبد الله بن العباس

وفي سلطنة عبد الملك مات أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب في سنة ثمان وستين، وقيل: في سنة تسع وستين، بالطائف، وأمه لُبَابَة بنت الحارث بن حزن، من ولد عامر بن صعصعة، وله إحدى وسبعين سنة، وقيل: إنه ولد قبل الهجرة

بثلاث سنين، وقد ذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: قبض رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وصلى عليه محمد ابن الحنفية، وكان قد ذهب بصره لبكائه على علي والحسن والحسين، وكانت له وفرة طويلة يخضب شيبه بالحناء، وهو الذي يقول:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي، وعلقي غير مدخل، وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وقد كان النبي ﷺ دعا له حين وضع له الماء للظهور في بيت خالته ميمونة زوج النبي ﷺ، فقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل».

وقيل لابن عباس رضي الله عنه: ما منع علياً رضي الله عنه أن يبعثك مكان أبي موسى [في] يوم الحكمين؟ فقال: منعه من ذلك حائل القدر، وقصر المدة، ومحنة الابتلاء، أما والله لو بعثني مكانه لاعتربت مدارج نفسه، ناقضاً لما أبرم ومبرماً لما نقض، أسف إذا طار، وأطير إذا أسف، ولكن مضى قدر، وبقي أسف، ومع اليوم غد، ولآخرة خير للمتقين.

وكان لابن عباس من الولد: علي، وهو أبو الخلفاء من بني العباس، والعباس، ومحمد، والفضل، وعبد الرحمن، وعييد الله، ولتابة، وأمهم زرعة بنت مشرح الكندية، فأما عبد الله ومحمد والفضل فلا أعقاب لهم.

مقتل عمرو بن سعيد الأشدق

وفي سنة سبعين قُتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق وهو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان ذا شهامة وفصاحة وبلاهة وإقادام، وقد كان بينه وبين عبد الملك محادثات ومكتبات وخطب طويل طلباً للملك، وكان فيما كتب إليه عبد الملك: إنك لتطعم نفسك بالخلافة، ولست لها بأهل، فكتب إليه عمرو: استدرج النعم إياك أفادك البغي، ورائحة الغدر أورثتك الغفلة، زجرت عما وافتقت عليه، وندبت إلى ما تركت سبile، ولو كان ضعف الأسباب يؤيّس الطالب ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز، وعن قريب يتبيّن من صريح بخي وأسير غفلة.

وقد كان عبد الملك سار إلى زَفَر بن الحارث الكلابي وهو بقرقيسيا، وببلاد الرحبة وخلف عمرو بن سعيد بدمشق فبلغه أن عمراً قد دعا [الناس] إلى بيته بدمشق، فكر راجعاً إليها، فامتنع عمرو فيها، فناشده عبد الملك الرحمن وقال له: لا تفسد [أمر]

أهل بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة، وفيما صنعت قوة [لابن الزبير]؛ ارجع إلى بيتك فإني سأجعل لك العهد، فرضي وصالح، ودخل عبد الملك عمرو متحيز منه في نحو خمسمائة [فارس] يزولون معه حيث زال.

وقد تنازع أهل السير في كيفية قتل عبد الملك إيه: فمنهم من رأى أن عبد الملك قال لحاجبه: ويحك!! أستطيع إذا دخل عمرو أن تُغلق الباب؟ قال: نعم، قال: فافعل، وكان عمرو رجلاً عظيم الكِبْر لا يرى أن لأحد عليه فضلاً، ولا يلتفت وراءه إذا مشى إلى أحد، فلما فتح الحاجب الباب دخل عمرو، فأغلق الحاجب الباب دون أصحابه، ومضى عمرو لا يلتفت، وهو يظن أن أصحابه قد دخلوا معه كما كانوا يدخلون، فعاتبه عبد الملك طويلاً، وقد كان وصي صاحب حرسه أبو الزعيمزة بأن يضرب عنقه، فكلمه عبد الملك وأغاظ له القول، فقال: يا عبد الملك، أستطيع علىي كأنك ترى لك علىي فضلاً؟ إن شئت والله نقضت العهد بيني وبينك، ثم نصبتك لك الحرب فقال عبد الملك: قد شئت ذلك، فقال: وأنا قد فعلت، فقال عبد الملك: يا أبو الزعيمزة شأنك، فالتفت عمرو إلى أصحابه فلم يرهم في الدار، فدنا من عبد الملك، فقال: ما يدنيك مني؟ قال: لم تسمني رحمني، وكانت أم عمرو عممة عبد الملك [كانت] تحت الحكم بن أبي العاص بن وائل، فضربيه أبو الزعيمزة فقتله، فقال له عبد ملك: ازم برأسه إلى أصحابه، فلما رأوا رأسه تفرقوا، ثم خرج عبد الملك فصعد المنبر وذكر عمراً فوقه، وذكر خلافة وشِفَاقه، ونزل من المنبر وهو يقول:

أَذْيَثْتُهُ مِنِّي لِتَسْكُنَ نُفْرَةً فَأَصْوَلَ صَوْلَةً حَازِمٌ مُسْتَمْكِنٌ
غَضِبًا وَمَحْمَاهَا لِدِينِي؛ إِنَّهُ لِيْسَ الْمُسِيءَ سَبِيلَهُ كَالْمُحْسِنِ

وقيل: إن عمراً خرج من منزله ي يريد عبد الملك، فعثر بالبساط، فقالت له امرأته نائلة بنت قريص بن وكيع بن مسعود: أَشْدُدَ اللَّهُ أَنْ لَا تَأْتِيهِ، فقال: دعني عنك فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني، وخرج وهو مكفر بالدرع؛ فلما دخل على عبد الملك قام من هناك من بني أمية، فقال عبد الملك وقد أخذت الأبواب: إني كنت حلفت لئن ملكتك لأشدّنك في جامعة؛ فأتى بجامعة فوضعها في عنقه وشدّها عليه؛ فأيقن عمرو أنه قاتله؛ فقال: أَشْدُدَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُلْكَ: يَا أَبَا أُمِيَّةَ، مَا لَكَ جَثَّتْ فِي الدَّرْعِ الْلَّقَتَالِ؟ فَأَيْقَنَ عَمْرُو بِالشَّرِّ فَقَالَ: أَشْدُدَ اللَّهُ أَنْ تَخْرُجَنِي إِلَى النَّاسِ فِي الْجَامِعَةِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُلْكَ: وَتَمَاكِرْنِي أَيْضًا وَأَنَا أَمْكِرْ مِنْكَ؟ تَرِيدُ أَنْ أَخْرُجَكَ إِلَى النَّاسِ فَيَمْنَعُوكَ وَيَسْتَقْذُوكَ مِنْ يَدِيِّي، وَخَرَجَ عَبْدُ الْمُلْكَ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَمْرَ أَخَاهُ عَبْدَ الْعَزِيزَ - وَقَدْ كَانَ قَدْمَ مِنْ مَصْرَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - بِقَتْلِهِ إِذَا خَرَجَ! وَقَدْ قِيلَ: أَمْرَ ابْنِهِ الْوَلِيدِ بِذَلِكِ؛ فَلَمَّا دَنَا

منه عبد العزيز ناشده عمرو بالرحم فتركه؛ فلما رجع عبد الملك من الصلاة ورأه حيّا قال عبد العزيز: والله ما أرذت قتله إلا من أجلكم ألا لا يجوزها دونكم، ثم أضجعه؛ فقال له عمرو: أغدر يا ابن الزرقاء؟ فذبحه، ووافى أخوه عمرو يحيى بن سعيد إلى الباب بمن معه من رجاله ليكسره؛ فخرج إليه الوليد وموالي عبد الملك؛ فاقتتلوا، واختلف الوليد ويحيى؛ فضربه يحيى بالسيف على أليته فانصرع، وألقى رأس عمرو إلى الناس؛ فلما رأوه تفرقوا من بعد أن ألقى عليهم من أعلى الدار بدر الدينار؛ فاشتعلوا بها عن القتال، وقال عبد الملك: وأبيك لئن كانوا قتلوا الوليد لقد أصابوا بأثراهم، وقد كان الوليد فقد حين ضرب، وذلك أن إبراهيم بن عدي احتمله فأدخله بيت القراطيس في المعمعة، وأتى عبد الملك بيحيى بن سعيد؛ واجتمعت الكلمة على عبيد الملك؛ وانقاد الناس إليه!

وقد قيل في مقتله غير ما ذكرنا، وقد أتينا على ذلك في كتابنا «أخبار الزمان» وقد ذكرنا شعر أخته فيه - وكانت تحت الوليد بن عبد الملك - فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار المنصور؛ إذ هو الموضع المستحق له دون هذا الموضوع لما تغلل بنا [إليه] الكلام، وتسلسل بنا القول نحوه.

وأقام عبد الملك بدمشق بقية سنة سبعين، وقد كان مصعب بن الزبير خرج حين صفا له العراق بعد قتل المختار وأصحابه، حتى انتهى إلى الموضع المعروف بياجميرا مما يلي الجزيرة، يريد الشام لحرب عبد الملك، بلغه مسیر خالد بن عبد الله خالد بن أسد من مكة إلى البصرة في ولده وعلمه من مواليه ناكثاً ليعنة عبد الله بن الزبير؛ فنزل بعض نواحي البصرة، وأن قوماً قد انضافوا إليه من ربيعة [ومضر]، ومنهم عبد الله بن الوليد، ومالك بن مسمع البكري، وصفوان بن الأهتم التميمي، وصعصعة بن معاوية عم الأحنف، فكانت لهم بالبصرة حروب كانت آخرها على خالد بن عبد الله؛ فخرج هارباً بابنيه [في البر] حتى لحقوا بعد الملك، وانصرف مصعب راجعاً إلى البصرة، وذلك في سنة إحدى وسبعين، ثم عاد من العراق إلى باجميرا؛ ففي ذلك يقول الشاعر:

أَبِيَّتْ يَا مُضَعْبُ إِلَّا سَيْرَا فِي كُلِّ يَوْمٍ لَكَ بِاْجَمِيرَا

ونزل عبد الملك بن مروان على قرقيساء، فحاصر بها رُفَّر بن الحارث العامري الكلابي، وكان يدعوه إلى ابن الزبير، فنزل على إمامته وبايده، وسار عبد الملك فنزل على نصبين - وفيها يزيد والحبشي مولياً الحارث في ألفي فارس من بقي من أصحاب المختار يدعون إلى إمام محمد ابن الحنفية - فحاصرهم، فنزلوا على إمامته، وانضافوا إلى جملته! .

وخرج مصعب في أهل العراق - وذلك في سنة اثنين وسبعين - يرید عبد الملك، وَدَلَّفَ إِلَيْهِ عبد الملك في عساكر مصر والجزيرة والشام؛ فالتقوا بمسكن قرية من أرض العراق على شاطئ دجلة، وعلى مقدمة عبد الملك الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل التقي، وقيل: على ساقته، وقد أَخْمَدَ أُمَّرَةً في قيامه بما أهل له، فكاتب عبد الملك رؤساء أهل العراق من هم بعسکر مصعب وغيرهم [سرآ] وصار يرثبهم ويرثبهم، فكان فيمن كتب إليه إبراهيم بن الأشتر النخعي، فلما أتاه كتابه مع الجاسوس اعتقله في رخله، وأتى مصعباً بالكتاب قبل أن يقضيه ويعلم ما فيه، فقال له مصعب: أقرأته؟ فقال: أعود بالله أن أفرأه حتى يقرأه الأمير، وأتى يوم القيمة غادراً قد نقضت بيته وخلت طاعته، فلما تأمل مصعب ما فيه وجده أماناً له، وولاية لما شاء من العراق وإقطاعاً وغيري ذلك، ثم قال إبراهيم لمصعب: هل أتاك أحد من أشرف العساكر بكتاب؟ فقال مصعب: لا، فقال إبراهيم: والله لقد كاتبهم وما كاتبني حتى كاتب غيري ولا امتنعوا عن إيصالها إليك إلا للرضا به والغدر بك، فأطغني وابداً بهم، فأمرهم على السيف، أو استوثق منهم في الحديد، والق هذا الرجل، فأبى مصعب ذلك، وتحيزَ مَنْ كان في عسکره من ربيعة لقتله ابن زياد بن ظبيان البكري، وكان من سادات ربيعة وزعماء بكر بن وائل، وسار إبراهيم بن الأشتر على مقدمة مصعب في متسرعة الخيل، فلقي خيل عبد الملك ومقدمته عليها أخوه محمد بن مروان، وبلغ عبد الملك ورود إبراهيم ومنازلته محمداً أخيه، فبعث إلى محمد: عزمت عليك أن لا تقاتل [في هذا] اليوم، وقد كان مع عبد الملك منجم مقدم، وقد أشار على عبد الملك أن لا تحارب له خيل في ذلك اليوم، فإنه منحوس، ول يكن حربه بعد ثلات فإنه ينصر، فبعث إليه محمد: وأنا أعز على نفسي لأقاتلن ولا ألتقت إلى زخاريف منجمك، والمحالات من الكذب، فقال عبد الملك للمنجم ولمن حضره: ألا ترون؟ ثم رفع طرفه إلى السماء، وقال: اللهم إن مُضْبَعاً أصبح يدعو إلى أخيه وأصبحت أدعو لنفسي، اللهم فانصر خirنا لأمة محمد ﷺ، فالتحقى محمد بن مروان وابن الأشتر، و Mohammad يرتجز ويقول:

مثلي على مثلك أولى بالسلب محل الرجالين أعراب الذنب

فاقتلو حتى غشיהם مساء، فقال عتاب بن وَزَقاء التميي، وكان مع ابن الأشتر: يا إبراهيم، إن الناس قد جُهِدوا فمرهم بالانصراف، حسداً له لإشرافه على الفتح، فقال [له] إبراهيم: وكيف يتصرفون وعدوهم يزاهم؟! فقال عتاب: فمر الميمنة أن تصرف، فأبى إبراهيم ذلك، فمضى إليهم عتاب فأمرهم بالانصراف، فلما زالوا عن مصافهم أكَبَت ميسرة محمد عليهم، واختلط الرجال، وصمدت الفرسان لإبراهيم،

واشتبتت عليه الأئمة، فبرى منها عدة رماح، وأسلمه من كان معه، فاقتلع من سرجه ودار به الرجال وازدحموا عليه، فقتل بعد أن أبلى ونكاً فيهم، وقد توزع فيأخذ رأسه: فمنهم من زعم أن ثابت بن يزيد مولى الحصين بن نمير الكندي هو الذي أخذ رأسه، ومنهم من ذكر أن عبيد بن ميسرة مولىبني يشكر ثم منبني رفاعة هو الذي أخذ رأسه، وأتي عبد الملك بجسد إبراهيم فألقى بين يديه، فأخذه مولى الحصين بن نمير، فجمع عليه حطباً وأحرقه بالنار.

وسار عبد الملك في صبيحة تلك الليلة من موضعه حتى نزل بدير الجاثيلق من أرض السوداء، وأقبل عبيد الله بن زياد بن ظبيان وعكرمة بن ربعي إلى رياض ربيعة فأضافوها إلى عسكر عبد الملك ودخلوا في طاعته، ثم تصافف القوم، فأفرد مصعب، وتخلى عنه من كان معه من مصر واليمن، وبقي في سبعة نفر منهم إسماعيل بن طلحة بن عبيد الله التميمي، وابنه عيسى بن مصعب، فقال لابنه عيسى: يا بني اركب [فرسك] فانج [بنفسك] فالحق بمكة بعمك، فأخبره بما صنع بي أهل العراق، ودعني فإني مقتول، فقال له: لا والله، لا يتحدث نساء قريش أني فررت عنك، ولا أحذthem عنك أبداً، فقال له مصعب: أما إذا أبىت فتقدم أمامي حتى أحتسبك، فتقدم عيسى فقاتل حتى قتل.

وسأل محمد بن مروان أخيه عبد الملك أن يؤمن مصعباً، فاستشار عبد الملك من حضره، فقال له علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب: لا تؤمنه، وقال خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: بل أ منه، وارتفاع الكلام بين علي وخالد حتى تسابا على مصالفهم، فأمر عبد الملك أخيه محمدأ أن يمضي إلى مصعب فيؤمنه ويعطيه عنه ما أراد، فمضى محمد [فوقف قريباً من مصعب، ثم قال: يا مصعب، هلم إليّ، أنا ابن عمك محمد] بن مروان، وقد أمنتك أمير المؤمنين على نفسك ومالك، وكل ما أحدثت، وأن تنزل أي البلاد شئت، ولو أرادتك غير ذلك لأنزله بك، فأنشدك الله في نفسك.

وأقبل رجل من أهل الشام إلى عيسى بن مصعب ليحتز رأسه، فعطف عليه مصعب والرجل غافل، فناداه أهل الشام: ويلك يا فلان الأسد قد أقبل نحوك، وللحقة مصعب فنده، وغرقَ فرسُ مصعب، وبقي راجلاً، فأقبل عليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فاختلها ضربتين، سبق مصعب بالضربة إلى رأسه وكان مصعب قد أثخن بالجراح، وضربه عبيد الله فقتله، واحتز رأسه، وأتي به عبد الملك، فسجد عبد الملك، وقبض

عبد الله بن زياد على قائم سيفه فاجتبه من غمده حتى أتى على أكثره سلاً ليضرب عبد الملك في حال سجوده، ثم ندم واسترجع، فكان يقول بعد ذلك: ذهب الفتن من الناس إذ همت ولم أفعل فأكون قد قتلت عبد الملك ومصعباً ملكي العرب في ساعة واحدة، وتمثل عبد الله عند مجبيه برأس مصعب:

ناعطي الملوك الحقَّ ما قَسَطُوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم
وقال عبد الملك: متى تلد قريش مثل مصعب؟ وكان قتل مصعب يوم الثلاثاء،
لثلاث عشرة خلت من جمادي الأولى سنة اثنين وسبعين، وأمر عبد الملك بمصعب
وابنه عيسى فدفنا بدِيرِ الجاثيلق، ودعا عبد الملك أهل العراق إلى يعنته فباعوه.
وقد كان مسلم بن عمرو الباهلي من صنائع معاوية وابنه يزيد، وكان في ذلك اليوم
في جيش مصعب، فأتى به عبد الملك وقد أخذ له منه الأمان، فقيل له: أنت ميت لا
ترجو الحياة لما بك من الجراح، فما تصنع بالأمان؟ قال: ليسلم مالي ويأمن ولدي
بعدي، فلما وضع بين يدي عبد الملك قال: قَطَعَ اللَّهُ يَدَ ضَارِبِكَ كَيْفَ لَمْ يَجْهَزْ عَلَيْكَ؟
أَكْفَرْتَ صنائع آل حرب معك؟ فأمنه على ماله وولده ومات من ساعته.
وفي مصرع مصعب بدِيرِ الجاثيلق من أرض العراق، يقول عبد الله بن قيس
الرقيات:

لقد أُورثَ المُصْرِين عاراً وذلةٌ فتيلٌ بدِيرِ الجاثيلق مقيمٌ
فما نصحتَ اللَّهُ بَكْرٌ بْنُ وَائِلٍ، ولا صبرتَ عند اللقاء تميمٌ
[ولكنه ضاع الذمار، ولم يكن بها مُضِرٌّ يوم ذاك كريم]
جزى اللَّهُ بِصْرِيَاً بِذاك ملامةٍ وكوفيهِمْ، إن المليم مُلِيمٌ

وفي ذلك يقول شاعر أهل الشام من أبيات:

لعمري لقد أضَجَرْتُ خيلنا بأكنااف دجلة للمصعب
يهزون كل طويل القناة مُعَتَدِلَ النصل والشعلب
إذا ما منافق أهل العراق عوتب يوماً فلم يُعْتَبِ
ذلفنا إليه لدى موقف قليل التفُقد للغَيَّبِ

وقد كان مصعب ذا حسن، وجمال، وهيبة، وكمال في الصورة، وفيه يقول ابن [قيس] الرقيات من كلمة:
إنما مصعب شهاب من الله تجلَّ عن وجهه الظلماء

وقد أتينا على أخبار مصعب، وسُكينة بنت الحسين زوجه، وعائشة بنت طلحة وليلى من نسائه وغير ذلك من أخباره في الكتاب الأوسط.

أربع رفوس في مكان واحد

وحدث المنقري، قال: حدثني سعيد بن سعيد، قال: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبي مسلم النخعى، قال:رأيت رأس الحسين جيء به، فوضع في دار الإمارة بالكوفة بين يدي عبيد الله بن زياد، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد قد جيء به، فوضع في ذلك الموضع بين يدي المختار، [ثم رأيت رأس المختار قد جيء به فوضع بين يدي] مصعب بن الزبير، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير قد جيء به، فوضع في ذلك الموضع بين يدي عبد الملك.

وقد قيل في وجه آخر من الروايات، قال الراوى: فرأى عبد الملك مني اضطراباً، فسألت: يا أمير المؤمنين، دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بين يدي ابن زياد في هذا الموضع، ثم دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار فيه؛ ثم دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير، وهذا رأس مصعب بين يديك، فوقاك الله يا أمير المؤمنين! قال: فوثب عبد الملك بن مروان، وأمر بهنـم الطاق الذي على المجلس، ذكر هذا الحديث عن الوليد بن خباب وغيره.

الناس يبايعون عبد الملك

وسار عبد الملك من دير الجاثيلق حتى نزل التخيلة بظهر الكوفة، فخرج إليه أهل الكوفة فبايعوه، ووفى للناس بما كان وعدهم به في مكتابته إياهم سراً، وخلع، وأجاز، وأقطع، ورتب الناس على [قدر] مراتبهم، وعمهم ترغيبه، وترحيمه وولى على البصرة خالد بن عبد الله بن [خالد بن أسد] وعلى الكوفة بشر بن مروان أخيه، وخلف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام منهم روح بن زينب العجذامي، وبعث بالحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير بمكة، وسار في بقية أهل الشام إلى دار ملكه دمشق.

روح بن زينب وبشر بن مروان

وكان بشر بن مروان أديباً ظريفاً، يحب الشعر والسمّر والسمع والمعاقرة، وقد كان أخوه عبد الملك قال له: إن روحأ عمك الذي لا ينبغي أن تقطع أمراً دونه، لصدقه وعفافه ومناصحته [ومحبته] لنا أهل البيت، فاحتشم بشر منه، وقال لندمائه: أخاف إن انبسطنا أن يكتب روح إلى أمير المؤمنين بذلك، وإنني لأحب من الأنس والمجتمع ما

يحبه مثلي ، فقال له بعض ندماهه من أهل العراق بحسن مساعدته ولطيف حيلته: أنا أكفيك أمره حتى ينصرف عنك إلى أمير المؤمنين غير شاك ولا لائم ، فسرّ بشر ، ووعلده الجائزة وحسن المكافأة إن هو تأتى له ما وعد به ، وكان روح شديد الغيرة ، وكانت له جارية إذا خرج من منزله إلى المسجد أو غيره ختم بابه حتى يعود بعد أن يقفله ، فأخذ الفتى دواة وأتى منزل روح عشيّاً [مختفياً] وخرج روح للصلوة ، فتوصل الفتى إلى دخول الدهليز في حال خروج روح ، وكَمَنَ تحت الدرجة ، ولم ينزل يحتال ليته حتى توصل إلى بيت روح ، فكتب على حائط في أقرب المواضع من مرقد روح:

يا روح مَنْ لَبِئَاتِ وَأَرْمَلَةِ
إِذَا نَعَكَ لِأَهْلِ الْمَغْرِبِ النَّاعِيِ
إِنَّ ابْنَ مَرْوَانَ قَدْ حَانَتْ مَيْتَتِهِ
فَاحْتَلْ لَنْفَسَكَ يَا روح بْنَ زَيْنَابِ
وَلَا يَغْرِنَكَ أَبْكَارَ مَنْعَمَةَ وَاسْمُعْ هَدِيَتَ مَقَالَ النَّاصِحِ الدَّاعِيِ

ورجع إلى مكانه بالدهليز ، فبات فيه ، فلما أصبح روح خرج إلى الصلاة فتبعد غلمانه ، والفتى متذكر في جملتهم مختلط بهم ، فلما عاد روح وافتتح باب حجرته تبين الكتابة وقرأها ، فراعه ذلك وأنكره ، وقال: ما هذا؟ فوالله ما يدخل حجرتي إنسني سوالي ، ولاحظ لي في المقام [بالعراق] ثم نهض إلى بشر ، فقال [له]: يا ابن أخي ، أوصي بي بما أحببت من حاجة أو سبب عند أمير المؤمنين ، قال: أو تزيد الشخص يا عم؟ قال: نعم ، قال: ولم؟ هل أنكرت شيئاً أو رأيت قيحاً لا يسعك المقام عليه؟ قال: لا والله ، بل جزاكم الله عن نفسك وعن سلطانك خيراً ، ولكن أمر حَدَثَ ، ولا بدّ لي من الانصراف إلى أمير المؤمنين فأقسم عليه أن يخبره ، فقال له: إن أمير المؤمنين قد مات أو هو ميت إلى أيام ، قال: ومن أين علمت بذلك؟ فأخبره بخبر الكتابة ، وقال: ليس يدخل حجرتي غيري وغير جاريتي فلانة ، وما كتب ذلك إلا الجن أو الملائكة ، فقال له بشر: أقم فإني أرجو أن لا يكون لهذا حقيقة ، فلم يثنه شيء ، وسار إلى الشام ، فأقبل بشر على الشراب والطرب ، فلما لقي روح عبد الملك أنكر أمره ، وقال: ما إقدامك إلا لحادثة حدثت [على بشر] ، أو لأمر كرهته ، فأثنى على بشر ، وحمد سيرته ، وقال: لا بل لأمر لا يمكنني ذكره حتى تخلو ، فقال عبد الملك لجلسائه: انصرفوا ، وخَلَا بروح ، فأخبره بقصته وأنشده الأبيات ، فضحك عبد الملك حتى استغرق ، وقال: ثقلت على بشر وأصحابه حتى احتالوا لك بما رأيت ، فلا تُرغِّ.

عبد الله بن الزبير ينعي أخاه مصعباً

ولما اتصل قتل مصعب بأخيه عبد الله أضرب عن ذكره حتى تحدث بذلك العيد

والإماء في سكك المدينة ومكة ، فصعد المنبر وجبيه يَرْشَح [عرقاً] ، فقال: الحمد لله ملك الدنيا والآخرة ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك منمن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قادر ، ألا إنه لن يذل [الله] من كان الحق معه ، ولن يعز من كان أولياء الشيطان حزبه ، إنه أثنا خبر من العراق أحزننا وأفرجنا ، [وهو] قتل مصعب ، فأما الذي أحزننا من ذلك فإن لفرق الحميم لوعة يجدها حميمة عند المصيبة ، ثم يرعوي من بعد ذلك إلى كريم الصبر وجميل العزاء ، وأما الذي أفرجنا فإن القتل له شهادة ، ويجعل [الله] لنا وله في ذلك الخيرة ، أما والله إنما لا نموت حتفاً كميته آل أبي العاص وإنما نموت فَعَصَا بالرماح ، وقتلا تحت ظلال السيف ، ألا وإن الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ولا يتبدل ، فإن تُقبل الدنيا على لا آخذها أخذ الأُشْرِ البطْرِ ، وإن تُدْبِّرْ عنِي لا أبكي عليها بكاء الحزين المهين .

الحجاج في مكة

فأتى الحجاج الطائف ، فأقام بها شهرًا ، ثم زحف إلى مكة ، فحاصر ابن الزبير بها ، وكتب إلى عبد الملك : إني قد ظفرت بأبي قبيس ، فلما ورد كتابه على عبد الملك بمحاصر ابن الزبير [بمكة] والظفر بأبي قبيس كَبَر عبد الملك فكبَر من [معه] في داره ، واتصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا ، واتصل ذلك بأهل الأسواق [فكروا] ثم سألوا عن الخبر ، فقيل لهم: إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة وظفر بأبي قبيس ، فقالوا: لا نرضى حتى يحمله إلينا مكبلاً على رأسه برنس على جمل يمر بنا في الأسواق الترابي الملعون ، وكان حصار الحجاج لابن الزبير بمكة هلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ، وفيها قتل مصعب [وما ذكرنا من قول أهل دمشق في ابن الزبير فذكره عمر بن شبة النميري عن ابن عاصم] ومنع ابن الزبير الحجاج أن يطوف بالبيت ، ووقف الحجاج بالناس [عرفة] محرباً في درع ومغفر ، وهو من أبناء إحدى وثلاثين سنة ، وتَحَرَ ابن الزبير بمكة ، ولم يخرج إلى عرفة بسبب الحجاج ، فكانت مدة حصار الحجاج لابن الزبير بمكة خمسين ليلة .

ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

ودخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد بلغت من السنّ مائة سنة لم تَقْعَ لها سن ، ولا أبِيضَ لها شعر ، ولم ينكر لها عقل ، على حسب ما قدمنا من خبرها في هذا الكتاب ، فقال: يا أمه ، كيف تجدينك؟ قالت: إني لشاكيَة يا بني ، فقال لها: إن في الموت راحة ، قالت: لعلك تمئَاه لي ، وما أحب أن أموت حتى

يأتي على أحد طرفيك: إما ثقلت فأحتسبك، وإما ظفرت فقررت عيني بك، وأوصى عبد الله بما يحتاج من أمره وأمر نسائه إذا سمعن الوعية عليه أن يضمن أمه أسماء إليهن، وكان عروة بن الزبير على رأي عمه عبد الملك بن مروان، وكانت كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج [متصلة] يأمره بتعاهد عروة وأن لا يسوءه في نفسه ومالي، فخرج عروة إلى الحجاج، ورجع إلى أخيه فقال له: هذا خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبد الملك على ما أخذت أنت ومن معك، وأن تنزل أي البلاد شئت، لك بذلك عهد الله وميثاقه، وغير ذلك من الكلام، فأبى عبد الله قبول ذلك، وقالت له أمه أسماء: أينبني، لا تقبل خطبة تخاف على نفسك منها مخافة القتل، مت كريماً، وإياك أن تؤسر، أو تعطي بيديك، فقال: يا أمه، إني أخاف أن يمثل بي بعد القتل، فقالت: يابني، وهل تتألم الشاة من [ألم] السُّلْطَن بعد الذبح؟ ودخلوا على ابن الزبير في المسجد وقت الصلاة، وقد التجأ إلى البيت وهم ينادون: يا ابن ذات النطائين، فقال: ابن الزبير متمنلاً:

وغيَّرَهَا الواشون أني أحبها وتلك شَكَاه ظاهر عنك عارها

ونظر إلى طائفة منهم قد أقبلوا نحوه بالسيوف، فقال لأصحابه: من هؤلاء؟ قالوا: أهل مصر، قال: قتلة عثمان أمير المؤمنين ورب الكعبة، فحمل عليهم، فضرب رجلاً منهم [به أدمة] فقدده، وقال: صبراً يا ابن حام، وتکاثر عليه الرجال من أهل الشام ومصر، فلم يزل يضرب فيهم حتى أخرجهم عن المسجد، ورجع إلى البيت وهو يقول:

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا أبغي من رزقها الموت سلما

فاستلم الحجر، ثم تکاثروا عليه، فحمل عليهم، وهو يقول:

قد سئَ أصحابك ضرب الأعناق وقامَت الحرب بنا على ساق

فأتاها حجر فصبك جيئه فأدمه وأوضنه، فقال:

ولستنا على الأعذاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطُر الدما

فكشفهم عن المسجد، ورجع على من بقي من أصحابه عند البيت، فقال لهم:

ألقوا أغمام السيوف، ولیصن کل [رجل] منكم سيفه كما يصون وجهه، لا ينكسر سيف أحدكم فيقعد كالمرأة، ولا يسأل رجل منكم:

أين عبد الله، من يسأل عنني فإني في الرعيل الأول، ثم أنشأ يقول:

يا رب إن جنود الشام قد كثروا وھتكوا من حجاب البيت أستارا

يا رب إبني ضعيف الركن مُضطهد فابعث إليّ جنوداً منك أنصاراً
وتکاثر أهل الشام عليه ألواناً من كل باب، فحمل عليهم، فشداً بالحجارة،
فانصرع، وأكب عليه مولان له، وأحدهم يقول:

* العبد يحمي ربه ويحتمي *

حتى قتلوا جميعاً، وتفرق من كان معه من أصحابه، وأمر به الحجاج فصلب
بمكة، وكان مقتله يوم الثلاثاء، لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، سنة ثلاثة
وسبعين.

وكلمت أسماء أمه الحجاج في دفنه، فأبى عليها، فقالت للحجاج: أشهد إني
لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومُبَير» فأما الكذاب فهو
المختار، وأما المبَير فما أظنك إلا هو.

وسنذكر لمعاً من أخبار الحجاج فيما يرد من هذا الكتاب، وإن كنا قد أتينا على
مبسوطها فيما تقدم من كتابنا.

ولاية الحجاج العجائز

وأقام الحجاج والياً على مكة والمدينة والحزار واليمين واليمامة ثلاثة سنين، ثم
جمع له العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة.

جابر بن عبد الله

ومات جابر بن عبد الله الأنصاري في أيام عبد الملك بالمدينة، وذلك في سنة
ثمان وسبعين، وقد ذهب بصره، وهو ابن نيف وتسعين سنة.

وقد كان قدما إلى معاوية بدمشق، فلم يأذن له أياماً، فلما أذن له قال: يا معاوية،
أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حجب ذا فاقة وحاجة حجبه الله يوم [القيمة،
يوم] فاقته وحاجته» فغضب معاوية، وقال له: لقد سمعته يقول: «إنكم ستلقون بعدي
أثرة، فاصبروا حتى ترددوا على الحوض» أفلأ صبرت؟ قال: ذكرتني ما نسيت، وخرج
فاستوى على راحلته ومضى، فوجه إليه معاوية بستمائة دينار، فردها وكتب إليه:

وإني لأختار القنوع على الغنى إذا اجتمعا والماء بالبارد المحضر
وأقضى على نفسي إذا الأمر نابني وفي الناس من يُقضى عليه ولا يُقضى
وألبس ثواب الحياة، وقد أرى مكان الغنى أن لا أهين به عرضي

وقال لرسوله: قل له والله يا ابن آكلة الأكباد لا وجد [ث] في صحيفتك حسنة أنا سببها أبداً.

محمد ابن الحنفية

ومات محمد بن [علي بن أبي طالب، ابن] الحنفية في سنة إحدى وثمانين في أيامه بالمدينة، ودفن بالبقيع، وصلى عليه أبوان بن عثمان [بن عفان] بإذن ابنه أبي هاشم، وكان محمد يكتن بأبي القاسم، وقبض وهو ابن خمس وستين [سنة] وقيل: إنه خرج إلى الطائف هارباً من ابن الزبير فمات بها، وقيل: إنه مات ببلاد أيلة، وقد تنزع في موضع قبره، وقد قدمتنا قول الكيسانية ومن قال منهم إنه بجبل رضوى، وكان له من الولد: الحسن، وأبو هاشم، [وعبد الله، وجعفر الأكبر، وحمزة، وعلى لأم ولد، وجعفر الأصغر وعَزْن، أمهما أم جعفر] والقاسم، وإبراهيم.

حدثنا نصر بن علي، قال: حدثنا أبو أحمد الزبيري، عن يونس بن أبي إسحاق، قال: حدثنا سهل بن عبيد بن عمرو الخابوري قال: كتب ابن الحنفية إلى عبد الملك: إن الحجاج قد قدم بلدنا [وقد حفته] فأححب أن لا تجعل له علي سلطاناً بيد ولا لسان، فكتب عبد الملك إلى الحجاج: إن محمد بن علي كتب إلي يستغبني منك، وقد أخرجت يدك عنه، فلم أجعل لك عليه سلطاناً بيد ولا لسان، فلا تتعرض له، فلقيه في الطواف فغض على شفته، ثم قال: لم يأذن لي فيك أمير المؤمنين، فقال له محمد: وبحكم أو ما علمت أن الله تبارك وتعالى في كل يوم وليلة ثلاثة وستين لحظة، أو قال نظرة، لعله أن ينظر إلي منها بنظرة، أو قال [يلحظني] بلحظة، فيرحمني فلا يجعل لك علي سلطاناً بيد ولا لسان، قال: فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك، فكتب بها عبد الملك إلى ملك الروم وكان قد توعدَه، فكتب إليه ملك الروم: ليست هذه من سجيتك ولا من سجية آبائك، ما قالها إلا نبي، أو رجل من أهل بيته نبي.

ملك الروم والشعبي

وذكر الشعبي قال: أ Fernandez عبد الملك إلى ملك الروم، فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجنته، وكانت الرسل لا تطيل [الإقامة] عنده، فحسبني أياماً كثيرة، حتى استحييت خروجي، فلما أردت الانصراف قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت: لا، ولكني رجل من العرب في الجملة، فهمس بشيء، فدفعت إلى رُقعة، وقيل لي: إذا أديت الرسائل [عند وصولك] إلى صاحبك أوصل إليه هذه الرقعة، قال: فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك، ونسيت الرقعة فلما صرت في بعض الدار [إذ]

بدأت بالخروج] تذكرتها فرجعت فأوصلتها إليه، فلما قرأها قال لي: أقال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك؟ قلت: نعم، قال لي من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت: لا، ولكنني رجل من العرب في الجملة، ثم خرجت من عنده، فلما بلغت الباب رُدْتُ، فلما مثلت بين يديه قال لي: أتدرى ما في الرقة؟ قلت: لا، قال: اقرأها، فلما قرأتها فإذا فيها: عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملَّكُوا غيره، فقلت له: والله لو علمت [ما فيها] ما حملتها، وإنما قال هذا لأنه لم يرك، قال: أفتدرى لم كتبها؟ قلت: لا، قال: حسدنني عليك وأراد أن يغريني بقتلك، قال: فتأدي ذلك إلى ملك الروم، فقال: ما أردت إلا ما قال.

وصف معاوية عبد الملك

وذكر عند معاوية عبد الملك فقال: هو آخذ بثلاث، وتارك لثلاث: آخذ بقلوب الناس إذا حدث، ويحسن الاستماع إذا حدث، وب AISERالأمررين إذا خولف، تارك للمُمَازَاة، تارك للغيبة، وتارك لما يعتذر منه.

وقال عبد الملك بعض جلسائه يوماً: أريد الخلوة بك، فلما خلا به قال له عبد الملك: بشرط ثلاثة خصال: لا ظفر نفسي عندك فأنا أعلم بها منك، ولا تغتب عندي أحداً فلست أسمع منك، ولا تكذبني فلا أرى لمكذب، قال: أتأذن [لي] في الانصراف؟ قال: إذا شئت.

عبد الملك وعامله قبل هدية

وذكر الهيثم وغيره من الأخباريين أن عبد الملك بلغه عن عامله أنه قبل الهدايا، فأشخصه إليه، فلما دخل عليه قال له: أقبلت هدية منذ وليت؟ قال له: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة، وخراجك موفور، ورعايتك على أفضل حال، قال: أجب فيما سألك عنه، أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال: نعم، قال: إن كنت قبلت ولم تعوض إنك للثيم، ولئن كنت أنت مُهديها من غير مالك أو استكفيته ما لم يكن مثله مستكفاء إنك لخائن جائز، وما أتيت أمر لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع، وأمر بصرفه من عمله.

عبد الملك وعمرو بن بلاط يصلح بينه وبين زوجته

وحدث المنقري [عن الضبي] قال: قال الوليد بن إسحاق: قال ابن عباس: كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية - وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر - تحت

عبد الملك بن مروان، فغضبت عليه، فطلب رضاها بكل شيء، فأبى [عليه] وكانت أحب الناس إليه، فشكى ذلك إلى خاصته، فقال له عمرو بن بلال رجل من بني أسد كان قد تزوج بنت زنباع الجذامي: ما لي عليك إن أرضيتها؟ قال: حكمك، فخرج وجلس يبابها يبكي فقالت [له] خاصتها: ما لك [تبكي] أبا حفص؟ قال: فزعت إلى ابنة عمي، فاستأذنا لي عليها، فأذنت له وبينهما ستر، فقال: قد عرفت حالى مع أمراء المؤمنين معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك، ولم يكن لي غير ابنين فعدا أحدهما على الآخر فقتله، فقال أمير المؤمنين: أنا قاتل المعتمدي، قلت [له]: أنا ولی الدم وقد عفوت، فأبى على وقال: ما أحب أن أغزو رعيتي هذا، وهو قاتله بالغداة، فأشدك الله إلا ما طلبته منه، فقالت: لا أكلمه، قال: ما أظنك تكسبين شيئاً هو أفضل من إحياء نفس، ولم يزل [بها] خواصها وخدمها وحاشيتها حتى قالت: علي بشابي، فلبست، وكان بينها وبين عبد الملك باب، وكانت قد ردمته، فأمرت بفتحه، ثم دخلت فأقبل الشخصي يشتند فقال: يا أمير المؤمنين، هذه عاتكة، قال: ويلك!! ورأيتها؟ قال: نعم، إذ طلعت وبعد الملك على سريره، فسلمت، فسكت، فقالت: أما والله لولا مكان عمرو بن بلال ما أتيتك، الله أنت عدًا أحد ابنيه على الآخر فقتلته وهو ولی الدم وقد عفا [عنه] أعزت لقتلته! قال: إيه والله وهو راغم، فأخذت بيده فأعرض عنها، فأخذت برجله فقبلتها، فقال: هو لك، وتراضياً [بعد أن نكحها ثلاثة] وراح عبد الملك مجلسه للخاصة، فدخل عمرو بن بلال، فقال له: يا أبا حفص، أطفت الحيلة في القيادة، ولك الحكم، فقال: يا أمير المؤمنين، ألف دينار ومزرعة بما فيها من الآلات والرقيق، قال: هي لك، قال: وفرائض لولدي وأهل بيتي، قال: وذلك كله، وبلغ عاتكة الخبر، فقالت: ويلي على القواد، إنما خدعني.

الحجاج يصف الفتنة

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن صيف لي الفتنة، فكتب إليه: إن الفتنة تشب بالنجوى، وتحصد بالشكوى، وتنتح بالخطب، فكتب إليه: إنك قد أصبت وأحسنت الصفة، فإن أردت أن يستقيم لك من قبلك فخذهم بالجماعة، وأعطهم عطاء الفرق، وألصق بهم الحاجة.

وحديثنا المنقري، قال: حدثنا أبو الوليد الصباح بن الوليد قال: حدثنا أبو رياش ضبة بن نفقة، عن مقلنس بن سابق الدمشقي ثم السكسكي، أن عبد الملك لما بلغه خلع ابن الأشعث صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن أهل العراق استعجلوا قدرى قبل انقضاء أجلي، اللهم لا تسلطنا على من هو خير منا، ولا تسلط علينا من نحن خير

منه، اللهم سلط سيف أهل الشام على أهل العراق حتى يبلغ رضاك، فإذا بلغه فلا تجاوز به سخطك.

كتاب من عبد الملك إلى الحجاج لم يفهمه

وكتب عبد الملك إلى الحجاج: أنت [عندك] سالم، فلم يعرف ما أراد بذلك؛ فكتب إلى قتيبة بن سلم يسأله عن ذلك، ويعث الكتاب مع رسول فلما ورد على قتيبة وناوله الكتاب ضرط الرسول؛ فخجل واستحيى؛ فقرأه قتيبة وأراد أن يقول له اقعد فقال: اضرط، قال: قد فعلت، فاستحيا قتيبة وقال: ما أردت إلا أن أقول لك اقعد فغلط، فقال: قد غلطة أنا وغلطت أنت، قال قتيبة: ولا سواء، أغلط أنا من فمي وتغلط أنت من استك، أغلىم الأمير أن سالماً كان عبداً لرجل، وكان عنده أثيراً، وكان يُسْعَى به إليه كثيراً، فقال:

يُدِيرُونِي عن سالم وأديرهم وجلة بين العينين والأنف سالم
فأراد عبد الملك أنك عندي بمنزلة سالم، فلما أتى الحجاج بالرسالة كتب له عهداً
على خراسان.

وقد روي نحو هذا الخبر عن رجل كان في مجلس خالد بن عبد الله القسري
ضرط، فلما حضر الغداء قام ذلك الرجل، فقال له خالد: اقعد، فأبى، فقال له:
أقسمت عليك لتضرطن، قال: قد ضرطت، فخجل خالد، واعتذر إليه، وأمر له بمال.
وأهدى إلى عبد الملك أثريسة مكللة بالدر والياقوت، فأعجبته، وعنه جماعة من
خاصته وأهل خلوته، فقال لرجل من جلسائه اسمه خالد: اغمز منها ترساً، وأراد أن يتمتحن
صلابته، فقام فغمزه ضرط، فاستضحك عبد الملك، فضحك جلساؤه، فقال: كم دية
الضرطة؟ فقال بعضهم: أربعينات درهم وقطيفة، فأمرَ له بذلك، فأنشأ رجل من القوم:

أَيْضُرُطْ خالد مِنْ غَمْزِ ترسٍ وَيَحْبُوهُ الْأَمِيرُ بِهَا بِدُورِا
فَيَأْتِيَ لَكِ ضَرْطَةٌ جَلَبَتْ غَنَاءً وَيَأْتِيَ لَكِ ضَرْطَةٌ أَعْنَتْ فَقِيرَا
يَوْدُ النَّاسُ لَوْ ضَرِطُوا فَنَالُوا مِنَ الْمَالِ الَّذِي أُعْطِيَ عَشِيرَا
وَلَوْ تَغْلَمْ بَأْنَ الضَّرْطِ يَغْنِي ضَرَطْنَا أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَا
فقال عبد الملك: أعطوه أربعة آلاف درهم، ولا حاجة لنا في ضراطك.

عبد الملك يحج

وحدثنا أحمد بن سعيد الدمشقي والطوسى وغيرهما في كتاب الأخبار المعروف

بالموقعيات، عن الزبير بن بكار، قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن يزيد عن عتبة بن أبي لهب، قال: حج عبد الملك في بعض أعوامه، فأمر للناس بالعطاء، فخرجت بدرة مكتوب عليها «من الصدقة» فأبى أهل المدينة من قبولها وقالوا: إنما كان عطاونا من الفيء، فقال عبد الملك وهو على المنبر: يا معشر قريش، مئلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين، فنزلا في ظل شجرة تحت صفا، فلما دنا الرواح خرجت إليهما من تحت الصفا حية تحمل ديناراً فألقته إليهما، فقالا: إن هذا لمن كنزاً، فأقاما عليها ثلاثة أيام كل يوم تخرج إليهما ديناراً، فقال أحدهما لصاحبه: إلى متى تتضرر هذه الحية؟ ألا نقتلها ونحرر هذا الكنز فنأخذنه؟ فنهاه أخيه، وقال [له]: ما تدري لعلك تعطب ولا تدرك المال، فأبى عليه، وأخذ فأساً معه ورَصَدَ الحية حتى خرجت، فضربيها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها، فثارت الحية فقتلتة، ورجعت إلى جحرها، فقام أخيه فدفنه، [وأقام] حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوبأ رأسها ليس معها شيء، فقال لها: يا هذه، إني والله ما رضيت ما أصابك، ولقد نهيت أخي عن ذلك، فهل لك أن نجعل الله يبينا أن لا تضرني ولا أضرك، وترجعين إلى ما كنت عليه؟ قالت الحية: لا، قال: ولم ذلك؟ قالت: إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لي أبداً وأنت ترى قبر أخيك، ونفسك لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشجنة، وأشددهم شعر النابغة:

فقالت: أَرَى قَبْرًا تِرَاهُ مَقْبَلِي وَضَرْبَةً فَأَسْ فَوْقَ رَأْسِي فَاقْرِه

فيما معشر قريش، وليكم عمر بن الخطاب فكان ظاظاً غليظاً مُضيقاً عليكم، فسمعتم له وأطعتم، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً [ليناً كريماً] فعدوتم عليه فقتلتموه، وبعثنا عليكم مسلماً يوم الحرة فقتلتموه، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تُحبوننا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرة، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر مقتل عثمان.

وحدث المدائني وابن دأب أن روح بن زنباع جليس عبد الملك رأى منه إعراضاً وجفوة، فقال للوليد بن عبد الملك: أما ترى ما أنا فيه من أمير المؤمنين يا عراضاً عنني بوجهه حتى [لقد] فَغَرَّتِ السَّبَاعُ بِأَفْوَاهِهَا نحْوِي وَأَهْوَتْ بِمَخَالِبِهَا إِلَيْيَ وَجْهِي؟ فقال له الوليد: اخْتَلَنْ لَهُ فِي حَدِيثِ تَضْحِكَهُ بِهِ كَمَا احْتَالَ مَرْزِيَانَ نَدِيمَ سَابُورَ بْنَ سَابُورَ مَلِكَ فَارِسَ، قال روح: وما كان من خبره مع الملك؟ قال الوليد: كان مرزيان هذا من سُمَّار سابور، فظهرت له من سابور جفوة، فلما علم ذلك تعلم نباح الكلاب، وعواء الذئاب وهيق الحمير، وزرقاء الديوك، وشحيحة البغال، وصهيل الخيل، ومثل هذا، ثم [احتال حتى] توصل إلى موضع يقرب من مجلس خلوة الملك وفرشه، وأخفى أثره، فلما خلا الملك نَبَحَ نَبَاحَ الْكَلَابِ، فلم يشك الملك أنه كلب، فقال الملك: [انظروا] ما هذا؟

فعوى عواء الذئاب، فنزل الملك عن سريره، فنهق نهق الحمير، فمضى الملك هارباً، ومضى الغلمان يتبعون [الأثر و] الصوت، فكلما دُنوا منه ترك ذلك الصوت وأحدث صوتاً آخر من أصوات البهائم، فأخرجهموا عنه، ثم اجتمعوا فاقتربوا عليه فأخرجوه، فلما نظروا إليه قالوا للملك: هذا مرزبان المضحك، فضحك الملك ضحكاً شديداً، وقال له: وبلك!! ما حملك على هذا؟ قال: إن الله مسخني كلباً [وذبناً] وحماراً وكل خلق لما غضبت علي، فأمر الملك بالخلع عليه، ورَدَه إلى مرتبته التي كان فيها، وتجدد للملك به سرور، فقال روح للوليد: إذا اطمأن المجلس بأمير المؤمنين فاسأله عن عبد الله بن عمر هل كان يمزح أو يسمع مِزاحاً؟ قال الوليد: أفعل، وكان عمر صاحب سلام لا يمزح ولا يعرف شيئاً عن المِزاح، فتقدم الوليد وسبقه بالدخول، فتتبعه روح، فلما اطمأن بهما مجلس عبد الملك قال الوليد [لروح]، يا أبا زرعة، هل كان ابن عمر يمزح أو يسمع المِزاح؟ قال روح: حدثني ابن أبي عتيق أن امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن [المخزومية] هَجَّته فقالت:

ذَهَبَ إِلَهُ بِمَا تَعِيشُ بِهِ وَقُمِرَتْ عَيْشَكَ أَيْمَا قَمِرِ
أَنْفَقْتَ مَالَكَ غَيْرَ مُخْتَسِمٍ فِي كُلِّ زَانِيَةٍ وَفِي الْخَمْرِ

وكان ابن أبي عتيق صاحب غزل وفكاهة، فأخذ هذين البيتين في رقعة وخرج [بهذا الشعر] فإذا هو بابن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، انظر في هذه الرقعة وأشيز علي برأيك فيها، فلما قرأها عبد الله استرجع، فقال له: ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر، قال: أرى أن تعفو وتصفح، قال: والله يا أبا عبد الرحمن لشن لقيته بناحية لأنزيكته نينكاً جيداً، [فأخذت] ابن عمر أفكـل ورعدـة وازبـد لونـه، وقال: ما لك غضـب الله عليكـ، قال: ما هو إلا ما قلتـ لكـ، وافتـرقـاـ، فلما كان بعد أيام لقيـه فأعراضـ عنهـ ابنـ عمرـ، فقالـ: يا أبا عبد الرحمنـ، إـنـيـ لـقـيـتـ صـاحـبـ الـبـيـتـيـنـ وـنـكـتـهـ، فـصـبـعـقـ عبدـ اللهـ [بنـ عمرـ] فـلـمـ رـأـيـ ماـ حـلـ بـهـ ذـنـاـ مـنـهـ وـقـالـ لـهـ فـيـ ذـنـهـ: إـنـهـ اـمـرـأـتـيـ [فـقـامـ ابنـ عمرـ] فـقـبـلـ ماـ بـيـنـ عـيـنـيـ وـضـحـكـ، وـقـالـ: أـحـسـنـتـ فـرـذـهـاـ، فـضـحـكـ عبدـ الملكـ حتـىـ فـحـصـ بـرـجلـهـ، وـقـالـ لـهـ: قـاتـلـكـ اللهـ ياـ روـحـ، مـاـ أـطـيـبـ حـدـيـثـكـ! وـمـدـ يـدـهـ إـلـيـهـ، فـقـامـ إـلـيـهـ روـحـ فـأـكـبـ عـلـيـهـ وـقـبـلـ أـطـرـافـهـ، وـقـالـ: ياـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ، الـذـنـبـ فـأـعـتـذـرـ، أـمـ لـمـ لـمـلـةـ فـأـصـطـبـرـ وـأـرـجـوـ عـاقـبـتـهـ؟ـ قـالـ: لاـ وـالـهـ مـاـ ذـاكـ لـشـيءـ تـكـرـهـهـ، ثـمـ عـادـ إـلـىـ أـحـسـنـ حـالـاتـهـ.

عبد الملك الهمذاني وسليمان بن المنصور

وقد حكي مثل هذا عن عبد الملك بن مهلهل الهمذاني، وكان سميـراً سليمان بن

المنصور، وكان سليمان قد جفأه، فأناه يوماً في قائم الظهيرة واحتدام الهجيره فاستأذن، فقال له الحاجب: ليس هذا بوقت إذن على الأمير، فقال [له]: أعلمك بمكاني، فدخل فاستأذن له، فقال له سليمان: مره يسلم قائماً ويختفف، فخرج الحاجب [فأذن له] وأمره بالتحفيف، فدخل فسلم قائماً ثم قال: أصلح الله الأمير، إنني انصرفت بالأمس إلى نحو منزلي وقد أمشيت، فبينا أنا في طريقي إذ أذن مؤذن، فدَنَرْتُ، ثم صعدت إلى مسجد مغلق فصعدت ثم صعدت، قال سليمان: فَلَمَّا تَلَقَ السَّمَاءَ فَكَانَ مَاذَا؟ قال: فتقدم إنسان إما كُزدي أو طمطمانى فَأَمَّ القوم بكلام ما أفهمه ولُغة ما أعرفها، فقال: ويل لكل زمرة زما مala وعده، قال: يريد ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وَعَدَده، فإذا خلفه سكران ما يعقل [سڪرآن]، فلما سمع قراءته ضرب بيده ورجليه وجعل يقول: أير عبكي در ليلكا في حر أم قارئك [ومصليك]، فضحك سليمان حتى تمرغ على فراشه، وقال: أذن مني يا أبا محمد، فأنت أطيب أمة محمد، ثم دعا بخلعة، وقال: الزم الباب وَاغْدُ في كل يوم، وعاد إلى أحسن حالاته عنده.

ذكر طرف من أخبار الحجاج، وخطبه وما كان منه في بعض فعاله

سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء

كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة، فدخل عليها في السحر فوجدها تتخلل،
بعث إليها بطلاقها، فقالت: لم بعثت إليّ بطلاقي؟ الشيء رابك مني؟ قال: نعم،
دخلت عليك [عند] السحر وأنت تتخللين، فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرحة، وإن
كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قنرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، لكنني تخللت من
شظايا السواك، فتروجها بعده يوسف بن أبي عقيل الثقفي أبو الحجاج، فولدت له
الحجاج بن يوسف مشوهاً لا دبر له، فنقيب عن دبره، وأبى أن يقبل ثديه أمه أو غيرها،
فأعياهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصوّر لهم في صورة الحارث بن كلدة، فقال: ما
خبركم؟ فقالوا: ابن ولد يوسف من الفارعة، وكان اسمها، وقد أبى أن يقبل ثدي
أمه [أو غيرها]، فقال: اذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه، فإذا كان في اليوم الثاني فافعلوا
به كذلك، فإذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه، ثم اذبحوا لهأسوداً
سالحاً فأولغوه دمه وأطلقوا به وجهه، فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع، قال: ففعلوا به
ذلك، فكان [بعد] لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في بدء أمره، هذا، وكان
الحجاج يخبر عن نفسه أن أكثر لذاته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يُقدم عليها غيره،
ولا سبق إليها سواه.

عبد الملك يولي المهلب قتال الخوارج

حدثنا أبو جعفر محمد بن سليمان بن داود البصري المنقري، قال: حدثني ابن
عائشة [وغيره] قال: سمعت أبي يقول: لَمَّا غلبت الخوارج على البصرة بعث إليهم
عبد الملك جيشاً فهزموه [ثم بعث إليهم آخر فهزموه] فقال: مَنْ للبصرة والخوارج؟
فقيل له: ليس لهم إلا المهلب بن أبي صفرة، فبعث إلى المهلب، فقال: على أن لي
خراج ما أجلئنُهم عنه، قال: إذن تشركني في ملكي، قال: فثلاثة، قال: لا، قال:

فتصرفه، والله لا أنقص منه شيئاً، على أن تمدني بالرجال؛ فإذا أخللت فلا حَقّ لك علىَّ،
فجعلوا يقولون: ولَي عبد الملك على العراق رجلاً ضعيفاً، وجعل يقول: بعثت
المهلب حتى يحارب الخوارج فركب دجلة.

عبد الملك يولي الحجاج العراق

ثم كتب المهلب إلى عبد الملك : إنه ليس عندي رجال أقاتل بهم ، فلما بعثت إلى الرجال وإنما خلني بينهم وبين البصرة ، فخرج عبد الملك إلى أصحابه فقال : ويلكم ! من لل العراق ؟ فسكت الناس وقام الحجاج وقال : أنا لها ، قال : اجلس ، ثم قال : ويلكم ! من لل العراق ؟ فصمتوا ، وقام الحجاج وقال : أنا لها ، قال : اجلس ، ثم قال : ويلكم !! من لل العراق ؟ فصمتوا وقام الحجاج الثالثة فقال : والله أنا لها يا أمير المؤمنين ، قال : أنت زنborها فكتب إليه عهده ، فلما بلغ القادسية أمر الجيش أن يقبلوا وأن يروحوا وراءه ، ودعا بحمل عليه قتب ، فجلس عليه بغير حشية ولا وطاء ، وأخذ الكتاب بيده ، وليس ثياب السفر ، وتعمم بعمامته حتى دخل الكوفة وحده ، فجعل ينادي : الصلاة جامعة ، وما منهم رجل جالس في مجلسه إلا ومعه العشرون والثلاثون وأكثر [من] ذلك من أهله ومواليه [وتصعد المنبر متلثماً متتكباً قوسه] ، فجلس واضعاً إيهامه على فيه] فقال بعضهم البعض : قوموا حتى نحصبه [فدخل محمد بن عمير الدارمي في مواليه ، فلما رأى الحجاج جالساً على المنبر لا يجيب ولا ينطق قال : لعن الله بنى أمية حين يولون العراق مثل هذا ، لقد ضيع الله العراق حيث يكون مثل هذا عليها ، ثم ضرب بيده إلى حصباء المسجد ليحصبه ، وقال : والله لو وجدوا أذناً من هذا لبعثوه إلينا ، فلما همَّ أن يحصبه قال له بعض أهل بيته : أصلحك الله اكْفُف عن الرجل حتى نسمع ما يقول ، فمن قائل يقول : حُصِرَ الرجل فيما يقدر على الكلام ، ومن قائل يقول : أعرابي ما أبصر حجته ، فلما عَصَّ المسجد بأهله حَسَرَ اللثام عن وجهه ثم قام ، ونَحَى العمامة عن رأسه ، فوالله ما حمد الله ولا أثني عليه ، ولا صَلَى على نبيه ، وكان أول ما بدأهم به أن قال :

خطبه الحجاج مقدمه العراق

إني والله لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها،
وإني [أنا] صاحبها، كأني أنظر إلى الدماء ترفرق بين العمائم واللحى:
هذا أوان الحرب فاشتدي زينم قد لفها الليل بسوق خطم
ليس براعي إيل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم

وقال:

قد لَفَهَا اللَّيلُ بِعُضْلَبِيْ أَزَقَعَ خَرَاجٍ مِنَ الدَّوَيِّ
* مَهَاجِر لَيْسَ بِأَعْرَابِيْ *

وقال:

قد شَمَرْتُ عن ساقها فكدوا [وَجَدَتِ الْحَرْبَ بِكُمْ فَجَدُوا]
والقوس فيها وَتَرْ عَرْدُ مثل ذراع البكر أو أشد
إن أمير المؤمنين تَرَ كَانَتْهُ، فوجدني أَمْرَهَا طعماً، وأَحَدَهَا سنانًا، وأَقْواهَا قَدَاحًا،
فإن تستقيموا تستقم لكم الأمور، وإن تأخذوا لي بُنَيَّاتِ الطريق تجدونني لكل مرصد
مرصداً، والله لا أُقْبِلُ لكم عَنْرَةً، ولا أُقْبِلُ منك عَذْرَةً.

يا أهل العراق، يا أهل الشقاقي والنفاق ومساوئ الأخلاق، والله ما أغمس كثغماز
التيـن [وَلَا يَقْعُدُ لِي بِالشَّنَانِ] ولقد فُرِزْتُ عن ذكاء، وفُقِّشت عن تجربة والله لِأَلْحَوْنَكُمْ
لحوـ العـودـ، ولـأـعـصـبـنـكـمـ عـضـبـ السـلـمـةـ، ولـأـضـرـبـنـكـمـ ضـربـ غـرـائـبـ الـإـبـلـ ولـأـقـرـعـنـكـمـ
قرع المـرـوةـ.

يا أهل العراق، طالما سعيتم في الضلالـةـ، وسلكتـمـ سـبـيلـ الغـواـيةـ، وستنتـمـ سـنـنـ
الـسـوـءـ، وتمادـيـتمـ فيـ الجـهـالـةـ، يا عـيدـ العـصـاـ وـأـلـاـدـ الـإـمـاءـ، أناـ الحـجـاجـ بـنـ يـوسـفـ، إـنـيـ
وـالـلـهـ لـأـعـدـ إـلـاـ وـفـيـتـ، وـلـأـخـلـقـ إـلـاـ قـرـيـتـ، فـإـيـاـكـمـ وـهـذـهـ الرـزـافـاتـ وـالـجـمـاعـاتـ، وـقـالـ
وـقـيـلـ: وـمـاـ يـكـونـ وـمـاـ هـوـ كـائـنـ، وـمـاـ أـنـتـ وـذـاكـ يـاـ بـنـيـ الـلـكـيـعـةـ؟ لـيـنـظـرـ الرـجـلـ فـيـ أـمـرـ نـفـسـهـ،
ولـيـحـذـرـ أـنـ يـكـونـ مـنـ فـرـائـسيـ.

يا أهل العراق، إنما مثلـكمـ كما قال الله عـزـ وـجـلـ: ﴿مِثْلًا قَرِيَّةً كَانَتْ إِيمَانَهُ
مُطْهَيَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ إِنْتَعَرَهُ اللَّهُ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ
وَالْحَوْفِ﴾ [الـنـحـلـ: ١١٢ـ] الآية فـأـسـرـعـواـ وـاستـقـيمـواـ، وـاعـتـدـلـواـ وـلـاـ تـمـيلـواـ، وـشـايـعـواـ وـبـاـيـعـواـ
واخـضـعـواـ، وـاعـلـمـواـ أـنـهـ لـيـسـ مـنـ الإـكـثـارـ وـالـإـهـذـارـ، وـلـاـ مـنـكـمـ الـفـرـارـ وـالـنـفـارـ، إـنـماـ هوـ
انتـضـاءـ السـيفـ، ثـمـ لـأـغـمـدـهـ فـيـ شـتـاءـ وـلـاـ صـيفـ، حتـىـ يـقـيمـ اللهـ لـأـمـيرـ المـؤـمـنـينـ أـوـدـكـمـ،
وـيـذـلـ لـهـ صـبـغـكـمـ.

إـنـيـ نـظـرـتـ فـوـجـدـتـ الصـدـقـ معـ البرـ، وـوـجـدـتـ البرـ فـيـ الـجـنـةـ، وـوـجـدـتـ الـكـذـبـ معـ
الـفـجـورـ، وـوـجـدـتـ الـفـجـورـ فـيـ النـارـ.

أـلـاـ إـنـ أمـيرـ المـؤـمـنـينـ أـمـرـنـيـ بـأـعـطـائـكـمـ أـعـطـيـاتـكـمـ وـإـشـخـاصـكـمـ إـلـىـ مـحـارـبـةـ عـدـوكـمـ
معـ المـهـلـبـ، وـقـدـ أـمـرـتـكـمـ بـذـلـكـ، وـأـجـلـتـ لـكـمـ ثـلـاثـاـ، وـأـعـطـيـتـ اللهـ عـهـدـاـ يـؤـاخـذـنـيـ بهـ

ويستوفيه مني أن لا أجد أحداً من بَعْثِ المهلب بعدها إلا ضربت عنقه، وانتهيت ماله، يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين:

فقال الكاتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين وال المسلمين، سلام عليكم فإني إليكم أُحمد الله [الذي لا إله إلا هو].

فقال الحجاج: اسكت يا غلام، ثم قال مغضباً: يا أهل العراق [يا أهل] النفاق والشقاق ومساويء الأخلاق، يا أهل الفرقة والضلال، يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام؟ أما والله لئن بقيت لكم لأنحونكم لحو العود ولأؤذبنكم أدبآ سوى هذا الأدب، هذا أدب ابن سمية - وهو صاحب شرطة كان بالعراق - اقرأ يا غلام الكتاب، فلما بلغ السلام قال أهل المسجد: وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته.

ثم نزل، وأمر للناس بأغطيائهم، والمهلب يومئذ بمهرجان [قدق] يقاتل الأزارقة.

فلما كان اليوم الثالث جلس الحجاج بنفسه يعرض الناس، فمر به عمير بن ضابيء [التميمي] البرجمي [ثم أحد بنى الحدادية] وكان من أشراف أهل الكوفة، وكان من بَعْثِ المهلب، فقال: أصلاح الله الأمير؛ إنني شيخ كبير زمُّن عليل ضعيف،ولي عدة أولاد، فليختبر أيهم شاء مكاني، أشدتهم ظهراً، وأكرهم فرساً، وأنتمهم أذاء، قال الحجاج: لا بأس بشاب مكان شيخ، فلما ولـي قال له عنبرة بن سعيد ومالك ابن أسماء: أصلاح الله الأمير! أتعرف هذا؟ قال: لا، قالا: هو عمير بن ضابيء التميمي الذي وَرَبَ على أمير المؤمنين عثمان وهو مقتول فكسر ضلعاً من أضلاعه، فقال [الحجاج: عليّ به، فأتي به، فقال له: أيها الشيخ، أنت الواثب على أمير المؤمنين عثمان بعد قتلـه، والكاسـر ضلعاً من أضلاعه؟ فقال له]: إنه كان حـبس أبيـ شـيخـاً كـبيرـاً ضـعـيفـاً فـلم يـظـلـقـه حـتـى مـاتـ فـي سـجـنـهـ، فـقالـ الحـجـاجـ: أـمـاـمـيرـ المؤـمـنـينـ عـثـمـانـ فـتـغـزـوـهـ بـنـفـسـكـ، وـأـمـاـ الأـزارـقـةـ فـتـبـعـتـ إـلـيـهـ بـالـبـدـلـاءـ، أـوـلـيـسـ أـبـوـكـ الـذـيـ يـقـولـ:

هـمـمـتـ وـلـمـ أـفـعـلـ وـكـدـتـ وـلـيـتـ الـبـكـاءـ حـلـائـهـ
أـمـاـ وـالـلـهـ إـنـ فـيـ قـتـلـكـ أـيـهاـ الشـيـخـ لـصـلـاحـ الـمـصـرـينـ، ثـمـ أـقـبـلـ يـصـعـدـ بـصـرـهـ
إـلـيـهـ [وـيـصـوـبـهـ] وـيـعـضـ عـلـىـ لـحـيـتـهـ مـرـةـ وـيـسـرـحـهـ أـخـرـىـ، ثـمـ أـقـبـلـ عـلـيـهـ فـقـالـ: يـاـ عـمـيرـ
سـمـعـتـ مـقـالـيـ عـلـىـ الـمـنـبـرـ؟ـ فـقـالـ: نـعـمـ، قـالـ: وـالـلـهـ إـنـ لـقـيـعـ بـمـثـلـيـ أـنـ يـكـوـنـ كـذـابـاـ، قـمـ
إـلـيـهـ يـاـ غـلـامـ فـاضـرـبـ عـنـقـهـ، فـفـعـلـ، فـلـمـ قـتـلـ رـكـبـ النـاسـ كـلـ صـاغـرـ وـذـلـولـ، [وـخـرـجـواـ]
عـلـىـ وـجـوهـهـ يـرـيدـونـ الـمـهـلـبـ، فـازـدـحـمـوـاـ عـلـىـ الجـسـرـ حـتـىـ سـقطـ بـعـضـ النـاسـ فـيـ

الفرات، فأتاه صاحب الجسر فقال: أصلح الله الأمير قد سقط بعض الناس في الفرات، قال: ويحك! ولم ذلك؟ قال: أهل [هذا] البعث ازدحموا على الجسر حتى ضاق بهم، قال: انطلق فاغيّذ لهم جسرين.

وخرج عبد الله بن الزبير الأسي مذعوراً، حتى إذا كان عند اللجامين لقيه رجل من قومه يقال له إبراهيم، فقال له: ما الخبر؟ فقال ابن الزبير: الشر، قتل عمير من بعث المهلب، وأنشا يقول:

أقول لإبراهيم لما لقيته أرى الأمر أمسى مهلكاً متسبعاً
تجهز، فإما أن تزور ابن ضابيء عميراً، وإما أن تزور المهلباً
هما خطنا خسف نجاوك منها ركوبك حولياً من الثلج أشهباً
فأضحي ولو كانت خراسان دونه رأها مكان السوق أو هو أقرباً
ولا فما الحجاج مُغْمِدٌ سيفه مدى الدهر حتى يترك الطفل أشياباً
وخرج الناس هرباً إلى السواد، وأرسلوا إلى أهاليهم أن زودونا ونحن بمكانتنا،
وقال الحجاج لصاحب الجسر: افتح ولا تحلن بين أحد وبين الخروج، ووجه العراض
إلى المهلب، فما أنت على المهلب عاشرة حتى ازدحموا عليه، فقال: من هذا الذي
استعمل على العراق؟ هذا والله الذكر من الرجال؟ فويل والله للعدو إن شاء الله تعالى.

خروج ابن الأشعث

وقد كان الحجاج استعمل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على سجستان وبستن والرخج، فحارب من هنالك من أمم الترك، وهم أنواع من الترك يقال لهم الغوز والخلج، وحارب من يلي تلك البلاد من ملوك الهند، مثل رتبيل وغيره - وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب مراتب ملوك الهند وغيرهم من ملوك العالم، وذكرنا مملكة كل واحد منهم، والصقع الذي هو به، وذوي السمات منهم، وبيننا أن كل ملك يلي هذا الصقع من بلاد الهند يقال له رتبيل - فخلع ابن الأشعث طاعة الحجاج، وصار إلى بلاد كرمان، فتنى بخلع عبد الملك، وانقاد إلى طاعته أهل البصرة والجبال مما يلي الكوفة والبصرة وغيرها، وسار الحجاج إلى البصرة، وسار ابن الأشعث إليه، فكانت له حروب عظيمة، وفي عبد الرحمن بن الأشعث يقول الشاعر:

خلع الملوك وسار تحت لوائه شجر العرى وعراعر الأقوام
وكتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك يعلمه بخبر ابن الأشعث، فكتب إليه

عبد الملك: لعمري لقد خلع طاعة الله بيمنيه، وسلطانه بشماله، وخرج من الدين عرياناً، وإنني لأرجو أن يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستصالهم في ذلك على يد [ي] أمير المؤمنين، وما جوابه عندي في خلع الطاعة إلا قول القائل:

أنا وحلاًماً وانتظاراً بهم غداً فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر
أظن صروف الدهر والجهل منهم ستحملكم مني على مركب وغراً
الم تعلموا أنى تخاف عَرَامتى وأن قَنَاتى لا تلين على الكسر
ودخل ابن الأشعث الكوفة، وكتب الحجاج كتاباً إلى عبد الملك يذكر فيه جيوش
ابن الأشعث وكثرتها، ويستنجد عبد الملك ويسأله الأمداد، وقال في كتابه: واغواه يا
الله، واغواه يا الله، واغواه يا الله، فأمده بالجيوش وكتب إليه: يا ليك، يا ليك، يا
ليك.

وقائع دير الجمامجم وقتل ابن الأشعث

فالتحقى الحجاج وابن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجمامجم، فكانت بينهم وقائع نيف وثمانون وقعة تقفانى فيها خلق، وذلك في سنة اثنين وثمانين، وكانت على ابن الأشعث، فمضى حتى انتهى إلى ملوك الهند، ولم يزل الحجاج يحتال في قتله حتى قتل، وأتى برأسه، فعلا الحجاج منبر الكوفة، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ، ثم قال: يا أهل العراق، إن الشيطان استبطنكم فخالط اللحم منكم والعظم والأطراف والأعضاء، وجرى منكم مجرى الدم، وأفضى إلى الأضلاع والأمخاج، فحشا ما هناك شقاوة واختلافاً ونفاقاً، ثم أربع فيه فعشش، وباض فيه ففرخ، واتخذتموه دليلاً تتابعونه، وقادها تطاوعونه، ومؤمناً تستأمرونه، أسلتم أصحابي بالأهواز حين سعيتم بالغدر بي فاستجمعتم عليّ وحيث ظننتم أن الله سيخذل دينه وخلافته، وأقسم بالله إني لأراكם بطريق تسللون لِوَادِي منهزمين، سرعاً مفترقين، كل امرئ منكم على عنقه السيف، رعاً وجيناً، ثم يوم الزاوية [وما يوم الزاوية؟] بها كان فشلكم وتخاذلكم، وبراءة الله منكم، وتوليكم على أكتافكم السيف هاربين [ونكوص وليكم عنكم، إذ وليتكم كالأبل الشوارد إلى أوطانها] لا يسأل الرجل عن بنيه، ولا يلوى امرؤ على أخيه، حتى عضتكم السلام، وقصفتكم الرماح، ويوم دير الجمامجم، بها كانت الملاحم، والمعارك العظائم:

ضرباً يزيل الهم عن مقيله ويدخل الخليل عن خليله
فما الذي أرجوه منكم يا أهل العراق؟ أم ما الذي أتوقعه؟ ولماذا أستبقكم؟ ولأي

شيء أدخلكم؟ ألل مجرات بعد العداوات؟ أم للتزوّد بعد التزوات؟ وما الذي أراقب بكم؟ وما الذي أنتظركم، إن بعثتم إلى ثغوركم جبتم، وإن أمتكم أو خفتم نافقتم، لا تجزون بحسنة، ولا تشكرنون نعمة.

يا أهل العراق، هل استبحكم نابح، أو استشلاكم غاو، أو استخفكم ناكثر، أو استفرركم عاصن إلا تابعتموه وبایعتموه، وأویتموه وكفیتموه؟!

يا أهل العراق، هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو دبى كاذب إلا كتتم أنصاره وأشیاعه؟! .

يا أهل العراق، لم تنفعكم التجارب وتحفظكم المواقع وتعظمكم الواقع، هل يقع في صدوركم ما أوقع الله بكم عند مصادر الأمور ومواردها.

يا أهل الشام، أنا لكم كالظليم الramج عن فرافقه، ينفي عنهم القذى، ويكتفهـ من المطر، ويحفظـ من الذئاب، ويحمـ من سائر الدواب، لا يخلصـ إليـ معـ قـذـى، ولا يـقـضـيـ إـلـيـهـ رـدـىـ، ولا يـمـسـهـ أـذـىـ.

يا أهل الشام، أنتـ العـدةـ وـالـعـدـدـ، والـجـنـةـ فـيـ الـحـرـبـ، إنـ نـحـارـبـ حـارـبـتـ، أوـ نـجـانـبـ جـانـبـتـ، وـماـ أـنـتـ وـأـهـلـ الـعـرـاقـ إـلـاـ كـمـ قـالـ نـابـغـةـ بـنـيـ جـعدـةـ:

وـإـنـ تـدـاعـيـهـمـ حـظـهـمـ وـلـمـ تـرـزـقـوـهـ وـلـمـ نـكـذـبـ
كـقـولـ الـيهـودـ قـتـلـنـاـ الـمـسـيـحـ وـلـمـ يـقـتـلـوـهـ وـلـمـ يـضـلـبـ
فـيـ أـبـيـاتـ.

من عبد الملك إلى الحجاج

ولما أسرف الحجاج في قتل أسرى دير الجمامج وإعطائه الأموال بلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه: أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفاك في الدماء، وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء في الخطأ الديه وفي العمدة القود، وفي الأموال ردها إلى مواضعها، ثم العمل فيها برأيه، فإنما أمير المؤمنين أمين الله، وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل، فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لين وشدة، فلا يؤنسنك إلا الطاعة، ولا يوحشك إلا المعصية، وظنن بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً، وكتب في أسفل كتابه:

إذا أنت لم ترك أمرأً كرهتها
وتخشى الذي يخشاه مثلك هارباً
إلى الله منه ضيغ الدّرّ حالبه
فإن ترَ مني غفلة فُرشية
فإن ترَ مني وَبَةً أَمْوَيَةً
فهذا وهذا كلّ ذا أنا صاحبه
فلا [لا] تلمني والحوادث جمة
فإنك مجزي بما أنت كاسبه
ولا تغدو ما يأتيك مني، وإن تَعْدَ
يَقُومُ بها يوماً عليك نوادبه
ولا تنقصن للناس حقاً علمته ولا تعطين ما ليس الله جانبه
وهي أبيات من جيد ما اخترناه من قول عبد الملك.

جواب الحجاج

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب: أما بعد، فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرّفي في الدماء، وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهله، وما قضيت حقّ أهل الطاعة بما استحقوه، فإن كان قتلي أولئك العصاة سرفاً وإعطائي أولئك المطيعين تبذيراً فليسوّغنى أمير المؤمنين ما سلف، ولريحّد لي فيه حداً انتهى إليه إن شاء الله تعالى، ولا قوة إلا بالله، ووالله ما على من عقل ولا قُود: ما أصبت القوم خطأ فادِيهِم [ولا ظلمتهم فأقاد بهم] ولا أعطيتهم إلا لك، ولا قلت إلا فيك، وأما ما أنا متظره من أمرِيك فألينهما عدة وأعظمهما محنة، فقد عبأت للعدة الجlad، وللمحنة الصبر، وكتب في أسفل كتابه:

إذا أنا لم أَثْبَغْ رضاك وَأَتَقَى
وَمَا لامريء بعد الخليفة جنة
أَسالم من سالمت من ذي قراة
إذا قارف الحجاج منك خطيئة
إذا أنا لم أذن الشقيق لنصحه
فمن ذا الذي يرجو نوالٍ ويتقى
فقف بي على حد الرضا لا أجوزه
وإلا فَدَغْنِي والأمور فإني شقيق رفيق أحكمتني تجاربـه

وهي أبيات من جيد ما اخترناه من شعر الحجاج.

فلما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صَولْتَيْ، ولن أعود لشيء

الحجاج يلتمس محدثاً مؤنساً

وحدث حماد الرواية أن الحجاج سهر ليلة بالكوفة، فقال لحرسي: أئتي بمحدث من المسجد، فاعتراض رجلاً جسماً عظيماً، فقال له: أجب الأمير، فانطلق به حتى أدخله إليه، فلم يسلم ولا نطق حتى قال له الحجاج: إيه ما عندك؟ فلم يتكلم، فقال للحرسي: أخرجه أخرج الله نفسك، أمرتك أن تأتيني بمحدث فأتيتني بمرعوب قد ذهب فؤاده، فخرج الحجاج ومعه صرة دراهم إلى المسجد، فجعل يتناول الناس فياخذونها، حتى انتهى إلى شيخ، فأعطاه فتبذها، فأعادها الحجاج فردها، ففعل ذلك الحجاج ثلاثة، فدنا منه الحجاج وقال: أنا الحجاج [فأخذها]، ودخل القصر، وقال للحرمي: أحقني به، فدخل فسلم بلسان ذلك وقلب شديد، فقال له الحجاج: من الرجل؟ فقال: منبني شيئاً، قال: ما اسمك؟ قال سميرة بن الجعد، قال: يا سميرة، هل قرأت القرآن؟ قال: جمعته في صدري فإن عملت به فقد حفظته وإن لم أعمل به ضيعته، قال: فهل تفرض؟ قال: إنني لأفرض الصلب وأعرف الاختلاف في الجد، قال: فهل تبصر الفقه؟ قال: إنني لا بصر ما أقوم به أهلي وأرشد ذا العمى من قومي، قال: فهل تعرف النجوم؟ قال: إنني لا أعرف منازل القمر، وما اهتمي به في السفر، قال: فهل تروي الشعر؟ قال: إنني لأروي مثل الشاهد، قال: المثل قد عرفناه فما الشاهد؟ قال: اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر، فإني أروي ذلك الشاهد، فاتخذه الحجاج سميراً، فلم يك يطلب شيئاً من الحديث إلا وجد عنده منه علمًا، وكان يرى رأي الخوارج [وكان] من أصحاب قطري بن القجاء التميمي، والcjجاء أمة، وكانت من بنى شيئاً، وإنما هو رجل من تميم، وكان قطري يموئذن يحارب المهلب، بلغ قطرياً مكان سميرة من الحجاج، فكتب إليه بأبيات منها:

لشَّيْانِ مَا بَيْنِ ابْنِ جَعْدٍ وَبَيْنِنَا
نَجَاهَدُ فُرْسَانَ الْمَهْلَبِ كُلُّنَا
وَرَاحَ يَحْرُرُ الْخَرَّ عِنْدَ أَمِيرِهِ
أَبَا الْجَعْدِ، أَينَ الْعِلْمُ وَالْحَلْمُ وَالنَّهْيُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَوْتَ لَا شَكَّ نَازَلَ
حَفَاءً عَرَاءً وَالثَّوَابُ لِرَبِّهِمْ
فَإِنَّمَا الَّذِي قَدْ نَلَّتْ يَقْنَى، وَإِنَّمَا
فَرَاجَعَ أَبَا جَعْدَ وَلَا تَكُونُ مُفْضِيَاً
وَثُبَّتْ تَوْبَةً تَهْدِي إِلَيْكَ شَهَادَةً

ويسْ نحونا تَلَقَّ الجهاد غنيمةٌ تُفْدِكَ ابتياعاً رابحاً غير خاسر
هي الغاية الفُصوى الرغيب ثوابها إذا نال في الدنيا الغئى كلُّ تاجر
فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه وأخذ سلاحه، ولحق بقطريٍّ، وطلبه الحجاج فلم
يقدر عليه، ولم يشعر الحجاج إلا وكتاب قد بدر منه فيه شعر قطري الذي كان كتب به
إليه، وفي أسفل الكتاب إلى الحجاج أبيات، منها:

فمن مُبلغ الحجاج أن سميرة فَلَا كُلَّ دين غير دين الخوارج
رأى الناس إلا من رأى مثل رأيه مَلَاعِينَ شَرَّاكِينَ قَضَى المخارج
فأَقْبَلْتُ نحو الله بالله واثقاً وَمَا كُرْبَتِي غَير الإله بفارج
إلى عصبة؛ أما النهار فإنهم هُم الأسد أسد الغيل عند التهایج
وأما إذا ما الليل جَنَّ فإنهم قيام كأنواح النساء النواشج
يُنادون للتحكيم، تاله إنهم رأوا حكم عمرٍ كالرياح الهوائج
وَحْكُم ابن قيس مثل ذاك فأعصموا بحبلٍ شديد المتن ليس بنامح
فطرح الحجاج هذا الكتاب إلى عنبسة بن سعيد، فقال: هذا من سميرنا الشياني،
وهو من الخوارج، ولا نعلم به.

ولأبي الجعد سميرة بن الجعد سمير الحجاج هذا أشعار كثيرة، منها قوله من
أبيات:

عجبت لحالات البلاء وللدهر وللحين يأتي المرء من حيث لا يدرى
وللناس يأتون الضلال بعدما أتاهم من الرحمن نور من البدر
ولله لا يخفى عليه صنيعنا حفظ علينا في المقام وفي السفر
علا فوق عزشٍ فوق سبع، ودونه سماء يرى الأرواح من دونها تجري
وقد قيل: إن هذا الشعر لغيره من الخوارج.

بعض ما اتفق عليه الخوارج وما اختلفوا فيه

والأصناف [من] الخوارج أحسان من الأزارقة والأباضية وغيرهما، [و] قد
أتينا على ذكرها في كتابتنا «أخبار الزمان» والأوسط، وذكرنا ما اتفقت عليه الخوارج
واجتمعت عليه من الأصول: من إكفارهم عثمان وعليها، والخروج على الإمام الجائز،
وتکفير مرتکب الكبائر، والبراءة من الحكمين أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري

وعمرٌ بن العاص السئمئي، وحكمهما، والبراءة ممن صَوَّبَ حكمهما أو رضي به، وإكفار معاوية وناصريه ومقلديه ومحبيه، فهذا ما اتفقت عليه الخوارج من الشراة والحرورية، ثم اختلفوا بعد ذلك في مواضع [من] العبارة عن التوحيد، والوعد والوعيد، والإمامية، وغير ذلك من آرائهم، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب ذكر الحكمين أن أول من حَكِمَ بصفين عُزْرَةَ بْنَ أَدِيَ التَّمِيمِيَّ [وقيل: إن أول من حَكِمَ بصفين يَزِيدَ بْنَ عَاصِمَ الْمَحَارِبِيِّ] وقيل: إن أول من حَكِمَ رَجُلٌ مِّنْ بَنِي سَعْدٍ بْنَ زَيْدٍ مَّنَّاً بْنَ تَمِيمٍ، وكان أول من شرى بصفين من المحكمة رجلٌ مِّنْ بَنِي يَشْكُرٍ، وكان من وجوه ربيعةٍ مَّنْ كَانَ مَعَ عَلَىٰ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَالَ: لَا حَكْمٌ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا طَاعَةٌ لِمَنْ عَصَى اللَّهَ، وَخَرَجَ عَنِ الصَّفَّ، فَحُمِّلَ عَلَى أَصْحَابِ عَلَىٰ فَقُتِلَّ مِنْهُمْ رِجَالًا، ثُمَّ حُمِّلَ عَلَى أَصْحَابِ معاويةٍ فَتَحَامَلُوهُ وَلَمْ يَقْدِرُ عَلَىٰ قَتْلِ أَحَدٍ مِّنْهُمْ، وَكَرِّ عَلَى أَصْحَابِ عَلَىٰ فَقْتَلَهُ [رَجُلٌ] مِّنْ هَمْدَانَ.

ذكر بعض أخبار الخوارج

وقد أتى الهيثم بن عدي وأبو الحسن المدائني وأبو البختري القاضي وغيرهم على أخبار الخوارج وأصنافهم فيما أفردوه من كتبهم، وذكر أصحاب المقالات في الآراء والديانات ما تنازعوا فيه من مذاهبهم [عند تباهيهم في فروعهم، وما اجتمعوا عليه من أصولهم، وقد أتينا على أكثر ما تنازعوا فيه من مذاهبهم] في كتابنا في «المقالات في أصول الديانات» وذكرنا من خرج منهم من وقت التحكيم في عصر عصر إلى آخر من خرج منهم بدار ربيعة على بني حَمْدَانَ، وذلك في سنة ثمان عشرة وثلاثمائة، وهو المعروف بعرون، وخرج ببلاد كفترشى، وورد إلى نصبين، فكانت له مع أهلها حرب أسر فيها وقتل منهم خلق عظيم، والمعروف بأبي شعيب، خرج في بني مالك وغيرهم من ربيعة، وقد كان أدخل على المقتدر بالله، وقد كان بعد العشرين والثلاثمائة للأباضية ببلاد عمان مما يلي بلاد بروى وغيرها حروب وتحكيم وخروج وإمام نصبوه فقتل وقتل من كان معه.

الحجاج وشبيب الخارجي

وفي سنة سبع وسبعين كانت للحجاج حروب مع شبيب الخارجي، وولى عنه الحجاج بعد قتل ذريع كان في أصحابه حتى أحصي عددهم بالقضيب، فدخل الكوفة وتحصن في دار الإمارة ودخل شبيب وأمه وزوجته غَزَّالة الكوفة عند الصباح.

غزاله امرأة شبيب

وقد كانت غزاله نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلب في ركعتين تقرأ فيما سورة البقرة وأل عمران، فأتوا الجامع في سبعين رجالاً، فصلوا به العدّاد، وخرجت غزاله مما كانت أوجبته على نفسها.

فقال الناس بالكوفة في تلك السنة:

وَفَتِ الْغَزَالَةَ نَذْرَهَا يَا رَبَّ لَا تَغْفِرْ لَهَا

وكان الغزاله من الشجاعة والفروسيه بالموضع العظيم، وكذلك أم شبيب، وقد كان عبد الملك - حين بلغه خبر هرب الحجاج، وتحصنه في دار الإمارة بالكوفة من شبيب - بعث من الشام بعساكر كثيرة عليها سفيان بن الأبرد الكلبي لقتال شبيب، فقدم على الحجاج بالكوفة، فخرجوها إلى شبيب، فحاربوه، فانهزم شبيب وقتلت الغزاله وأمه، ومضى شبيب في فوارس من أصحابه، وأتبعه سفيان في أهل الشام، فلحمه بالأهواز، فولى شبيب، فلما وصل إلى جسر دجيل نفر به فرسه وعليه الحديد الثقيل من درع ويفتر، فألقاه في الماء، فقال له بعض أصحابه: أَعْرَقَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قال: ذلك تقدير العزيز العليم، فألقاه دجيل ميتاً بشطه، فحمل على البريد إلى الحجاج، فأمر الحجاج بشق بطنه واستخراج قلبه، فاستخرج فإذا هو كالحجر إذا ضربت به الأرض تباً عنها، فشق فإذا في داخله قلب صغير كالكرة، فشق فأصيب علقة الدم في داخله.

ابن القرية

وفي سنة اثنين وثمانين قُتل الحجاج ابن القرية لخروجه مع ابن الأشعث وإثنائه الكتب له، ووضعه الصدور والخطب، وكان ابن القرية من البلاغة والعلم والفصاحة بالموضع الموصوف، وقد أتينا على خبر مقتله، وما كان من كلامه مع الحجاج، وقد كان قته صبراً، في الكتاب الأوسط، وأن قته إيه كان بالسيف، وقيل: بل قدم إليه فضربه الحجاج بحرية في نحره فأتى عليه.

وابن القرية القائل: الناس ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر؛ فاما العاقل فإن الدين شريعته، والحلم طبيعته، والرأي الحسن سجيته، إن نطق أصاب، وإن كلام أجاب، وإن سمع العلم وَعَى، وإن سمع الفقه روى، وأما الأحمق فإن تكلم عجل، وإن حدث ذهل، وإن حمل على القبيح حمل، وأما الفاجر فإن استأتمته خانك، وإن صاحبته شانك، وإن استكتم لم يكتم، وإن علم لم يعلم، وإن حدث لم يصدق، وإن فقه لم يفقه.

ليلي الأخيلية والحجاج

وذكر المدائني أن الحجاج لم يكن يظهر لندمائه [منه] بشاشة ولا سماحة في الخلق إلا في يوم دخلت عليه ليلي الأخيلية، فقال لها: [لقد] بلغني أنك مررت بقبر توبية بن الحمير وعدلت عنه، فوالله ما وفيت له، ولو كان هو بمكانتك وأنت بمكانه ما عدلَ عنك، قالت: أصلح الله الأمير!! لي عذر، قال: وما هو؟ قالت: [إنني] سمعته وهو يقول:

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت عليَّ وفوقي جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدئ من جانب القبر صائح
وكان معي نسوة قد سمعن قوله، فكرهت أن أكذبها، فاستحسن الحجاج قوله
و قضى حواجها، وانبسط في محادثها، فلم تُرْ منه بشاشة وأريحيَّة داخلته مثل ذلك
اليوم.

وذكر حماد الراوية غير هذا الوجه، وهو أن زوج ليلي حلف عليها - وقد اجتازوا بقبر توبية ليلاً - أن تنزل وتأتي [قبره] وتسلم عليه وتكتذبه حيث يقول، وذكر البيتين [المتقدمين] قال: وأبَتْ أن تفعل، فأقسم عليها زوجها، فنزلت حتى جاءت إلى القبر ودموعها على صدرها كفر السحاب، فقالت: السلام عليك يا توبية، فلم تستتم النداء حتى انفَرَجَ القبر عن طائر كالحمامة البيضاء، فضربت صدرها فوقعت ميتة، فأخذوا في جهازها وكفنها، ودفنت إلى جانب قبره.

بعض عادات العرب

للعرب فيما ذكرنا كلام كثير - على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في آرائهم ومذاهبهم في الهام والصَّدَى والصَّفَر - وقد كانت العرب تعقل إلى جانب [قبر] الميت إذا دفن ناقَةً، وتجعل عليه برذعة أو حشيشة يسمونها البلية، وقد ضربوا بذلك أمثالهم، وذكر خطباؤهم في خطبهم، فقالوا: البلايا على الولايا، وقد كان بعضهم يتظير بالسانح، ويتيامن بالبارح، وبعضهم يضاد هذا، فيتظير بالبارح، ويتيامن بالسانح؛ فأهل نجد يتيمون بالسانح، وأهل التهائم بالضد من ذلك، على حسب ما قدمنا من قول عَيْنِد الراعي فيما سلف من هذا الكتاب.

خطبة لعلي بن أبي طالب يعاتب أصحابه

حدثنا المنقري، قال: حدثنا عبد العزيز بن الخطاب الكوفي، قال: حدثنا

فضيل بن مرزوق، قال: لما غالب بُسر بن أرطاة على اليمن، وكان من قبله لابني عبيد الله بن عباس - وكان لأهل مكة والمدينة [واليمن] - ما كان، قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد ﷺ، ثم قال: إن بُسر بن أرطاة قد غالب على اليمن، والله ما أرى هؤلاء القوم إلا سيفلبون على ما في أيديكم، وما ذلك بحق في أيديهم، ولكن بطاعتهم واستقامتهم [لصاحبهم]، ومعصيتكم لي، وتناصرهم وتخاذلكم، وإصلاح بلادهم وإفساد بلادكم، وتالله يا أهل الكوفة لوددت أنني صرفتكم صرف الدنانير العشرة بواحد، ثم رفع يديه، فقال: اللهم إني قد مللتكم ومملوني، وسمتمهم وسموني، فأبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني اللهم عجل عليهم بالغلام الثقفي الذيال الميال، يأكل حضرتها، ويلبس فروتها ويحكم فيها بحکم الجاهلية، لا يقبل من محسنها، ولا يتجاوز عن مسيئها، قال: وما كان الحجاج ولد يومئذ.

الحجاج يسأل عن النعمة

حدثنا الجوهرى، عن سليمان بن أبي شيخ الواسطي، عن محمد بن يزيد عن سفيان بن حسين، قال: سأله الحجاج الجوهرى: ما النعمة؟ قال: الأمن، فإني رأيت الخائف لا يتتفع بعيش، قال: زدني، قال: الصحة، فإني رأيت السقيم لا يتتفع بعيش، قال: زدني [قال: الشباب، فإني رأيت الشيخ لا يتتفع بعيش، قال: زدني] قال: الغنى، فإني رأيت الفقير لا يتتفع بعيش، قال: زدني، قال: لا أجد مزيداً.

خطبة للحجاج وقد أرجف الناس بموته

حدثنا الجوهرى، عن مسلم بن إبراهيم أبي عمرو الفراهيدى، عن الصَّلت بن دينار، قال: مرض الحجاج فأرجف [به] أهل الكوفة، فلما تماثل من علته صعد المنبر وهو يتشنى على أعواده فقال: إن أهل الشقاوة والنفاق نفح الشيطان في متاخرهم فقالوا: مات الحجاج، ومات الحجاج فمه؟ والله ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت، وما رضي الله الخلود لأحد من خلقه في الدنيا إلا لأهونهم عليه [وهو] إبليس، والله لقد قال العبد الصالح سليمان بن داود: رب اغفر وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فكان ذلك، ثم أضمرل فكأن لم يكن؛ يا أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كأني بكل حي ميتاً، وبكل رطب يابساً، وقد نقل كل أمرء [بثياب ظهره] إلى حفرته، فخذل له في الأرض ثلات أذرع طولاً في ذراعين عرضاً، فأكلت الأرض لحمه، ومصبت من صديده ودمه، وانقلب الجبيان يقتسم أحدهما صاحبه: حبيبه من ولده يقتسم حبيبه من ماله، أما الذين يعلمون فسيعلمون ما أقول والسلام.

خطبة للحجاج يهدد ويتوعد

حدثنا المنقري، عن مسلم بن إبراهيم أبي عمرو الفراهيدي عن الصلت بن دينار، قال: سمعت الحجاج يقول: قال الله تعالى ﴿فَأَنْقُرُوا اللَّهَ مَا مَا أَسْتَطْعُمُ﴾ [التغابن: ١٦] فهذه الله، وفيها مشوبة، وقال: ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦] وهذه لعبد الله وخليفة الله ونجيب الله عبد الملك، أما والله لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب فدخلوا في غيره لكان دمائهم لي حلالاً، عذيري من [أهل] هذه الحمراء، يلقي أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول: إلى أن يبلغها يكون فرج الله، لأجعلنهم كالرسم الداثر وكالآمس الغابر، عذيري من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رجُز الأعراب، أما والله لو أدركته لضررت عنقه، يعني عبد الله بن مسعود، عذيري من سليمان بن داود، يقول لربه ﴿رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، كان والله فيما علمت عبداً حسوداً بخيلاً.

الحجاج وعبد الله بن هانيء

وحدثنا المنقري، عن عبيد بن أبي السري، عن محمد بن هشام بن السائب عن أبيه [عن] عبد الرحمن بن السائب، قال: قال الحجاج يوماً لعبد الله بن هانيء وهو رجل من أود حي من اليمن، وكان شريفاً في قومه، وقد شهد مع الحجاج مشاهدة كلها، وشهد معه تحريق البيت، وكان من أنصاره وشيعته: والله ما كافأناك بعد، ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة - وكان من فزارة - أن زوج عبد الله بن هانيء ابنته، فقال: لا [والله] ولا كرامة، فدعا له بالسياط، فقال: أنا أزوجه، فزوجه، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهمданى رئيس اليمانية أن زوج عبد الله بن هانيء ابنته، قال: ومن أود؟ والله لا أزوجه ولا كرامة، قال: هاتوا السيف، قال: دعني حتى أشاور أهلي، فشاورهم، فقالوا: زوجه لا يقتلك هذا الفاسق، فزوجه، فقال له الحجاج: يا عبد الله، قد زوجتك بنت سيد [بني] فزاره وابنته سيد همدان وعظيم كهلان، وما أود هنالك، فقال: لا تقل أصلاح الله الأمير ذلك، فإن لنا مناقب ما هي لأحد من العرب، قال: وما هي هذه المناقب؟ قال: ما سبب أمير المؤمنين عثمان في نادينا قط، قال: هذه والله منقبة، قال وشهد منا صفين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً، وما شهدنا مع أبي تراب منا إلا رجل واحد، وكان والله ما علمته امراً سوء، قال: وهذه والله منقبة، قال: وما من أحد يتزوج امرأة تحب أبي تراب ولا تتولاه، قال: وهذه والله منقبة، قال: وما من امرأة إلا نذرت إن قتل الحسين أن تنحر عشر جرائز لها ففعلت، قال: وهذه والله منقبة، قال: وما من رجل عرض عليه شتم أبي تراب ولعنه إلا فعل، وقال وأزيدكم أبنيه الحسن والحسين وأمهما [فاطمة]، قال: وهذه والله منقبة، قال: وما أحد من العرب له من الملاحة

والصباحة مالنا، وضحك، وكان دمياً شديد الأدمة مجذوراً في رأسه أعجر مائل الشدق آخرَ قبيح الوجه [وحش المنظر].

الحجاج والشعبي

حدثنا المنقري، عن جعفر بن عمرو الحرسي، عن مجدي بن رجاء قال: سمعت عمران بن مسلم بن أبي بكر الهذلي يقول: سمعت الشعبي يقول: أتى بي الحجاج موثقاً، فلما دخلت عليه استقبلني يزيد بن مسلم فقال: إنا لله يا شعبي على ما بين دفتيك من العلم، وليس بي يوم شفاعة، بئْ للأمير بالشرك وبالتفاق على نفسك فالحرى أن تتجو منه؛ فلما دخلت عليه استقبلني محمد بن الحاج قال لي مثل مقالة يزيد، فلما مثلت بين يدي الحاج قال: وأنت يا شعبي فيمن خرج علينا وكثراً؟ قلت: نعم، أصلح الله الأمير، أحزنَّنا المبارك، وأجدب [بنا] الجناب وضاق المسلك، واقتلونا السهاد، واستحلسنا الخوف، ووقعنا في فتنة لم نكن فيها بَرَّةً لآتقياء ولا فجرة أقوياء، قال: صدق، والله ما بروا بخروجهم علينا، ولا قروا إذ فجروا، أطلقوا عنه، قال الشعبي: ثم احتاج إلى فريضة، فقال: ما تقول في أخت وأم وجد؟ قلت: اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول الله ﷺ: عبد الله، وزيد، وعلى وعثمان، وابن عباس، قال: فماذا قال فيها ابن عباس فقد كان متقياً؟ قلت: جعل الجد أباً، وأعطي الأم الثالث، ولم يعط الأخت شيئاً، قال: فماذا قال فيها عبد الله؟ قلت: جعلها من ستة؛ فأعطي الأخت النصف، وأعطي الأم السادس، وأعطي الجد الثالث، قال: فما قال فيها زيد؟ قلت: جعلها من تسعة؛ فأعطي الأم ثلاثة، وأعطي الأخت سهرين، وأعطي الجد أربعة قال: فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان؟ قلت: جعلها أثلاثاً، قال: فما قال فيها أبو تراب؟ قلت: جعلها [من] ستة، أعطي الأخت النصف، وأعطي الأم الثالث، وأعطي الجد السادس، قال: فضرب بيده على أنه، وقال: إنه المرء [لا] يرغب عن قوله [ثم قال للقاضي]: أمِّها على مذهب أمير المؤمنين عثمان.]

الحجاج يريد الحج

حدثنا المنقري، عن [أبي عبد الرحمن] العتي عن أبيه قال: أراد الحجاج الحج فخطب الناس وقال: يا أهل العراق، إني قد استعملت عليكم محمداً، وبه الرغبة عنكم، أما إنكم لا تستأهلونه، وقد أوصيته فيكم بخلاف وصية رسول الله ﷺ بالأنصار، فإنه أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم، ولا يتتجاوز عن مسيئكم، أما إني إذا وليت عنكم [أعلم] أنكم تقولون: لا أحسن الله له

في الصحابة، وما منعكم من تعجيله إلا الفراق، وأنا أُعجل لكم الجواب، لا أحسنَ الله عليكم الخلافة، ثم نزل.

عبد بن أبي المخارق يتولى عملاً ويطلب المشورة

حدثنا العتبى، عن عبد الغنى بن محمد بن جعفر، عن الهيثم بن عدى، عن أبي عبد الرحمن الكتانى، عن ابن عباس الهمданى، عن عبد بن أبي المخارق، قال: استعملنى الحجاج على الفلوجة فقلت: أهنا دِهْقَان يستعان برأيه؟ فقالوا: جميل بن صهيب، فأرسلت إليه، فجاءنى شيخ كبير قد سقطت حاجباه على عينيه، فقال: أزعجتني وأنا شيخ كبير، فقلت: أردت يُمْنَك، وبركتك، ومشورتك، فأمر بحاجبيه فرفعا بخرقة حرير، وقال: ما حاجتك؟ قلت: استعملنى الحجاج على الفلوجة وهو من لا يؤمن شره، فأشيز عَلَيَّ، قال: أيما أحب إلَيْك: رضا الحجاج، أو رضا بيت المال، أو رضا نفسك؟ قلت [أحب] أن أرضى كل هؤلاء وأخاف الحجاج فإنه جبار عنيد، قال: فاحفظ عنى أربع خلال، افتح بابك، ولا يكن لك حاجب، فتأتيك الرجل وهو على ثقة من لقائك، وهو أجدر أن يخافك عَمَالِك، وأطل الجلوس لأهل عملك، فإنه قلما أطَال عامل الجلوس إلا هِبَ مكانه، ولا يختلف حكمك بين الناس، ولو يكن [حكمك] على الشريف والوضيع سواء، ولا يطمع فيك أحد من أهل عملك، ولا تقبل من أهل عملك هدية، فإن مهديتها لا يرضى من ثوابها إلا بأضعافها، مع ما في ذلك من المقالة القبيحة، ثم اسلح ما بين أفقيتهم إلى عجب أذنابهم، فيرضوا عنك، ولا يكون للحجاج عليك سبيل.

حدث المنقري، عن يوسف بن موسى القطان، عن جرير، عن المغيرة، عن الربع بن خالد، قال: سمعت الحجاج يخطب على المنبر وهو يقول: أخليفة أحدكم في أهله أكْرَمُ عليه أم رسوله في حاجته؟ فقلت: اللَّهُ عَلَيْكَ أَنْ لَا أَصْلِي خلفك [صلاة] أبداً، ولئن رأيت قوماً يجاهدونك لأقاتلك معهم، فقاتل في دير الجمامج حتى قتل.

الغضبان بن القبعشى

حدث المنقري، عن العتبى، عن أبيه، أن الحجاج وجَهَ الغضبان بن القَبَغَثَى إلى بلاد كرمان ليأتيه بخبر ابن الأشعث عند خَلْعَه، فَفَصَلَ من عنده، فلما صار ببلاد كرمان ضرب خباء ونزل، فإذا هو بأعرابي قد أقبل عليه فقال: السلام عليك، فقال الغضبان: كلمة مَقْوِلَة، فقال له الأعرابي: من أين جئت؟ قال: من ورائي، قال: وأين تريد؟ قال: أما مى، قال: وعلام جئت؟ قال: على فرسى، قال: وفيم جئت؟ قال: في ثيابي، قال:

أتاذن لي أن أدنو إليك قال: وراءك أوسئ لك، قال: والله ما أريد طعامك ولا شرابك، قال: لا تُعرض بهما فوالله لا تذوقهما، قال: أوليس عنده إلا ما أرى؟ قال: بل هراوة من أرزن أضرب بها رأسك، قال: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي، قال: بُلْ عليهما بيردان، قال: فكيف ترى فرسي هذا؟ قال: أراه خيراً من [آخر] شر منه وأرى آخر أفرة منه، قال: قد علمت هذا؟ قال: لو علمته ما سألهني عنه، فتركه الأعرابي وولى، ثم دخل على عبد الرحمن بن الأشعث فقال: ما وراءك يا غضبان؟ قال: الشر، تَعَدُ بالحجاج قبل أن يتعشى بك، ثم صعد المنبر فخطب بمعايب الحجاج والبراءة منه، ودخل [مع] ابن الأشعث في أمره، فلم يلبث إلا قليلاً ثم أسر ابن الأشعث فأخذ الغضبان فيمن أسر، فلما دخل على الحجاج قال: يا غضبان، كيف رأيت بلاد كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير، بلاد ماؤها وَشَلْ، وثمرها دقل، ولصها بطل، والخيل بها ضعاف، وإن كثر الجندي بها جاعوا، وإن قلوا ضاعوا، قال: ألسنت صاحب الكلمة الخبيثة «تَعَدُ بالحجاج قبل أن يتعشى بك» قال: أصلح الله الأمير! ما نفعت من قيلت له، ولا ضررت من قيلت فيه، قال: لأقطعن يديك ورجليك من خلاف ثم لأصلبك، قال: لا أرى الأمير أصلحه الله يفعل ذلك، فأمر به فقييد وألقى في السجن، فأقام به حتى بني الحجاج خضراء واسط، فلما استتم بناءها جلس في صحنها، وقال: كيف ترون قبتي هذه؟ قالوا: ما بني لخلق قبلك مثلها، قال: فإن فيها مع ذلك عيّاً فهل فيكم مخبري به؟ قالوا: والله لا نَرَى بها عيّاً، فأمر بإحضار الغضبان، فأتى به يَرْسُف في قيوده، فلما دخل عليه قال له الحجاج: أراك يا غضبان سميناً، قال: أيها الأمير القيد والرتعة، ومن يكن ضيقَ الأمير يسمِّن، قال: فكيف ترى هذه؟ قال: أرى قبة ما بني لأحد مثلها إلا أن بها عيّاً، فإن أمنتني الأمير أخبرته به، قال: قل آمناً، قال: بنيت في غير بلدك لغير ولدك لا تتمتع به ولا تنعم، فما لما لا يتمتع فيه من طيب ولا لذلة، قال: رُدُوه فإنه صاحب الكلمة الخبيثة، قال: أصلح الله الأمير! إن الحديد قد أكل لحمي وبَرَى عظمي، فقال: احملوه، فلما استقلَ به الرجال قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] قال: أُنزِلُوهُ، فلما استوى على الأرض قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنِّي نَفِيتُ مُنْزَلًا مُبَارِكًا وَأَنَّ حَيْرَ الْمُنْزَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] قال: جُرُوهُ، فلما جَرُوهُ قال: ﴿إِسْمِ اللَّهِ مَجْرِطُهَا وَمَرْسَهُهَا إِنَّ رَبِّ الْفَقُورِ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١] قال: أطلقوا عنه.

حدث المنقري، عن [عبد الله بن] محمد بن حفص التميمي، عن الحسين بن عيسى الحنفي، قال: لما هلك بشر بن مروان وولي الحجاج العراق بلغ ذلك أهل العراق، فقام الغضبان بن القَبْغَرَى [الشيباني] بالمسجد الجامع بالковفة خطيباً، فحمد

الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل العراق، ويا أهل الكوفة، إن عبد الملك قد ولّى عليكم مَنْ لا يقبل من محسنكم ولا يتتجاوز عن مسيئكم، الظالم العشوم، الحجاج، ألا وإن لكم من عبد الملك منزلة بما كان منكم من خذلان مُضعب وقتلته، فاعتراضوا هذا الخبيث في الطريق فاقتلوه، فإن ذلك لا يعدُ منكم خلعاً، فإنه متى يعلوكم على متن منبركم وصدر سريركم وقاعة قصركم، ثم قتلتموه عَدْ خلعاً، فأطليعوني وتغدوا به قبل أن يتعشى بكم، فقال له أهل الكوفة: جبنت يا غضبان، بل نتظر سيرته فإن رأينا منكراً غيرناه، قال: ستعلمون.

فلما قدم الحجاج الكوفة بلغته مقالته، فأمر به فحبس، فأقام في حبسه ثلاثة سنين، حتى ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية: عشراء من النجائب، وعشراً من قعد النكاح، وعشراً من ذوات الأحلام؛ فلما نظر إلى الكتاب لم يدرِّ ما وصفه له من الجواري، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه، فقال له بعضهم: أصلاح الله الأمير! ينبغي أن يعرف هذا مَنْ كان في أوليته بدويًا فله معرفة أهل البدو، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو، ثم شرب الشراب فله بذاء أهل الشراب، قال: وأين هذا؟ قيل: في حبسك، قال: ومن هو؟ قيل: الغضبان الشيشاني، فأحضر، فلما مثل بين يديه قال: أنت القائل لأهل الكوفة يتغدون بي قبل أن أتعشى بهم، قال: أصلاح الله الأمير! ما نفعت من قالها، ولا ضرت من قيلت فيه، قال: إن أمير المؤمنين كتب إلى كتاباً لم أذر ما فيه، فهل عندك شيء منه؟ قال: يقرأ علىي، فقرأ عليه، فقال: هذا بَيْنَ، قال: وما هو؟ قال، أما النجيبة من النساء فالتي عظمت هامتها، وطال عنقها، وبعد ما بين منكبيها وثديها، واتسعت راحتها، وثخت ركبتها، فهذه إذا جاءت بالولد جاءت به كاللith [العادي] وأما قعد النكاح فهو ذوات الأعجاز، منكسرات الثدي، كثيرات اللحم، يقرب بعضهن من بعض، فأولئك يشفين القرآن، ويروين الظمآن، وأما ذوات الأحلام فبنات خمس وثلاثين إلى الأربعين، فتلك التي تبسه كما يبس الحال الناقة فتستخرجه من كل شعر وظفر وعرق؟ قال الحجاج: أخبرني بشر النساء، قال: أصلاح الله الأمير! شرهن الصغيرة الرقبة، الحديدية الركبة، السريعة الوثبة، الواسطة في نساء الحي، التي إذا غضبت غضب لها مائة، وإذا سمعت كلمة قالت: لا والله لا أنهي حتى أفرها فراراًها، التي في بطئها جارية، وتبعها جارية، وفي حجرها جارية، قال الحجاج: على هذه لعنة الله! ثم قال: ويحك! فأخبرني بخير النساء، قال: خيرهن القريبة القامة من النساء، الكثيرة الأخذ من الأرض، الودود الولود، التي في بطئها غلام، وفي حجرها غلام، وتبعها غلام؛ قال: ويحك! فأخبرني بشر الرجال، قال: شرهم السبوط الربوط،

المحمود في حرم الحي ، الذي إذا سقط لإحداهم دلو في بئر انحط عليه حتى يخرجه ، فهن يجزيئه الخير أو يقلن : عافي الله فلاناً ، قال : على هذا لعنة الله ! فأخبرني بخير الرجال ، قال : خيرهم الذي يقول فيه الشماخ التغلبي :

فتى ليس بالراضي بأدنى معيشة ولا في بيوت الحي بالمتولج
فتى يملأ الشيزى ويروي سناته ويضرب في رأس الكمي المدجج
فقال له : حسبك ، كم حبسنا عطاءك ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها وخلى سبيله .

وصف البصرة والковفة

حدث المنقري عن محمد بن [أبي] السري ، عن هشام بن محمد بن السائب عن أبي عبد الله النخعي ، قال : لما فرغ الحجاج من دير الجمامج وفد على عبد الملك ومعه أشراف أهل المصريين فأدخلهم عليه ، فيبينما هم عنده [يوماً] إذ تذاكروا البلدان ، فقال محمد بن عمير بن عطارد : أصلح الله الأمير ! إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها ، وسفلت عن الشام ووبائها [وبردها] ، وجاورها الفرات فعدب ماوتها وطاب ثمارها ؛ وقال خالد بن صفوان [الأهتمي] : أصلح الله الأمير ! نحن أوسع منهم برية ، وأسرع منهم في السرية ، وأكثر منهم قنداً وعاجاً وساجاً ، ماوئنا صفو [وخيرونا عفو] لا يخرج من عندنا إلى قائد وسائق وناعق ، فقال الحجاج : أصلح الله أمير المؤمنين ! إني بالبلدين خير ، وقد وطتهم جميعاً ، فقال له : قل فأنت عندنا مصدق ، فقال : أما البصرة فعجز شمطاء دفراء بخراء أوتيت من كل حلي وزينة ، وأما الكوفة فشاشة حسناء جميلة ، لا حلي لها ولا زينة ؛ فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة .

الحجاج يصف الدنيا

حدث المنقري عن عمرو بن الخطاب الباهلي ، عن إسماعيل بن خالد ، قال : سمعت الشعبي يقول : سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه إليه أحد ، سمعته يقول : أما بعد فإن الله عز وجل كتب على الدنيا الفتنة ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفتنة فلا يغرنكم شاهد الدنيا من غائب الآخرة ، فطول الأمل يقصر الأجل .

رسول المهلب إلى الحجاج

حدث المنقري عن سهل بن تمام بن بزيع عن عباد بن [حبيب بن] المهلب عن أبيه قال : لما قتل المهلب عبد ربه الصغير بكرمان قال : ائتوني برجل له بيان وعقل

ومعرفة أوجهه إلى الحجاج برؤوس من قتلنا؛ فدللوه على بشر بن مالك الجرشي، فلما دخل على الحجاج قال: ما اسمك؟ قال: بشر بن مالك الجرشي، قال: كيف تركت المهلب؟ قال: تركته صالحًا نال ما رجأ وأمن ما خاف، قال: فكيف فاتكم قطرى؟ قال: كادنا من حيث كدناه، قال: أفلأ طلبتموه؟ قال: كان [فلا، وكان] الجد أهم علينا من الفل، قال: أصبتم، فكيف كان بنو المهلب؟ قال: كانوا أعداء البيات حتى يأمنوا، وأصحاب السُّرُج حتى يردوا، قال: أجل، فأيهم أفضل؟ قال: ذاك إلى أيهم شاء أن يستكفيه أمري كفاء، قال: إني أرى لك عقلًا فقل، قال: هم كالحلقة المستوية لا يدرى أين طرفاها، قال: أين هم من أيهم؟ قال: فضلُه عليهم كفضلهم على سائر الناس، قال: كيف كان الجندي؟ قال: أرضاهم الحق، وأشبعهم الفضل وكانوا مع والـ يقاتل بهم مقاتلة الصعلوك ويُسوسهم سياسة الملوك، فله منهم بـ الأولاد، ولهم منه شفقة الوالد، قال: هل كنت هيئات ما أرى؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: فالتفت الحجاج إلى عنبرة فقال: هذا الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع.

الحجاج وجرير بن الخطفي

وأخذ الحجاج جرير بن الخطفي، فأراد قتله، فمشى إليه قومه من مصر فقالوا: أصلح الله الأمير! لسان مصر وشاعرها، هبة لنا، فوهبة لهم.

وكانت هند بنت أسماء زوج الحجاج ممن طالب به، فقالت للحجاج: أنا ذنن لجرير على يوماً أستنشده من وراء حجاب؟ فقال لها: نعم، فأمرت بمجلس لها فهبيء فجلست فيه والحجاج معها، ثم بعثت إلى جرير، فدخل عليها يسمع كلامها ولا يراها، فقالت: يا ابن الخطفي، أنسدني ما شببت به في النساء، فقال لها: ما شببت بأمرأة قط، ولا خلق الله شيئاً هو أبغض إلى النساء، قالت: يا عدو الله، وأين قولك:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام
تُجري السواك على أغبر كأنه برداً تحدّر من مُتون غمام
لو كنت صادقة بما حدثتنا لوصلت ذاك فكان غير لمام
سرت الهموم فبتمن غير نiam وأخو الهموم يرُوم كل مرام
قال: ما قلت هذا، ولكني أنا الذي أقول:

لقد جرّد الحجاج للحق سيفه ألا فاستقيموا، لا يميلن مائل
وما يستوي داعي الضلاله والهدى ولا حجّة الخصميين حق وباطل
قالت: دع عنك هذا، فـين قولك:

خليلي لا تستغزرا الدمع في هند أعيذكما بالله أن تجدا وجدي
ظمئت إلى شرب الشراب وحسنه كذي قربة يرجو هداها وما يجدي
قال لها: ما قلت هذا، ولكنني أنا الذي أقول:

ومن يؤمن الحجاج؟ أما عقابه فمُر، وأما عقدة فوثيق
يسير لكبغضاء كل مُناافق كما كل ذي بُر عليك شقيق

قالت: دع عنك هذا، فأين قولك:

يا عاذلي دعا الملام وأقصى طال الهوى وأطلتما التفنيدا
إنني وجدت، ولو أردت زيادة في الحب عندي ما وجدت مزيدا

فقال: باطل أصلحك الله، ولكنني أنا الذي أقول:

من سد مطلع النفاق عليهم أم من يضول كصولة الحجاج؟
أم من يغار على النساء حفيظة إذا لا يشقن بغيرة الأزواج؟
هذا ابن يوسف فافهموا وتفهموا برح الخفاء وليس حيث يفاجئ
فلرب ناكت بيعتين تركته وخضاب لحيته ذم الأذداج

قال الحجاج: يا عدو الله، تحرض على النساء؟ فقال: لا والذى أكرمك أيها الأمير،
ما فطرت لهذا البيت قبل ساعتي هذه، وما علمت بمكانك، فأقلني جعلنى الله فداك، قال: قد
فعلت، فأمرت له هند بجارية وكسوة، وأوفده الحجاج على عبد الملك.

بين الحجاج وأعشى همدان

ولما انهزم ابن الأشعث بدیر الجمامجم حلف الحجاج أن لا يؤتى بأسير

إلا ضرب عنقه، فأتى بأسرى كثيرة، وكان أول من أتى به أعشى همدان [الشاعر]
وهو أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الأشعث بسجستان، فقال له
الحجاج: إيه أنت القائل؟ .

من مبلغ الحجاج أَيْ قد جنبت عليه حَرِبَا
وصفت في كف امْرِئِ جَلْدٍ إذا ما الأمر غَبَّى
أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كعبا
فابعث عطية بالخيرو يجلو بك الرحمن كَرِبَا
وأنهض هَدِيَّت لعله

ئَبْثَثْتُ أَنْ بُشَّرَيْ يُو سَفَّحَرَ مِنْ زَلَقِ فَتَّبَا^١
وهي أبيات، وأنت القائل:

شطت نوى مَنْ دَارَهُ الإِيَوانُ
إِيَوانَ كَسْرَى ذِي الْقَرْى وَالرَّيَاحَانُ
مِنْ عَاشَقَ أَمْسَى بِزَابِلْسَتَانُ
إِنْ ثَقِيفًا مِنْهُمُ الْكَذَابَانُ
كَذَابَهَا الْمَاضِي وَكَذَابَ ثَانُ
أَمْكَنْ رَبِّي مِنْ ثَقِيفَ هَمْدَانُ
[يَوْمًا مِنَ اللَّيلِ يَسْلِي مَا كَانُ]

وأنت القائل:

وَسَالْتَمَانِي الْمَجْدَ أَيْنَ مَحْلُهُ
فَالْمَجْدُ بَيْنَ مُحَمَّدَ وَسَعِيدَ
بَيْنَ الْأَشْجَعَ وَبَيْنَ قَيْسَ بَادْخَ
بَخَ بَخَ لَوَالْدَهُ وَلَلْمَوْلُودَ
قَالَ: لَا، وَلَكُنِي الَّذِي أَقُولُ:

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتَمَّ ثُورَهُ
وَيُطْفِئُ ثُورَ الْفَقْعَتَيْنِ فِي خَمْدَا
وَيَنْزِلَ ذُلَّاً بِالْعَرَاقِ وَأَهْلِهِ
بِمَا نَقْضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمُؤْكَدَا
وَمَا أَخْدَثُوا مِنْ بَدْعَةَ وَضَلَالَةَ
مِنَ الْقَوْلِ لَمْ يَصُدْ إِلَى اللَّهِ مَصْدَعَا

قال: لسنا نحمدك على هذا القول، إنما قلته تأسفاً على أن لا تكون ظفرت
وظهرت، وتحريضاً لأصحابك [علينا]، وليس عن هذا سألك، أخبرني عن قولك:
أمكن ربِّي من ثقيف همدان [يَوْمًا مِنَ اللَّيلِ يَسْلِي مَا كَانُ]
فكيف ترى الله أمكن ثقيفاً من همدان، ولم يمكن همدان من ثقيف؟ وعن قولك:
بين الأشجع وبين قيس باذخ بخ بخ لوالده وللمولود
والله لا تبخخ لأحد بعدها، وأمرَ به فضربت عنقه.

ولم يزل يؤتى برجل رجل حتى أتي برجل من بني عامر، وكان من فرسان [دير]
الجامجم مع ابن الأشعث، فقال له: والله لأقتلنك شر قتلة، قال: والله ما ذلك لك،
قال: ولم؟ قال: لأن الله يقول في كتابه العزيز: «فَإِذَا لَقَתُمُ الظَّبَابَ كَفَرُوا فَتَرَبَّ الرِّقَابُ حَقَّهُ إِذَا
أَنْخَسْتُمُوهُرْ فَشَدُّوا الْوَقَافَ إِنَّمَا مَنَّا بَعْدُ وَلَمَّا فَدَاهَ حَقَّ نَعْنَعَ الْمَرْبَثَ أَزَرَاهَا» [محمد: ٤] وأنت قد قتلت
فأنختت، وأسرت فأونقت؛ فاما أن تمن علينا أو تفدينا عشيرتنا، فقال له الحجاج:
أَكَفَرْتَ؟ قال: نعم، وغَيَّرْتَ وَبَدَلْتَ، قال: خلوا سبيله.

ثم أتي برجل من ثقيف فقال له الحجاج: أَكَفَرْتَ؟ قال: نعم، قال [له] الحجاج:

لكن هذا الذي خَلْفَكَ لَمْ يَكُفِرْ، وَخَلْفَهُ رَجُلٌ مِنَ السَّكُونِ، فَقَالَ السَّكُونِيُّ: أَعْنَ نَفْسِي تَخَادَعْنِي؟ بَلِي وَاللهِ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَشَدُ مِنَ الْكُفْرِ لَبَوَتْ بِهِ، فَخَلَى سَبِيلَهُمَا.

فَهَذِهِ جَمْلَةٌ مِنْ أَخْبَارِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَالْحَجَاجِ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى مُبْسُوتِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ مَا لَمْ نُورِدْهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي كَتَابِنَا «أَخْبَارُ الزَّمَانِ» وَالْأَوْسْطَرُ التَّالِيُّ لِهِ الَّذِي كَاتَبْنَا هَذَا تَالِيهِ، وَسَنُورِدُ فِيمَا يَرِدُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ أَخْبَارِ الْحَجَاجِ لَمَعًا، عَلَى حَسْبِ مَا قَدَّمْنَا مِنْ الشَّرْطِ فِيمَا سَلَفَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَبِاللهِ الْعُوْنَ وَالْقُوَّةِ.

ذكر أيام الوليد بن عبد الملك

موجز

ويويع الوليد بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي توفي فيه عبد الملك ، وتوفي الوليد بدمشق للنصف من جمادى الآخرة [من] سنة ست وتسعين ؛ فكانت ولايته تسع سنين وثمانية أشهر وليلتين ، وهلك وهو ابن ثلاثة وأربعين سنة ، وكان يكتنأ بأبي العباس .

ذكر لمع من أخباره، وسيره وما كان من الحجاج في أيامه

خلق الوليد وولده

كان الوليد جباراً عنيداً، ظلوماً غشوماً، وخلف من الولد أربعة عشر ذكراً، منهم يزيد، وعمرو، وبشر العالم، والعباس، وكان يدعى فارسبني مروان لشهامته، فعدل الوليد بالأمر عن ولده بعده اتباعاً لوصية عبد الملك على حسب [ما] رتبها، وكان نقش خاتمه «يا وليد إنك ميت» [فكان كلما همَّ أن يجعل الأمر لولده قلب الفص وقرأ «إنك ميت» فيقول]: لاه الله، لا خالفت ما أمرني به أبي، إني لميت.

بناء مسجدي دمشق والمدينة

وفي سنة سبع وثمانين ابتدأ الوليد ببناء المسجد الجامع بدمشق، و[بناء] مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، فأنفق عليهم بالآموال الجليلة، وكان المتولي للنفقة على ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى.

وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال: لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحًا من حجارة فيه كتابة باليونانية، فعرض على جماعة من أهل الكتاب، فلم يقدروا على قراءته، فوجَّهَ به إلى وهب بن مُبَّهٍ، فقال: هذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليه السلام، فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يا ابن آدم، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك، لزهدت فيما بقي من طول أمليك، وقصرت عن رغبتك وحيلك، وإنما تلقى ندنك، إذا زلت بك قدمك وأسلنك أهلك [وحشمتك] وانصرف عنك الحبيب، ووَدَعْكَ القريب، ثم صررت تدعى فلا تجيب، فلا أنت إلى أهلك عائد، ولا في عملك زائد فاغتنم الحياة قبل الموت، والقوه قبل الفوت، وقبل أن يؤخذ منك بالكم، ويحال بينك وبين العمل؛ وكتب زَمَن سليمان بن داود؛ فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد في حائط المسجد: ربنا الله، لا نعبد إلا الله، أمر ببناء هذا المسجد، وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة

سبعين وثمانين، وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

بين الوليد والحجاج

ووفد الحجاج بن يوسف على الوليد، فوجده في بعض نزَّهه، فاستقبله، فلما رأه ترجل له، وقبل يده، وجعل يمشي عليه درع وكتانة وقوس عربية، فقال له الوليد: أركب يا أبا محمد، فقال: دعني يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد؛ فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنك، فعزم عليه الوليد حتى ركب، ودخل الوليد داره، وتفضل في غلالة، ثم أذن للحجاج فدخل عليه في حالة تلك وأطال الجلوس عنده، في بينما هو يحادث إذ جاءت جارية فسارت الوليد ومضت، ثم عادت فسارته ثم انصرفت، فقال الوليد للحجاج: أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد؟ قال: لا والله، قال: بعثتها إلى ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول: ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلّح في السلاح وأنت في غلالة؟ فأرسلت إليها إنه الحجاج، فراعها ذلك، وقالت: والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق، فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما امرأة ريحانة وليس بقهرمانة، فلا تطلعهن على سرك، ولا مكايده عدوك، ولا تُطعنهن في غير أنفسهن، ولا تشغلهن بأكثر من زيتهان، وإياك ومشاورتهن [في الأمور] فإن رأيهم إلى أثني عشرَ هنَّ إلى وَهْنَ، واكفف عليهم من أبصارهن بحجبك، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الجلوس معهن [والخلوة بهن]، فإن ذلك أوفر لعقلك، وأبئن لفضلك، ثم نهض الحجاج فخرج.

بين الحجاج وأم البنين

ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج، فقالت: يا أمير المؤمنين أحب أن تأمره غداً بالتسليم عليّ، فقال: افعل، فلما غدا الحجاج على الوليد قال له: يا أبا محمد، سر إلى أم البنين فسلم عليها، فقال: أغفني من ذلك يا أمير المؤمنين، فقال: لا بد من ذلك، فمضى الحجاج إليها، فحجبته طويلاً، ثم أذنت له فأقرته قائماً، ولم تأذن له في الجلوس، ثم قالت: إيه يا حجاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟ أما والله لولا أن الله جعلك أهونَ خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة، ولا بقتل ابن ذات النطاقين، وأول مولود ولد في الإسلام، وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم، حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من

القرن، فأظللتك رماحهم، وأنجاك كفاحهم [وطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك من غدائهن وبعنه في الأسواق في أزاق العواث إليك]، ولو لا ذلك لكتت أذل من التقد، وأما ما أشرت [به] على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحَقَهُ بالأخذ عنك والقبول منك، وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ولا مُضيغ إلى نصيحتك، قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول:

أَسْدُ عَلَيَّ وَفِي الْحَرَبِ نَعَمَةٌ فَزَعَاءٌ تَفْزَعُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَا بَرَزَتِ إِلَى غَزَالَةِ الْوَغْنِيِّ بَلْ كَانَ قَبْلَكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٌ

[ثم قالت لجواريها] أَخْرِجْنِهُ عَنِي، فدخل إلى الوليد من فُوره، فقال [له]: يا أبا محمد ما كنت فيه؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطئ الأرض أحَبَ إلى من ظاهرها، فضحك الوليد حتى فحص برجله، ثم قال: يا أبا محمد، إنها بنت عبد العزيز.

ولأم البنين هذه أخبار كثيرة في الجود وغيره، وقد أتينا على ذكرها في غير هذا الكتاب.

موت علي بن الحسين السجاد

وفي سنة خمس وتسعين قبض علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في ملك الوليد، ودفن [بالمدينة] في بقيع الغَرْقَد مع عمه الحسن بن علي، وهو ابن سبع وخمسين سنة، ويقال: إنه قبض سنة أربع وتسعين، وكل عقب الحسين من علي بن الحسين [هذا] وهو السجاد على ما ذكرنا، وذو الثفنتان، وزين العابدين.

موت عبد الملك بن مروان

وذكر المدائني قال: دخل الوليد على أبيه عبد الملك عند وفاته، فجعل يبكي عليه وقال: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ فقال عبد الملك الملك:

ومشتغل عنا ي يريد بنا الردى ومستعبرات والعيون سواجم
 وأشار بالمصراع الأول إلى الوليد، ثم حَوَّل وجهه عنه، وأشار بالمصراع الثاني إلى نسائه، وهن المستعبرات.

وذكر العتي وغيه من الأخباريين أن عبد الملك لما سأله الوليد عن خبره وهو يوجد بنفسه أنشأ يقول:

كم عائد رجلاً وليس يعوده إلا لينظر هل يراه يموت

وقيل: إن عبد الملك نظر إلى الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه فقال: يا هذا، أحنين الحمام؟ إذا أنا مت فشمر واتزر، والبس جلد نمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه، ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا فقال: إن طوilk لقصير، وإن كثيرك لقليل، وإن كنا منك لفي غرور.

وصية عبد الملك عند موته

ثم أقبل على جميع ولده فقال: أوصيكم بتقوى الله فإنها عضمة باقية، وجنة واقية، فاللتقوى خير زاد، وأفضل في المعاد، وهي أحسن كهف، وليعطف الكبير منكم على الصغير، ولتعرف الصغير حق الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور، وإياكم والبغى والتحاسد، فبهما هلك الملوك الماضون، وذوو العز المكين، يا بني، أخوكم مسلمة نابكم الذي تفترون عنه، ومحظكم الذي تستجنون به، اصدروا عن رأيه، وأكرموا الحجاج؛ فإنه الذي وطأ لكم هذا الأمر، وكونوا أولاداً أبراراً، وفي الحروب أحراراً، وللمعروف مناراً، وعليكم السلام.

وسأله بعض شيوخ بيبي أمية - وقد فرغ من وصية أولاده هذه - [قال]: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكُلِّ مَا حَلَّقْنَاكُمْ أَوْ لَمْ رَقَّ وَرَكَّنْتُمْ مَا حَوَلْنَاكُمْ وَرَأَيْتُمْ ظُهُورَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] إلى قوله: ﴿مَا كُنْتُمْ تَرْعَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] فكان هذا آخر كلام سمع منه.

فلما قضى سجاح الوليد، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: لم أمر مثلها مصيبة، ولا مثلها نعمة، فقدت الخليفة، وتقلدت الخلافة، فإنما الله وإنما إليه راجعون على المصيبة، والحمد لله رب العالمين على النعمة، ثم دعا الناس إلى بيته فباعوا ولم يختلف عليه أحد.

موت عبيد الله بن العباس

ومات في أيام الوليد عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وذلك في سنة سبع وثمانين، وكان جرواداً كريماً، وذكر أن سائلاً وقف عليه فقال [له]: تصدق مما رزقك الله؛ فإني نبشت أن عبيد الله بن العباس أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر إليه، فقال: وأين أنا من عبيد الله؟ قال: له وأين أنت [منه] في الحسب أم في كثرة المال؟ قال: فيها جميعاً، قال: إن الحسب في الرجل مروءته وحسن فعله، فإذا فعلت ذلك كنت حسيناً،

فأعطاه ألفي درهم واعتذر إليه، فقال له السائل: إن لم تكن عبيد الله فأنت خير منه، وإن كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس، فأعطاه ألفاً أيضاً، فقال: لئن كنت عبيد الله إنك لأسمح أهل دهرك، وما إخالك إلا من رَهْفٍ فيهم محمد رسول الله ﷺ، فأسألوك بالله أنت هو؟ قال: نعم، قال: والله ما أخطأت إلا باعتراف الشك بين جوانحي، وإلا فهذه الصورة الجميلة والهيئة المنيرة لا تكون إلا في نبي أو عترة نبي.

وذكر أن معاوية وصله بخمسمائة ألف درهم، ثم وجّه [له] من يتعرّف له خبره، فانصرف إليه فأعلمه أنه قسمها في سُماره وإخوانه حصصاً بالسوية، وأبقى لنفسه مثل نصيب أحدهم، فقال معاوية: إن ذلك ليسوعني ويسرني، فأما الذي يسرني فإن عبد مناف والده، وأما الذي يسوعني فقرباته من أبي تراب [دوني].

قال المسعودي: وقد قدمنا خبر مقتل ابني عبيد الله فيما سلف من هذا الكتاب، وهم عبد الرحمن وقُتُم، وما رثتهما به أمهما أم حكيم جويرية بنت فارط بن خالد الكنانية.

عبيد الله بن العباس وبسر بن أرطاة

وقد كان عبيد الله بن العباس دخل يوماً على معاوية وعنده قاتلهما بُسرُ بن أزطاء العامري، فقال له عبيد الله: [أيها الشيخ] أنت قاتل الصبيين؟ قال: نعم، قال: والله لو ددت أن الأرض أبنتني عندك يومئذ، فقال له بُسرُ: فقد أبنتك الساعة، فقال عبيد الله: ألا سيف، فقال بُسرُ: هاك سيفي، فلما هوى عبيد الله إلى السيف ليتناوله قبض معاوية ومن حضره على يد عبيد الله قبل أن يقبض على السيف، ثم أقبل معاوية على بُسرِ فقال: أخراك الله من شيخ! قد كبرت ودخل عقلك، تعمد إلى رجل موتور من بني هاشم فتدفع إليه سيفك، إنك لغافل عن قلوب بني هاشم، والله لو تمكّن من السيف لبدأ بنا قبلك، قال عبيد الله: ذلك والله أردت.

وكان علي عليه السلام - حين أتاه خبر قتل بُسر لبني عبيد الله قُتُم وعبد الرحمن - دعا على بسر، فقال: اللهم اسلبه دينه وعقله، فخرف الشيخ حتى دُهِل عقله، وانتشر بالسيف فكان لا يفارق، فجعل له سيف من خشب، وجعل بين يديه زق منفوح [يضرره، و] كلما تخرق أبدل، فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف، حتى مات ذاهل العقل يلعب بخرقه، وربما كان يتناول منه ثم يقبل على مَنْ يراه فيقول: انظروا كيف يطعموني هذان الغلامان ابنا عبيد الله؟ وكان ربما شدت يداه إلى وراء منعاً من ذلك فأنجى ذات يوم في مكانه، ثم أهوى بفيه فتناول منه، فبادروا إلى منعه، فقال: أنت

تمعنوني وعبد الرحمن وقثم يطعماني، ومات بسر في أيام الوليد بن عبد الملك سنة ست وثمانين.

موت عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي

وفيها مات عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، وعتبة مهاجر، وهو أبو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح بن مخزوم بن صبح بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار، وكانت الرياسة في الجاهلية في صبح بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، وكان عبيد الله ولد عبد الله بن عتبة من كبار أهل العلم، وذكر ابن أبي خيثمة قال: سمعت ابن الأصبهاني يقول: قال سفيان: قال الزهري: كنت أظن أنني نلت من العلم، حتى جالست عبيد الله بن عبد الله فكأنما هو البحر.

مقتل سعيد بن جبير

وفي سنة أربع وتسعين قتل الحجاج سعيد بن جبير، فذكر عون بن أبي راشد العبدى قال: لما ظفر الحجاج بسعيد بن جبير وأوصل إليه قال له: ما اسمك؟ قال: اسمي سعيد بن جبیر، قال: بل شقي بن كسيير، قال: أبي كان أعلم باسمي منك، قال: لقد شقيت وشقي أبوك، قال له: الغيب إنما يعلمه غيرك، قال: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى، قال: لو علمت أن ذلك بيتك ما اتخذت إلهًا غيرك، قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل، قال: فاختر أي قتلة تريد أن أقتلك، قال: بل اختر يا شقي لنفسك، فوالله ما تقتلني اليوم بقتلة إلا قتلتك في الآخرة بمثلها، فأمر به الحجاج، فأخرج ليقتل، فلما ولى ضحكت، فأمر الحجاج برده، وسأله عن ضحكته، فقال: عجبت من جزاءتك على الله وحلم الله عنك، فأمر به فذبح، فلما كُبَّ لوجهه قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده رسوله، وأن الحجاج غير مؤمن [بإله] ثم قال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدي، فذبح واحتز رأسه.

ولم يعش الحجاج بعده إلا خمس عشرة ليلة حتى وقعت في جوفة الأكلة فمات من ذلك، ويروى أنه كان يقول بعد قتل سعيد: يا قوم، ما لي ولسعيد بن جبیر؟ كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي.

بين الوليد وأخيه سليمان

واشتكي الوليد، فبلغه عن أخيه سليمان تمن لموته لما له من العهد بعده، فكتب إليه الوليد يعتب عليه الذي بلغه، وكتب في [آخر] كتابه هذه الآيات:

تمنى رجال أن الموت، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأُوحِد به قبل موتي أن يكون هو الرَّدِي ولا عيش من قد عاش بعدي بِمُحْلِّي تَرَوْدُ لِأَخْرَى غَيْرُهَا فَكَانَ قَدْ [فَقْلَ لِلَّذِي يَرْجُو خَلَافَ الذِّي مَضَى: مَنْيَتِه تَجْرِي لَوْقَتَ، وَحَسْنَه سَيْلَحْقَه يَوْمًا عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ]

فأجابه سليمان: فهمت ما قال أمير المؤمنين، ووالله لئن كنت تمنيت ذلك لما يخطر بالبال إني لأول لاجِي به ومنعي إلى أهله، فعلام أتمنى زوال مدة لا يلبث متنبيها إلا بقدر ما يحل السفر بمنزل ثم يطعنون عنه؟ وقد بلغ أمير المؤمنين ما لم يظهر من لفظي، ولا يرى من لحظي، ومتى سمع أمير المؤمنين من أهل النمية، ومن ليست له رؤية أو شك أن يسرع في فساد النيات، ويقطع بين ذوي الأرحام والقرابات، وكتب في أسفل الكتاب:

ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمْتُ وَهُوَ عاتب ومن يتبع جاهداً كل عشرة يَجِدُهَا ولم يسلم له الدَّهر صاحب فكتب إليه الوليد: ما أحسن ما اعتذرته به، وحدوت عليه، وأنت الصادق في المقال، والكامل في الفعال، وما شيء أشبه بك من اعتذارك، ولا بعد مما قيل فيك، والسلام.

وكان الوليد متختناً على إخوته، مراعياً لسائر ما أوصاه به عبد الملك، وكان كثير الإنجاد لأبيات قالها عبد الملك حين كتب [إليه بـ] وصيته منها:

أَنْفَوْا الضُّغَائِنَ عَنْكُمْ وَعَلَيْكُمْ عَنْدَ الْمُغَيْبِ وَفِي حَضُورِ الْمَشْهَدِ فَصَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ طَوْلُ بَقَائِكُمْ إِنْ مَدَّ فِي عُمْرِي وَإِنْ لَمْ يَمْدُدْ [فَلَمْثُلَّ رِيبَ الدَّهْرِ أَلْفَ بَيْنَكُمْ حَتَّى تَلِينَ جَلُودَكُمْ وَقُلُوبَكُمْ بِمَسْوِدِ مَنْكُمْ وَغَيْرِ مَسْوِدِ إِنَّ الْقَدَاحَ إِذَا اجْتَمَعَنَ فَرَآمَهَا فَالْوَهْنُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ غَرَّ ثُفْلَمْ تَكْسِرُ، وَإِنْ هِيَ بَدْدُتْ

وصية عبد الملك لأولاده

وكان عبد الملك مواطباً على حث أولاده على اصطناع المعروف، ويعتهم على مكارم الأخلاق، وقال لهم: يا بني عبد الملك، أحسابكم أحسابكم، صونوها ببذل

أموالكم، فما يبالي رجل [منكم] ما قيل فيه من الهجو بعد قول الأعشى:
 تبيتون في المُشَتَّى مِلَاء بطنكم وجاراتكم غَرَئَى يبتز خمائصا
 وما يبالي قوم ما قيل فيهم من المدح بعد قول زهير:
 على مكثريهم حُقُّ من يعتريهم وعنده المقلين السماحة والبذل

حدث عبد الله بن إسحاق بن سلام، عن محمد بن حبيب، قال: صعد الوليد المنبر فسمع صوت ناقوس فقال: ما هذا؟ قيل: البيعة، فأمر بهدمها، وتولى بعض ذلك بيده، فتابع الناس يهدمون، فكتب إليه الأخرم ملك الروم: إن هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك، فإن يكونوا أصابوا فقد أخطأوا، وإن تكن أصبت فقد أخطأوا، فقال: من يجيئه؟ فقال الفرزدق: أنا، فكتب إليه ﴿وَدَاؤْدَ وَسَلَيْمَنَ إِذْ يَحْكُمُانَ فِي الْحَرَثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ فَفَهَمَنَا هَا شَهِدِينَ سَلَيْمَنَ وَكُلَّاً إِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنياء: ٧٨].

موت الحجاج

ومات الحجاج في سنة خمس وستين، وهو ابن أربع وخمسين سنة بواسط العراق، وكان تأموره على الناس عشرين سنة، وأحصى من قتلته صبراً سوى من قتل في عساكر وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفاً مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب ما أتينا على وصفه في الكتاب الأوسط.

وذكر أنه ركب يوماً يريد الجمعة، فسمع ضجة، فقال: ما هذا؟ فقيل له: المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء، فالتفت إلى ناحيتهم وقال: ﴿قَالَ أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا ثَكَلُوكُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فيقال: إنه مات في تلك الجمعة، ولم يركب بعد تلك الركبة. قال المسعودي: ووُجِدَتْ في كتاب عيون البلاغات مما اختبر من كلام الحجاج قوله: ما سلبت نعمة إلا بکفرها، ولا نَمَتْ إلا بشكرها.

وقد كان الحجاج تزوج إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب حين أملأ عبد الله وافتقر، وقد ذكرنا في كتابنا «أخبار الزمان» الخبر في ذلك، وتهنئة ابن القرية الحجاج بذلك.

موت عبد الله بن جعفر

وقد كان عبد الله بن جعفر [بن أبي طالب] من الجود بالموضع المعروف، ولما

قلَّ مالُه سمع يوم الجمعة في المسجد الجامع وهو يقول: اللهم إنك [قد] عودتني عادة فعودتها عبادك، فإن قطعتها عنِي فلا تبني، فمات في تلك الجمعة، وذلك في أيام عبد الملك [بن مروان] وصلى عليه أبوان بن عثمان بمكة؛ وقيل: بالمدينة، وهي السنة التي كان بها السيل الجحاف الذي بلغ الركن وذهب بكثير من الحجاج.

وفي هذه السنة كان الطاعون العام بالعراق والشام ومصر والجزيرة والحجاز وهي سنة ثمانين.

وقبض عبد الله بن جعفر وهو ابن سبع وستين، وولد بالحبشة حين هاجر جعفر إلى هنالك، وقيل: إن مولده كان في السنة التي قبض فيها النبي ﷺ، وقيل غير ذلك. وذكر المبرد والمدائني والعتبي وغيرهم من الأخبارين أن عبد الله عوتب على كثرة إفصاله، فقال: إن الله تعالى عَوَدَنِي أَنْ يُفْضِلَ عَلَيَّ، وَعَوَدْتُهُ أَنْ أَفْضُلَ عَلَى عَبَادِهِ، فأكره أن أقطع العادة عنهم فيقطع العادة عنِي.

ووفد عبد الله على معاوية، بدمشق، فعلم به عمرو بن العاص قبل دخوله دمشق، أخبره بذلك مولى له كان قد سار مع ابن جعفر من الحجاز فتقدمه بمرحلتين إلى دمشق، فدخل عمرو على معاوية وعنه جماعة من قريش من بني هاشم وغيرهم: منهم عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب، فقال عمرو: قد أتاكما رجل كثير الخلوات بالتميي، والطرقات بالتغيي، آخذ للسلف، منقاد بالسرف، فغضب عبد الله بن الحارث، وقال لعمرو: كذبت وأهل ذلك أنت، ليس عبد الله كما ذكرت، ولكنه الله ذُكور، ولبلائه شُكور، وعن الخنا نُكور، ماجد مهذب كريم سيد حليم، إن ابتدأ أصحاب، وإن سئل أجاب، غير حَصِير ولا هِيَاب، ولا فَحَاش ولا سَبَاب، كالهزَبْر الضُّرْغَام، الجريء المقدام، والسيف الصمصم، والحسيب القمقام، وليس كمن اختصم فيه من قريش شرارها، فغلب عليه جَزَارها، فأصبح الأمها حسباً، وأدناها منصباً، يلوذ منها بذليل، ويأوي إلى قليل، وليت شعرِي بأي حسب تتناول؟ أو بأي قدم تتعرض؟ غير أنك تعلو بغير أركانك، وتتكلم بغیر لسانك، ولقد كان أبرا في الحكم، وأبيان في الفضل، أن يكفلَ ابن أبي سفيان عن ولو عك بأعراض قريش، وأن يكعمك كعام الضبع في وجارها، ولست لأعراضها بوفي، ولا لأحسابها بكتفي، وقد أتيح لك ضيغِم شَرِس، للأقران مختلس، وللأرواح مفترس، فهم عمرو أن يتكلم، فمنه معاوية من ذلك، وقال عبد الله بن الحارث: لا يُبَقِّ المرء إلا على نفسه، والله إن لساني الحديد، وإن جوابي لعديد، وإن قولِي لسديد، وإن أنصارِي لشُهُود، فقام معاوية وتفرق القوم.

ولعبد الله بن جعفر [بن أبي طالب] أخبار حسان في الجود والكرم وغير ذلك من المناقب، وقد أتينا على مبوسط ذلك في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وإنما كان تزوج الحجاج إليه يتذلل بذلك آل أبي طالب.

كتاب من عبد الملك إلى الحجاج لم يفهمه

وكتب الحجاج إلى عبد الملك لغلوظ له أمر الخوارج مع قطري، فكتب إليه: أما بعد، فإني أحمد إليك السيف، وأوصيك بما أوصى به البكري زيداً، فلم يفهم الحجاج ما عَنَاه عبد الملك، وقال: مَنْ جاء بتفسير ما أوصى به البكري زيداً فله عشرة آلاف درهم، فورد رجل من الحجاز يتظلم من بعض عماله، فقيل له: أتعلم ما أوصى به البكري زيداً؟ قال: نعم، قالوا: فأنت الحجاج به ولك عشرة آلاف درهم، فأتاه فأحضره، فقال: أوصاه بأن قال:

أقول لزيد لا ثُبَرِّرْ فِيْهِمْ يرُونَ الْمَنَابِيَا دون قتلك أو قتلي
 فإنَّ وَضَعُوا حرباً فَضَعُهَا، وإنَّ أَبْرَا فَشَبَّ وَقُوَّدَ الْحَرْبَ بِالْحَطَبِ الْجَزَلِ
 وإنَّ عَصَبَتِ الْحَرْبُ الْضَّرُوسُ بِنَابِهَا فَعَرَضَتِ الْحَرْبُ الْضَّرُوسُ بِنَابِهَا
 فقال الحجاج: صدق أمير المؤمنين وصدق البكري.

كتاب من الحجاج إلى المهلب

وكتب إلى المهلب: إنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْصَانِي بِمَا أَوْصَى بِهِ الْبَكَرِيُّ زِيدًا، وَإِنَّ أَوْصِيكَ [بِهِ وَ] بِمَا أَوْصَى بِهِ الْحَارِثَ بْنَ كَعْبَ بْنِهِ، فَأَتَى الْمَهْلَبَ بِوَصِيَّتِهِ فَإِذَا فِيهَا: يَا بَنَّيَّ، كُوْنُوا جَمِيعًا وَلَا تَكُونُوا شَتَّى فَتَفَرَّقُوا، وَبِرُوْا قَبْلَ أَنْ تَبْرُوا، فَمَوْتُ فِي قُوَّةٍ وَعَزَّ، خَيْرٌ مِنْ [حَيَاةٍ فِي] ذَلِّ وَعَجَزٍ، فقال المهلب: صدق البكري والحارث بن كعب.

وكتب عبد الملك إلى الحجاج: جَتَّبَنِي دَمَاءُ آلَ أَبِي طَالِبٍ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَلَكَ اسْتَوْحَشَ مِنْ آلَ حَرْبٍ حِينَ سَفَكُوا دَمَاءَهُمْ، فَكَانَ الْحَجَاجُ يَتَجَنَّبُهَا خَوْفًا مِنْ زَوَالِ الْمَلَكِ عَنْهُمْ، لَا خَوْفًا مِنَ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ.

ليلي الأخيلية والحجاج

ودخلت ليلي الأخيلية على الحجاج فقالت: أصلح الله الأمير!! أتيت لإخلاف النجوم، وقلة الغيوم، وكَلَّ البرد، وشدة الجهد، قال: فأخبريني عن الأرض، قالت: الأرض مقشرعة، والفحاج مغيرة، والمفتر مقل، وذو العيال مختل، والباتس معتل،

والناس مُسْتَبِّنُونَ، رَحْمَةً اللَّهِ يَرْجُونَ، قَالَ: أَيُّ النِّسَاءِ تَخْتَارِينَ تَنْزَلِينَ عَنْهَا؟ قَالَتْ: سَمِّهِنَ لِي، قَالَ: عَنِّي هَنْدَ بْنَ الْمَهْلَبَ، وَهَنْدَ بْنَ أَسْمَاءَ بْنَ خَارِجَةَ، فَاخْتَارَتْهَا فَدَخَلَتْ عَلَيْهَا، فَصَبَّتْ حَلِيَّهَا عَلَيْهَا حَتَّى أَثْقَلَهَا؛ لَا خِيَارَهَا إِيَّاهَا وَدَخْلُهَا عَلَيْهَا دُونَ مَنْ سَوَاهَا.

ابن عم للحجاج يطلب منه أن يوليه فيمتحنه فيوليه فينجح

حدثنا المنقري قال: حدثنا العتببي، عن أبيه، قال: قدم على الحجاج ابن عم له [أعرابي] من الباذية فنظر إليه يُولُّ الناس، فقال له: أيها الأمير، لم لا تولياني بعض هذا الحضر؟ فقال الحجاج: هؤلاء يكتبون ويحسبون وأنت لا تحسب ولا تكتب، فغضب الأعرابي وقال: بل إني والله لأخسّب منهم حساباً، وأكتب منهم يداً، فقال له الحجاج: فإن كان كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس، فما زال يقول: ثلاثة دراهم بين أربعة، ثلاثة بين أربعة، لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء، كم هم أيها الأمير؟ قال: هم أربعة، قال: نعم أيها الأمير، قد وقفت على الحساب، لكل واحد منهم درهم، وأنا أعطي الرابع منهم درهماً من عندي وضرب بيده إلى تكته فاستخرج منها درهماً، وقال: أيكم الرابع فلاها الله ما رأيت كالاليوم زوراً مثل حساب هؤلاء الحضريين، فضحك الحجاج ومن معه، وذهب بهم الضحك كل مذهب، ثم قال الحجاج: إن أهل أصبهان كسروا خرَاجَهُمْ ثلَاثَ سَنِينَ، كُلُّمَا أَتَاهُمْ وَالِّيْ أَعْجَزُوهُ، فَلَأْرِمِنْهُمْ بِبِدْوِيَّهُمْ هَذَا وَعَنْجِيَّهُمْ، فَأَخْلَقَ بِهِ أَنْ يَنْجِبُ، فَكَتَبَ لَهُ عَهْدَهُ عَلَى أَصْبَهَانَ، فَلَمَّا خَرَجَ اسْتَقْبَلَهُ أَهْلَ أَصْبَهَانَ وَاسْتَبَشَرُوا بِهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَقْبِلُونَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ، وَقَدْ اسْتَغْمَرُوهُ، وَقَالُوا: أَعْرَابِيُّ بَدْوِيُّ مَا [ذَا] يَكُونُ مِنْهُ؟ فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ: أَعْيَنَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَتَقْبِيلِكُمْ أَطْرَافِيُّ وَأَخْرُوَانِيُّ هَذِهِ الْهَيَّاتِ، أَمَا يَشْغُلُكُمْ مَا أَخْرَجَنِي لِهِ الْأَمِيرُ؟ فَلَمَّا اسْتَقَرَ فِي دَارَهُ بِأَصْبَهَانَ جَمَعَ أَهْلَهَا فَقَالَ [لَهُمْ]: مَا لَكُمْ تَغْضُبُونَ رِبِّكُمْ وَتَغْضِبُونَ أَمِيرَكُمْ وَتَقْصُونَ خَرَاجَكُمْ؟ فَقَالَ قَائِلُهُمْ: جَرْوَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَظُلْمٌ مِّنْ ظُلْمٍ، قَالَ: فَمَا الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ صَلَاحَكُمْ؟ فَقَالُوا: تَؤْخِرُنَا بِالْخِرَاجِ ثَمَانِيَّةَ شَهْرٍ وَنَجْمِعُهُ لَكُمْ، قَالَ: لَكُمْ عَشْرَةَ وَتَأْتُونِي بِعَشْرَةَ ضَمِنَاءَ يَضْمَنُونَ، فَأَتُوهُ بِهِمْ، فَلَمَّا تَوْثَقَ مِنْهُمْ أَمْهَلُهُمْ، فَلَمَّا قَرُبَ الْوَقْتِ رَأَاهُمْ غَيْرَ مَكْتَرِثِينَ لِمَا يَدْنُو مِنَ الْأَجْلِ، فَقَالَ لَهُمْ، فَلَمْ يَتَنْعَفْ بِقَوْلِهِ، فَلَمَّا طَالَ بِهِ ذَلِكَ جَمَعَ الضَّمِنَاءَ وَقَالَ لَهُمْ: الْمَالُ، فَقَالُوا: أَصَابَنَا مِنَ الْآفَةِ مَا نَقْضَ ذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُمْ أَكَى أَنْ لَا يَفْطَرَ - وَكَانَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ - حَتَّى يَجْمِعَ مَالَهُ أَوْ يَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، ثُمَّ قَدَّمَ أَحْدَهُمْ فَضَرَبَ عَنْقَهُ، وَكَتَبَ عَلَيْهِ فَلَانَ ابْنَ فَلَانَ أَدِيَّ مَا عَلَيْهِ، وَجَعَلَ رَأْسَهُ فِي بَدْرَةٍ وَخَتَمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَدَّمَ الثَّانِي فَفَعَلَ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ الرَّؤُوسَ تَبَذَّرَ وَتَجَعَّلَ فِي الْأَكْيَاسِ بَدَلًا مِنَ الْبَدَرِ قَالُوا: أَيْهَا الْأَمِيرُ، تَوَقَّفْتَ عَلَيْنَا حَتَّى نَحْضُرَ لَكَ الْمَالَ فَعَلَ، فَأَحْضَرُوهُ فِي أَسْعَ

وقت، بلغ ذلك الحجاج، فقال: إننا معاشر آل محمد - يعني جدّه - ولدنا نجيب، فكيف رأيتم فراستي في الأعرابي؟ ولم يزل عليها والياً حتى مات الحجاج.

إبراهيم التميمي في سجن الحجاج

وحبس الحجاج إبراهيم التميمي بواسطه، فلما دخل السجن وقف على مكان مشرف ونادى بأعلى صوته: يا أهل بلاء الله في عافيه، ويا أهل عافية الله في بلائه، اصبروا، فنادوه جميعاً: ليك، ليك، ومات في حبس الحجاج، وإنما كان الحجاج طلب إبراهيم النخعي فنجا، ووقع إبراهيم التميمي.

وحكى عن الأعمش قال: قلت لإبراهيم النخعي: أين كنت حين طلبك الحجاج؟
قال: بحيث يقول الشاعر:

عَوْيَ الدَّبْ بِفَاسْتَأْنَسَتْ بِالدَّبْ إِذْ عَوَى وَصَوَّتْ إِنْسَانَ فَكِدْتُ أَطِيرُ

الحجاج يسأل ابن القرية عن النساء

حدثنا الدمشقي الأموي أحمد بن سعيد وغيره، عن الزبير بن بكار، عن محمد بن سلام الجمحى، وحدثنا الفضل بن العباب الجمحى [عن محمد بن سلام]
قال: سأل الحجاج ابن القرية: أي النساء أحمد؟ قال: التي في بطنهن غلام، وفي حجرها غلام، ويسعى لها مع الغلمان غلام، قال: فأي النساء شر؟ قال: الشديدة الأذى، الكثيرة الشكوى، المخالفة لما تهوى، فقال: أي النساء أعجب إليك؟ قال: الشفاء العطابول، المنعاج الكسول، التي لم يشنها قصر ولا طول، قال: فأي النساء أبغض إليك؟ قال: الرعينة القصيرة، الباهرة الشريرة، قال: فأخبرني عن أفضل النساء [مخبراً وأطيفهن أعطاها]؟ قال: [أفضل النساء] العَصْنَةُ الْبَصَّةُ، التي أعلاها قضيب، وأسفلها كثيب، اللحساء الورهاء، التي لم تذهب طولاً في انحطاط، ولم تلتصق قصراً في إفراط، الجعدة الغدائ، السبطة الضفائر، الضخمة الماكم، الطففة البراجم، إذا رأيت أناملها شبهاً بالمداري، وإذا قامت خلتها سارية من السواري، فتلك تهيج المشتاق، وتحبي العاشق بالعنق.

قال المسعودي: وللوليد بن عبد الملك أخبار حسان لما كان في أيامه من الكوائن والحروب، وكذلك الحجاج، وقد أتينا على كثير من مخطوطها في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وإنما ذكر في هذا الكتاب ما لم نورده في ذيئن الكتابين، كما أن ما ذكرناه في الكتاب الأوسط [هو ما] لم نورده في كتاب «أخبار الزمان» والله أعلم.

ذكر أيام سليمان بن عبد الملك

موجز

[و] بويع سليمان بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي كانت فيه وفاة الوليد، وذلك يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين من الهجرة، وتوفي سليمان بمرج دابق من أعمال جند قنسرين يوم الجمعة لعشرين بقين من صفر سنة تسع وتسعين؛ فكانت ولايته ستين وثمانية أشهر وخمس ليالٍ، وهلك وهو ابن تسع وثلاثين سنة، وعهد إلى عمر بن عبد العزيز، وقيل: إن وفاة سليمان كانت يوم الجمعة لعشرين خلؤن من صفر سنة تسع وتسعين، وإن ولايته ستان وستة أشهر وثمانية عشر يوماً، على حسب ما وجدنا [هـ] من تباین ما في كتب التواریخ والسیر، وسنذكر جمل أيامهم في باب نُفرِده فيما يرد من هذا الكتاب.

وقد تنوزع في مقدار سن سليمان: فذكر بعضهم أنه قُبض وهو ابن خمس وأربعين [سنة]، ومنهم من زعم أنه كان ابن ثلات وخمسين، وقد قدّمنا قول من قال: إنه قُبض وهو ابن تسع وثلاثين [سنة]، ووَجَدْتُ أكثر شيوخبني مروان من ولده وولد غيره بدمشق وغيرها يذهبون إلى أنه كان ابن تسع وثلاثين، والله أعلم.

ذكر لمع من أخباره، وسيره

خطبته أول ما ولى الخلافة

[و] لما أفضى الأمر إلى سليمان صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: الحمد لله الذي ما شاء صنع، وما شاء أعطى، وما شاء منع، وما شاء رفع وما شاء وضع، أيها الناس، إن الدنيا [دار] غرور وباطل وزينة وتقلب بأهلها، تُضحك باكيها، وتباكي ضاحكها، وتخفيف آمنها، وتومن خائفها، وتشري فقيرها، وتتفقر مشربها [ميالة بأهلها] عباد الله، اتخاذوا كتاب الله إماماً، وازصوا به حكماً، واجعلوه لكم هادياً ودليلًا، فإنه ناسخ ما قبله، ولا ينسخه ما بعده، واعلموا عباد الله أنه ينفي عنكم كيد الشيطان ومطامعه، كما يجلو ضوء الشمس الصبح إذا أسرف، وإدبار الليل إذا عسعس، ثم نزل وأذن للناس [بالدخول] عليه، وأقر عمال من كان قبله على أعمالهم، وأقر خالد بن عبد الله القسري على مكة.

خالد القسري في مكة

وقد كان خالد أخذَت بمكة أحداثاً: منها أنه أدار الصفوف حول الكعبة، وقد كان قبل ذلك صفوف الناس في الصلاة بخلاف ذلك، وبلغه قول الشاعر:

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي تزاحمنا عند استلام الحجر الأسود
فقال خالد: أما إنهن لا يزاحمنك بعدها أبداً، ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء
في الطواف.

كان سليمان أكولاً

وكان سليمان صاحب أكل كثير يجوز المقدار، وكان يلبس الثياب لرقاق وثياب الوشبي، وفي أيامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والإسكندرية، ولبس الناس جميعاً

الوشي جباباً وأزديةً وسراويل وعمائم وقلانس، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشى، وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره، وكان لباسه في ركوبه وجلوسه على المنبر، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه إلا في الوشى، حتى الطباخ؛ فإنه كان يدخل إليه في صدره وهي وعلى رأسه طويلة وهي، وأمر أن يكفن في الوشى [المتقلة] وكان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل بالعرقي، وكان ربما أتاهم الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المسوية وعليه جبة الوشى المتقلة فلنهمه وحرصه على الأكل يدخل يده في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلاها.

وذكر الأصمسي قال: ذكرت للرشيد نئم سليمان وتناوله الفراريج بكمه من السفافيد، فقال: قاتلك الله بما أعلمك بأخبارهم، إنه عرضت عليّ جباببني أمية، فنظرت إلى جباب سليمان وإذا كل جبة منها في كمها [أثر كأنه] أثر دهن، فلم أدر ما ذلك حتى حدثني بالحديث، ثم قال: علي بجباب سليمان، فأتي بها، فنظرنا فإذا تلك الآثار فيها ظاهرة، فكساني منها جبة، فكان الأصمسي ربما يخرج أحياناً فيها فيقول: هذه جبة سليمان التي كسانيها الرشيد.

وذكر أن سليمان خرج من الحمام ذات يوم وقد اشتد جوعه، فاستعجل الطعام، ولم يكن فرغ منه، فأمر أن يقدم [عليه] ما لحق من الشواء، فقدم إليه عشرون خروفًا، فأكل أجوفها كلها مع أربعين رقاقة، ثم قرب بعد ذلك الطعام فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئاً.

وحكى أنه كان يتخذ سلال الحلوي، ويجعل ذلك حول مرقده، فكان إذا قام من نومه يمد يده فلا تقع إلا على سلة يأكل منها.

لبس سليمان فأعجبته نفسه

حدث المنقري، عن العتبى، عن إسحاق بن إبراهيم بن الصباح بن مروان - وكان مولى لبني أمية من أرض البلقاء من أعمال دمشق، وكان حافظاً لأخبار بني أمية - قال: لبس سليمان يوم الجمعة في ولايته لباساً شهر به، وتعطر، ودعا بتخت فيه عمائم، وبهذه مرأة، فلم يزل يعتم بواحدة بعد أخرى حتى رضي منها بواحدة، فأرخى من سدولها، وأخذ بيده مخصرة، وعلا المنبر ناظراً في عطفيه، وجمع جمعه، وخطب خطبته التي أرادها، فأعجبته نفسه، فقال: أنا الملك الشاب، السيد المهاب، الكريم الوهاب، فتمثلت له جارية من [بعض] جواريه وكان يتحظاها، فقال لها: كيف ترين أمير المؤمنين؟ قالت: أراه مئى النفس وقرء العين، لولا ما قال الشاعر، قال: وما قال الشاعر؟ قالت: قال:

أَنْتَ نَعِمُ الْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَىٰ غَيْرَ أَنْ لَا يَبْقَاءَ لِلْإِنْسَانِ
 أَنْتَ مَنْ لَا يَرِيبُنَا مِنْكَ شَيْءٌ عَلِمَ اللَّهُ غَيْرَ أَنْكَ فَانِي
 [لِيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْكَ عِيْبٌ يَا سَلِيمَانَ غَيْرَ أَنْكَ فَانِ]
 فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَخَرَجَ عَلَى النَّاسِ بَاكِيًّا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ خُطْبَتِهِ وَصَلَاتِهِ دَعَا بِالْجَارِيَةِ،
 فَقَالَ لَهَا: مَا دَعَاكَ إِلَى مَا قَلْتَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ
 وَلَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَأَكَبَرَهُ ذَلِكُ، وَدَعَا بِقِيَمَةِ جَوَارِيْهِ فَصَدَقَتْهَا فِي قَوْلِهَا، فَرَاعَ ذَلِكُ
 سَلِيمَانُ، وَلَمْ يَتَفَعَّلْ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَمْكُثْ بَعْدَ ذَلِكُ إِلَّا مُدْنِيْدَةً حَتَّى تَوْفَىِ.
 وَكَانَ سَلِيمَانُ يَقُولُ: قَدْ أَكَلْنَا الطَّيْبَ، وَلَبَسْنَا الْلَّيْنَ، وَرَكَبْنَا الْفَلَارَةَ، وَلَمْ يَقِنْ [لِي]
 لَذَّةٍ إِلَّا صَدِيقٌ أَطْرَحَ مَعَهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنِهِ مَؤْنَةُ التَّحْفِظِ.

بَيْنَ سَلِيمَانَ وَكَانِبَ الْحَجَاجِ

وَأَدْخَلَ عَلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلِمَ كَاتِبَ الْحَجَاجِ وَالْمُسْتَوْلِيِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَكْبُلٌ
 بِالْحَدِيدِ، فَلَمَّا رَأَاهُ ازْدَرَاهُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتَ كَالِيُومَ قَطُّ، لَعَنَ اللَّهِ رَجُلًا أَجْرَأَكَ رَسَنَةً،
 وَحَكَمْتُ فِي أَمْرِهِ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: لَا تَقْعُلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرُ عَنِي
 مُذْبِرٌ، وَعَلَيْكَ مُقْبِلٌ، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرُ مُقْبِلٌ عَلَيَّ لَا سَتَعْظُمْتُ مِنِي مَا اسْتَصْغَرْتُ،
 وَلَا سَتَجْلَلْتُ مِنِي مَا اسْتَحْقَرْتُ، قَالَ: صَدَقْتَ فَاجْلَسْ لِأَمْ لَكُ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَجْلِسُ
 قَالَ لَهُ سَلِيمَانُ: عَزَّمْتَ عَلَيْكَ لِتَخْبِرَنِي عَنِ الْحَجَاجِ مَا ظَنَكَ بِهِ أَتَرَاهُ يَهْوِي بَعْدَ فِي جَهَنَّمِ
 أَمْ قَدْ اسْتَقَرَ فِيهَا؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا تَقْلِيلْ هَذَا فِي الْحَجَاجِ، فَقَدْ بَذَلَ لَكُمْ نَصْحَةً،
 وَأَخْفَقَ دُونَكُمْ دَمَهُ، وَأَمَّنَ وَلَيْكُمْ، وَأَخَافَ عَدُوكُمْ، وَإِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَعَنْ يَمِينِ أَبِيكَ
 عَبْدِ الْمَلِكِ، وَيَسَارِ أَخِيكَ الْوَلِيدِ، فَاجْعَلْهُ حَيْثُ شَاءَتْ، فَصَاحَ سَلِيمَانُ: اخْرُجْ عَنِي إِلَى
 لَعْنَةِ اللَّهِ، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى جَلْسَائِهِ فَقَالَ: قَبْحَهُ اللَّهُ! مَا كَانَ أَحْسَنُ تَرْتِيبَهُ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحْبِهِ،
 وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْمَكَافَأَةَ، أَطْلَقُوا سَبِيلَهُ.

بَيْنَ سَلِيمَانَ وَأَبِي حَازِمَ الْأَعْرَجِ

وَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو حَازِمَ الْأَعْرَجَ، فَقَالَ: يَا أَبَا حَازِمَ، مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ قَالَ: لَأَنْكُمْ
 عَمِرْتُمْ دُنِيَّا كُمْ وَأَخْرِبْتُمْ آخِرَتِكُمْ، فَأَنْتُمْ تَكْرُهُونَ النَّقلَةَ مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ، قَالَ:
 فَأَخْبَرْنِي كِيفَ الْقَدُومُ عَلَى اللَّهِ؟ قَالَ: أَمَا الْمُحَسِّنُ فَكَالْغَافِيْبِ يَأْتِي أَهْلَهُ مَسْرُورًا، وَأَمَا
 الْمُسْيِئُ فَكَالْعَبْدِ الْآبَقِ يَأْتِي مَوْلَاهُ مَخْزُونًا، قَالَ: فَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَدْاءُ الْفَرَائِصِ
 مَعَ اجْتِنَابِ الْمُحَارَمِ، قَالَ: فَأَيُّ الْقَوْلِ أَعْدَلُ؟ قَالَ: كَلْمَةُ حَقٍّ عَنْدَ مَنْ تَخَافُ وَتَرْجُو،

قال: فأي الناس أعقل؟ قال: من عمل بطاعة الله، قال: فأي الناس أجهل؟ قال: مع باع آخرته بدنيا غيره، قال: عِظْنِي وأوْجِزْ، قال: يا أمير المؤمنين، نَزَهْ ربك وعظمته بحيث إن يراك تجتنب ما نهاك عنه ولا يفقدك من حيث أمرك به، فبكى سليمان بكاء شديداً فقال له بعض جلسائه: أسرفت ويفحص على أمير المؤمنين، فقال له أبو حازم: اسكت فإن الله عز وجل أحَدَ الميثاق على العلماء ليبيته للناس ولا يكتمونه ثم خرج، فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمال، فرده، وقال لرسول: قل له والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك، فكيف أرضاه لنفسي؟ .

بين سليمان وأعرابي

وذكر إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: حدثني الأصممي، عن شيخ من المَهَالِيَّة، قال: دخل أعرابي على سليمان فقال له: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أكلمك بكلام فافهمه، فقال له سليمان: إننا نجود بستة الاحتمال على من لا نرجو نصحه، ولا نأمن غِشه، وأرجو أن تكون الناصح جَنِيَا، المأمون غيَّا، فهات، قال: يا أمير المؤمنين، أما إذا أمنت بادرة غضبك فسألتك لسانك بما خَرَسْتَ به الأَلْسُنُ من عظتك تأدبة لحق الله حق أمانتك، يا أمير المؤمنين، إنه قد تَكَفَّكَ رجال أساووا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، حَزْب للآخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما يأمنك الله عليه، فإنهما لم يأتوا إلا ما فيه تضييع وللامة خسف وعسف، وأنت مسؤول عما اجترموا، وليسوا مسؤولين عما اجترمت، فلا تُصلِّحْ دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبناً باع آخرته بدنيا غيره، فقال له سليمان: أما أنت يا أعرابي فقد سَلَّتْ [علينا] لسانك، وهو أقطع من سيفك، فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك، فقال سليمان: أما وأبيك يا أعرابي لا تزال العرب بسلطاناً لأكتاف العز مُتَبَوَّةً، ولا تزال أيام دولتنا بكل خير مُقبلة، ولئن ساسكم ولاة غيرنا ليُحَمَّدَنَّ منا ما أصبحتم تذمُونَ فقال الأعرابي: أما إذا رجع الأمر إلى ولد العباس عم الرسول الله ﷺ وصَنَوْ أَيْهَهُ ووارث ما جعله الله له أهلاً فلا، فتغافل سليمان كأن لم يسمع شيئاً، وخرج الأعرابي فكان آخر العهد به، هذا الخبر أخبرني به بعض شيوخ ولد العباس بمدينة السلام مدينة أبي جعفر المنصور، وهو ابن ديابة المنصوري، عن أبيه، عن علي بن جعفر التوفلي، عن أبيه، وذلك في سنة ثلاثمائة.

سليمان يصف معاوية

وذكر معاوية بن أبي سفيان في مجلس سليمان، فصلَّى على روحه وأرواح من

سلف من آبائه، وقال: كان والله هَزْلُهُ جِدًا، وجده علماً، والله ما رُئي مثل معاوية، كان والله غضبه حلمًا، وحلمه حكماً، وقيل: إن هذا الكلام لعبد الملك.

خالد القسري في العراق

وكتب سليمان إلى خالد بن عبد الله القسري وهو على العراق في رجل استجار به من قريش، وكان هرب من خالد، أن لا يعرض له، فأتاه بالكتاب فلم يفظه حتى ضربه مائة سوط، ثم قرأه، فقال: هذه نعمة أراد الله أن ينتقم بها منك لتركي قراءة الكتاب، ولو كنت قرأته لأنفذت ما فيه، فخرج القرشي راجعاً إلى سليمان، فسألة الفرزدق وأناس منمن كان بالباب عما صنع خالد، فأخبرهم، فقال الفرزدق في ذلك:

سَلُوا خَالِدًا لَا قَدْسَ اللَّهُ خَالِدًا مَتَّى وَلَيْتَ قَسْرَ قُرَيْشًا تَدِينُهَا
أَفْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ أَمْ بَعْدَ عَهْدِهِ فَأَضْحَى قُرَيْشٌ قَدْ أَغْثَ سَمِينُهَا؟
رَجَوْنَا هُدَاهُ لَا هَدَى اللَّهُ سَعْيَهُ وَمَا أَمَهُ بِالْأَمْ يُهْدِي جَنِينُهَا

فلما بلغ سليمان ذلك وجَّه إلى خالد مَنْ ضربه مائة سوط، فقال الفرزدق في ذلك من أبيات:

شَابِيبٌ لَيْسَتْ مِنْ سَحَابَ وَلَا قَطْرِ
وَتَعَصِّي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا قَسْرِ
بِكْفَكَ فَتَخَاءَ إِلَى الْفَرَخِ فِي الْوَكْرِ
أَرْثَكَ نَجُومَ الْلَّيلَ مُظَهَّرًا تَجْرِي
جُزِيَّتَ قَصَاصًا بِالْمَرْجَرَةِ السُّمْرِ

لعمري لقد صُبِّثَ على ظهر خالد
أنضرب في العصيان من ليس عاصياً
فلولا يَزِيدُ بْنُ الْمَهْلَبَ حَلَقَتْ
لعمري لقد سار ابن شيبة سيرة
[فخذ بيديك الخزي حتا؛ فإنما

بين سليمان وعمر بن عبد العزيز

وقال سليمان لعمر بن عبد العزيز يوماً وقد أعجبه سلطانه: كيف ترى ما نحن فيه؟ قال: سرور لولا أنه غرور، وحياة لولا أنه موت، وملك لولا أنه هلك، وحسن لولا أنه حزن، ونعم لولا أنه عذاب أليم، فبكى سليمان من كلامه.

سليمان على الضد من الوليد

وكان سليمان بخلاف الوليد، وعلى الضد منه في الفصاحة والبلاغة، وقد كان الوليد أفسد في أرض عبد الله بن يزيد بن معاوية، فشكراً ذلك أخيه خالد بن يزيد إلى عبد الملك، فقال [له عبد الملك]: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا فَرَيْكَةً أَفْسَدُوهَا» [النمل: ٣٤]

الآية، فقال له خالد: «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ شَهِلَكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتَرَفِّهَا فَقَسَقُوا فِيهَا» [الإسراء: ١٦] الآية، فقال عبد الملك: أفي عبد الله تتكلّم وبالأمس دخل علىّ فغير في لسانه ولحن في كلامه؟ فقال: أفعلى الوليد تعول؟ قال: إن كان الوليد يلحن فسلمان أخيه، قال خالد: وإن كان عبد الله لحانًا فأخوه خالد، فقال الوليد: أتكلّم ولست في العير ولا في الفير، قال خالد: ألم تسمع ما يقول أمير المؤمنين، أنا والله ابن العير والتفير، ولو قلت حبيبات وغيمات والطائف [ورحم الله عثمان]، قلنا: صدقت، أراد بذلك أن رسول الله ﷺ نهى الحكم بن أبي العاص إلى الطائف فصار راعياً حتى رَدَه عثمان.

غضب سليمان على خالد القسري

وغضب سليمان على خالد القسري، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، إن القدرة تذهب الحفيظة، وإنك تجُل عن العقوبة، فإن تَعْفُ فأهل لذلك أنت، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا، فعفا عنه.

وذمّ رجل في مجلس سليمان الكلام، فقال سليمان: إنه من تكلّم فأحسن قدر على أن يصمت فيحسن [وليس من صمت فأحسن قدر على أن يتكلّم فيحسن]. ووقف سليمان على قبر ولده أيوب وبه [كان] يكنى، فقال: اللهم إني أرجو له، وأخافك عليه فحقق رجائي، وأمن خوفي.

بعض الكتاب ينعي سليمان

قال المسعودي: ولما دُفِن سليمان سمع بعض كتابه وهو يقول أبياتاً منها:

وما سالم عما قليل يسالم وإن كثُرتُ أحراسه وكتابه
فمن يكُنْ ذا بأس شديد ومنعة فعما قليلٍ يهجر الباب حاجبه
ويصبح بعد الحجب للناس مقصدًا رهينة بيته لم تستر جوانبه
فما كان إلا الدفن حتى تفرقـتـ إلى غيرِ أحراسه ومواكبـه
وأصبح مسروراً به كل كاشـحـ وأقاربـهـ فنفسـكـ أكـسـبـهـ السـعـادـةـ جـاهـداـ فـكـلـ اـمـرـيـءـ رـهـنـ بماـ هوـ كـاسـبـهـ

قال المسعودي: ولسلمان أخبار حسان لما كان في مدة ملكه من الكوائن، [و] قد أتينا على مبسوط ذلك في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وإنما ذكر في هذا الكتاب لمعاً طلياً للإيجاز، وميلاً إلى الاختصار، وبالله التوفيق.

ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم

موجز

واستخلف عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وستعين، وهو اليوم الذي مات فيه سليمان، وتوفي بـ^{يَدِهِ} سِمعَانَ من أعمال حمص مما يلي بلاد قنسرين يوم الجمعة لخمسة بيَتَنَ من رجب سنة إحدى ومائة؛ فكانت خلافته ستين وخمسة أشهر وخمسة أيام، وفُضَّلَ وهو ابن تسع وثلاثين سنة، وقبره مشهور في هذا الموضع إلى هذه الغاية، مُعَظَّم يَغْشَاهُ كثيرٌ من الناس من الحاضرة والبادية، لم يتعرض لنبيه فيما سلف من الزمان كما تعرض لقبور غيره من بنى أمية.

وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه! .

وقيل: إنه قُبض وهو ابن أربعين سنة، وقيل: إحدى وأربعين سنة.

وقد تنوَّع أيضًا في مقدار مدة في الخلافة، وقد أتينا على المحصل من ذلك في باب مقدار المدة من الزمان وما تملكت فيه بنو أمية من الأعوام، فيما يرد من هذا الكتاب.

ذكر لمع من أخباره، وسيره، وزهده (رضي الله عنه)

كيف آلت الخلافة لعمر

لم تكن خلافة عمر في عَهْدِ تقدم، وكان السبب فيها أن سليمان لما حضرته الوفاة بمرج دابق دعا رجاء بن حنيفة ومحمد بن شهاب الزهري ومكحولاً وغيرهم من العلماء ممن كان في عسكره غازياً ونافراً، فكتب وصيته، وأشهدهم عليها، وقال: إذا أنا مُتْ فأذْنُوا بالصلوة جامعاً، ثم اقرؤوا هذا الكتاب على الناس، فلما فُرغ من دُفْنه نودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس وحضر بنو مروان فأشرأبُوا للخلافة، وتَشَوَّفُوا نحوها، فقام الزهري فقال: أيها الناس، أرضيتم مَنْ سَمَّاه أمير المؤمنين سليمان في وصيته؟ فقالوا: نعم، فقرأ الكتاب فإذا اسم عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فقام مكحول فقال: أين عمر [بن عبد العزيز]؟ وكان عمر في أواخر الناس، فاسترجع حين دُعيَ باسمه مرتين أو ثلاثة، فأتاه قوم فأخذوا بيده وعَضَّديه، فأقاموه، وذهبوا به إلى المنبر فصعد وجلس على المربقة الثانية، وللمنبر خمس مرافق، فكان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك، وقام سعيد وهشام فانصرفا ولم يبايعا، وبابيع الناس جميعاً، ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين.

خلق عمر ودينه

وكان عمر في نهاية النسك والتواضع، فصرف عُمَالَ مَنْ كان قبله من بني أمية، واستعمل أصلحَ من قدر عليه، فسلك عُمَالَه طريقة، وترك لَعْنَ على عليه السلام على المنابر، وجعل مكانه «رَبَّا أَغْفَرْ لَنَا وَلَا يَحْزُنَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غُلَّا لِلَّذِينَ أَمْنَأْنَا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» [الحشر: ١٠] وقيل: بل جعل مكان ذلك «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَاتِ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» [التحليل: ٩٠] الآية، وقيل: بل جعلهما جميعاً، فاستعمل الناس ذلك في الخطبة إلى هذه الغاية.

بين السدي وعمر

ولما استخلف عمر دخل عليه سالم السدي، وكان من خاصته، فقال له عمر: أسرئك ما وليت أم ساءك؟ فقال: سرني للناس وساعني لك، قال: إني أخاف أن أكون [قد] أذيفت نفسي، قال: ما أحسن حalk إن كنت تخاف، إني أخاف عليك أن لا تخاف، قال: عظني، قال: أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة.

من طاووس إلى عمر

وكتب طاووس إلى عمر: إن أردت أن يكون عملك خيراً كله فاستعمل أهل الخير، فقال عمر: كفى بها موعظة.

أول خطبة لعمر

ولما أفضى إليه الأمر كان أول خطبة خطب الناس بها أن قال: أيها الناس، إنما نحن من أصول قد مضت وبقيت فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تتضمن فيهم المنايا، وهم فيها نصب المصائب مع كل جزعه شرق، وفي كل أكلة عصص، لا ينالون نعمة إلا بفارق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله.

بين عمر وعامله على المدينة

وكتب إلى عامله بالمدينة أن أقسم في ولد علي بن أبي طالب عشرة آلاف دينار، فكتب إليه: إن علياً قد ولد له في عدة قبائل من قريش ففي أي ولده؟ فكتب إليه: لو كتبت إليك في شاة تذبحها لكتبت إليّ أسوداء أم بيضاء، إذا أتاك كتابي هذا فأقسم في ولد علي من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار، فطالما تخطتهم حقوقهم، والسلام.

خطبة أخرى

وخطب في بعض مقاماته فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه: أيها الناس إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد ﷺ، ألا وإنني لست بقاض، ولكنني منفذ، ألا وإنني لست بمبتدع، ولكنني مُتبع، إن الرجل الهاوب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ، ولكن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

تقدير ملك الروم لعمر

وبعد عمر وفداً إلى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين، وحق يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسّر عليه، وهو جالس على سرير ملكه، والتاح على رأسه، والبطارقة عن يمينه وشماله، والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوا له، فتلقاهم بجميل، وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفو عنده في ذلك اليوم، فلما كان في غداة عدِّ أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة، فقال: هل تدرؤن لماذا دعوتك؟ قالوا: لا، قال: إن صاحب مسلحتي التي تلي العرب جاءني كتابه في هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن يكروا، فقال: [ألكم تكونون، أو لدينكم، أو له؟ قالوا: نبكي لأنفسنا ولديتنا له، قال] لا تبكوا له وابكون أنفسكم ما بدا لكم، فإنه [قد] خرج إلى خير مما خلف، قد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافة الآخرة، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يُحيي الموتى لظننت أنه يُحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطنًا وظاهرًا فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدًا، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكنني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلا.

وصية الأعرج

وكتب عمر إلى أبي حازم المدني الأعرج أن أوصني وأوْجِزْ، فكتب إليه: كأنك يا أمير المؤمنين بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل، والسلام.

توقيع عمر إلى عامل له

ووقع إلى عامل من عماله: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإذا عدلت، وإنما اعتزلت، والسلام.

زهده بعد الخلافة

وذكر المدائني قال: كان يُشتري لعمر قبل خلافته الحلة بـألف دينار، فإذا لبسها استحسنها ولم يستحسنها، فلما أتته الخلافة كان يُشتري له قميص بـعشرة دراهم فإذا لبسه استرانه.

وخرج مع جماعة من أصحابه فمر بالمقبرة فقال لهم: قُفُوا حتى آتني قبور الأَحْبَةِ فأسلم عليهم، فلما توسّطها وقف فسلم وتكلّم وانصرف إلى أصحابه فقال: ألا تسأليني ماذا قلت لهم وما قيل لي؟ فقالوا: وماذا قلت يا أمير المؤمنين وما قيل لك؟ قال: مررت بقبور الأَحْبَةِ فسلّمت [عليهم] فلم يرْدُوا، ودعوت فلم يجيئوا، فيبینا أنا كذلك إذا نوديت: يا عمر، أما تعرّفني؟ أنا الذي غيرت محسن وجههم، ومزقت الأكفان عن جلودهم، وقطعت أيديهم، وأبْنَثْتُ أكفهم عن سواعدهم، ثم بكى حتى كادت نفسه أن تطفأ، فوالله ما مضى بعد ذلك إلا أيام حتى لحق بهم.

من مطرف إلى عمر

وذكر المدائني قال: كتب مطرف إلى عمر: أما بعد، فإن الدنيا دار عقوبة، لها يجمع مَنْ لا عقل، وبها يغتر مَنْ لا علم له، فكُنْ بها كالمداوي جرحه، واصبر على شدة الدواء، لما تخاف من عاقبة الداء.

بين عمر وعبد له

وذكر بعض الأخباريين أن عمر في عنفوان حداثته جنى عليه عبد له أسود جنائية، فبطحه [وهم] ليضرره، فقال له العبد: يا مولاي، لم تضربني؟ قال: لأنك جنتي كذا وكذا، قال: فهل جَنَيْتَ أنت جنائية قط غضب بها عليك مولاك؟ قال عمر: نعم، قال: فهل عَجَلْتَ عليك العقوبة؟ قال: اللهم لا، قال العبد: فلم تعجل علي ولم يعجل عليك؟ فقال له: قم فأنت حر لوجه الله، وكان ذلك سبب توبته.

وكان عمر يكثر هذا الكلام في دعائه فيقول: يا حليماً لا يَعْجَلُ على مَنْ عصاه.

بين عمر وغلام ورد عليه في وفد الحجاز

وذكر جماعة من الأخباريين أن عمر لما ولّي الخلافة وفد عليه وفود العرب ووفد عليه وفد الحجاز، فاختار الوفد غلاماً منهم، فقدّمه عليهم ليبدأ بالكلام، فلما ابتدأ الغلام بالكلام وهو أصغر القوم سنًا قال عمر: مهلاً يا غلام، ليتكلّم من هو أَسْنَ منك [فهو أولى بالكلام] فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغر نية لسانه وقلبه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد استجاد له الحلية، يا أمير المؤمنين، ولو كان التقدم بالسن لكان في هذه الأمة من هو أَسْنَ منك، قال: تكلّم غلام، قال: نعم يا أمير المؤمنين، نحن وفود التهنة لا وفود المرزقة، قدمنا إليك من بلدنا، نحمد الله الذي

مَنْ بَكَ عَلَيْنَا، لَمْ يَخْرُجْنَا إِلَيْكَ رَغْبَةً وَلَا رَهْبَةً، أَمَا الرَّغْبَةُ فَقَدْ أَتَانَا مِنْكَ إِلَى بَلْدَنَا، وَأَمَا الرَّهْبَةُ فَقَدْ أَمْتَنَا اللَّهُ بِعَدْلِكَ مِنْ جُوْرُكَ، فَقَالَ: عَظَنَا يَا غَلَامُ وَأَوْجَزَ، قَالَ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ أَنَاسًا [مِنَ النَّاسِ] غَرَبُهُ حَلْمُ اللَّهِ عَنْهُمْ، وَطُولُ أَمْلَاهُمْ، وَحَسْنُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَغْرِبُكَ حَلْمُ اللَّهِ عَنْكَ، وَطُولُ أَمْلَكَ، وَحَسْنُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْكَ، فَتَرَلَ قَدْمَكَ، فَنَظَرَ عَمْرٌ فِي سِنِ الْغَلَامِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ بِضَعْعَةً عَشْرَةَ سَنَةً، فَأَشَأَ عَمْرٌ رَحْمَهُ اللَّهُ يَقُولُ:

تَعْلَمُ فَلِيسَ الْمَرءُ يُولَدُ عَالِمًا
وَلَيْسَ أَخْوَهُ عِلْمٌ كَمْنُ هُوَ جَاهِلٌ
وَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمَ لَا يَعْلَمُ عَنْهُ صَغِيرٌ إِذَا التَّفَتَ عَلَيْهِ الْمُحَا�ِلُ

قصة جارية عند قاضي المدينة

وقد كان رجل من أهل العراق أتى المدينة في طلب جارية وصفت له قارئة قَوَّالة، فسأل عنها فوجدها عند قاضي المدينة، فأتاه وسألها أن يعرضها عليه، فقال: يا عبد الله، لقد أبعذت الشقة في طلب هذه الجارية، فما رغبتك فيها؟ لما رأى من شدة إعجابه بها، قال: إنها تغنى فتجيد، فقال القاضي: ما علمت بهذا، فاللح عليه في عرضها، فعرضت بحضور مولاها القاضي، فقال لها الفتى: هات، فغنت:

إِلَى خَالِدٍ حَتَّى أَنْخُنَ بِخَالِدٍ فَنَعِمَ الْفَتَنِي يُرْجِي وَنَعِمَ الْمُؤْمَلُ
فَفَرَحَ الْقَاضِي بِجَارِيَتِهِ وَسُرُّ بَغْنَائِهَا، وَغَشِيَهُ مِنَ الْطَّرْبِ أَمْرٌ عَظِيمٌ حَتَّى أَقْعَدَهَا عَلَى
فَخَذَهُ، وَقَالَ: هَاتِ شَيْئًا بِأَبِي أَنْتَ، فَغَنَتْ:

أَرْوَحُ إِلَى الْقُصَاصِ كُلَّ عَشِيهِ أَرْجِي ثَوَابَ اللَّهِ فِي عَدَدِ الْخُطَا
فَزَادَ الْطَّرْبُ عَلَى الْقَاضِيِّ، وَلَمْ يَدْرِ مَا يَصْنَعُ، فَأَخْذَ نَعْلَهُ فَعَلَقَهَا فِي أَذْنِهِ، وَجَثَا
عَلَى رَكْبَتِيهِ، وَجَعَلَ يَأْخُذُ بِطَرْفِ أَذْنِهِ وَالنَّعْلَ مَعْلَقَةً فِيهَا، وَ[هُوَ] يَقُولُ: أَهْدَوْنِي إِلَى
الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَإِنِّي بَدَأْتُهُ! حَتَّى أَذْمِي أَذْنَهُ، فَلَمَّا أَمْسَكَتْ أَقْبِلَ عَلَى الْفَتَنِي فَقَالَ [لَهُ]: يَا
حَبِيبِي، انْصَرْفْ، قَدْ كَنَا فِيهَا رَاغِبِينَ قَبْلَ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهَا تَقُولُ، فَنَحْنُ الآنَ فِيهَا أَرْغَبُونَ،
فَانْصَرَفَ الْفَتَنِي، وَبَلَغَ ذَلِكَ [إِلَيْهِ] عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ: قَاتَلَهُ اللَّهُ! لَقَدْ اسْتَرْفَهُ
الْطَّرْبُ، وَأَمْرٌ بِصَرْفِهِ مِنْ عَمْلِهِ، فَلَمَّا صَرَفَهُ قَالَ: نَسَاوَهُ طَوَالِقَ لَوْ سَمِعَهَا عَمْرٌ لَقَالَ
أَرْكَبُونِي إِلَيْنِي مَطِيَّةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَمْرٌ فَأَشْخَصَهُ وَأَشْخَصَ الْجَارِيَةَ، فَلَمَّا دَخَلَا عَلَى عَمْرٌ
قَالَ لَهُ: أَعِدْ مَا قَلْتَ، قَالَ: نَعَمْ، فَأَعْدَادَ مَا قَالَ، فَقَالَ لِلْجَارِيَةِ: قَوْلِي، فَغَنَتْ:
كَانَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُّوْنَ إِلَى الصَّفَا أَنِيسُ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَةَ سَامِرُ

بلى، نحن كنا أهلها، فأبادنا صروف الليالي والجذود العوائـر
فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طرباً بيناً، وأقبل يستعيدها، ثلاثة، وقد
بـلـت دموعـة لحيـته، ثم أقبل على القاضـي فقال: قد قارـبت في يـمينك، ارجع إلى عملـك
راشـداً.

بين فتي أموي وجارية لبعض قريش

حدثـنا الطوسي والأموي الدمشـقي وغيرـهما، عن الزـبير بن بـكار، عن عبد الله بن
أحمد المـديـني، قال: كان بالـمـديـنة فـتـيـ من بـنـيـ أـمـيـةـ من ولـدـ عـثـمـانـ، وـكانـ ظـرـيفـاًـ يـخـتـلـفـ
إـلـىـ قـيـئـةـ لـبـعـضـ قـرـيـشـ، وـكـانـ الـجـارـيـةـ تـحـبـهـ وـلـاـ يـعـلـمـ، وـيـحـبـهـ وـلـاـ تـعـلـمـ، وـلـمـ تـكـنـ مـحـبـةـ
الـقـوـمـ إـذـ ذـاكـ لـرـيـةـ وـلـاـ فـاحـشـةـ، فـأـرـادـ يـوـمـاًـ أـنـ يـبـلـوـ ذـلـكـ، فـقـالـ لـبـعـضـ مـنـ عـنـهـ: اـمـضـ بـنـاـ
إـلـيـهـ، فـأـنـطـلـقـاـ، وـوـافـاهـمـ وـجـوـهـ أـهـلـ الـمـديـنـةـ مـنـ قـرـيـشـ وـالـأـنـصـارـ وـغـيرـهــماـ، وـمـاـ كـانـ فـيـهــمـ
فتـيـ يـجـدـ بـهـ وـجـدـهـ، وـلـاـ تـجـدـ بـوـاـحـدـ مـنـهـمـ وـجـدـهـاـ بـالـأـمـوـيـ، فـلـمـ [أنـ] أـخـذـ النـاسـ
مـوـاضـعـهـمـ قـالـ لـهـاـ الفتـيـ: أـتـحـسـنـ أـنـ تـقـولـيـ:

أـحـبـكـمـ حـبـاـ بـكـلـ جـوـارـحـيـ فـهـلـ عـنـدـكـمـ عـلـمـ بـمـاـ لـكـمـ عـنـدـيـ
أـتـجـزـونـ بـالـوـدـ الـمـضـاعـفـ مـشـلـهـ فـإـنـ كـرـيمـاـ مـنـ جـرـىـ الـوـدـ بـالـوـدـ

قالـتـ: نـعـمـ، وـأـحـسـنـ مـنـهـ، وـقـالـتـ:

لـلـذـيـ وـدـنـاـ السـوـءـ بـالـضـعـفـ وـفـضـلـ الـبـادـيـ بـهـ لـاـ يـجـازـىـ
نـوـ بـدـاـ مـاـ بـنـاـ لـكـمـ مـلـاـ الـأـرـ ضـرـ وـأـقـطـارـ شـامـهـاـ وـالـحـجاـزاـ

قالـ: فـعـجـبـ الفتـيـ مـنـ حـدـقـهـاـ مـعـ حـسـنـ جـوـابـهـ وـجـوـدـهـ حـفـظـهـ فـازـدادـ كـلـفـاـ بـهـ،
وقـالـ:

أـنـتـ عـذـرـ الفتـيـ إـذـ هـتـكـ السـتـرـ وـإـنـ كـانـ يـوـسـفـ الـمـعـصـومـاـ
فـبـلـغـ ذـلـكـ عمرـ بنـ عبدـ العـزـيزـ، فـاشـتـراـهـ بـعـشـرـ حـدـائقـ وـوـهـبـهـ لـهـ بـمـاـ يـصـلـحـهـاـ
فـأـقـامـتـ عـنـهـ حـوـلـاـ ثـمـ مـاتـ، فـرـثـاهـ، وـقـضـىـ فـيـ حـالـهـ تـلـكـ [نـجـبـهـ] فـدـفـنـاـ مـعـاـ، وـكـانـ مـنـ
مـرـثـيـهـ لـهـ قـوـلـهـ:

قـدـ تـمـنـيـتـ جـنـةـ الـخـلـدـ لـلـخـلـدـ فـأـذـخـلـشـهـ بـلـاـ اـسـتـئـهـالـ
ثـمـ أـخـرـجـتـ إـذـ تـطـمـعـتـ بـالـنـعـمـةـ مـنـهـاـ وـالـمـوـتـ أـحـمـدـ حـالـ

وـقـالـ أـشـعـبـ الطـامـعـ [الـمـدـنـيـ]: هـذـاـ سـيـدـ شـهـداءـ [أـهـلـ] الـهـوـيـ، انـحـرـواـ عـلـىـ قـبـرـهـ
سـبـعـينـ بـدـنـةـ، وـقـالـ أـبـوـ حـازـمـ الـأـعـرجـ الـمـدـنـيـ: أـمـاـ مـحـبـ لـهـ يـيلـغـ هـذـاـ.

عمر والخوارج

وقد كان خرج في أيام عمر شوذب الخارجي، وقوى أمره فيمن خرج معه [من المحكمة] من ربعة وغيرها، فحدث عباد بن عباد المهليبي، عن محمد بن الزبير الحنظلي، قال: أرسلني عمر إليهم، وأرسل معي عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وكان خروجهم بالجزيرة، وكتب عمر معنا إليهم كتاباً، فأتيانهم فأبلغناهم كتابه ورسالته، فبعثوا معنا رجلين منهم أحدهما منبني شيئاً والأخر فيه حشية وهو أحدهما لساناً وعارضة، فقدمتا بهما على عمر [بن عبد العزيز] وهو بخاصرة، فصعدنا إليه إلى غرفة هو فيها ومعه ابنه عبد الملك وكاتبه مزاحم، فذكرنا مكانهما، فقال: فتشوهما لثلا يكون معهما حديد، ففعلنا، فلما دخلنا قالا: السلام عليك، ثم جلسا، فقال لهما عمر: أخبراني ما الذي أخرجك مخرجكم هذا؟ وما نقمت علينا؟ فتكلم الذي فيه حشية فقال: والله ما نقمنا عليك في سيرتك، وإنك لتجري بالعدل والإحسان، ولكن يبتنا وبينك أمر إن [أنت] أعطيتنا فتحن منك وأنت منا، وإن منعتنا فلست منا ولست منك، فقال عمر: وما هو؟ قال: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك، وسميتها المظالم، وسلكت غير سبيلهم، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبراً منهم، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق، فتكلم عمر فقال: إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدُنِيَا، ولكن أردتم الآخرة وأخطأت طريقها، وإنني سائلكم عن أمور، فإله لتصدقني عنها،رأيتما أبا بكر وعمر، أليسوا من أسلافكم وممن تتولونهما وتشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: بلـى، قال: فهل علمتم أن أبا بكر حين قبض رسول الله ﷺ وارتئتـ العرب قاتلهم فسفوك الدماء وأخذـ الأموال وسبـ الذراـي؟ قالـا: نـعـمـ، قالـ: فـهـلـ علمـتـ أنـ عمرـ [ـحـينـ قـامـ بـعـدـ أـبـيـ بـكـرـ ردـ تـلـكـ السـبـاياـ إـلـىـ أـصـحـابـهـ]ـ؟ـ قالـا:ـ نـعـمـ،ـ قالـ:ـ فـهـلـ بـرـىـءـ عـمـرـ مـنـ أـبـيـ بـكـرـ؟ـ قالـا:ـ لـاـ،ـ قالـ:ـ أـفـرـأـيـتـ أـهـلـ النـهـرـوـانـ،ـ أـلـيـسـواـ مـنـ أـسـلـافـكـ وـمـنـ تـوـلـوـنـ وـتـشـهـدـوـنـ لـهـمـ بـالـنـجـاـةـ؟ـ قالـا:ـ بـلـىـ،ـ قالـ:ـ فـهـلـ عـلـمـتـ أـنـ هـنـاكـ كـوـنـ مـنـ أـهـلـ الـكـوـفـةـ حـينـ خـرـجـوـاـ إـلـىـ إـلـيـهـمـ كـوـنـ أـيـدـيـهـمـ فـلـمـ يـسـفـكـوـاـ دـمـاـ وـلـمـ يـخـفـوـاـ آـمـنـاـ وـلـمـ يـأـخـذـوـ مـالـاـ؟ـ قالـا:ـ نـعـمـ،ـ قالـ:ـ فـهـلـ عـلـمـتـ أـنـ أـهـلـ الـبـصـرـةـ حـينـ خـرـجـوـاـ إـلـىـ إـلـيـهـمـ مـعـ الشـيـانـيـ وـعـبـدـ اللهـ بنـ خـبـابـ بنـ الـأـرـثـ صـاحـبـ وـأـصـحـابـهـ اـسـتـعـرـضـوـنـ النـاسـ يـقـتـلـوـنـهـمـ،ـ وـلـقـواـ عـبـدـ اللهـ بنـ خـبـابـ بنـ الـأـرـثـ صـاحـبـ رسولـ اللهـ ﷺـ فـقـتـلـوـهـ وـقـتـلـوـ جـارـيـتـهـ،ـ ثـمـ صـبـحـوـ حـيـاـ مـنـ أـحـيـاءـ الـعـرـبـ فـاـسـتـعـرـضـوـهـمـ فـقـتـلـوـ الرـجـالـ وـالـنـسـاءـ وـالـأـطـفـالـ حـتـىـ جـعـلـوـ يـلـقـؤـنـ الصـيـانـيـ فـيـ قـدـورـ الـأـقـطـ وـهـيـ تـفـورـ؟ـ

قالا: قد كان ذلك، قال: فهل تبراً أهل البصرة من أهل الكوفة وأهل الكوفة من أهل البصرة؟ قالا: لا، قال: فهل تبرؤون أنتم من أحد الطائفتين؟ قالا: لا، قال: أرأيتم الدين واحداً أم اثنين؟ قالا: بل واحداً، قال: فهل يسعكم فيه شيء يعجز عنك؟ قالا: لا، قال: فكيف وسعكم أن توليتهم أبا بكر وعمر، وتولى أحدهما صاحبه، وتوليتهم أهل البصرة وأهل الكوفة، وتولى بعضهم بعضاً، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء في الدماء والفروج والأموال، ولا يسعني فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم؟ أرأيتم لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لا بد منها، فإن كانت كذلك فأخبرني أيها المتكلم متى عهذك بلعن فرعون؟ قال: ما ذكر متى لعنته، قال: ويحك!! لم لا تلعن فرعون وهو أخبثُ الخلق ويسعني فيما زعمت لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم؟ ويحكم! إنكم قوم جهال، أردتم أمراً فاختلطتموه، فأنتم تدرون على الناس ما قبله منهم رسول الله ﷺ، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويختلف عندكم من أمن عنده، قال: ما نحن كذلك، قال عمر: بل سوف تقرؤن بذلك الآن، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ بُعث إلى الناس وهم عبادة أوثان فدعاهم إلى خلع الأوثان وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن فعل ذلك حرق دمه، وأحرق ماله، ووجبت حرمته، وكانت له أسوة المسلمين؟ قالا: نعم، قال: أفلستم أنتم تلقو من يخلع الأوثان ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فستحلوا دمه وماله، وتلقون من ترك ذلك وأباء من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرموا دمه، قال الحبشي: ما سمعت كاليوم قط حجّة أبين وأقرب مأخذًا من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا بريء من بريء منك، فقال عمر للشيباني: فأنت ما تقول؟ قال: ما أحسن ما قلت، وأبين ما وصفت، ولكنني لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض قولك عليهم فأنظر ما حجتهم، قال: فأنت أعلم، فانصرف، وأقام الحبشي، فأمر له عمر بعطايه، فمكث خمسة عشر يوماً ثم مات، ولحق الشيباني بأصحابه فقتل معهم بعد موت عمر رحمة الله تعالى.

ولعمر مع الخوارج أخبار غير ما ذكرنا، ومراسلات، ومناظرات، وكذلك لمن سلف منبني أمية وغيرهم من ولاة الأمصار، وقد أتينا على ذكرها وذكر [كل] من سماته الخوارج بأمير المؤمنين وخاطبته بالإمامية من الأزارقة والأباضية والحرمية والتجدادات والخلقية والصفرية وغيرهم من أنواع الحرورية، وذكرنا مواضعهم من الأرض في هذا الوقت مثل من سكن منهم منبلاد شهرزور وسجستان وإصطخر منبلاد فارس وببلاد كرمان وأذربيجان وببلاد مكران وجبال عمان وهراة منبلاد خراسان والجزيرة وتأهرت

السفلى وغيرها من بقاع الأرض، في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وما ذكرنا من الرد عليهم في التحكيم، وغير ذلك في كتابنا المترجم بكتاب «الانتصار» المفرد لفرق الخوارج، وفي كتاب «الاستبصار».

بعض شعراء الخوارج

وقد ذكرنا جماعة من شعرائهم ممن سلف من أنتمهم: من ذلك قول مصطلة بن عتبان الشيباني، وكان من علمية الخوارج:

وأبلغ أمير المؤمنين رسالَةً
وذو النصح إن لم يرع منك قريب
فإنك إن لا تُرضَّ بكر بن وائل
يكن لك يوم بالعراق عصيِّب
فإن يك منكم كان مروان وابنه
وعمرٌ وعمرٌ ومنكم هاشم وحبِّيْب
فمنا سويد والبطين وقعنب
ومئَا أمير المؤمنين شبيِّب
غَرَّالة ذات التَّنَّدِّرِ منا حميَّدة
لها في سهام المسلمين نصيَّب
ولا صُلْحٌ ما دامت مَتَابِرُ أرضنا يقوِّمُ عليها من ثَقِيفَ خطِّيْبُ

وكذلك ذكرنا أخبار أم شبيب، وما كانت عليه من الاجتهد في ديانة المحكمة، وفيها يقول الشاعر:

أُمْ شَبَّيْبَ وَلَدَتْ شَبَّيْبًا هَلْ تَلَدَّ الذَّبَّةُ إِلَّا ذِيَّبًا

بعض علماء الخوارج

وأخبار علمائهم كاليمان، وله كتب مصنفة في مذاهبهم، وعبد الله بن يزيد الأباضي، وأبي مالك الحضرمي، وقعنب، وغير هؤلاء من علمائهم، وقد كان اليمان بن رباب من علمية علماء الخوارج، وأخوه علي بن رباب من علمية علماء الرافضة، هذا مقدم في أصحابه، وهذا مقدم في أصحابه، يجتمعان في كل سنة ثلاثة أيام يتناظران فيها، ثم يفترقان، ولا يسلم أحدهما على الآخر ولا يخاطبه، وكذلك كان جعفر بن المبشر من علماء المعتزلة وحُدّاقها وزهادها، وأخوه حنش بن المبشر من علماء أصحاب الحديث ورؤساء الحشوية بالضد من أخيه جعفر، وطالت بينهما المناقرة والمباغضة والتباين، وألى كل واحد منها ألا يخاطب الآخر إلى أن لحق بخالقه، وجعفر بن المبشر وجعفر بن حرب من علماء البغداديين من المعتزلة، وكان عبد الله بن يزيد الأباضي بالكوفة تختلف إليه أصحابه يأخذون منه، وكان [خازاراً] شريكاً لهشام بن الحكم، وكان هشام مقدمًا في القول بالجسم والقول بالإمامنة على مذهب القطعية

يختلف إليه أصحابه من الرافضة يأخذون عنه، وكلاهما في حانوت واحد، على ما ذكرنا من التضاد في المذهب من التشري والرفض [و] لم يجر بينهما مُسَابَة، ولا خروج عما يوجبه العلم قضية العقل وموجب الشرع وأحكام النظر والسير.

وذكر أن عبد الله بن يزيد الأباضي قال لهشام بن الحكم في بعض الأيام: تعلم ما بيننا من المودة ودؤام الشركة، وقد أحبت أن تُنْكِحني ابنته فاطمة، فقال له هشام: إنها مؤمنة، فأمسك عبد الله، ولم يُغاؤه في شيء من ذلك، إلى أن فَرَقَ الموت بينهما. وكان من أمر هشام مع الرشيد وابن بزمك ما [قد] أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا.

رأي عمرو بن عبيد فيه

وذكر عن عمرو بن عبيد أنه يقول: أخذ عمر بن عبد العزيز الخلافة بغير حقها، ولا باستحقاق [لها]، ثم استحقها بالعدل حين أخذها.

الفرزدق يرثي عمر

وفي وفاة عمر رضي الله عنه يقول الفرزدق من أبيات يَرْثِيهُ بها:

أقول لَمَّا نَعَى الشَّاغُونَ لِي عَمِراً لَقَدْ نَعِيْتُمْ قَوَامَ الْحَقِّ وَالدِّينِ
قد غَيَّبَ الرَّاهِمُونَ الْيَوْمَ إِذْ رَأَسُوا بِدِيرِ سِمْعَانَ قِسْطَاسَ الْمَوَازِينِ
لَمْ يُلْهِهِ عَمْرَهُ عَيْنَ يُنْجَرُهَا وَلَا النَّخِيلُ وَلَا رَكْضُ الْبَرَادِينِ
ولعمر رحمة الله عليه خطب وأخبار حسان غير ما ذكرنا في هذا الكتاب، وفي
الزهد وغيره، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا، والحمد لله رب العالمين.

ذكر أيام يزيد بن عبد الملك بن مروان

موجز

وَمَلَكَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَوَفَّى فِيهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ يَوْمُ
 الْجَمْعَةِ لِخَمْسِ بَقِينَ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ إِحْدَى وَمِائَةٍ، وَيُكْنَى أَبَا خَالِدٍ، وَأُمُّهُ عَاتِكَةُ بْنَتُ
 يَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفِيَانٍ، وَتَوَفَّى يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِارْبِدٍ مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ مِنْ
 أَعْمَالِ دَمْشَقِ يَوْمِ الْجَمْعَةِ لِخَمْسِ بَقِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَمِائَةٍ، وَهُوَ ابْنُ سَبْعَ
 وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ أَرْبَعُ سَنِينَ وَشَهْرًا وَيَوْمَيْنَ.

ذكر لمع من أخباره وسيره و (جمل من) ما كان في أيامه

حبه سلامة القدس

كان الغالب على يزيد بن عبد الملك حب جارية يقال لها سلامة القدس، وكانت سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الذهري، فاشتراها يزيد بثلاثة آلاف دينار، فأعجب بها، وغلبت على أمره، وفيها يقول عبد الله بن قيس الرقيات:

لَقَدْ فَتَنَ الدُّنْيَا وَسَلَامَةُ الْقَسٌْ فِيمَا يَرْكَأُ لِلْقَسٍْ عَقْلًا وَلَا نَفْسًا

فاحتالت أم سعيد العثمانية جدته بشراء جارية يقال لها حبابة قد كان في نفس يزيد بن عبد الملك قديماً منها شيء، فغلبت عليه، ووهب سلامة لأم سعيد، فعذله مسلمة بن عبد الملك لما عم الناس من الظلم والجور، باحتجابه وإقباله على الشرب واللهو، وقال [له]: إنما مات عمر أمس، و [قد] كان من عدله ما قد علمت، فينبغي أن تظهر للناس العدل، وترفض هذا اللهو، فقد اقتدى بك عمالك في سائر أفعالك وسيرتك، فارتدعَّ عما كان عليه، فأظهر الإقلاع والندم، وأقام على ذلك مدة مديدة، فغفلظ ذلك على حبابة، فبعثت إلى الأحوص الشاعر ومعبد المغني: انظرا ما أنت صانعان، فقال الأحوص في أبيات له:

أَلَا لَا تَلْمِهُ الْيَوْمُ أَنْ يَتَبَلَّدا
إِذَا كُنْتَ لَمْ تَعْشُقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهُوَ
فَمَا الْعِيشُ إِلَّا مَا تَلَدَّ وَتَشَتَّهِي
وَغَئَّاهُ مَعْبُدُ، وَأَخْذَتْ حَبَّابَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا يَزِيدَ قَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْمِّي صوتاً وَاحِدَّا ثُمَّ افْعُلْ مَا بَدَّا لَكَ، وَغَئَّتْهُ، فَلَمَّا فَرَغَتْ مِنْهُ جَعَلَ يَرْدَدْ قَوْلَهَا:
فَمَا الْعِيشُ إِلَّا مَا تَلَدَّ وَتَشَتَّهِي
وَعَادَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى لَهْوِهِ وَقَضِيفِهِ، وَرَفَضَ مَا كَانَ عَلَيْهِ.

يزيد وحبابة وشعر للفند الزماني

وذكر إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: حدثني ابن سلام، قال: ذكر يزيد قول الشاعر:

صَفَخْنَا عَنْ بَنِي دُهْلٍ وَقُلْنَا: الْقَوْمُ إِخْرَوْا
عَسَى الْأَيَامُ أَنْ يَرْجِعَنَّ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَّخَ الشَّرُّ فَأَفْسَى وَهُوَ غُرْزَيَانٌ
مَشَيْنَا مِشَيَّةَ الْلَّيْثِ غَدَا وَاللَّيْثُ غَضْبَانٌ
بَضْرُبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ وَتَخْضِيعٌ وَاقْرَانٌ
وَطَغْنَ كَفَمُ الرِّزْقِ وَهَى وَالرِّزْقُ مَلَانٌ
وَفِي الشَّرِّ نِجَاةٌ حِينَ لَا يُتَجِّيَّكَ إِحْسَانٌ

وهو شعر قديم يقال: إنه للفند [الزماني] في حرب السوس، فقال لحبابة: غبني به بحياتي، فقالت: يا أمير المؤمنين، هذا شعر لا أعرف أحداً يغني به إلا الأحوال المككي، فقال: نعم، قد كنت سمعت ابن عائشة يعمل فيه ويترك، قالت: إنما أخذه عن فلان بن أبي لهب، وكان حسن الأداء، فوجّه يزيد إلى صاحب مكة: إذا أتاك كتابي هذا فادفع إلى فلان ابن أبي لهب ألف دينار لنفقة طريقه واحمله على ما شاء من دواب البريد، ففعل، فلما قدم عليه قال: غبني بـشعر الفند، فغنوه فأجاد وأحسن، وقال: أعده، فأعاده فأجاد [وأحسن] وأطرب يزيد، فقال [له]: عَمَّنْ أَخْذَتْ هَذَا الْغَنَاءَ؟ قالت: يا أمير المؤمنين، أخذته عن أبي، وأخذه أبي عن أبيه، فقال: لو لم ترث إلا هذا الصوت لكان أبو لهب قد ورثكم خيراً كثيراً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أبي لهب مات كافراً مؤذياً رسول الله ﷺ، فقال: [قد] أعلم ما تقول، ولكنني دخلتني له رقة إذ كان مجيناً للغناء، ووصله وكسهه ورده إلى بلده مكرماً.

وكتب في عهد عمر إلى يزيد: إذا أملكتك القدرة بالعزّة فاذكر قدرة الله عليك، وقيل: إن هذا الكلام كتب به عمر إلى بعض عماله، وفيه زيادة - على ما ذكره الزبير بن بكار - وهي: إذا أملكتك القدرة من ظلم العباد فاذكر قدرة الله عليك بما تأتي إليهم، وأعلم أنك لا تأتي إليهم أمراً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، وأن الله يأخذ للمظلوم من الظالم، ومهما ظلمت من أحد فلا تظلم من لا يتصر عليك إلا بالله تعالى.

موت حبابة وجزع يزيد عليها

واعتلت حبابة فأقام يزيد أياماً لا يظهر للناس، ثم ماتت، فأقام أياماً لا يدفنها جرعاً عليها حتى جيئت، فقيل: إن الناس يتحدثون بجزعك، وإن الخلافة تجل عن ذلك، فدفنتها وأقام على قبرها، فقال:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى فباليس تسل النفس لا بالتجاذب
ثم أقام بعدها أياماً قلائل ومات.

حدث أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، عن أبيه، عن إسحاق الموصلي، عن أبي الحوينث الشفقي قال: لما ماتت حبابة حزن عليها يزيد بن عبد الملك حزناً شديداً، وضم إليه جويرية [لها] كانت تحدثها فكانت تخدمه، فتمثلت الجارية يوماً:

كفى حزناً للهائم الصب أن يرى منازل من يهوى مُعطلة فقرا
فبكى حتى كاد أن يموت، ولم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها حبابة حتى مات.
وكان يزيد ذات يوم في مجلسه وقد غنته حبابة وسلامة فطرب طرباً شديداً ثم قال:
أريد أن أطير، فقالت له حبابة: يا مولاي، فعلى من تدع الأمة وتدعنا.
وكان أبو حمزة الخارججي إذا ذكر بنى مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك
قال: أقعد حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره، ثم قال: أريد أن أطير، فطار إلى لعنة الله
وأليم عذابه.

يزيد بن المهلب يخرج على يزيد بن عبد الملك

قال المسعودي: و [قد] كان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة هرب من سجن عمر بن عبد العزيز، حين أُثقل، وذلك في سنة إحدى ومائة وصار إلى البصرة وعليها عدي بن أزطاء الفزاروي، فأخذنه يزيد بن المهلب، فأوثقه ثم خرج يريد الكوفة مخالفًا على يزيد بن عبد الملك، وحشدت له الأزد وأحلافها، وانحاز إليه أهله وخاصته، وعظم أمره، واستندت شوكته، فبعث إليه [يزيد] أخاه مسلمة بن عبد الملك، وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك، في جيش عظيم، فلما شارفاه رأى يزيد بن المهلب في عسكره اضطراباً، فقال: ما هذا الانضطراب؟ قيل: جاء مسلمة والعباس [قال:] فوالله ما مسلمة إلا جرادة صفراء، وما العباس إلا نسطوس بن نسطوس، وما أهل الشام إلا طغام قد حشدوا ما بين فلاج وزراع ودباغ وسفلة، فأغironني أكفكم ساعة [واحدة]

تصفعون بها خراطيمهم، فما هي إلا غدوة [أ] ورَزْحَة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين، علي بفرسي، فأتى بفرس أبلق، فركب غير متسلح، فالتقى الجيشان فاقتلوا قتالاً شديداً، وولى أصحاب يزيد عنه، فقتل يزيد في المعركة، وصبر [وا] إخوته أنفسهم، فقتلوا جميعاً، ففي ذلك يقول الشاعر:

كل القبائل بايyou على الذي تَدْعُو إليه طائعين وساروا
حتى إذا حضر الْوَغْيَ وجعلتهم نُضَبَ الأَسْنَة أَسْلَمُوكَ وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عاراً عليك وبَعْضُ قتلي عازٍ

فلما ورد الخبر على يزيد بن عبد الملك استبشر، وأخذ الشعراء جميعاً يهجون آل المهلب، إلا كثيراً، فإنه امتنع [من ذلك] فقال له يزيد: حَرَّكتك الرحيم يا أبو صخر، لأنهم يمانيون، ففي ذلك يقول جرير [يمدح يزيد، و] يهجو آل المهلب:

يا رَبَّ قوم وقوم حاسدين لكم ما فيهم بَدَلٌ منكم ولا حَلْفٌ
آل المهلب جَزَّ الله دابرهم أمسوا رماداً فلا أصلٌ ولا طرف
ما نالت الأزد من دعوى مُضِلِّهم إلا المعااصِم، والأعناق تختطف
والأزد قد جعلوا المنتوف قائد़هم فَقَتَلَتْهُمْ جنود الله، وانتُسِفُوا

وهي طويلة، وفي ذلك يقول جرير أيضاً ليزيد من كلمة:

لقد تركت فلا تَعْدِمْكَ إذ كفروا آل المهلب عَظِيماً غير مجبور
يا ابن المهلب، إن الناس قد علموا أن الخلافة للشَّمْ المغاوير

صنيع يزيد في آل المهلب

وبعد يزيد هلال بن أخوز المازني في طلب آل المهلب، وأمره أن لا يلقى منهم من بلغ الحلم إلا ضرب عنقه، فأتبعهم حتى [أتى] قندييل من أرض السندي وآتى هلال بغلامين من آل المهلب، فقال لأحدهما: أدركت؟ قال: نعم، ومد عنقه، فكان الآخر أشفع عليه فَعَصَ شفته لثلا يظهر جزاً فضرب عنقه، وأنجذ القتل في آل المهلب حتى كاد أن يفنيهم، فذكر أن آل المهلب مكثوا بعد إيقاع هلال بهم عشرين سنة يُولد فيهم الذكور فلا يموت منهم أحد، وفي مدح هلال بن أخوز وما فعل يقول جرير:

أفول لها من ليلة ليس طولها كطول الليالي: لَيْتَ صُبْحَكَ نَوَراً
أخاف على نفسي ابن أخوزَ، إنه جلا كل هَمَ في النُّفُوسِ فأسفَرَا

جعلت بقبر بالحسان ومالك وقبر عدي في المقابر أقربا
فلم يبق منهم رأية تعرفونها ولم يبق من آل المهلب عسكرا
وهي أبيات.

بين ابن هبيرة والشعبي وابن سيرين والحسن البصري

وقد كان يزيد بن عبد الملك - حين ولّي عمر بن هبيرة الفزارى العراق، وأضاف إليه خراسان واستقام أمره هنالك - بعث ابن هبيرة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري وعامر بن شرحبيل الشعبي ومحمد بن سيرين، وذلك في سنة ثلاثة وعشرين، فقال لهم: إن يزيد بن عبد الملك خليفة الله استخلفه على عباده، وأخذ ميثاقهم بطاعته، وأخذ عهدهما بالسمع والطاعة، وقد ولاني ما ترون، يكتب إلى بالأمر من أمره فأنفذه، وأقلده ما تقلد من ذلك، فما ترون؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولًا فيه تقىة، فقال عمر: ما تقول يا حسن؟ فقال الحسن: يا ابن هبيرة خَفِيَ الله في يزيد، ولا تَخْفِيَ يزيد في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلاًك عن سيريك ويخربك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك، يا ابن هبيرة، إني أحذرك أن تعصي الله؛ فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً للدين الله وعباده، فلا تتركَّنَّ دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
وحكي في هذا الخبر أن ابن هبيرة أجازهم، وأضعف جائزة الحسن، فقال الشعبي: سفسفنا سفسف لنا.

بين يزيد وأخيه هشام

وذكر أن يزيد بن عبد الملك بلغه أن أخيه هشام بن عبد الملك يتقصده، ويتمئنّ موته، ويعيب عليه لهوه بالقيّنات، فكتب إليه يزيد: أما بعد فقد بلغني استقالك حياتي، واستبطأوك موتي، ولعمري إنك بعدى لواهي الجناح، أجنَّمُ الكف، وما استوْجَبْتُ منك ما بلغني عنك، فأجابه هشام: أما بعد، فإنَّ أمير المؤمنين متى فَرَغَ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم يوشك أن يقدر ذلك في فساد ذات الين، وتقطع الأرحام، وأمير المؤمنين بفضله وما جعله الله أهلاً له أولى أن يتغمد ذنوب أهْل الذنوب، فاما أنا فمعاذ الله أن أستظل حياتك أو أستبطئ وفاتك، فكتب إليه [يزيد] نحن مغتربون ما كان منك، ومكذبون ما بلغنا عنك، فاحفظ وصية عبد الملك إيانا، وقوله لنا في ترك التباغي والتخاذل، وما أمر به وحْضَ عليه من صلاح ذات الين واجتماع الأهواء؛ فهو خير لك، وأملُك بك، واني لاكتب إليك و [أنا] أعلم أنك كما قال الأول:

وأني على أشياء منك تَرِيبني قدِيمًا لذو صفح على ذاك مُجمِلْ
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعني يميئك، فانظُر أي كف تبدلْ
 وإن أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقلْ
فلما أتى الكتاب هشاماً ارتحل إليه، فلم يزل في جواره مخافة أهل البغي والسعابة
حتى مات [يزيد].

وفاة عطاء بن يسار

وممن مات في أيام يزيد بن عبد الملك عطاء بن يَسَار مولى ميمونة زوج
النبي ﷺ، ويكنى أبا محمد، وهو ابن أربع وثمانين سنة، وذلك في ستة ثلاثة ومائة.

موت جماعة من العلماء

وفيها مات مجاهد بن جبر، مولى قيس بن السائب المخزومي، ويكنى أبا
الحجاج، وهو ابن أربع وثمانين سنة.

وجابر بن زيد، مولى الأزد، من أهل البصرة، ويكنى أبا الشَّعْثَاءَ.

ويزيد بن الأصم، من أهل الرقة، وهو ابن أخت ميمونة زوج النبي ﷺ.

ويحيى بن وَثَاب الأَسْدِي، مولى بني كنانة كان.

وأبو بُرْدَةَ بن أبي موسى الأشعري، واسمه عامر، كوفي.

وفي سنة أربع ومائة مات وهب بن مُبَّة، ويقال: مات سنة عشر ومائة وفي سنة
أربع ومائة هذه أيضًا مات طاوس.

[وفي سنة خمس ومائة مات عبد الله بن جبير، مولى العباس بن عبد المطلب،
ويقال: إنه مولى مولى العباس].

وقيل: إن طاوس بن كَيْنَاس - ويكنى أبا عبد الرحمن - مولى بجير الحميري
مات بمكة سنة ست ومائة، وصلى عليه هشام بن عبد الملك.

وفي سنة سبع ومائة مات سليمان بن يسار، مولى ميمونة زوج النبي ﷺ [وهو
أخو عطاء بن يسار] ويكنى أبا أيوب، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، بالمدينة، وقيل: إنه
مات في سنة [ثمان و] مائة.

وفي سنة ثمان ومائة مات القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق.

ومات الحسن بن أبي الحسن البصري، ويكنى أبا سعيد، في سنة عشر ومائة،

واسم أبيه يَسَار مولى لامرأة من الأنصار، ومات ولها تسع وثمانون سنة وقيل: تسعون سنة، وكان أكبر من محمد بن سيرين، ومات محمد بعده بمائة ليلة في هذه السنة وهو ابن إحدى وثمانين سنة، وقيل: ابن ثمانين.

محمد بن سيرين وأخوه

وكان أولاد سيرين خمسة إخوة: محمد، وسعيد، ويحيى، وخالد، وأنس بن سيرين، وسيرين مولى أنس بن مالك، والخمسة قد رَوَوا السنن، ونقلت عنهم. ووجدت أصحاب التأريخ متباهين [ومختلفين] غير متفقين في وفاة وَهْب بن مُنْبَه، ويكتفى أبا عبد الله؛ فمنهم من ذكر وفاته على حسب ما قَدِّمنا في هذا الباب، ومنهم من رأى أنه مات سنة عشر ومائة بصناعة، وكان من الأبناء، وهو ابن تسعين سنة. وفي سنة خمس عشرة ومائة مات الحكم بن عتبة الكندي، وقيل: إنه مات فيها عطاء بن أبي رياح.

وفي سنة ثلاثة وعشرين ومائة مات أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، وذكر الواقدي أنه مات سنة أربع وعشرين ومائة.

وليزيyd بن عبد الملك أخبار حسان، ولما كان في أيامه من الكوارث والأحداث، وقد أتينا على مبسوط ذلك في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وإنما ذكرنا وفاة من سميانا من أهل العلم ونَقلَة الآثار وحملة الأخبار ليكون ذلك زيادة في فائدة الكتاب، ف تكون فوائد عامة؛ إذ كان الناس في أغراضهم متباهين، وفيما يتيممونه من مأخذ العلم مختلفين؛ فمنهم طالبُ خَبَرٍ، ومقلد لأثر، ومنهم ذو بحث ونظر، ومنهم صاحب حديث، ومنقر عن علل، ومراعٍ لوفاة مثل من ذكرنا، فجعلنا فيه لكل ذي رأي نصيباً، وبالله التوفيق.

ذكر أيام هشام بن عبد الملك بن مروان

موجز

ويويع هشام بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه أخيه يزيد بن عبد الملك ، وهو يوم الجمعة لخمس بقين من شوال سنة خمس ومائة ، وُقُضى يزيد وله يومئذ ثمان وثلاثون سنة ، وقيل : أربعون [سنة] ، وتوفي هشام [بن عبد الملك] بالرُّصافة من أرض قنسرين يوم الأربعاء لستَّة خلَوْنَ من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وهو ابن ثلاثة وخمسين سنة ؛ فكانت ولادته تسع عشرة سنة وبسبعين شهر وإحدى عشرة ليلة .

ذكر لمع من أخباره، وسيره

أوصافه وأخلاقه

وكان هشام أخوَّلَ خشناً فظاً غليظاً، يجتمع الأموال، ويُعمر الأرض، ويستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يُعرف ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس، وقد ذكرت الشعراً ما اجتمع له من الخيل، واستجاد الكسّي والفرش، وعدَّ الحرب ولأمتها واصطعن الرجال، وقوى التغور، واتخذ القُبْيَة والبرَّك بطريق مكة، وغير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي في صدر الدولة العباسية.

وفي أيامه عملَ الخز والقطف الخز، فسلك الناس جميعاً في أيامه مذهبِه، ومنعوا ما في أيديهم، فقلَّ الإفضال، وانقطع الرُّفُدُ، ولم ير زمان أصعب من زمانه.

استشهاد زيد بن علي

وفي أيامه استشهد زيد بن علي بن الحسين بن علي كرم الله وجهه، وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائة، وقيل: [بل] في سنة اثنين وعشرين ومائة، وقد كان زيد بن علي شاوراً أخيه أبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي، فأشار عليه بأن لا يركن إلى أهل الكوفة؛ إذ كانوا أهل غدر ومخكر، وقال له: بها قتل جدك علي، وبها طعن عمك الحسن [وبها قتل أبوك الحسين] وفيها وفي أعمالها شتمنا أهل البيت، وأخبره بما كان عنده من العلم في مدة ملكبني مروان، وما يتبعهم من الدولة العباسية، فأبى إلا ما عزم عليه من المطالبة بالحق، فقال له: إني أخاف عليك يا أخي أن تكون غداً المصطوب بكتابة الكوفة، ووَدَّعه أبو جعفر، وأعلم أنهما لا يلتقيان.

وقد كان زيد دخل على هشام بالرُّصَافَةِ، فلما مَثَّلَ بين يديه لم ير موضعياً يجلس فيه، فجلس حيث انتهى به مجلسه، وقال: يا أمير المؤمنين، ليس أحد يكبر عن تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله، فقال هشام: اسكت لا أُم لك، أنت الذي تنازعك نفسك

في الخلافة، وأنت ابن أمّة، قال: يا أمير المؤمنين، إن لك جواباً إن أحبيت أجبك به، وإن أحبيت أمسكت عنه، فقال: بل أحبب، قال: إن الأمهات لا يقدن بالرجال عن الغايات، وقد كانت أم إسماعيل أمّة لأم إسحاق عليهما السلام، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبياً، وجعله للعرب أباً، فأخرج من ضلبه خير البشر محمداً عليهما السلام، فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي، وقام وهو يقول:

شَرَدَةُ الْخُوفِ وَأَزَرَى بِهِ كَذَاكَ مِنْ يَكْرَهُ حَرَّ الْجَلَادِ
مِنْخِرَقِ الْكَفِينِ يَشْكُوُ الْجَوَى تَنْكِشَهُ أَطْرَافُ مَزْوِيِّ حِدَادِ
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَثْمٌ فِي رَقَابِ الْعِبَادِ
إِنْ يُخْدِثَ اللَّهُ لَهُ دُولَةٌ يَتَرَكُ آثَارُ الْعَدَا كَالْرَمَادِ

فمضى عليها إلى الكوفة وخرج عنها، ومعه القراء والأشراف، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي، فلما قاتلت الحرب انهزم أصحاب زيد، وبقي في جماعة يسيرة، فقاتلهم أشدّ قتال، وهو يقول متمثلاً:

أَذْلَّ الْحَيَاةَ وَعَزَّ الْمَمَاتِ وَكُلَّا أَرَاهُ طَعَاماً وَبِيَلَا
فَإِنْ كَانَ لَا بَدَّ مِنْ وَاحِدٍ فَسَيِّرِي إِلَى الْمَوْتِ سِيرًا جَمِيلاً

وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مُثْخَنًا بالجراح، وقد أصابه سهم في جبهته، فطلبوه من ينزع النصل، فأتى بمحاجم من بعض القرى، فاستكمله أمره فاستخرج النصل، فمات من ساعته، فدفونه في ساقية ماء، وجعلوا على قبره التراب والخشيش، وأجري الماء على ذلك، وحضر الحجاج مواراته عرف الموضع، فلما أصبح مضى إلى يوسف متنصحاً، فدلله على موضع قبره، فاستخرجه يوسف، وبعث برأسه إلى هشام، فكتب إليه هشام: أن أصلبه عرياناً، فصلبه يوسف كذلك، ففي ذلك يقول بعض شعراءبني أمية يخاطب آل أبي طالب وشيعتهم من أبيات:

صَلَبَنَا لَكُمْ زِيدًا عَلَى جَنْدِ نَخْلَةٍ وَلَمْ أَرْ مَهْدِيًّا عَلَى الْجَنْدِ يَصْلِبُ
وَبَئَنِ تَحْتِ خَشْبِهِ عَمُودًا، ثُمَّ كَتَبَ هشام إِلَى يَوسُفَ [يَأْمُرُهُ] بِإِحْرَاقِهِ وَذَرْرَوْهُ فِي
الرِّيَاحِ.

صنيع العباسيين بقبور الأمويين

قال المسعودي: وحكى الهيثم بن عدي الطائي، عن عمرو بن هانئ، قال: خرجت مع عبد الله بن علي لتشق قبوربني أمية في أيام أبي العباس السفاح، فانتهينا إلى

قبر هشام، فاستخرجناه صحيحاً ما فقدنا منه إلا خورمة أنفه، فضربه عبد الله [بن علي] ثمانين سوطاً، ثم أخرى، واستخرجنا سليمان من أرض دابق، فلم نجد منه شيئاً إلا ضلبه وأضلاعه ورأسه، فأحرقناه، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية، وكانت قبورهم بقنسرين، ثم انتهينا إلى دمشق، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك، فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً، واحتفينا عن عبد الملك بما وجدنا إلا شؤون رأسه، ثم احتفينا عن يزيد بن معاوية بما وجدنا فيه إلا عظماً واحداً، ووجدنا مع لحده خطأً أسود كأنما خط بالرماد في الطول في لحده، ثم اتبعنا قبورهم في جميع البلدان، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم.

وإنما ذكرنا هذا الخبر في هذا الموضع لقتل هشام زيد بن علي، وما نال هشاماً من المثلثة بما فعل سلفه من الإحراق كفعله بزيد بن علي.

وقد ذكر أبو بكر بن عياش وجماعة [من الأخباريين] أن زيداً مكث مصلوباً خمسين شهراً عرياناً، فلم ير له أحد عورة، سترأ من الله له، وذلك بالكتنasa بالكوفة، فلما كان في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك ظهر ابنه يحيى بن زيد بخراسان كتب الوليد إلى عامله بالكوفة: أن أحرق زيداً بخشبته، ففعل ذلك [به]، وأذري [رماده] في الرياح على شاطئ الفرات.

فرق الزيدية من الشيعة

وقد أتينا في كتابنا «المقالات، في أصول الديانات» على السبب الذي من أجله سميت الزيدية بهذا الاسم، وأن ذلك بخروجهم مع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، هذا، وقد قيل غير ذلك مما قد أتينا عليه فيما سلف من كتابنا، والخلاف بين الزيدية والإمامية، والفرق بين هذين المذهبين، وكذلك غيرهم من فرق الشيعة وغيرهم [وقد ذكر جماعة من مصنفي كتب المقالات والأراء والديانات من آراء الشيعة وغيرهم] كأبي عيسى محمد بن هارون الوراق وغيره، أن الزيدية كانت في عصرهم ثمانية فرق: أولها الفرقة المعروفة بالجارودية وهم أصحاب أبي الجارود زياد ابن المنذر العبدى، وذهبوا إلى أن الإمامة مقصورة في ولد الحسن والحسين، دون غيرهما، ثم الفرقة الثانية المعروفة بالمرئية، ثم الفرقة الثالثة المعروفة بالأبرقية، ثم الفرقة الرابعة المعروفة باليعقوبية، وهم أصحاب يعقوب بن علي الكوفي، ثم الفرقة الخامسة المعروفة بالعقيبة، ثم الفرقة السادسة المعروفة بالأبرتية، وهم أصحاب كثير الأبرت والحسن بن صالح بن يحيى، ثم الفرقة السابعة المعروفة بالجريبة، وهم أصحاب

سليمان بن جرير، ثم الفرقة الثامنة المعروفة باليمانية، وهم أصحاب محمد بن اليمان الكوفي، وقد زاد هؤلاء في المذهب، وفرّعوا مذاهب على ما سلف من أصولهم، وكذلك فرق أهل الإمامة فكانوا على ما ذكر من سلف من أصحاب الكتب ثلاثةً وثلاثين فرقاً، وقد ذكرنا تنازع القطعية بعد مضي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن [الحسين بن علي بن] أبي طالب رضي الله [عنهم]، وما قالت الكيسيانية، وما تباينت فيه وغيرها من سائر طوائف الشيعة، وهم ثلاثة وسبعون فرقاً، دون ما تباينوا فيه من التفريع، وتنازعوا فيه من التأويل، والغاللة أيضاً ثمان فرق: المحمدية منهم أربع، والمعتنلة أربع، وهم العلوية، ولو لا أن كتابنا هذا كتاب خبر لبسطنا من مذاهبهم ووصفنا من آرائهم ما تقدم قبلنا وحدث في وقتنا هذا، وما قالوه من دلائل ظهور المتضرر الموعود بظهوره، وما ذهب إليه كل فريق منهم في ذلك من أصحاب الدور والسرور والتشريق، وغيرهم من أهلاً لإمامية.

بين هشام ورجل من أهل حمص

وعرض هشام يوماً الجندي بحمص، فمر به رجل من أهل حمص وهو على فرس نفور، فقال له هشام: ما حملك على أن تربط فرساً نفوراً؟ فقال الحمصي: لا والرحمن الرحيم يا أمير المؤمنين، ما هو بئنور، ولكنه أبصر حولتك فظن أنها عين غزوان البيطاء، فقال له هشام: تنحَّ فعليك وعلى فرسك لعنة الله، وكان غزوان البيطار نصراانياً بلاد حمص كأنه هشام في حولته وكشفته.

هشام والأبرش الكلبي وجارية من جواري هشام

وبينما هشام ذات يوم جالساً خالياً وعنده الأبرش الكلبي إذ طلعت وصيغة لهشام عليها حلة، فقال للأبرش: مازحها، فقال لها [الأبرش] هيء لي حلتكم، فقالت له: لأنت أطعم من أشعب، فقال لها هشام: ومن أشعب؟ فقالت: كان مضحكاً بالمدينة، وحدثه بعض أحاديثه، فضحك هشام، وقال: اكتبوا إلى إبراهيم بن هشام - وكان عامله على المدينة - في حمله إلينا، فلما ختم الكتاب أطرق هشام طويلاً، ثم قال: يا أبرش، هشام يكتب إلى بلد رسول الله ﷺ ليحمل إليه [منه] مضحك؟ لا ها الله، ثم تمثل:

إذا أنت طاوَعْتَ الهوى فَادَكَ الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال وأوقف الكتاب.

أمثلة من بخل هشام

وذكر أن هشاماً أهدى له رجل طائرين، فأعجب بهما، فقال له الرجل: جائزتي يا أمير المؤمنين، قال [وilyك] وما جائزه طائرين؟ قال له: ما شئت، قال: خذ أحدهما، فقصد الرجل لأحسنهما فأخذته، فقال له هشام: وتختر أيضاً؟ قال: نعم والله أختار، فقال: دفعه، وأمر له بدريهما.

ودخل هشام بستانًا له ومعه ندماءه فطافوا به، وبه من كل الشمار، فجعلوا يأكلون ويقولون: بارك الله لأمير المؤمنين، فقال: وكيف يبارك لي فيه وأنتم تأكلونه؟ ثم قال: ادع قيمة، فدعا به، فقال له: اقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه أحد شيئاً. وكتب إليه ابنه سليمان: إن بعلتي قد عجزت، فإن رأي أمير المؤمنين أن يأمر لي بدابة، فكتب إليه [هشام]: قد فهم أمير المؤمنين كتابك، وما ذكرت من ضعف دابتك، وقد ظن أن ذلك من قلة تعاهدك لعلفها، وضياع العلف، فقم عليها بنفسك، ولعلَّ أمير المؤمنين يرى رأيه في حملاتك.

ونظر هشام إلى رجل على برذون طخاري، فقال: من أين لك هذا؟ قال: حملني عليه الجنيد بن عبد الرحمن، قال: وقد كثرت الطخارية حتى ركبها العامة؟ لقد مات عبد الملك وفي مربطيه برذون واحد طخاري، فتنافس فيه ولده، حتى ظن من فاته أن الخلافة فاتته، قال الرجل: فحسدني إياه.

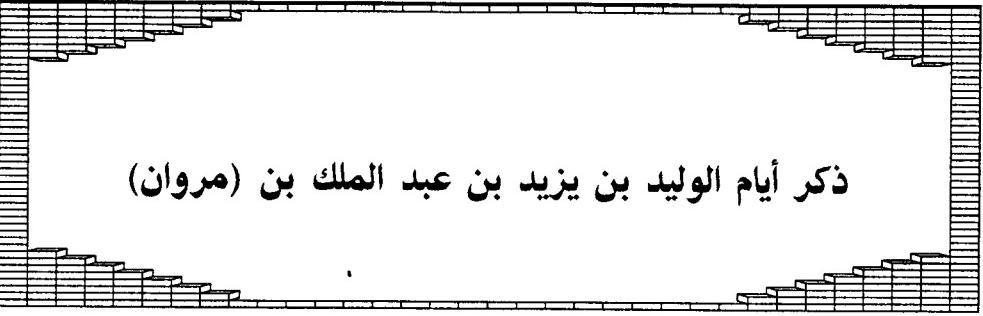
وقد كان أخوه مسلمة مازحه قبل أن يلي الأمر، فقال له: يا هشام، أتؤمِّلُ الخلافة وأنت جبان بخيل! فقال: والله إنني عليم حليم.

السواس منبني أمية

وذكر الهيثم بن عدي والمدائني وغيرهما أن السواس منبني أمية ثلاثة: معاوية، وعبد الملك، وهشام، وختمت [به] أبواب السياسة وحسن السيرة، وأن المنصور كان في أكثر أمره وتدبيره وسياسته متبعاً لهشام [بن عبد الملك] في أفعاله، لكثره [ما] كشفه عن أخبار هشام وسيره.

وما قيل عن هشام في أخباره وسيره وسياسته، وما حفظ من أشعاره وخطبه، وما كان في أيامه، في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وكذلك ذكرنا بهذه الكلام الذي أنثار تصنيف الكتاب، المعروف بكتاب الواحدة في مناقب العرب ومثالبها مفردة لا يشاركتها فيها غيرها، وما أضيف إلى كل حي من [أحياء] العرب من قحطان وغيرهم من نزار، وما جرى في مجلس هشام في أوقات مختلفة بين الأبرش الكلبي والعباس بن الوليد [بن

عبد الملك وخالد بن مَسْلَمَةِ الْمَخْزُومِيِّ والنَّضَرِ ابْنِ مَرِيمِ الْحَمِيرِيِّ، وَمَا أُورِدَهُ الْحَمِيرِيُّ مِنْ مَنَاقِبِ قَوْمِهِ [مِنْ حَمِيرٍ وَكَهَلَانَ]، وَمَا أُورِدَهُ الْمَخْزُومِيُّ مِنْ مَنَاقِبِ قَوْمِهِ] مِنْ نَذَارَ بْنِ مَعْدَ بْنِ عَدْنَانَ، وَمَا ذَكَرَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْمَثَالِبِ فِيمَا عَدَا قَوْمَهُ، وَبَانَ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَرَهْفَطَهُ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا الْكِتَابُ أَلَّفَهُ أَبُو عُيَيْنَةَ مَغْمُرُ بْنِ الْمُشَّئِيْ مُولَى آلِ تَيْمَ بْنِ مَرَةَ بْنِ كَعْبَ بْنِ لُؤَيِّ، عَلَى لِسَانِ مَنْ ذَكَرَنَا، وَعَزَاهُ إِلَى مَنْ وَصَفَنَا، أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الشَّعُوبِيَّةِ.



ذكر أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن (مروان)

موجز

ويويع الوليد بن يزيد في اليوم الذي توفي فيه هشام، وهو يوم الأربعاء لست خلؤنَ من [شهر] ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، ثم قُتل بالبخاراء يوم الخميس لليلتين بقيتا من [شهر] جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة؛ فكانت ولاته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً، وقتل وهو ابن أربعين سنة، والموضع الذي قُتل فيه دُفن فيه، وهي قرية من قرى دمشق تعرف بالبخاراء، على ما ذكرنا، وقد أتينا على خبر مقتله في كتابنا الأوسط.

ذكر لمع من أخباره، وسيره

ظهور يحيى بن زيد ومقتله

ظهر في أيام الوليد بن يزيد: يحيى بن علي بن الحسين بن [علي بن] أبي طالب عليه السلام، بالجوزجان من بلاد خراسان، مُنْكِرًا للظلم وما عَمَّ الناسَ من الجور، فسir إلـيـه نـصـرـ بن سـيـار سـلـمـ بن أـحـوـزـ المـازـنـيـ، فـقـتـلـ يـحـيـيـ فـيـ المـعـرـكـةـ بـقـرـيـةـ يـقـالـ لـهـ أـرـعـونـةـ، وـدـفـنـ هـنـالـكـ، وـقـبـرـهـ مـشـهـورـ مـرـؤـرـ إـلـىـ هـذـهـ الغـاـيـةـ، وـلـيـحـيـيـ وـقـائـعـ كـثـيرـةـ، وـقـتـلـ فـيـ المـعـرـكـةـ بـسـهـمـ أـصـابـهـ فـيـ صـدـغـهـ، فـوـلـىـ أـصـحـابـهـ عـنـهـ يـوـمـئـدـ، وـاحـتـرـأـ رـأـسـهـ، فـحـمـلـ إـلـىـ الـوـلـيدـ، وـصـلـبـ جـسـدـهـ بـالـجـوـزـجـانـ، فـلـمـ يـزـلـ مـصـلـوـبـاـ إـلـىـ أـنـ خـرـجـ أـبـوـ مـسـلـمـ صـاحـبـ الـدـوـلـةـ الـعـبـاسـيـةـ، فـقـتـلـ أـبـوـ مـسـلـمـ سـلـمـ بنـ أـحـوـزـ، وـأـنـزـلـ جـثـةـ يـحـيـيـ فـصـلـىـ عـلـيـهاـ [فيـ جـمـاعـةـ أـصـحـابـهـ] وـدـفـنـ هـنـاكـ، وـأـظـهـرـ أـهـلـ خـرـاسـانـ النـيـاحـةـ عـلـىـ يـحـيـيـ بنـ زـيـدـ سـبـعـةـ أـيـامـ فـيـ سـائـرـ أـعـمـالـهـ فـيـ حـالـ أـمـنـهـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ مـنـ سـلـطـانـ بـنـيـ أـمـيـةـ، وـلـمـ يـوـلـدـ فـيـ تـلـكـ السـنـةـ بـخـرـاسـانـ مـوـلـودـ إـلـاـ وـسـمـيـ بـيـحـيـيـ أـوـ بـزـيـدـ؛ لـمـ دـاـخـلـ أـهـلـ خـرـاسـانـ مـنـ الـجـزـعـ وـالـحـزـنـ عـلـيـهـ.

وكان ظهور يحيى في آخر سنة خمس وعشرين، وقيل: [في] أول سنة ست وعشرين ومائة، وقد أتينا على أخباره وما كان من حربه في الكتاب الأوسط، وفي غيره مما سلف من كتابنا، فأغنى ذلك عن إعادته.

وكان يحيى يوم قتل يكثر من التمثيل بشعر الخنساء:

نَهِيَنُ النُّفُوسَ، وَهَوْنُ النُّفُوسِ يَوْمَ الْكَرِيْهَةِ أَفْرَى لَهَا

لَهُ الْوَلِيدُ وَخَلَاعْتَهُ

وكان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنيين من البلدان إليه، وجالس الملوك، وأظهر الشرب والملاهي والعزف، وفي

أيامه كان ابن سُرِيج المغني، ومَعْبَد، وَالْغَرِيفِسْ، وابن عائشة، وابن مُحرز، وَطُويسْ، ودحمان، وغلبت [عليه] شهوة العناء في أيامه، وعلى الخاص والعام، واتخذ القيَان، وكان متھتكاً ماجنا خليعاً، وطرب الوليد لليلتين خلتا من ملکه وأرق فأنشأ يقول:

طال ليلي وبئث أنسقى السلافة
وأتاني نعيي من بالرضافة
وأتاني ببردة قضيب وأتاني بخاتم للخلافة

ومن مجونه قوله عند وفاة هشام، وقد أتاه البشر بذلك، وَسَلَمَ عليه بالخلافة،

[فقال]

إني سمعت، خليلي،
نحن الرضافة رئه
أقول: ما حالهئه
أقبلت أسحب ذيلي
إذا بنات هشام
يئذبن والد هئه
يدعون وينلا وعزلا
والوينل حل بهئه
أنا المخت حقاً
إن لم أنيكneathه

وقيل للوليد: ما بقي من لذاتك؟ قال: محادثة الإخوان في الليالي الظفر، على الكثبان العُفر.

الوليد وشراعة بن زيد

وبلغ الوليد عن شراعة بن زيد ورود حسن عشرة وحلوة مجالسة، فبعث في إحضاره، فلما [أ] دخل إليه قال: إني ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب ولا سنة، قال: ولست من أهلها، قال: إنما أسألك عن القهوة، قال: سل عن أي ذلك شئت يا أمير المؤمنين، قال: ما تقول في الشراب؟ قال: عن أيه تسأل؟ قال: ما تقول في الماء؟ قال: يشاركتني فيه البغل والحمار، قال: فنبذ الزبيب؟ قال: خمار وأذى، قال: فنبذ التمر؟ قال: ضراط كله، قال: فالخمر؟ قال: شقيقة روحي، وأليه نفسى، قال: فما تقول في السماع؟ قال: يبعث مع الثاني على ذكر الأشجان، ويجد اللهو على موقع الأحزان، ويؤنس الخلي الوحيد، ويُسر العاشق الفريد، ويبعد غليل القلوب، ويثير من خواطر الضمائري خطرة ليست من الملاهي لغيره، يسرع ترقيتها في أجزاء الجسم، فتهيج النفس، وتقوى الحسن، قال: فأي المجالس أحب إليك؟ قال: ما رأيت فيه السماء من غير أن ينالني فيه أذى، قال: فما تقول في الطعام؟ قال: ليس لصاحب الطعام اختيار ما وجده أكله، فاتخذنه [الوليد] نديماً.

من قوله في الشراب

ومن مليح قوله في الشراب من أبيات:

وَصَفْرَاءِ فِي الْكَأسِ كَالزَّعْفَرَانِ سَبَاهَا لَنَا الشَّجَرُ مِنْ عَسْقَلَانِ
ثُرِيكَ الْقَدَّاَةَ وَعَرَضَ إِلَنَا ءَسْتَرْ لَهَا دُونَ مَسْ الْبَيَانِ
لَهَا حَبَّبْ كَلْمَاهَا كَلْمَعَةَ بَرْقِي يَمَانِي

ومن مجونة أيضاً على شرابه قوله لساقيه:

اسْقَنِي يَا يَزِيدَ بِالْقَرْقَارَهَ قَدْ طَرِبَنَا وَحَثَتِ الزُّمَارَهَ
اسْقَنِي اسْقَنِي؛ فَإِنْ ذَنْبِي قد أَحْاطَتْ فَمَا لَهَا كَفَارَهَ

سمير الوليد يتحدث عنه

وأخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي القاضي، عن محمد بن سلام الجمحي، قال: حدثني رجل من شيوخ أهل الشام عن أبيه، قال: كنت سميراً للوليد بن يزيد، فرأيت ابن عائشة القرشي عنده وقد قال له: غني، فغناه:

إِنِّي رَأَيْتُ صَبِيَّهُ التَّخْرِ حُورًا نَّفِينَ عَزِيمَةَ الصَّبَرِ
مُثْلَ الْكَوَاكِبِ فِي مَطَالِعِهَا عَنْدَ الْعَشَاءِ أَطَفَنَ بِالْبَذْرِ
وَخَرَجَتِ أَبْغَى الْأَجْرِ مُخْتَسِبًا فَرَجَعَتْ مَؤْفُورًا مِنَ الْوَزْرِ

قال له الوليد: أحسنت والله يا أميري، أعد بحق عبد شمس، فأعاد، فقال: أحسنت والله، بحق أمية أعد، فأعاد، فجعل يتخطى من أب إلى أب ويأمره بالإعادة، حتى بلغ نفسه، فقال: أعد بحياتي، فأعاد، فقام إلى ابن عائشة فأكب عليه ولم يبق عضواً من أعضائه إلا قبّله، وأهوى إلى أيره [يقبّله] فجعل ابن عائشة يضم ذكره بين فخذيه، فقال الوليد: والله لا زلت حتى أقبله، [فأبرأه] فقبل رأسه وقال: واطرباه واطرباه، وزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة، وبقي مجردًا إلى أن أتوه بشياب غيرها، ودعا له بآلف دينار فدفعت إليه، وحمله على بغلة [له] وقال: اركبها على بساطي، وانصرف فقد تركتني على أحر من جمر الغضى.

ورث الوليد الخلعة عن يزيد أبيه

قال المسعودي: وقد كان ابن عائشة غنىًّا بهذا الشعر يزيد بن عبد الملك أباً فأطربه، وقيل: إنه ألدحد وكفر في طربه، وكان فيما قال لساقيه: اسقنا بالسماء الرابعة، فكان الوليد بن يزيد قد ورث الطرب في هذا الشعر عن أبيه، والشعر لرجل من قريش،

والغناء لابن سريج، وقيل: لمالك، على حسب ما في كتب الأغاني من الخلاف في ذلك مما ذكره إسحاق بن إبراهيم الموصلي في كتابه في الأغاني وإبراهيم بن المهدى المعروف بابن شكلاة في كتابه في الأغاني أيضاً، وغيرهما ممن صنف في هذا المعنى، والوليد يُدعى خليع بني مروان.

فعله بالمصحف وقد استفتح به

وقرأ ذات يوم ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرَائِيهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ
صَدَدِيلٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] فدعا بالمصحف فنصبه عَرَضاً للنشاب، وأقبل يرميه وهو يقول:
أَتَوْعِدُ كُلَّ جَبَارٍ عَنِيدٍ فَهَا أَنَا ذاك جَبَارٍ عَنِيدٍ
إِذَا مَا ِجْئَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشْرٍ فَقُلْنِي يَا رَبِّ خَرَقَنِي الوليد

شعر له أللحد فيه

وذكر محمد بن يزيد المبرد [النحوى] أن الوليد أللحد في شِغْرٍ له ذكر فيه
النبي ﷺ، وأن الوحي لم يأتِه عن ربه، كَذَبَ أخْزَاهُ اللَّهُ! من ذلك الشعر:
تَلَعَّبَ بِالخِلَافَةِ هَاشَمِيٌّ بِلَا وَحْيٍ أَتَاهُ وَلَا كِتَابٌ
فَقُلْنِي يَمْنَعُنِي طَعَامِي، وَقُلْنِي يَمْنَعُنِي شَرَابِي!
فَلَمْ يُمْهَلْ بَعْدَ قُولِهِ [هذا] إِلَّا أَيَّاماً حَتَّى قُتِلَ.

نسب أمه

وأم الوليد بن يزيد: أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقيفة، ويكنى أبا العباس.

من خواص اليشب

وقد كان حمل إليه جفنة من البلور - وقيل: من الحجر المعروف باليشب - وقد
ذهب جماعة من الفلاسفة إلى أن مَنْ شَرِبَ فِيهِ الْخَمْرَ لَا يَسْكُرُ، وقد ذكرنا خاصية ذلك
في كتاب «القضايا والتجارب» وأن من وضع تحت رأسه منه قطعة أو كان فص خاتمه منه
لم ير إلا رؤيا حسنة، فأمر الوليد فملئت خمراً وطلع القمر، وهو يشرب وندماوه معه،
فقال: أين القمر الليلة؟ فقال بعضهم: في البرج الفلامي، فقال له آخر منهم: بل هو في
الجفنة - وقد كان القمر تبين في شعاع الجوهر وصورته في ذلك الشراب - فقال [له]

الوليد: والله ما تَعَدَّيت ما في نفسي، وطرب طرباً شديداً، وقال: لأصطبخن، هفت هفته، وهذا كلام فارسي تفسيره لأصطحبن سبعة أسابيع، فدخل عليه بعض حجابه فقال: يا أمير المؤمنين، إن بالباب جمعاً من وفود العرب وغيرهم من قريش، والخلافة تجلُّ عن هذه المنزلة، وتبعده عن هذه الحال، فقال: اسقوه، فأبى، فوضع في فمه قِمْعٌ وجعلوا يسوقونه حتى خَرَّ ما يعقل سكراً.

وقد كان أبوه أراد أن يعهد إليه، فلاستصغره لسنِّه عهد إلى أخيه هشام، ثم إلى الوليد من بعده.

كان مغرى بالخيل

وكان الوليد مُغْرِي بالخيل وحبها وجمعها، وإقامة الحلبية، وكان السندي فرسه جواد زمانه، وكان يسابق به في أيام هشام، وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد، وربما ضَمَّأَهُ، وربما جاء مُضْلِياً.

مراتب خيل الحلبة

وهاك مراتب السوابق من الخيل إذا جَرَثَ، فأولُها السابق، ثم المُصلَّى، وذلك أن رأسه عند صَلَا السابق، ثم الثالث والرابع، وكذلك إلى التاسع، والعشر السُّكَّيت، مشدد، وما جاء بعد ذلك لم يعتد به، والفنِّيكل: الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل. وأجرى الوليد الخيل بالرصافة، وأقام الحلبة، وهي يومئذ ألف قارب، ووقف بها يتظاهر الزائد، ومعه سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، وكان له فيها جواد يقال له المصباح؛ فلما طلعت الخيل قال الوليد:

خَيْلِي وَرَبُّ الْكَعْبَةِ الْمُحْرَمَةِ سَبْقُنَ أَفْرَاسِ الرُّجَالِ اللَّوَمَةُ
كَمَا سَبَقْنَا هُنَّا وَخَرْنَا الْمُكْرُمَه

[كذاك كُنَّا فِي الدُّهُورِ الْقَدْمَهُ أَهْلُ الْعُلَاءِ وَالرُّتُبِ الْمُعَظَّمَه]

فأقبل فرس ابن الوليد - ويقال له: الواضح - أمام الخيل؛ فلما دنا صرع فارسه، وأقبل المصباح فرسُ سعيد يتلوه وعليه فارسه، وهو فيما يرى سعيد يعد سابقاً، فقال سعيد [والوليد يسمع]:

نَحْنُ سَبَقْنَا الْيَوْمَ خَيْلَ اللَّوَمَهُ وَصَرَفَ اللَّهُ إِلَيْنَا الْمُكْرُمَهُ
كَذَاكَ كُنَّا فِي الدُّهُورِ الْقَدْمَهُ أَهْلُ الْعُلَاءِ وَالرُّتُبِ الْمُعَظَّمَه

فضحِّك الوليد لما سمعه، وخشي أن تسقط فرس سعيد، فركض فرسه حتى ساوي

الوضاح، فقدف بنفسه عليه، ودخل سابقاً، فكان الوليد أول من فعل ذلك وَسَئَهُ في الحلبة، ثم تلاه في الفعل كذلك المهدى في أيام المنصور، والهادى في أيام المهدى، ثم عرضت على الوليد الخيل في الحلبة الثانية، فمرّ به فرس لسعيد، فقال: لا نسابقك [يا] أبا عنبرة وأنت القائل:

* نَحْنُ سَبَقْنَا الْيَوْمَ خَيْلَ اللَّوْمِ *

قال سعيد: ليس كذا قلت يا أمير المؤمنين، وإنما قلت:

* نَحْنُ سَبَقْنَا الْيَوْمَ خَيْلًا لَوْمِ *

فضحك الوليد، وضمه إلى نفسه، وقال: لا عدّت قريش أخاً مثلك.

وللوليد بن يزيد أخبار حسان في جمعه الخيول في الحلبة، فإنه اجتمع له في الحلبة ألف قارح، وجمع بين الفرس المعروف بالزائد والفرس المعروف بالسندي، وكانت قد بربا في الجري على خيول زمانهما، وقد ذكر ذلك جماعة من الأخباريين وأصحاب التواريخ، مثل ابن عفير والأصمى وأبي عبيدة وجعفر بن سليمان، وقد أتينا على الغرر من أخباره في أخبار الخيل، وأخبار الحلبات، وخبر الفرس المعروف بالزائد والسندي وأشقر مروان، وغير ذلك من أخبار من سلف من الأمويين، ومن تأخر، في كتابنا المترجم بالأوسط، وإنما الغرض من هذا الكتاب إيراد جوامع تاريخهم، ولمنع من أخبارهم وسيرهم، وكذلك أتينا على ذكر ما يستحب من معرفة خلق الخيل وصفاتها منسائر أعضائها وعيوبها وخلقها، والشاب منها والهرم، ووصف ألوانها ودواائرها، وما يستحسن من ذلك، ومقدار عمرها، ومتى يبلغها، ومتى تنازع الناس في أعداد هذه الدواير، والمحمودة منها والمذمومة، ومن رأى أنها ثمانية عشرة أو أقل من ذلك أو أكثر على حسب ما أدرك من طرق العادات بها والتجارب، ووصف السوابق من الخيل، وغير ذلك مما تكلم الناس به في شأنها وأعراها، فيما سلف من كتابنا.

وفاة أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين

وفي أيام الوليد بن يزيد كانت وفاة أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب [رضي الله عنهم]، وقد توزع في ذلك: فمن الناس من رأى أن وفاته كانت في أيام هشام، وذلك سنة سبع عشرة ومائة، ومن الناس من رأى أنه مات في أيام يزيد بن عبد الملك، وهو ابن سبع وخمسين سنة، بالمدينة، ودفن بالبقيع مع أبيه علي بن الحسين، وغيره من سلفه عليه السلام، مما سنورد ذكرهم فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، والله ولي التوفيق.

**ذكر أيام يزيد وإبراهيم ابني الوليد
ابن عبد الملك بن مروان**

موجز

ولي يزيد بن الوليد بدمشق ليلة الجمعة لسبع بيقين من جمادى الآخرة، فباعه الناس بعد قتل الوليد بن يزيد، وتوفي يزيد بن الوليد بدمشق يوم الأحد هلال ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، فكانت ولايته من مقتل الوليد بن يزيد إلى أن مات خمسة أشهر وليتين، وقد كان إبراهيم بن الوليد أخوه قام بالأمر من بعده، فباعه الناس بدمشق أربعة أشهر، وقيل: شهرين، ثم خُلِعَ، وكانت أيامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط، واختلاف الكلمة، وسقوط الهيبة، وفيه يقول بعض أهل ذلك العصر:

نباع إبراهيم في كل جمعة ألا إن أمناً أنت وإلينه ضائع

وُدُفِن يزيد بن الوليد بدمشق بين باب الجاوية وباب الصغير، وهو ابن سبع ثلاثين سنة، ويقال: [ابن] ست وأربعين سنة [على الخلاف في ذلك].

ذكر لمع مما كان في أيامهما

وصف يزيد الناقص

كان يزيد بن الوليد أخوَّل، وكان يلقب بيزيد الناقص، ولم يكن ناقصاً في جسمه ولا عَقْله، وإنما نَقَصَ بعض الجنِّد من أرزاقهم، فقالوا: يزيد الناقص، وكان يذهب إلى قول المعتزلة وما يذهبون إليه في الأصول الخمسة: من التوحيد، والعدل، والوعيد، والأسماء والأحكام - وهو القول بالمتعللة بين المترددين - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قول المعتزلة في التوحيد

وتفسير قولهم فيما ذهبوا إليه من الباب الأول - وهو باب التوحيد - وهو ما اجتمعت عليه المعتزلة من البصرىين والبغداديين وغيرهم، وإن كانوا في غير ذلك من فروعهم متبانين، من أن الله عز وجل لا كالأشياء وأنه ليس بجسم ولا عَرَض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر، وأن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا، ولا في الآخرة، وأنه لا يحصره المكان، ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل ولا [له] زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حَدٌ، وأنه الخالق للأشياء المُبْدِع لها لا من شيء، وأنه القديم، وأن ما سواه محدث.

قولهم في العدل

وأما القول بالعدل - وهو الأصل الثاني - فهو أن الله لا يحبُّ الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به وَنَهَا عنهم بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم، وأنه لم يأمر إلا بما أراد، ولم ينه إلا عملاً كره، وأنه ولِي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها، لم يكلفهم ما لا يطقوه، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه، وأن أحداً لا يقدر على قبض ولا بُسْط إلا بقدرة الله التي أعطاهم إياها. وهو المالك لها دونهم يُفْنِيها إذا شاء، وَيُبْقِيها إذا شاء، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته، ومنعهم اضطرارياً عن

معصيته، ولكن على ذلك قادراً، غير أنه لا يفعل؛ إذ كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة البلوى.

قولهم في الوعيد

أما القول بالوعيد - وهو الأصل الثالث - فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وإنه لصادق في وعده ووعيده، لا مبدل لكلماته.

قولهم في المنزلة بين المترتبين

وأما القول بالمنزلة بين المترتبين - وهو الأصل الرابع - فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر، بل يسمى فاسقاً، على حسب ما ورد التوفيق بتسميته، وأجمع أهل الصلاة على فسوقه.

قال المسعودي: وبهذا الباب سميت المعتزلة، وهو الاعتزال، وهو الموصوف بالأسماء والأحكام، مع ما تقدم من الوعيد في الفاسق من الخلود في النار.

قولهم في الأمر بالمعروف

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وهو الأصل الخامس - فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب، على حسب استطاعتهم في ذلك، بالسيف بما دونه، وإن كان كالجهاد، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاقد.

فهذا ما اجتمعت عليه المعتزلة، ومن اعتقاد ما ذكرنا من هذه الأصول الخمسة كان معتزلياً، فإن اعتقد الأكثر أو الأقل لم يستحق اسم الاعتزال، فلا يستحقه إلا باعتقاد هذه الأصول الخمسة، وقد تنوزع فيما عدا ذلك من فروعهم.

الاختلاف في الإمامة

وقد أتينا على سائر قولهم في أصولهم وفروعهم وأقاويلهم وأقاويل غيرهم من فرق الأمة من الخوارج والمرجئة والرافضة والزيدية والحساوية وغيرهم في كتابنا «المقالات في أصول الديانات» وأفردنا بذلك كتاباً المترجم بكتاب «الإبابة» اجتبيه لأنفسنا، وذكرنا فيه الفرق بين المعتزلة وأهل الإمامة، وما بان به كل فريق منهم عن الآخر؛ إذ كانت المعتزلة وغيرها من الطوائف تذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة،

وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه [ولا رسوله ﷺ]، ولا اجتمع المسلمين عندهم على رجل بعينه، وأن اختيار ذلك مفروض إلى الأمة تختار رجلاً منها يتفق فيها أحکامه، سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان، ولم يراعوا في ذلك التسبّب ولا غيره، وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك.

والذي ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز في قريش وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها، وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن يحيى، ومن قال بقوله، على حسب ما قدمنا من ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار هشام.

ويوافق على هذا القول جميع الخوارج من الأباضية وغيرهم، إلا النجدات من فرق الخوارج، فزعموا أن الإمامة غير واجب نصبه، ووافقوه على هذا القول أناس من المعتزلة من تقدم وتأخر، إلا أنهم قالوا: إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يُختَنَ إلى إمام.

وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها؛ منها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أن سالماً حَيَ دخلتني فيه الظنون، وذلك حين قُوْضَ الأُمُرَ إلى أهل الشورى، قالوا: سالم مولى امرأة من الأنصار، فلو لم يعلم عمر أن الإمامة جائزة في سائر المؤمنين لم يطلق هذا القول، ولم يتأسف على موت سالم مولى أبي حذيفة.

قالوا: وقد صح بذلك عن النبي ﷺ أخبار كثيرة، منها قوله «اسمعوا وأطِيعوا ولو لعبد أجنَدَ» وقد قال الله عز وجل: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقُكُمْ» [الحجرات: ١٣].

وذهب أبو حنيفة، وأكثر المرجحة، وأكثر الزيدية من الجارودية وغيرها، وسائر فرق الشيعة والرافضة والراوندية، إلى أن الإمامة لا تجوز إلا في قريش [فقط]؛ لقول النبي ﷺ «الإمام في قريش» وقوله ﷺ: «قَدِمُوا قَرِيشًا وَلَا تَقْدُمُوهَا» ولما احتج المهاجرون به على الأنصار يوم ثقيفة بنى ساعدة من أن الإمامة في قريش لأنهم إذا ولوا عدلوا، ولرجوع كثير من الأنصار إلى ذلك.

ولما انفرد به أهل الإمامة من أن الإمامة لا تكون إلا نصاً من الله ورسوله على عين الإمام واسميه واستهاره كذلك، وفي سائر الأعصار لا تخلو الناس من حجة الله فيهم ظاهراً [أ] وباطناً، على حسب استعماله التقية والخوف على نفسه، واستدلوا بالنص على الإمامة، وبدلائل كثيرة من العقول وجوامع من النصوص في وجوبها، وفي النص عليهم، وفي عصمتهم، من ذلك قوله عز وجل مخبراً عن إبراهيم: «إِنِّي جَاعَلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً» [البقرة: ١٢٤] ومسألة إبراهيم بقوله: «وَمَنْ ذُرِّيَّتِي» [البقرة: ١٢٤] وإنجابة الله له بأنه «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» [البقرة: ١٢٤].

قالوا: ففيما تلونا دلائل على أن الإمامة نص من الله، ولو كان نصها إلى الناس ما كان لمسألة إبراهيم ربه وجه، ولما كان الله قد أعلم أنه اختاره، قوله ﴿لَا يَنْأِي عَنْهُدِي أَطْلَالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] دلالة على أن عهده يناله من ليس بظالم.

ووصف هؤلاء الإمام فقالوا: نعم الإمام في نفسه: أن يكون معصوماً من الذنوب، لأنه إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب؛ فيحتاج أن يقام عليه الحد، كما يقيمه هو على غيره، فيحتاج الإمام إلى إمام، إلى غير نهاية، ولم يؤمن عليه أيضاً أن يكون في الباطن فاسقاً فاجراً كافراً، وأن يكون أعلم الخليقة؛ لأنه إن لم يكن عالماً لم يؤمن عليه أن يقلب شرائع الله وأحكامه، فيقطع من يجب عليه الحد، ويحد من يجب عليه القطع، ويضع الأحكام في غير الموضع التي وضعها الله، وأن يكون أشجعَ الخلق؛ لأنهم يرجعون إليه في الحرب، فإن جبن وهرب يكون [قد] باء بغضب من الله، وأن يكون أنسخَ الخلق؛ لأنه خازن المسلمين وأمينهم، فإن لم يكن سخياً تاقت نفسه إلى أموالهم، وشرهت إلى ما في أيديهم، وفي ذلك الوعيد [الشديد] بالنار، وذكروا خصالاً كثيرة ينال بها أعلى درجات الفضل لا يشاركه فيها أحد، وأن ذلك كله وجد في علي بن أبي طالب وولده رضي الله عنهم: من السبق إلى الإيمان، والهجرة، والقرابة والحكم بالعدل، والجهاد في سبيل الله، والورع، والزهد، وأن الله قد أخبر عن بواطنهم وموافقتها لظواهرهم بقوله عز وجل، ووصفه لهم فيما صنعوه من الإطعام للمسكين واليتيم والأسير، وأن ذلك لوجهه تعالى خالصاً، [لا أنهم أبدؤه بأساتهم فقط] وأخبر عن أمرهم في المتنقلِ، وحسن المؤتَل في المحشر، ثم إخباره عز وجل بما أذهب عنهم من الرجس، و فعل بهم من التطهير، وغير ذلك مما أوردوه دلائل لما قالوه، وأن علياً نص على ابنه الحسن، ثم الحسين، والحسين على علي بن الحسين، وكذلك من بعده إلى صاحب الوقت الثاني عشر، على حسب ما ذكرنا وسمينا في غير هذا الموضوع من هذا الكتاب.

ولأهل الإمامة من فرق الشيعة في هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - كلام كثير في الغيبة واستعمال التقية، وما يذكرونها من أبواب الأئمة والأوصياء، لا يسعنا إيراده في هذا الكتاب، إذ كان كتاب خبر، وإنما تغلغل بنا الكلام إلى إيراد لمع من هذه المذاهب والأراء.

وكذلك ما عليه غير أهل الإمامة من أصحاب الدور والسيرونة، وما يراعونه من الظهور، وقد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتابنا، وما وصفنا فيها من الأقوال في الظاهر والباطن والسائل والدائر والوافر، وغير ذلك من أمورهم وأسرارهم.

قال المسعودي: وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع شائعة من المعتزلة وغيرهم من أهل داري والمزة من غوط دمشق على الوليد بن يزيد، لما ظهر من فسقه، وشمل الناس من جوره، فكان [من] خبر مقتل الوليد ما قد ذكرناه فيما سلف من كتابنا مفصلاً، وذكرناه في هذا الكتاب مجملًا.

أم يزيد أم ولد

وكان يزيد بن الوليد أول منولي هذا الأمر وأمّه أم ولد، وكانت أم سارية بنت فيروز [بن كسرى]، وهو الذي يقول في ذلك:

أنا ابْنُ كِسْرَى، وأبْيَ مَرْوَانَ وَقَيْصَرَ جَدِّي، وَجَدِّي خَاقَانَ

وكان يكفي بأبي خالد، وأم أخيه إبراهيم أم ولد تدعى بدبرة، والمعتزلة تفضل في الديانة يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز، لما ذكرناه من الديانة.

ظهور مروان بن محمد (الحمار)

وفي سنة سبع وعشرين ومائة قبل مَرْوَانَ بنَ مُحَمَّدَ بنَ مَرْوَانَ من الجزيرة فدخل دمشق، وخرج إبراهيم بن الوليد هارباً من دمشق، ثم ظفر به مروان فقتله وصلبه، وقتل من ماله ووالاه، وقتل عبد العزيز بن الحجاج، ويُزيد بن خالد القسري، وبدأ أمربني أمية يُؤول إلى ضعف.

وذكر البصبي عن الخليل بن إبراهيم السبيعي، قال: سمعت ابن الجمح يقول: قال لي العلاء ابن بنت ذي الكلاع: إنه كان مؤنساً لسليمان بن عبد الملك لا يكاد يفارقه، وكان أمراً للمستودة بخراسان والمشرق قد بان، ودنا من الجبل، وقرب من العراق، واشتد إزاجاف الناس، ونطق العدو بما أحب فيبني أمية وأولياتهم، قال العلاء: فإني لَمَعَ سليمان وهو يشرب حذاء رصافة أبيه، وذلك في آخر أيام يزيد الناقص، وعنده حَكْمَ الوادي، وهو يُعنِيه بـ*شعر العزجي*:

إِنَّ الْحَبِيبَ تَرَوَحْتُ أَحْمَالُهُ أَصْلَاً؛ فَدَمَعَكَ دَائِمٌ إِسْبَالُهُ
أَقْنَى الْحَيَاءَ فَقَدْ بَكَيْتَ بِعَوْلَةٍ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ بَاكِيًّا إِغْوَالُهُ
يَا حَبَّذا تَلَكَ الْحَمْوَلُ، وَحَبَّذا شَخْصُ هُنَاكُ، وَحَبَّذا أَمْثَالُهُ

فأجاد بما شاء، فشرب سليمان بالرطل، وشربنا معه، حتى توسلنا أيدينا، فلم أنبه إلا بتحريك سليمان إياي، فقمت إليه مسرعاً، قلت [له]: ما شأن الأمير؟ فقال

لي: على رِسْلِكَ، رأيت كأنني في مسجد دمشق، وكأن رجلاً في يده خنجر وعليه تاج أرى بصيص ما فيه من جوهر، وهو رافع صوته بهذه الأبيات:

أَبْنَى أُمَّيَّةَ قَدْ دَنَا تَشْتِيتُكُمْ وَذَهَابُ مُلْكِكُمْ
وَيَنْالُ صَفْوَتُهُ عَدُوُّ ظَالِمٍ لِلمُحْسِنِينَ إِلَيْهِ ثَمَةٌ يَفْجَعُ
بَعْدَ الْمُمَاتِ بِكُلِّ ذَكْرٍ صَالِحٍ يَا وَيْلَهُ مَنْ قُبْحٌ مَا قَدْ يَصْنَعُ

فقلت: بل لا يكون ذلك، وعجبت من حفظه، ولم يكن من أصحاب ذلك، فوجم ساعة ثم قال: يا حميري، بعيد ما يأتي به الزمان قريب، قال: فما اجتمعنا على شراب بعد ذلك.

ودخلت سنة اثنين وثلاثين ومائة، وكان من أمر المُسَوْدَةِ ومروان بن محمد الجعدي ما كان.

سبب زوال ملك الأمويين

وذكر المنقري قال: سئل بعض شيوخ بني أمية ومُحَاصِلِيهَا عَقِيبَ زَوَالِ الْمُلْكِ عَنْهُمْ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ: مَا كَانَ سَبِيلُ زَوَالِ مُلْكِكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّا سُعِلْنَا بِلَذَّاتِنَا عَنْ تَقْدِيرِ مَا كَانَ تَقْدِيرُهُ يَلْزَمُنَا، ظَلَمْنَا رِعْيَتَنَا؛ فَيَسُوا مِنْ إِنْصَافِنَا، وَتَمْنَوْا الرَّاحَةَ مِنْنَا، وَتَحْوِلُّ عَلَى أَهْلِ خَرَاجِنَا؛ فَتَخَلَّوْا عَنْنَا، وَخَرَبَتْ ضِيَاعُنَا، فَخَلَّتْ بَيْوتُ أَمْوَالِنَا، وَوَثَقَنَا بِوزْرَائِنَا، فَأَثْرَوْا مَرَاقِفَهُمْ عَلَى مَنَافِعِنَا، وَأَمْضَوْا أُمُورًا دُونَنَا أَخْفَقُوهُمْ عَلَمَهُمْ عَنْنَا، وَتَأْخَرَ عَطَاءَ جَنْدِنَا، فَزَالَ طَاعُوتُهُمْ لَنَا، وَاسْتَدِعَاهُمْ أَعْدَادِنَا، فَنَظَافُرُوا مَعْهُمْ عَلَى حَرِبِنَا، وَطَلَبُنَا أَعْدَادُهُمْ فَعَجزَنَا عَنْهُمْ لِقْلَةِ أَنْصَارِنَا، وَكَانَ اسْتَارُ الْأَخْبَارِ عَنْنَا مِنْ أَوْكَدِ أَسْبَابِ زَوَالِ مُلْكِنَا.

ذكر السبب في العصبية بين النزارية واليمانية

الكميت يعرض شعره على الفرزدق

ذكر أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، قال: حدثني أبي قال: لما قال الكميـت بن زيد الأـسدي - من أـسد مـصر بن نـزار - الـهاشـمـيـات قـدـم الـبـصـرـة ؟ فـأـتـى الفـرـزـدـق فـقـالـ: يا أـبا فـراـسـ ، أـنا أـبـنـ أـخـيـكـ ، قـالـ: وـمـنـ أـنـتـ ؟ فـأـنـتـسـبـ لـهـ . فـقـالـ: صـدـقـتـ فـمـا حـاجـتـكـ ؟ قـالـ: نـفـقـتـ عـلـى لـسـانـيـ ، وـأـنـتـ شـيـخـ مـضـرـ وـشـاعـرـهـ ، وـأـحـبـتـ أـنـ أـعـرـضـ عـلـيـكـ مـا قـلـتـ ، فـإـنـ كـانـ حـسـنـاـ أـمـرـتـيـ بـإـذـاعـتـهـ ، وـإـنـ كـانـ غـيرـ ذـلـكـ أـمـرـتـيـ بـسـتـرـهـ وـسـتـرـتـهـ عـلـيـ ، فـقـالـ: يا أـبـنـ أـخـيـ ، أـحـسـبـ شـعـرـكـ عـلـى قـدـرـ عـقـلـكـ ، فـهـاتـ مـا قـلـتـ رـاشـدـاـ ، فـأـنـشـدـهـ :

طـرـيـنـتـ وـمـا شـوـقـاـ إـلـى الـبـيـصـ أـطـرـبـ وـلـا لـعـبـاـ مـنـيـ ، وـدـوـ الشـيـبـ يـلـعـبـ

قـالـ: بـلـى فـأـلـعـبـ ، فـقـالـ:

وـلـمـ يـلـهـنـيـ دـارـ ، وـلـا رـسـمـ مـئـرـلـ وـلـمـ يـشـطـرـبـنـيـ بـتـانـ مـخـضـبـ

قـالـ: فـمـا يـطـرـبـكـ إـذـاـ ؟ قـالـ:

وـمـا أـنـاـ مـمـنـ يـزـجـرـ الطـيـرـ هـمـهـ أـصـاحـ عـرـابـ أـوـ تـعـرـضـ ثـلـبـ

قـالـ: فـمـا أـنـتـ وـيـحـكـ ؟ وـإـلـى مـنـ تـشـمـوـ ؟ فـقـالـ:

وـمـا السـانـحـاتـ الـبـارـحـاتـ عـشـيـةـ أـمـرـ سـلـيـمـ الـقـرـنـ أـمـ مـرـ أـغـضـبـ

قـالـ: أـمـا هـذـا فـقـدـ أـحـسـنـتـ فـيهـ ، فـقـالـ:

وـلـكـنـ إـلـى أـهـلـ الـفـضـائـلـ وـالـثـئـىـ وـخـيـرـ بـنـيـ حـوـاءـ ، وـخـيـرـ يـطـلـبـ

قـالـ: وـمـنـ هـمـ وـيـحـكـ ؟ قـالـ:

إـلـى التـئـرـ الـبـيـصـ الـذـيـنـ بـحـبـهـ إـلـى اللـهـ فـيـمـا نـابـنـيـ أـتـقـرـبـ

قال: أرْخِنِي وَنِحَكُ! مَنْ هُؤْلَاءِ؟ قال:

بني هاشم رَهْطِ النَّبِيِّ؛ فإنِّي بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضَى مِرَارًا وأَغْضَبْ
قال: اللَّهُ دَرُوكَ يَا بُنَيَّ، أَصْبَتْ فَأَحْسَنْتْ، إِذْ عَدْلَتْ عَنِ الْزَّعْانِفِ وَالْأَوْبَاشِ، إِذَا لَا
يُصَرَّدْ سَهْمَكَ، وَلَا يُكَذَّبْ قَوْلَكَ، ثُمَّ مَرَّ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ: أَظْهَرْ ثُمَّ كَدِ الأَعْدَاءِ،
فَأَنْتَ وَاللهِ أَشْعَرْ مَنْ مَضَى وَأَشْعَرْ مَنْ بَقَيَ.

الكميت يعرض شعره على أبي جعفر محمد بن علي

فحيثَنِدْ قَدَمَ الْمَدِينَةِ؛ فَأَتَى أَبَا جَعْفَرَ مُحَمَّدَ بْنَ عَلَى [بْنَ الْحَسِينِ بْنِ عَلَى] رَضِيَ
اللهُ عَنْهُمْ، فَأَذْنَ لَهُ لِيَلًا وَأَنْشَدَهُ، فَلَمَّا بَلَغْ مِنَ الْمِيمِيَّةِ قَوْلَهُ:

وَقَتِيلٌ بِالْطَّفْلِ غُوْدَرٌ مِنْهُمْ بَيْنَ غَوَّاءِ أُمَّةٍ وَطَغَامِ
بَكَى أَبُو جَعْفَرٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا كَمِيتَ، لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مَالٌ لَأُعْطِيَنَاكَ، وَلَكِنْ لَكَ مَا قَالَ
رَسُولُ اللهِ ﷺ لَهُسَانَ بْنَ ثَابَتَ: لَا زَلْتَ مُؤْيِداً بِرُوحِ الْقَدْسِ مَا ذَبَيْتَ عَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ،
فَخَرَجَ مِنْ عَنْدِهِ.

ثم يعرضه على عبد الله بن الحسن

فَأَتَى عَبْدَ اللهِ بْنَ الْحَسِينِ بْنَ عَلَى، فَأَنْشَدَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْمُسْتَهْلِ، إِنَّ لِي
ضِيَعَةً [قَدْ] أُعْطِيَتْ فِيهَا أَرْبِيعَةَ آلَافَ دِينَارٍ، وَهَذَا كَتَابُهَا، وَقَدْ أَشْهَدْتُ لَكَ بِذَلِكَ شَهْوَدًا،
وَنَاوَلَهُ إِيَاهُ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأَمِي، إِنِّي كُنْتُ أَقُولُ الشِّعْرَ فِي غَيْرِكُمْ أَرِيدُ بِذَلِكَ الدِّينَيَا
وَالْمَالَ، لَا وَاللهِ مَا قَلْتُ فِيكُمْ [شَيْئًا] إِلَّا لَهُ، وَمَا كُنْتُ لَآخُذَ عَلَى شَيْءٍ جَعَلَنِهِ اللَّهُ مَالًا وَلَا
ثُمنًا؛ فَأَلْحَ عَبْدُ اللهِ عَلَيْهِ، وَأَبِي مِنْ إِعْفَائِهِ؛ فَأَخْذَ الْكَمِيتَ الْكِتَابَ وَمَضِيَ؛ فَمَكَثَ أَيَّامًا،
ثُمَّ جَاءَ إِلَى عَبْدِ اللهِ فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأَمِي يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ إِنَّ لِي حَاجَةً، قَالَ: وَمَا هِيَ؟
وَكُلَّ حَاجَةٍ لَكَ مَقْضِيَّةً، قَالَ: كَائِنَةً مَا كَانَتْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَذَا الْكِتَابُ تَقْبِلُهُ وَتَرْتَجِعُ
الضِيَعَةَ، وَوْضُعُ الْكِتَابِ بَيْنَ يَدِيهِ؛ فَقَبَّلَهُ عَبْدُ اللهِ.

عبد الله بن جعفر الكمي

ونهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب؛ فأخذ ثوباً يثيب
جلداً فدفعه إلى أربعة من غلمانه، ثم جعل يدخل دوربني هاشم، ويقول: يا بني هاشم،
هذا الكمي قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم، وعَرَضَ دَمَهُ لَبْنِي أُمية،

فأثيبوه بما قدرتم، فيطرح الرجل في الثوب ما قدر عليه من دنانير ودراجم، وأعلم النساء بذلك، فكانت المرأة تبعث ما أمكنها، حتى إنها لتخلع الحلي عن جسدها، فاجتمع من الدنانير والدراجم ما قيمته مائة ألف درهم، فجاء بها إلى الكميّت، فقال: يا أبا المستهل، أتيتك بجهد المُقْلِلِ، ونحن في دولة عدونا، وقد جمعنا [لك] هذا المال وفيه حلي النساء كما ترى، فاستعن به على دهرك، فقال: بأبي أنت وأمي، قد أكثرتم وأطريقتم، وما أردت بمدحِي إياكم إلا الله ورسوله، ولم ألك لأخذ لذلك ثمناً من الدنيا، فاردده إلى أهله، فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة، فأبى، فقال: إن أبىت أن تقبل فإني رأيت أن تقول شيئاً تغضب ما بين الناس، لعل فتنَةً تحدث فيخرج من بين أصحابها بعض ما تحب.

أول اثارة العصبية

فابتداً الكميّت وقال قصيده التي يذكر فيها مناقب قومه من مصر بن نزار بن مَعَدْ وربيعة بن نزار وإياد وأنمار أبني نزار، ويكثر فيها من تفضيلهم، وينطبق في وصفهم، وأنهم أفضل من قحطان؛ فغضب بها بين اليمانية والتزارية [فيما ذكرناه] وهي قصيده التي أولها:

الَا حَيَّتِ عَنِّا يَا مَدِينَا وَهَلْ تَاسْ نَقُولُ مُسَلِّمِينَا
إِلَى أَنْ اتَّهَى إِلَى قَوْلِهِ تَصْرِيحاً وَتَعْرِيضاً بِالْيَمِنِ فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْجَبَشَةِ وَغَيْرِهِمْ
فِيهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ :

لَنَا قَمَرُ السَّمَاءِ وَكُلُّ نَجْمٍ تُشِيرُ إِلَيْهِ أَيْدِي الْمُهَمَّدِينَا
وَجَدَنْتُ اللَّهَ إِذْ سَمَّى نَزَاراً
وَاسْكَنَهُمْ بِمَكَةَ قَاطِنِينَا
لَنَا جَعَلَ الْمَكَارِمَ خَالِصَاتِ
وَلِلنَّاسِ الْقُفَّا وَلَنَا الْجَبِينَا
وَمَا ضَرَبَتْ هَجَائِنَ مِنْ نَزَارٍ
فَوَالْحَاجَةُ مِنْ فُحُولِ الْأَعْجَمِينَا
وَمَا حَمَلُوا الْحَمِيرَ عَلَى عِتَاقٍ
مُطَهَّرَةً فَيَلْفُوا مُبْلِغِينَا
وَمَا وَجَدَتْ نِسَاءُ بَنِي نَزَارٍ حَلَائِلَ أَشْوَدِينَ وَأَخْمَرِينَا

دغبل الخزاعي يرد على الكميّت

وقد نقض دغبل بن علي الخزاعي هذه القصيدة على الكميّت وغيرها، وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها وغيرها، وصرّح وعَرَضَ بغيرهم، كما فعل الكميّت، وذلك في قصيده التي أولها:

أَفِيقَيْ منْ مَلَامِكِ يَا مَعِينَنَا كَفَاكَ اللَّؤْمَ مَرُّ الْأَرَعِينَا

أَلْمَ تَحْرِزُنِكِ أَخْدَاثُ الْلَّيَالِي
 أَحَيِّي الْفَرَّ مِنْ سَرَوَاتِ قَوْمِي
 فَإِنْ يَكُ آلْ إِسْرَائِيلْ مِنْكُمْ
 فَلَا تَئْسِنَ الْخَنَازِيرُ الْلَّوَاتِي
 بِأَيْلَةٍ وَالْخَلِيجٍ لَهُمْ رُسُومٌ
 وَمَا طَلَبَ الْكَمِيتُ طَلَابٌ وَتُرِ
 لَقْدَ عَلِمْتَ نِزَارٌ أَنْ قَوْمِي

يُشَيِّبُنَ الدَّوَائِبَ وَالْفَرُونَا
 لَقْدَ حُيِّتَ عَنَا يَا مَدِينَا
 وَكُنْثُمْ بِالْأَعْاجِمِ فَأَخْرِيَنَا
 مُسْخَنَ مَعَ الْفَرُودِ الْخَاسِيَنَا
 وَأَثَارَ قَدْمَنَ وَمَا مُحِينَا
 وَلَكَنَّا لِنَصْرَتِنَا هُجِينَا
 إِلَى نَضْرِ النَّبُوَةِ فَأَخْرِيَنَا

كانت العصبية من دواعي زوال ملك بنى أمية

وهي طويلة. ونمى قول الكمي في النزارية واليمانية، وافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار، وأذلى كل فريق بما له من المناقب، وتحزبت الناس، وثارت العصبية في البدو والحضر؛ ففتح بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي، وتعصبه لقومه من نزار على اليمن، وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بنى أمية ثم إلى بنى ها، ثم ما تلا ذلك من قصة معن بن زائدة باليمن، وقتلهم أهلها تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، وقطعه الحلف الذي كان بين اليمن وربيعة في القيدم، وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين، وقتلهم عبد القيس وغيرهم من ربيعة [وسائر نزار من بأرض البحرين وعمان] كياداً لمعن، وتعصباً من عقبة بن سالم لقومه من قحطان، وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان.

ذكر أيام مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم، وهو الجعدي

موجز

[و] بُويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة حَلَّتْ من صفر سنة سبع وعشرين ومائة، وقيل: إنما دعا إلى نفسه بمدينة حَرَّان من ديار مُضْرِب، وبُويع لها بها، وأمه أم ولد يقال لها رَبِّا، وقيل: طرونة، كانت لمصعب بن الزبير، فصارت بعد مقتله لمحمد بن مروان أبيه، وكان مروان يكنى أبا عبد الملك، واجتمع أهل الشام على بيته، إلا سليمان بن هشام بن عبد الملك وغيره من بنى أمية؛ فكانت أيامه منذ بُويع بمدينة دمشق من أرض الشام إلى مقتله خمس سنين وعشرة أيام، وقيل: خمس سنين وثلاثة أشهر، وكان مقتله في أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، ومنهم مَنْ رأى أن ذلك كان في المحرم، ومنهم مَنْ رأى أن ذلك كان في صفر، وقيل غير ذلك مما تنازع فيه أهل التواريХ والسير على حسب تنازعهم في مقدار ملكه: فمنهم من ذهب إلى أن مُدَّته خمس سنين وثلاثة أشهر، ومنهم من قال: خمساً وشهرين وعشرة أيام، ومنهم من قال: خمساً وعشرة أيام، وكان مقتله ببوصیر قرية من قرى الفيوم بصعيد مصر، وقد توزع في مقدار ستة كتنازعهم في مقدار ملكه؛ فمنهم من زعم أنه قُتل وهو ابن سبعين سنة، ومنهم من قال: ابن تسع وستين، [ومنهم من قال: اثنتين وستين]، ومنهم من قال: ثمان وخمسين، وإنما نذكر هذا الخلاف من قولهم لثلا يظن ظانُّاً [قد] أغفلنا ما ذكروه أو تركنا شيئاً مما وصفوه، مما إليه قصدنا في كتابنا هذا، وإن كنا قد أتينا على مبسوط ما قيل في ذلك، في] كتابينا أخبار الزمان والأوسط. وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب جُملًا من كيفية مقتله وأخباره، وجوابع من سيره وحروبه، وما كان من أمر الدولتين في ذلك من الماضية - وهي الأموية - والمستقبلة في ذلك الزمان - وهي العباسية - مع إفادتنا باباً نذكر فيه جوابع تاريخ ملك الأمويين، وهو الباب المترجم بذلك [مقدار] المدة من الزمان، وما ملكت [فيه] بنو أمية من الأعوام، ثم نعقب ذلك

بلغ من أخبار الدولة العباسية وأخبار أبي مُسلم، وخلافة أبي العباس السفاح ومن تلا عصره من خلفاء بني العباس، إلى سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة من خلافة أبي إسحاق المتقي الله إبراهيم بن المقذر بالله، إن شاء الله تعالى، والله ولي التوفيق.

ذكر مقدار المدة من الزمان وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام

المدة إجمالاً

كان جميع مُلُك بني أمية إلى أن بُويع أبو العباس السفاح ألف شهر كاملة لا تزيد ولا تنقص؛ لأنهم ملكوا تسعين سنة، وأحد عشر شهراً، وثلاثة عشر يوماً.

تفصيل المدة

قال المسعودي: والناس متباينون في تواریخ أيامهم، والمعول على ما نورده، وهو الصحيح عند أهل البحث ومنْ غَنِي بأخبار هذا العالم، وهو أن معاوية بن أبي سفيان ملكَ عشرين سنة، ويزيد بن معاوية ثلاثة سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً، ومعاوية بن يزيد شهراً وأحد عشر يوماً، ومروان بن الحكم ثمانية أشهر وخمسة أيام، وعبد الملك بن مروان إحدى وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً، والوليد بن عبد الملك تسع سنين وثمانية أشهر و يومين، وسليمان بن عبد الملك ستين وستة أشهر وخمسة عشر يوماً، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ستين وخمسة أشهر وخمسة أيام، ويزيد بن عبد الملك أربع سنين وثلاثة عشر يوماً، وهشام بن عبد الملك تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام، والوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة وثلاثة أشهر، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك شهرين وعشرة أيام، وأسقطنا أيام إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك كإسقاطنا أيام إبراهيم بن المهدى أن يُعد في الخلفاء العباسيين، ومروان بن محمد بن مروان خمس سنين وشهران وعشرة أيام، إلى أن بُويع السفاح، فتكون الجملة تسعين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، يضاف إلى ذلك الثمانية أشهر التي كان مروان يقاتل فيها بني العباس إلى أن قتل، فيصير ملكُهم إحدى وتسعين سنة وسبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً.

يُوضع من ذلك أيام الحسن بن علي - وهي خمسة أشهر وعشرة أيام - وتوضع

أيام عبد الله بن الزبير إلى الوقت الذي قتل فيه - وهي سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيام - فيصير الباقى بعد ذلك ثلاثة وثمانين سنة وأربعة أشهر، يكون ذلك ألف شهر سواء.

وقد ذكر قوم أن تأويل قوله عز وجل: «لِئَلَّا أَقْدَرْتُكُمْ مَا لَيْلَةً أَقْدَرْ» [القدر: ٢-١] ما ذكرناه من أيامهم.

وقد روی عن ابن عباس أنه قال: والله ليملکن بنو العباس ضعف ما ملكته بنو أمية: باليوم يومين، وبالشهر شهرين، وبالسنة سنتين، وبال الخليفة خلifixten.

مدة ملك بنى العباس

قال المسعودي: فملك بنو العباس في سنة اثنين وثلاثين ومائة، وانقضى مُلك بنى أمية؛ فليئن العباس من وقت ملكهم إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - مائتا سنة، وذلك أن أبا العباس السفاح بويع له بالخلافة في ربيع الآخر من سنة اثنين وثلاثين ومائة، وانتهينا من تصنيفنا من هذا الكتاب إلى هذا الموضع في شهر ربيع الأول من سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة في خلافة أبي إسحاق المتقى لله، والله أعلم بما يكون من أمرهم فيما يأتي به الزمان المستقبل بعد هذا الوقت من الأيام.

وقد أتينا بحمد الله فيما سلف من كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط على الغرر من أخبارهم، والتواتر من أسمائهم، والطرائف مما كان في أيامهم وعهودهم، ووصاياتهم، ومكاتباتهم، وأخبار الحوادث والخوارج في أيامهم من الأزارقة والأباضية وغيرهم، ومن ظهر من الطالبين طالباً بحق أو آمراً معروفاً أو ناهياً عن منكر، فقتل في أيامهم، وكذلك من تلاهم من بنى العباس إلى خلافة المتقى لله من ستة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - وما ذكرنا في هذا الباب من جوامع التاريخ قد يخالف ما تقدم بنسطه باليوم أو العشرة أو الشهر عند ذكرنا للدولة كل واحد منهم وأيامه، وهذا هو المُعَوَّل عليه من تاريخهم وسنتيهم، والمفصل من مدتهم، والله أعلم، ومنه التوفيق.

ذكر الدولة العباسية

ولمع من أخبار مروان، ومقتله
وچوامع من حربه، وسيره

قول الروندية في الخلافة

قد قدمنا في الكتاب الأوسط ما ذكرته الروندية - وهم شيعة ولد العباس بن عبد المطلب، من أهل خراسان وغيرهم - [من] أن رسول الله ﷺ قضى، وأن أحقر الناس بالإمامية بعده العباس بن عبد المطلب؛ لأنَّه عَمُّه ووارثه وعصبَيْه، لقول الله عز وجل: «وَأُولُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِعَصْبَنِ فِي كِتَابِ اللَّهِ» [الأفال: ٧٥] وأن الناس اغتصبوه حقه، وظلموه أمره، إلى أن رَدَّهُ اللهُ إِلَيْهِمْ، وتبرأوا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهمما، وأجازوا بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بإجازته لها، وذلك لقوله: يا ابن أخي، هَلْمَ إِلَى [أن] أبايعك فلا يختلف عليك اثنان، ولقول داود بن علي على منبر الكوفة يوم بُويع لأبي العباس: يا أهل الكوفة، لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله ﷺ إِلَّا علي بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم - يعني أبا العباس السفاح - .

من حوار فاطمة الزهراء وأبي بكر الصديق

وقد صنف هؤلاء كتاباً في هذا المعنى الذي أدعوه هي متداولة في أي أهلها ومتسلجليها، منها كتاب صنفه عمرو بن بحر الجاحظ، وهو المترجم بكتاب «إمامية ولد العباس» يتحجج فيه لهذا المذهب، وينذر فعل أبي بكر في فدكه وغيرها وقصته مع فاطمة رضي الله عنها، وطالبتها بإرثها من أبيها ﷺ، واستشهادها ببعلاها وابنيها وأم أيمن، وما جرى بينها وبين أبي بكر من المخاطبة، وما كثر بينهم من المنازعات، وما قالت، وما قيل لها عن أبيها ﷺ، من أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء نرث ولا نورث» وما احتججت به من قوله عز وجل: «وَرَثَ سُلَيْمَانُ دَاؤِدَ» [النمل: ١٦] على أن النبوة لا تورث، فلم يق، إلا التوارث، وغير ذلك من الخطاب، ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب، ولا استقصى فيه الحجاج للروندية، وهم شيعة ولد العباس، لأنَّه لم يكن مذهبها، ولا كان يعتقد، ولكن فعل ذلك تماجناً وتطرباً.

العثمانية للجاحظ

وقد صنف [أيضاً] كتاباً استقصى فيه الحجاجَ عند نفسه، وأيَّدَهُ بالبراهين وَعَصَدَهُ بالأدلة فيما تصوره من عقله، وترجمه بكتاب العثمانية، يحل فيه عند نفسه فضائل علي عليه السلام ومناقبه، ويحتج فيه لغيره، طلباً لإمامَة الحق، ومضادة لأهله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

كتب أخرى للجاحظ

ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حق أعقبه بتصنيف كتاب آخر في إمامَة المروانية وأقوال شيعتهم، ورأيته مترجمًا بكتاب [إمامَة] أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، في الانتصار له من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وشيعته الرافضة، يذكر فيه رجال المروانية، ويرؤيد فيه إمامَةبني أمية وغيرهم.

ثم صنف كتاباً آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية، يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه، من فضائل أمير المؤمنين علي ومناقبه فيما ذكرنا.

نقض الشيعة لكتب الجاحظ

وقد نقضت عليه ما ذكرنا من كتبه ككتاب العثمانية وغيره، وقد نقضها جماعة من متكلمي الشيعة: كأبي عيسى الوراق، والحسن بن موسى التخعي، وغيرهما من الشيعة من ذكر ذلك في كتبه في الإمامة مجتمعاً ومفترقاً.

والمعتزلة تنقض العثمانية

وقد نقض على الجاحظ كتاب العثمانية أيضاً رجل من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم، وأهل الزهد والديانة منهم، من يذهب إلى تفضيل علي والقول بإمامَة المفضول - وهو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسکافي - وكانت وفاته سنة أربعين ومائتين، وفيها مات أحمد بن حنبل، وسنذكر وفاة الجاحظ فيما يرد من هذا الكتاب، ووفاة غير من المعتزلة، وإن كنا قد أتينا على ذلك فيما سلف من كتابنا.

رأي الجريانية في الإمامة

والذي ذهب إليه من تأخر من الرواية وانتقل وتحير عن جملة الكنسائية القائلة بإمامَة محمد ابن الحنفية - وهم الجريانية أصحاب أبي مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية، وكان يلقب بجريان - أن محمد بن الحنفية هو الإمام بعد

علي بن أبي طالب، وأن محمداً أوصى إلى ابنه أبي هاشم، وأن أبو هاشم أوصى إلى علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأن علي بن عبد الله أوصى إلى ابنه محمد بن علي، وأن محمداً أوصى إلى ابنه إبراهيم الإمام المقتول بحران، وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبي العباس بن عبد الله بن الحارثة [المقتول].

أصل أبي مسلم الخراساني

وقد تنوّز في أمر أبي مسلم: فمن الناس من رأى أنه كان من العرب، ومنهم من رأى أنه كان عبداً فأعتقد، وكان من أهل البرس والجامعين من قرية يقال لها خرتينية وإليها تضاف الشياطين المعروفة بالخرطينية، وتلك من أعمال الكوفة وسواندتها، وكان قهراً ماناً لإدريس بن إبراهيم العجلي، ثم آل أمره ونمته به الأقدار إلى أن اتصل بمحمد بن علي، ثم بإبراهيم بن محمد الإمام، فأنفقه إبراهيم إلى خراسان، وأمر أهل الدعوة بإطاعته والانقياد إلى أمره ورأيه، فقوى أمره وظهر سلطانه، وأظهر السواد، وصار زينة في اللباس والأعلام والبنود، وكان أول من سوّد من أهل خراسان بنيسابور وأظهر ذلك فيهم أسيد بن عبد الله، ثم نمى ذلك في الأكثر من المدن والكُور بخراسان، وقوى أمر أبي مسلم، وضعف أمر نصر بن سيّار صاحب مروان بن محمد الجعدي على بلاد خراسان وكانت له مع أبي مسلم حروب أكثر فيها أبو مسلم الجيل والمكاييد من تفريقة بين اليمانية والتزارية بخراسان وغير ذلك مما احتال به على عدوه، وقد كان نصر بن سيّار حروب كثيرة مع الكرماني إلى أن قتل، أتيتنا على ذكرها في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وذكرنا بهذه أخبار الكرماني جديع بن علي، وما كان بينه وبين سلم بن أخوزَ صاحب نصر بن سيّار، وما كان من أمر خالد بن بزمك، وخطبة بن شبيب، وغيرهما من الدعاة والمقيمين بخراسان للدعوة العباسية: كسليمان بن كثير، وأبي داود خالد بن إبراهيم، ونظرائهم، وما كان من شعارهم عند إظهار الدعوة، ونداهم حين الحروب: محمد يا منصور، والسبب الذي له ومن أجله أظهروا استعمال السواد دون سائر الألوان.

بين نصر بن سيّار ومروان بن محمد الجعدي

وطالت مكاتبة نصر بن سيّار مروان، وإعلامه بما هو فيه، وإظهار أمر العباسية، وتزايده في كل وقت؛ فكان فيما كتب [به] إليه إعلامه بحال أبي مسلم وحال من معه، وأنه كشف عن أمره وبحث عن حاله، فوجده يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وضمن كتابه أبياتاً من الشعر، وهي:

أرى بين الرَّمَادِ وميض جَمرٍ
فِيَانِ النَّارِ بِالْعُودِينِ ثُدُكَى
فِيَانِ لَمْ تَطْفُئْهَا تَجْنِ حَرِبًا
أَقُولُ مِنْ التَّعْجِبِ: لَيْتَ شِعْرِي
فِيَانِ يَكُ قَوْمًا أَصْحَوْا نِيَامًا
فَفَرِي عَنْ رَحْالِكَ، ثُمَّ قَوْلِي: عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ السَّلَامِ

فَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابَ عَلَى مَرْوَانَ وَجَدَهُ مُشْتَغِلًا بِحَرْبِ الْخَوَارِجِ بِالْجَزِيرَةِ وَغَيْرِهَا،
وَمَا كَانَ مِنْ خَبْرِهِ فِي حَرْبِهِ مَعَ الصَّحَّاكَ بْنَ قَيسِ الْحَرُورِيِّ حَتَّى قُتِلَ مَرْوَانُ بَعْدَ وَقَاعِدٍ
كَثِيرًا بَيْنَ كَفْرِ تُوشِى وَرَأْسِ الْعَيْنِ، وَكَانَ الصَّحَّاكَ خَرَجَ مِنْ بَلَادِ شَهْرُزُورِ، وَنَصَبَتِ
الْخَوَارِجُ بَعْدَ قَتْلِ الصَّحَّاكَ عَلَيْهَا الْحَرِيِّ [الشَّيْبَانِيِّ] فَلَمَّا قُتِلَ الْحَرِيِّ وَلَّتِ الْخَوَارِجُ عَلَيْهَا
أَبَا الدَّلْفَاءِ شَيْبَانَ الشَّيْبَانِيِّ، وَمَا كَانَ مِنْ حَرْبِ مَرْوَانَ مَعَ نَعِيمَ بْنَ ثَابَتِ الْجَذَامِيِّ، وَكَانَ
خَرَجَ عَلَيْهِ بِبَلَادِ طَبْرِيَّ وَالْأَرْدَنَ مِنْ بَلَادِ الشَّامِ حَتَّى قُتِلَ مَرْوَانُ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانِيَّةِ
وَعَشْرِينَ وَمَائَةِ، فَلَمْ يَدْرِ مَرْوَانُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي أَمْرِ نَصَرِ بْنِ سَيَارٍ وَخَرَاسَانَ وَإِنْجَازَهِ لِمَا
هُوَ فِيهِ مِنْ الْجَرُوبَ وَالْفَتْنَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَرْوَانُ مُجِيبًا عَنْ كِتَابِهِ: إِنَّ الشَّاهِدَ يَرَى مَا لَا يَرَاهُ
الْغَائِبُ فَاحْسَمِ الْثَّوْلَوْلَ قَبْلَكَ، فَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابَ عَلَى نَصَرِ قَالَ لِخَوَاصِ أَصْحَابِهِ: أَمَّا
صَاحِبُكُمْ فَقَدْ أَعْلَمُكُمْ أَنْ لَا تَنْضَرَ عَنْهُ.

بعض خلل وأعمال مروان بن محمد الجعدي

وَأَقامَ مَرْوَانَ أَكْثَرَ أَيَامِهِ لَا يَدْنُو مِنِ النَّسَاءِ إِلَى أَنْ قُتِلَ، وَبِرَزَتْ لَهُ جَارِيَةٌ مِنْ
جَوَارِيِّهِ، فَقَالَ لَهَا وَاللَّهِ لَا دُنُوتْ مِنْكَ، وَلَا حَلَّتْ لَكَ عَقْدَةٌ وَخَرَاسَانٌ تَرْجُفُ وَتَتَضَرِّمُ
بِنَصَرِ بْنِ سَيَارٍ، وَأَبُو مَجْرُومٍ قَدْ أَخْذَهُ مِنْهُ بِالْمُخْتَنِقِ.

وَكَانَ مَعَ مَا هُوَ فِيهِ يُدِيمُ قِرَاءَةَ سِيرِ الْمُلُوكِ، وَأَخْبَارَهَا فِي حَرْبِهِ، مِنِ الْفَرَسِ
وَغَيْرِهَا مِنْ مُلُوكِ الْأَمَمِ.

وَعَدَلَهُ بَعْضُ أُولَائِهِ مِنْ كَانَ يَأْسِ إِلَيْهِ فِي تَرْكِ النَّسَاءِ وَالْطَّيْبِ وَغَيْرِ ذَلِكِ مِنِ
اللَّذَّاتِ، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: يَمْنَعُنِي مِنْهُنَّ مَا مَنَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ الْمُلْكَ، فَقَالَ لَهُ
الرَّجُلُ: وَمَا ذَاكِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ حَمَلَ صَاحِبَ إِفْرِيقِيَّةٍ إِلَيْهِ جَارِيَةٌ ذَاتُ بَهَاءٍ وَكَمَالٍ،
تَامَةُ الْمَحَاسِنِ، شَهِيدَةُ لِلْمُتَأْمِلِ، فَلَمَّا وَقَفَتْ بَيْنَ يَدِيهِ تَأْمِلَ حَسَنَهَا وَبِيَدِهِ كِتَابٌ وَرَدَ مِنْ
الْحَجَاجِ وَهُوَ بَدَنِيرِ الْجَمَاجِ مُؤَاقِعًا لِابْنِ الْأَشْعَيْثِ، فَرَمَى بِالْكِتَابِ عَنْ يَدِهِ، وَقَالَ لَهَا:

أنت والله مُنية النفس ، فقالت الجارية : ما يمنعك يا أمير المؤمنين إذ كنت بهذا الوصف ،
قال : يمنعني والله منك بَيْتٌ قاله الأخطل :

قُومٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُمْ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَثُ بِأَطْهَارِ
الْأَنْذَلِ بِالْعِيشِ وَابْنُ الْأَشْعَثُ مُصَافٌ لِأَبِي مُحَمَّدٍ وَقَدْ هَلَكَ [فِيهِ] زُعمَاءُ الْعَرَبِ ?
لَا هَا اللَّهُ إِذَا ، ثُمَّ أَمْرَ بِصِيَانَتِهَا ، فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ الْأَشْعَثَ كَانَتْ أُولَى جَارِيَةً خَلَا بِهَا .

نصر يكتب لابن هبيرة يستنجد

ولما يئس نصر بن سَيَّارٍ من إنجاد مروان كتب إلى يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة الفَزَاري عامل مروان على العراق يستمدُه ، ويسأله التَّضْرِبة على عدوه ، وضمَّن كتابه أبياتاً من الشعر ، وهي :

أَبْلَغَ يَزِيدَ ، وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَضَدُّهُ
بِأَنَّ أَرْضَ خَرَاسَانَ رَأَيْتُ بِهَا
فِرَاغُ عَامِينِ إِلَّا أَنَّهَا كِبِيرَةٌ
فَإِنْ يَطْرُنَّ وَلَمْ يُخْتَلِنَ لَهُنَّ بِهَا
وَقَدْ تَبَيَّنَتْ أَنَّ لَا حَيْرَ فِي الْكَذِبِ
بِيَضَا لَوْ أَفْرَخَ قَدْ حُدِّثَ بِالْعَجَبِ
لَمَا يَطْرُنَّ وَقَدْ سُرِّيَلَنَّ بِالْزَّعْبِ
فِيَنْ يَطْرُنَّ وَلَمْ يُخْتَلِنَ نِيرَانَ حَرْبِ أَيْمَا لَهُبِ
فَلَمْ يَجِدْ يَزِيدَ بْنَ عَمْرٍ عَنْ كِتَابِهِ ، وَتَشَاغَلَ بِدُفْعِ فَتْنَ الْعَرَاقِ .

دُعَاءُ إِلَى طَالِبِ الْحَقِّ بِالْحِجَازِ

ودخلت خوارج اليمن مكة والمدينة وعليهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي وبليخ بن عقبة الأزدي ، وهما فيمن معهما يدعون إلى عبد الله بن يحيى الكندي ، وكان قد سمي نفسه بطالب الحق ، وحُوتَّب بأمير المؤمنين ، وكان أباً ضيًّا المذهب من رؤساء الخوارج ، وذلك في سنة تسع وعشرين ومائة .

مَرْوَانٌ يَجهَزُ لِحَرْبِ الْخَوَارِجِ

وفي سنة ثلاثين ومائة جَهَزَ مَرْوَانٌ بْنُ مُحَمَّدٍ جِيشاً مع عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي ، فلقي الخوارج بواادي القرى فقتلَ بليخ ، وفَرَّ أبو حمزة [في بقيتهم إلى مكة ، فلحقه عبد الملك ، فكانت بينهم وقعة قتل فيها أبو حمزة] وأكثر من كان معه من الخوارج ، وسار عبد الملك في جيش مروان من أهل الشام يريد اليمن ، وخرج عبد الله بن يحيى الكندي الخارجي من صنعاء ، فالتقوا بناحية الطائف وأرض جرش ، فكانت بينهم حرب عظيمة قتل فيها عبد الله بن يحيى وأكثر من كان معه من الأباضية ،

ولحق بقية الخوارج ببلاد حضرموت، فأكثرها أباضية إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - ولا فرق بينهم وبين من بعماً من الخوارج في هذا المذهب، وسار عبد الملك في جيش مروان فنزل صنعاء، وذلك في سنة ثلاثين ومائة، وقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك اتصل بالخوارج بالجزيرة خوفاً من مروان، واحتوى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على بلاد إضطخر وغيرها من أرض فارس، إلى أن رفع عنها وصار إلى خراسان، فقبض عليه أبو مسلم، وقد ذكرنا من يقول بإمامته، وينقاد إلى دعوته، في كتابنا «المقالات»، في أصول الديانات» في باب تفرق الشيعة ومذاهبهم.

موت نصر بن سيار

وقوى أمر أبي مسلم، وغلب على أكثر خراسان، وضعف [أمر] نصر بن سيار من عدم النجدة، فخرج عن خراسان حتى أتى الريء، وخرج عنها، فنزل ساوية بين بلاد همدان والريء، فمات بها كمداً.

و[قد] كان نصر بن سيار - لما صار بين الريء وخراسان - كتب كتاباً إلى مروان يذكر فيه خروجه عن خراسان، وأن هذا الأمر الذي أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد، وضمّن ذلك أبياتاً من الشعر، وهي:

إنا وما نَسْكَنْتُمْ مِنْ أَمْرِنَا كَالثُورِ إِذْ قَرْبَ لِلنَّاخْ
أَوْ كَالْتِي يَحْسَبُهَا أَهْلَهَا عَذْرَاءَ بَكْرًا وَهِيَ فِي التَّاسِعِ
كَنَّا ئَرْ فِيهَا فَقَدْ مُرْقَثٌ وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ
كَالثَّوْبِ إِذْ أَنْهَجَ فِيهِ الْبَلِي أَعْبَا عَلَى ذِي الْحِيلَةِ الصَّانِعِ

فلم يستمِ مروان قراءة هذا الكتاب حتى مثل أصحابه بين يديه ممن كان قد وكل بالطرق رسولًا من خراسان من أبي مسلم إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره فيه خبره، وما آلت إليه أمره، فلما تأمل مروان كتاب أبي مسلم قال للرسول: لا تُرْغَ، كم دفع لك صاحبك؟ قال: كذا وكذا، قال: فهذه عشرة آلاف درهم لك، وإنما دفع إليك شيئاً يسيراً، وانقضِ بهذا الكتاب إلى إبراهيم، ولا تعلمه بشيء مما جرى، وخذ جوابه فاثبني به، ففعل الرسول ذلك.

خديعة مروان للقبض على إبراهيم الإمام

فتتأمل مروان جواب إبراهيم إلى أبي مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهد والحيلة

على عدوه وغير ذلك من أمره ونفيه، فاحتبس مروان الرسول، وكتب إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكرار والحمينة ليأخذ إبراهيم بن محمد فيشهده وثاقاً، ويبعث به إلى في خيل كثيفة، فوجأه الوليد إلى عامل البلقاء فأخذ [إبراهيم] وهو جالس في مسجد القرية فأخذ وهو ملتفّ، وحمل إلى الوليد، فحمله إلى مروان فحبسه في السجن شهرین، وقد كان جرى بين إبراهيم ومروان خطب طويل حين مثَّلَ بين يديه، وأغلظ له إبراهيم، وأنكر كل ما ذكره له مروان من أمر أبي مسلم، فقال له مروان: يا منافق، أليس هذا كتابك إلى أبي مسلم جواباً عن كتابه إليك، وأخرج إليه الرسول، وقال: أتعرف هذا؟ فلما رأى ذلك إبراهيم أمسكَ، وعلم أنه أتى من مأمنه.

مقتل إبراهيم وجماعة معه

واشتَدَّ أمر أبي مسلم، وكان في الحبس مع إبراهيم جماعة من بني هاشم وبني أمية: فمن بني أمية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان، والعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان مروان قد خافهما على نفسه وخشي أن يخرجا عليه، ومن بني هاشم: عيسى بن علي، وعبد الله بن علي، وعيسى بن موسى؛ فذكر أبو عبيدة الشعبي - وكان معهم في الحبس - أنه هاجم عليهم في الحبس وذلك بحران جماعة من موالي مروان من العجم وغيرهم فدخلوا البيت الذي كان فيه إبراهيم والعباس وعبد الله، فأقاموا عندهم ساعة، ثم خرجوا وأغلق باب البيت، فلما أصبحنا دخلنا عليهم، فوجدناهم قد أتى عليهم، ومعهم غلامان صغيران من خدامهم كالموتى، فلما رأونا أنسوا بنا، فسألناهم الخبر، فقالا: أما العباس وعبد الله فجعل على وجههما مخاد وقعد فوقهما فاضطربا ثم بَرَداً، وأما إبراهيم فانهم جعلوا رأسه في جراب كان معهم فيه نورة مسحوبة، فاضطرب ساعة ثم خمد.

وكان في الكتاب الذي قرأه مروان من إبراهيم إلى أبي مسلم أبيات من الرجز بعد خطب طويل، منها:

دونك أمراً قد بدأث أشراطه إن السبيل واضح صراطه
لم يبق إلا السيف واختراطه

وقد ذكر في كيفية قتل إبراهيم الإمام من الوجه غير ما ذكرنا، وقد أتينا على جميع ما قيل في ذلك في الكتاب الأوسط، وكذلك ما كان من قخطبة ابن هيبة على الفرات، وغرق قخطبة فيه، ودخول ابن الحسن [بن قحطبة] الكوفة.

موقعه الزاب بين عبد الله بن علي ومروان

وسائل مروان حتى نزل على الزاب الصغير، وعقد عليه الجسر، وأتاه عبد الله بن علي في عساكر أهل خراسان وقوادهم، وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة اثنين وثلاثين ومائة، فالتقى مروان عبد الله بن علي، وقد كَرَذَسَ مروان خيله كراديس ألفاً وألفين، فكانت على مروان، فانهزم، وقتل وغرق من أصحابه خلق عظيم، فكان فيما غرق في الزاب من بني أمية ذلك اليوم ثلاثة أيام، دون من غرق من سائر الناس، وكان فيما غرق في الزاب في ذلك اليوم من بني أمية إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع، وهو أخو يزيد النافع، وقد قيل في رواية أخرى: إن مروان كان قد قُتل إبراهيم بن الوليد قبل هذا الوقت وصلبه، وكانت هزيمة مروان من الزاب في يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة اثنين وثلاثين ومائة.

أهل حران ومروان

ومضى مروان في هزيمته حتى أتى الموصل فمنعه أهله من الدخول إليها، وأظهروا السواد لما رأوه من تولية الأمر عنه، وأتى حران - وكانت داره، وكان مقامه بها - وقد كان أهل حران قاتلهم الله تعالى حين أزيل لعن أبي تراب - يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه - عن المنابر يوم الجمعة امتنعوا من إزالته، وقالوا: لا صلاة إلا بلعن أبي تراب، وأقاموا على [ذلك] سنة حتى كان من أمر المشرق وظهور المسودة ما كان، وامتنع مروان من ذلك لأنحراف الناس عنهم، وخرج مروان في أهله وسائر بني أمية عن حران، وعبر الفرات.

دخول عبد الله بن علي دمشق، وقتله كثيراً من بني أمية وشيعتهم

ونزل عبد الله بن علي على باب حران، فهدم قصر مروان، وقد كان أنفق عليه عشرة آلاف درهم، واحتوى على خزائن مروان وأمواله، وسار مروان فيما معه من خواصه وعياله حتى انتهى إلى نهر أبي فطروس من بلاد فلسطين والأردن فنزل عليه، وسار عبد الله بن علي حتى نزل دمشق فحاصرها وفيها يومئذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك في خمسين ألف مقاتل، فوقيعت بينهم العصبية في فضل اليمن على نزار وزرار على اليمن [قتل الوليد بن معاوية، وقد قيل: إن أصحاب عبد الله بن علي قتلوا] وأتى عبد الله بن علي يزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، فحملهما إلى أبي العباس السفاح، فقتلتهما وصلبهما

بالحيرة، وقتَّل عبد الله بن علي بدمشق خلقاً كثيراً، ولحق مروان بمصر، ونزل عبد الله بن علي على نهر أبي فطروس، فقتل من بني أمية هناك بضعة وثمانين رجلاً، وذلك في يوم الأربعاء للنصف من ذي القعدة سنة اثنين وثلاثين ومائة، وقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك، وحمل رأسه إلى عبد الله بن علي.

مُقْتَلُ مَرْوَانَ

ورحل صالح بن علي في طلب مروان ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد، وعامر بن إسماعيل المذججي؛ فلتحقوه بمصر وقد نزل بوصير، فبaitوه، وهجموا على عسكره وضربوا بالطبلول، وكبروا ونادوا: يا لثارات إبراهيم، فظنَّ من في عسكر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسودة فقتل مروان، وقد اختلف في كيفية قتلها في المعركة في تلك الليلة، وكان قتلها ليلة الأحد لثلاثة بيَّنَ من ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائة.

ولما قُتِّل عامر بن إسماعيل مروان وأراد الكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه إذا بخدم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول عليهم، فأخذوا الخادم، فسئل عن أمره، فقال: أمرني مروان إذا هو قُتل أن أضرب رقب بناه ونسائه فلا تقتلوني، فإنكم والله إن قتلتموني لي فقدن ميراث رسول الله ﷺ فقالوا له: انظر ما تقول، قال: إن كذبت فاقتلوني، هلموا فاتبعوني؛ ففعلوا، فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل، فقال: اكشفوا هنا، فكشفوا، فإذا البُزد والقضيب ومخصر قد دفها مروان لثلا تصير إلى بني هاشم، فوجَّه بها عامر بن إسماعيل إلى عبد الله بن علي، فوجَّه بها عبد الله إلى أبي العباس السفاح، فتداوَلت ذلك خلفاء بني العباس إلى أيام المقتدر، فقال: إن البُزد كان عليه في يوم مقتله، ولست أدرِي أكل ذلك باقي مع المتقي لله إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - في نزوله الرقة أم قد ضيع ذلك.

بنات مروان بين يدي صالح بن علي

ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأساري إلى صالح بن علي، فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى، فقالت: يا عَمَّ أمير المؤمنين، حفظ الله لك [من أمرك ما يحبُ لك حفظه، وأسعدك في الأمور كلها بخواص نعمه، وَعَمَّك بالعافية] في الدنيا والآخرة، نحن بناتك وبنات أخيك [وابن عمك]، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا، قال: إذا لا نستيقن منكم أحداً رجلاً ولا امرأة ألم يقتل أبوكم بالأمس ابن أخي إبراهيم بن محمد بن علي بن العباس الإمام في محبسه بحران؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين بن علي وصلبه في كُنَاسَة الكوفة، وقتل

امرأة زيد بالحيرة على يدي يوسف بن عمر الشفقي؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد الداعي مسلم بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي على يدي عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته؟ ألم يخرج بحرم رسول الله ﷺ سبائياً حتى ورد بهنَّ على يزيد بن معاوية وقبل مقدمةهنَّ بعث إليه برأس الحسين بن علي قد ثقب دماغه على رأس رمح يُطَاف به كُور الشام ومدائنها حتى قدموا به على يزيد بدمشق كأنما بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك؟ ثم أوقف حرم رسول الله ﷺ موقف السبي يتضمن جنود أهل الشام الجُفَاءُ الطَّغَامُ ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله ﷺ، استخفافاً بحقه ﷺ، وجراءةً على الله عز وجل، وكفرًا لأنتمِ، فما الذي استبقيت من أهل البيت؟ لو عدلتم فيه علينا!! قالت: يا عمَّ أمير المؤمنين ليسعنا عفوكم إذاً، قال: أما العفو فنعم قد وسعكم، فإن أحبيت زوجتك من الفضل بن صالح بن علي، وزوجت اختك من أخيه عبد الله بن صالح، فقالت: يا عمَّ أمير المؤمنين، وأيَّ أوان عرس هذا؟ بل تلحقنا بحران، قال: فإذاً أفعل ذلك بُكْنَ إن شاء الله، فألحقهنَّ بحران، فَعَلَتْ أصواتهنَّ عند دخولهن بالبكاء على مروان، وشَقَقَنَ جيوبهنَّ، وَأَغْوَلَنَ بالصياح والتحبيب، حتى ارتج العسكرية بالبكاء منهم على مروان.

فكان ملك مروان إلى أن بويع أبو العباس السفاح خمس سنين وشهرين وعشرة أيام على حسب ما قدَّمنا [ذكره] في هذا الكتاب من التنازع في مدة أيامه، ومن وقت أن بويع أبو العباس السفاح إلى أن قتل ببوصير ثمانية أشهر، فكانت مدة أيامه إلى أن قتل خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وقد قدَّمنا ما تنازعوا فيه من مقدار سنة وغير ذلك من أخباره، وقد أتينا على مبسوط أخباره فيما سلف من كتابنا.

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

وكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعد صاحب الرسائل والبلاغات، وهو أول من أطال الرسائل، واستعمل التحميدات في فصول الكتب، واستعمل الناس ذلك بعده. وذكر أن مروان قال لكاتبه عبد الحميد - حين أتَيَنَ بِزَوَالِ ملْكِه - : قد اخْتَجَتْ أن تصير مع عدوِي وتطهر الغَدَرِ بي ، فإن إعجابهم بأدبك و حاجتهم إلى كتابتك تدعوهُم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تتفنعني في حياتي ، وإنَّا لَمْ تَعْجِزْ عن حفظ حُرَمَيِّي بعد وفاتي ، فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به علىِّ أَنْفَقَ الْأَمْرَيْنِ لَكَ ، وأَقْبَحَهُمَا بي ، وما عندي إِلَّا الصَّبْرُ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ أَوْ أُتْكَلِّمُ مَعَكَ ، وقال:

أيَّرْ وَفَاءَ ثُمَّ أَظْهَرَ عَذْرَةً فَمَنْ لِي بِعَذْرٍ يُوَسِّعَ النَّاسَ ظَاهِرَهُ؟

مروان يعتزم الفرار إلى أرض الروم فيرده إسماعيل القشيري

وقد أتينا على خبر أبي الورد ومقتله، وخبر بشر بن عبد الله الواحدي ومقتله، في كتابنا الأوسط، فأغتنى ذلك عن ذكره.

وذكر إسماعيل بن عبد الله القشيري قال: دعاني مروان وقد وافى على الهزيمة إلى حران، فقال: يا أبا هاشم، وما كان يكتيني قلبها، قد ترى ما جاء من الأمر وأنت الموثق به، ولا مخبأ [لِعَطْرٍ] بعد عَرْوَسٍ، فما الرأي؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، علام أجمعت؟ قال: على أن أرتحل بمواليٍ ومنْ تعبني من الناس حتى أقطع الدَّرْبَ وأميل إلى مدينة من مدن الروم فأنزلها، وأكتب أصحابها، وأستوثق منه، فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم، وليس هذا عاراً بالملوك، فلا يزال يأتيك [من أصحابي] الخائف والهارب والطامع فيكثر مَنْ معِي، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمري وينصرني على عدوِي، فلما رأيت ما أجمع عليه وكان الرأي، ورأيت آثاره في قومي من قحطان وبلاه عندهم، قلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي، تحكم أهل الشرك في بناتك وحرملك، وهم الروم، ولا وفاء لهم، ولا تدرِي ما تأتي به الأيام، وأنت إن حدث عليك حادث بأرض النصرانية - ولا يحدث عليك إلا خير - ضاع مَنْ بعدهك، ولكن أقطع الفرات، ثم استنفر [أهْلَ] الشام جنداً [جَنْدَهُ] فإنك في كتف وعزَّة، ولنك في كل جند صنائع، يسيرون معك حتى تأتي مصر، فإنها أكثر أرض الله مالاً وخليلاً ورجالاً، ثم الشام أممالك وإفريقية خلفك؛ فإن رأيت ما تحبُّ انصرفت إلى الشام، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية قال: صدقت، وأستخير الله، فقطع الفرات، ووالله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان: ابن حمزة السلمي، وكان أخاه من الرضاعة، والكوثر بن الأسود الغنوبي، ولم ينفع مروان تعصبه مع التزارية شيئاً، بل غدروا به وخذلوه، فلما اجتاز ببلاد قنسرين وَخَنَاصِرَة أوقعت شُوَخُ القاطنة بقنسرين بساقته، ووشَّبَ به أهل حمص، وسار إلى دمشق، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشي، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمرو القيسي، والمذحجيون جميعاً، ثم مر بفلسطين فوثب الحكم بن صنعان بن روح بن زنباع؛ لما رأوا من إدبار الأمر عنه، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله القشيري قد غَشَّه في الرأي ولم يمحضه النصيحة، وأنه فَرَطَ في مشورته إيهَا؛ إذ شاور رجالاً من قحطان موتوراً متعصباً مع قومه على ضدادهم من نزار، وأن الرأي [كان] الذي هَمَّ بفعله من قطع الدرب ونزول بعض حُصُون الروم ومكاتبته ملکها إلى أن يرثي في أمره.

وذكر المدائني والعتبي وغيرهما أن مروان حين نزل على الزاب جرّأ من رجاله، وَمِنْ اختاره من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم، مائة ألف فارس [على مائة ألف قارح]، فلما كان يوم الوجعة وأشرف عبد الله بن علي في المسودة، وفي أوائلهم البنود السُّودُ يحملها الرجال على الجمال البُخت، وقد جعلت أثوابها من خشب الصفصاف والغرب، قال مروان لمن قرب منه: أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظاً؟ أما ترون إلى أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع من الغمام سود؟ فيينا هو كذلك إذ طار من أفرجة هنالك قطعة من الغرائب سود، فاجتمعت على أول رايات عبد الله بن علي، واتصل سوادها بسواد تلك الرایات والبنود، ومروان ينظر؛ فتطير من ذلك فقال: أما ترون السواد قد اتصل بالسواد؟ وكأن الغرائب كالسحب سواداً، ثم نظر إلى أصحابه المحاربين - وقد استشعروا الجزع [والفزع] والفشل - فقال: إنها لعنة، وما تنفع العدة إذا انقضت المدة؟ .

ولمروان على الزاب أخبار غير هذه قد أتينا على ذكرها في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، فأغنى ذلك عن إعادة ذكرها، والله ولي التوفيق.

ذكر خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد السفاح

موجز

[و] بويع أبو العباس السفاح - وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب - ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من سنة اثنين وثلاثين ومائة، [وقيل: إنه بويع يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنين وثلاثين ومائة]، وقيل: في النصف من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة، وأمه رينطة بنت عبيد الله بن عبد المدآن الحارثية، وركب إلى المسجد الجامع في يوم الجمعة؛ فخطب على المنبر قائماً، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً، فضيَّح الناس وقالوا: أحييت السنة يا ابن عم رسول الله ﷺ، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر [وعشرين يوماً]، ومات بالأنبار في مديتها التي بناها، وذلك في يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: ابن تسع وعشرين سنة، وكانت أمه تحت عبد الملك بن مروان، فكان له منها الحجاج بن عبد الملك، فلما توفي عبد الملك تزوجها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فولدت منه عبد الله بن محمد السفاح، وعبيد الله، وداود، وميمونة.

ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه

وصية إبراهيم الإمام له

ولما حبس إبراهيم الإمام بحران، وعلم أن لا نجاة له من مروان، أثبتت وصيته وجعلها إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد، وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة وأن لا يكون له بعده بالحميمة ثُبٌّ ولا عزْجَة حتى يتوجه إلى الكوفة فإن هذا الأمر صائر إليه لا محالة، وأنه بذلك أتتهم الرواية، وأظهره على أمر الدُّعَاء بخراسان والتقدّم، ورسم له بذلك رسماً أوصاه فيه أن ي العمل عليه ولا يتعدّاه، ودفع الوصية بجميع ذلك إلى سابق الخوارزمي مولاه، وأمره إن حَدَثَ به حَدَثٌ من مروان في ليل أو نهار [أن يجد السير إلى الحمية حتى يدفع وصيته إلى أخيه أبي العباس، فلما قضى إبراهيم تَحْبَهَ] أسرع سابق في السير حتى أتى الحمية فدفع الوصية إلى أبي العباس ونَعَاهُ إليه، فأمره أبو العباس بستر الوصية وأن ينعاها، ثم أظهر أبو العباس أهل بيته على أمره، ودعا إلى موازنته ومكافحته أخاه أبي جعفر عبد الله بن محمد، وعيسي بن موسى بن محمد ابن أخيه، وعبد الله بن علي عمه، وتوجه أبو العباس إلى الكوفة مسرعاً، وهؤلاء معه في غيرهم ممن حَفِّ من أهل بيته، فلقيتهم أعرابية على بعض مياه العرب في طريقهم إلى الكوفة، وقد تقدم أبو العباس وأخوه أبو جعفر وعمه عبد الله بن علي فيمن كان معهم إلى الماء، فقالت الأعرابية: تالله ما رأيت وجوهاً مثل هذه ما بين خليفة وخليفة وخارجي، فقال لها أبو جعفر المنصور: كيف قلت يا أمَّةَ الله؟ قالت: والله ليلىَّها هذا، وأشارت إلى السفاح، ولتخلَّفَتْ أنت، وليخرجنَّ عليك هذا، وأشارت إلى عبد الله بن علي، فلما انتهوا إلى دومة الجندي لقيهم داود بن علي وموسى بن داود، وهما منصرفان من العراق إلى الحمية من أرض الشراة، فسألَهَا داود عن مسيره، فأخبره بسيبه، وأعلمه بحركة أهل خراسان لهم مع أبي مسلم، وأنه يريد الوثوب إلى الكوفة، فقال له داود: يا أبا العباس، ثَبِّ بالكوفة ومروان شيخ بنى أمية وزعيمهم في أهل الشام والجزيرة مُطلٌ على أهل العراق،

وابن هُبَيْرَةَ شِيْخَ الْعَرَبِ فِي جَلَّهُ الْعَرَبِ بِالْعَرَاقِ؟ فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: يَا عَمَّاهُ، مِنْ أَحَبِّ
الْحَيَاةِ ذَلِكَ، وَتَمَثِّلُ بِقَوْلِ الْأَعْشَى:

فَمَا مِيْتَهَا إِنْ مُتَهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بِعَارٍ، إِذَا مَا غَالتَ النَّفْسَ غُولُهَا
فَالْتَّفَتَ دَاوِدٌ إِلَى ابْنِهِ مُوسَى، قَالَ: أَيْنَ بْنِي، صَدِيقُ [ابن] عَمِّكَ، ارْجِعْ بَنَا مَعَهُ
نَحْيَا أَعْزَاءً أَوْ نَمُوتُ كَرَامًا، فَعَطَفَا رَكَابَهُمَا مَعَهُ، وَسَارَ أَبُو الْعَبَّاسَ حَتَّى دَخَلَ الْكُوفَةَ.
وَقَدْ كَانَ أَبُو سَلَمَةَ حَفْصُ بْنُ سَلِيمَانَ - حِينَ بَلَغَهُ مَقْتُلُ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامَ - أَضْمَرَ
الرَّجُوعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّعَوَةِ الْعَبَاسِيَّةِ إِلَى آلِ أَبِي طَالِبٍ.

مقدمة السفاح الكوفة

وَقَدْ كَانَ أَبُو الْعَبَّاسَ الْكُوفَةَ فِيمَنْ ذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ سَرَّاً، وَالْمَسْوَدَةُ مَعَ أَبِي سَلَمَةَ
بِالْكُوفَةِ، فَأَنْزَلَهُمْ جَمِيعاً دَارَ الْوَلِيدَ بْنَ سَعْدَ فِي بَنِي أَوْدِ حَيِّي مِنَ الْيَمَنِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مَنَاقِبَ
أَوْدِ وَفَضَائِلِهَا فِيمَا سَلَفَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فِي أَخْبَارِ الْحَجَاجِ، وَبِرَاءَتِهِمْ مِنْ عَلَيَّ
وَالظَّاهِرِيْنَ مِنْ ذَرِيْتِهِ، وَلَمْ أَرْ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ - وَهُوَ سَنَةُ اثْتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثَمَائَةِ - فِيمَا
دُرِّثَ مِنَ الْأَرْضِ وَتَغَرَّبَتْ مِنَ الْمَمَالِكِ رَجُلًا مِنْ أَوْدِ إِلَّا وَجَدَتْهُ - إِذَا اسْتَبَطَتْ مَا
عِنْهُ - نَاصِبِيَاً مَتَولِيَاً لَآلِ مَرْوَانَ وَحَزِبِهِمْ.

وَأَخْفَى أَبُو سَلَمَةَ أَمْرَ أَبِي الْعَبَّاسِ وَمِنْ مَعِهِ، وَوَكَلَ بِهِمْ [وَكِيلًا]، وَكَانَ قَدْوَمَ أَبِي
الْعَبَّاسِ الْكُوفَةَ فِي صَفَرِ مِنْ سَنَةِ اثْتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمَائَةِ، وَفِيهَا جَرَى الْبَرِيدُ بِالْكِتَابِ لَوْلَدِ
الْعَبَّاسِ، وَقَدْ كَانَ أَبُو سَلَمَةَ لَمَّا قُتِلَ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامُ خَافَ انتِقَاصَ الْأَمْرِ وَفَسَادَهُ عَلَيْهِ،
فَبَعَثَ بِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَسْلَمَ [وَكَانَ أَسْلَمَ] مَوْلَى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَتَبَ
مَعَهُ كَتَابِيْنَ عَلَى نَسْخَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلَيِّ بْنِ الْحَسِينِ بْنِ
عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَإِلَى أَبِي مُحَمَّدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسِينِ بْنِ الْحَسِينِ بْنِ عَلَيِّ بْنِ أَبِي
طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ! يَدْعُو كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى الشَّخْوُصِ إِلَيْهِ لِيَصْرُفَ الدُّعَوَةَ
إِلَيْهِ، وَيَجْهَدُ فِي بَيْعَةِ أَهْلِ خَرَاسَانَ لَهُ، وَقَالَ لِرَسُولِهِ: الْعَجَلَ الْعَجَلَ، فَلَا تَكُونَنَّ كَوَافِدَ
عَادَ، فَقَدِمَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَدِيْنَةَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ فَلَقِيَهُ لَيْلَةً،
فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ أَعْلَمَهُ أَنَّ رَسُولَ أَبِي سَلَمَةَ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَمَا أَنَا
وَأَبُو سَلَمَةَ؟ وَأَبُو سَلَمَةَ شِيْعَةَ لَغِيرِيِّ، قَالَ: إِنِّي رَسُولٌ، فَتَقَرَّأَ كِتَابَهُ وَتَجَيَّبَهُ بِمَا رَأَيْتَ،
فَدَعَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بِسَرَاجٍ ثُمَّ أَخْذَ كِتَابَ أَبِي سَلَمَةَ فَوَضَعَهُ عَلَى السَّرَاجِ حَتَّى احْتَرَقَ، وَقَالَ
لِرَسُولِهِ: عَرَفْتُ صَاحِبَكَ بِمَا رَأَيْتَ، ثُمَّ أَنْشَأْتَهُ بِقَوْلِ الْكَمِيْتِ بْنِ زَيْدِ:
أَيَا مُوقِدًا نَارًا لِغَيْرِكَ ضَوْءَهَا وَيَا حَاطِبًا فِي غَيْرِ حَبْلِكَ تَحْطِبُ

فخرج الرسول من عنده وأتى عبد الله بن الحسن فدفع إليه الكتاب فقبله وقرأه وابتهر به، فلما كان [من] غد ذلك اليوم الذي وصل إليه فيه الكتاب ركب عبد الله حماراً حتى أتى متزل أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، فلما رأه أبو عبد الله أكبر مجيئه، وكان أبو عبد الله أَسْنَى من عبد الله، فقال له: يا أبا محمد، أَمْرَّ ما أتى بك، قال، نعم وهو أَجْلٌ من أن يوصف، فقال: وما هو يا أبا محمد؟ قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى ما أقبله، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان، فقال له أبو عبد الله: يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟ وأنت أمرته بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدمتهم أو وَجَهْتَ فيهم؟ وهل تعرف منهم أحداً؟ فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام، إلى أن قال: إنما يريد القوم أبني محمداً لأنه مهدي هذه الأمة. فقال أبو عبد الله جعفر: والله ما هو مهدي هذه الأمة، ولئن شهر سيفه ليقتلن، فنازعه عبد الله القول، حتى قال له: والله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد، فقال أبو عبد الله: والله ما هذا إلا نصح مني لك، ولقد كتب إليّ أبو سلمة بمثل ما كتب به إليك، فلم يجد رسوله عندي ما وَجَدَ عندك، ولقد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه، فانصرف عبد الله من عند جعفر مغضباً، وما ينصرف رسول أبي سلمة إليه إلى أن بويع السفاح بالخلافة وذلك أن أبا سيد الطوسي دخل ذات يوم العسكر إلى الكوفة فلقي سابقاً الخوارزمي في سوق الكناسة [قال له: سابق؟ قال: سابق] فسأله عن إبراهيم الإمام، فقال: قتله مروان في الحبس.

كيف آلت الإمام للسفاح

وكان مروان يومئذ بحران، فقال أبو حميد: فإلى من الوصية؟ قال: إلى أخيه أبي العباس، قال: وأين هو؟ قال: معك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من عُمُومته وأهل بيته، قال: مُذْ متى هم هنا؟ قال: من شهرين، قال: فتمضي بنا إليهم، قال: غداً بيبي ويبنيك الموعد في هذا الموضع، وأراد سابق أن يستأذن أبا العباس في ذلك، فانصرف إلى أبي العباس فأخبره، فلامه إذ لم يأت به معه إليهم، ومضى أبو حميد فأخبر جماعة من قُوَاد خراسان في عساكر أبي سلمة بذلك، منهم أبو الجهم وموسى بن كعب، وكان زعيماً، وغداً سابق إلى الموضع، فلقي أبا حميد، فمضيا حتى دخلا على أبي العباس ومن معه فقال: أيكم الإمام؟ فأشار داود بن علي إلى أبي العباس، وقال: هذا خليفتكم، فأكَبَ على أطراقه يقبلها، وسلَمَ عليه بالخلافة، وأبو سلمة لا يعلم بذلك، وأتاه وجوه القواد

فبایعوه، وعلم أبو سلمة بذلك] فبایعه، ودخلوا إلى الكوفة في أحسن زی، وضربوا له مصافاً، وقُدمَتِ الخيول، فركب أبو العباس ومن معه حتى أتوا قصر الإمارة، وذلك في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب تنازع الناس في أي شهر بويع [له] من هذه السنة.

ثم دخل المسجد الجامع من دار الإمارة؛ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر تعظيم الرب ومنه، وفضل النبي ﷺ، وقاد الولاية والوراثة حتى انتهت إليه، ووعَدَ الناس خيراً، ثم سكت، فتكلم عمه داود بن علي وهو على المنبر دون أبي العباس، فقال: إنه والله ما كان بينكم وبين الله ﷺ إلا عليٌّ ﷺ وأمير المؤمنين هذا الذي خلفي، ثم نزل.

ثم خرج أبو العباس إلى عسكر أبي سلمة فنزل في حجرته، واستخلف على الكوفة وأرضها عمّه داود بن علي، وبعث بعمه عبد الله بن علي إلى أبي عون عبد الملك بن يزيد، فسارا معاً إلى مروان، فكان من أمرهم ما قدمنا ذكره من التقائهم على الزاب، وهزيمة مروان بن محمد.

عامر بن إسماعيل قاتل مروان

واتصل بأبي العباس السفاح ما كان من عامر بن إسماعيل وقتله لمروان بيوصير وقيل: إن ابن عم عامر يقال له نافع بن عبد الملك كان قتله في تلك الليلة في المعركة وهو لا يعرفه، وإن عامراً لما احترز رأس مروان واحتوى على عسكره دخل [إلى] الكنيسة التي كان فيها مروان، فقد علَى فرشه وأكل من طعامه، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى، وتعرف بأم مروان، وكانت أَسْنَهُنَّ، فقالت: يا عامر إن دهراً أنزل مروان عن فُرشه حتى أُعدك عليها فأكلت من طعامه واحتوى على أمره، وحكمت في مملكته؛ لقادر أن يغير ما بك [من نعمة].

بين السفاح وعامر بن إسماعيل

وبلغ السفاح فعله وكلامها، فاغتاظ من ذلك، وكتب إليه: «ويلك! أما كان لك في أدب الله عز وجل ما يزجرك عن أن تأكل من طعام مروان، وتقعد على مهاده، وتتمكن من وساده؟ أما والله لولا أن أمير المؤمنين تأول ما فعلت على غير اعتقاد منك لذلك ولا شهوة لمسك من غضبه وأدبه ما يكون لك زاجراً، ولغيرك واعظاً، فإذا أتاك كتاب

أمير المؤمنين فتقرب إلى الله تعالى بصدقه تطفيء بها عَضْبَهُ، وصلاته تظهر بها الاستكانة، وضم ثلاثة أيام، ومُز جمِيع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك».

رأس مروان بين يدي السفاح

ولما أتى أبو العباس برأس مروان ووضع بين يديه سجد فأطّال السجود ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي لم يبق ثارياً قبلك وقبل رَهْطِكْ، والحمد لله الذي أظفرني بك، وأظهرني عليك، ثم قال: ما أبالي متى طرقي الموت، قد قتلت بالحسين ويني أبيه منبني أمية ماتتين؛ وأحرقت شلو هشام يا ابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم، وتمثل:

لو يشربون دمي لَمْ يُرُو شاربهم ولا دماؤهُم لغيبٍ ترويني
ثم حَوَّل وجهه إلى القبلة فأطّال السجود، ثم جلس وقد أسرّ وجهه، وتمثل بقول
العباس بن عبد المطلب من أبيات له:

أبى قومنا أَن ينصفونا، فَأَنْصَفْتُ قَوَاطِعَ فِي أَيْمَانِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا
تُورَثُنَّ مِنْ أَشِيَّاخَ صَدَقَ تَقْرِبُوا بِهِنَّ إِلَى يَوْمِ الْوَغْيِ فَتَقْدِمُا
إِذَا خَالَطَتْ هَامَ الرِّجَالَ تَرَكَنُهَا كَبَيْضَنِ نَعَامَ فِي الْوَغْيِ مَتَحْطِمًا
وقالت الشعرا في أمر مروان فأكثرت.

وذكر أبو الخطاب عن أبي جعدة بن هبيرة المخزومي - وكان أحد وزراء مروان وسمّاره، وقد كان لما ظهر أمر أبي العباس انضاف إلى جملته وصار في عداد أصحابه وخواصه الذين اتخذهم - أنه كان في ذلك اليوم حاضراً لمجلس أبي العباس ورأس مروان بين يديه، وهو يومئذ بالحميمة، وأن أبو العباس التفت إلى أصحابه فقال: أيكم يعرف هذا؟ قال أبو جعدة: فقلت أنا أعرفه، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد خليفتنا بالأمس رضي الله عنه، قال: فحدقت إلى الشيعة فأخذتني بأبصارها، فقال لي أبو العباس: في أي سنة كان مولده؟ قلت: سنة ست وسبعين، فقام وقد تغير لونه غيظاً على، وتفرق الناس من المجلس، وانصرفت وأنا نادم على ما كان مبني، وتكلمت الناس في ذلك وتحديثوا به، فقلت: [هذه] زلة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبداً، فأتيت متزلي، فلم أزل باقي يومي أعهد وأوصي، فلما كان الليل اغتسلت وتهيات للصلوة، وكان أبو العباس إذا هم بأمر بعث فيه ليلاً، فلم أزل ساهراً حتى أصبحت، فلما أصبحت ركبت بغلتي واستعرضت بقلبي إلى من أقصد في أمري، فلم أجد أحداً أولى من

سليمان بن خالد مولى بني زهرة، وكانت له من أبي العباس منزلة عظيمة، وكان من شيعة القوم، فأتيته، فقالت: أذكري أمير المؤمنين البارحة؟ فقال: نعم، جرى ذكرك، فقال: هو ابن أختنا، وقى لصاحبه، ونحن إن أوليناه خيراً كان لنا أشكراً، فشكرت ذلك له، وجزيته خيراً، ودعوت له، وانصرفت، فلم أزل آتي أبي العباس على ما كُثُر عليه لا أرى إلا خيراً، ونُبِيَ الكلام الذي كان في مجلس أبي العباس - حين آتي برأس مروان - بلع أبي جعفر عبد الله بن علي، فكتب عبد الله بن علي إلى أبي العباس يعلمه بما بلغه من كلامي، وأنه ليس هذا يحتمل، وكتب أبو جعفر يخبر بما بلغه من ذلك، ويقول: هو ابن أختنا، ونحن أولى باصطناعه واتخاذ المعروف عنده، وبلغني ما كان منهما فأمسكت، وضرب الدهر ضرباته، بينما أنا ذات يوم عند أبي العباس بعد حين وقد تزايدت حاله وأخطئاني، فنهض الناس ونهضت، فقال لي أبو العباس: [على رِسْلِكَ] يا ابن هُبَيْرَةَ، اجلس، فجلست، ونهض ليدخل فقمت لقيامه، فقال: اجلس، فرفع الستر ودخل، وثبت في مجلسه، فأقام ملائلاً ثم رفع الستر فخرج في ثوبه وشعي رداء وجبة، فما رأيت أحسن منه ولا مما عليه قطُّ، فلما رفع الستر نهضت، فقال: اجلس، فجلست، فقال: يا ابن هُبَيْرَةَ، إني ذاكر لك أمراً فلا يخرجنَّ من رأسك إلى أحدٍ من الناس، ثم قال: قد علمت ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتل مروان، وعبد الله بن علي عمي هو الذي قتله؛ لأن ذلك كان بجيشه وأصحابه، وأخي أبو جعفر - مع فضله وعلمه وسنه وإشاره لأمر الله - كيف يسوغ إخراجه عنه؟ قال: فأطال في مدح أبي جعفر، فقالت: أصلح الله أمير المؤمنين!! لا أشير عليك، ولكنني أحذثك حديثاً تعتبره، فقال: هاته، قلت: كنا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية إذ ورد عليه كتاب عمر بن عبد العزيز بنعي سليمان ومصير الأمر إليه، فبعث إلى فدخلت عليه، فرمى بالكتاب إلى فقرائه، ثم اندفع يبكي، فقالت: أصلح الله الأمير!! لا تبكي على أخيك، ولكن ابنك على خروج الخلافة من ولد أبيك إلى ولد عمك، فبكى حتى اخضل لحيته، قال: فلما فرغت من حديثي قال لي أبو العباس: حسبك قد فهمت عنك، ثم قال: إذا شئت فانهض، فما مضيت غير بعيد حتى قال لي: يا ابن هبيرة، فالتفت راجعاً، فقال لي: امض، أما إنك قد كافأت هذا، وأدركت بثارك من هذا، قال: فما أدرى من أي الأمرين أعجب؟ فمن فطنته أمن ذكره لما كان؟ .

وأبو جعدة بن هبيرة هذا هو من ولد جعدة بن هبيرة المخزومي من فاختة أم هانئ بنت أبي طالب، وعلى وجعفر وعقيل أخواه، وقد قدمتنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب.

بين عبد الله بن علي وأخيه داود في ولية عهد السفاح

قال المسعودي: ووُجِدَتْ فِي أَخْبَارِ الْمَدَائِنِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَسْوَدِ، قَالَ: يَبْنُمَا
عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ يُسَابِرُ أَخَاهُ دَاؤِدَ بْنَ عَلِيٍّ وَمَعْهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنَ الْحَسَنِ [بْنَ الْحَسَنِ]:
فَقَالَ دَاؤِدُ لِعَبْدِ اللَّهِ: لَمْ لَا تَأْمُرَ ابْنِكَ بِالظَّهُورِ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَيَّهَاتٌ لَمْ يَئِنْ لَهُمَا بَعْدُ
فَالْتَّفَتَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ فَقَالَ: كَأَنَّكَ تَحْسَبُ أَنَّ ابْنِكَ هُمَا قَاتَلَا مَرْوَانَ، فَقَالَ: إِنَّ
ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَيَّهَاتٌ، وَتَمَثِّلُ:
سِيَكْفِيكَ الْمَقَالَةَ مُسْتَمِيتٌ خَفِيفُ الْلَّحْمِ مِنْ أَوْلَادِ حَامِ
أَنَا وَاللَّهُ قاتِلُهُ.

وَقِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَذَكِّرُ أَنَّهُ قَرَأَ فِي بَعْضِ
الْكِتَابِ [أَنَّهُ يُقْتَلُ مَرْوَانٌ] عَيْنَ ابْنِ عَيْنَ، وَقَدْ أَمَّلَ أَنْ يَكُونَ هُوَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ:
أَنَا وَاللَّهُ ذَلِكَ، وَلِي عَلَيْهِ فَضْلُ ثَلَاثَةِ أَعْيْنٍ، أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْسَ بْنِ
عَبْدِ الْمُطَلَّبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ.

فَلَمَّا صَافَّ مَرْوَانُ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ أَقْبَلَ مَرْوَانُ عَلَى رَجُلٍ إِلَى جَنْبِهِ فَقَالَ: مَنْ
الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ يَخْاصِمُ عَنْكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَعاوِيَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرِ الْأَقْنَى الْحَدِيدِ
الْبَصَرِ الْحَسَنِ الْوَجْهِ؟ فَقَوْلَتْ: يَرْزُقُ اللَّهُ الْبَيَانَ مِنْ يَشَاءُ، قَالَ: إِنَّهُ لَهُوَ، قَوْلَتْ: نَعَمْ، قَالَ:
مَنْ [وَلَدَ] عَبْسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ هُوَ؟ قَوْلَتْ: أَجَلُّ، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ، وَيَحْكُ! إِنِّي ظَنَنتُ أَنَّ الَّذِي يَحْارِبُنِي مِنْ وَلَدِ أَبِي طَالِبٍ وَهَذَا الرَّجُلُ مِنْ وَلَدِ
الْعَبَاسِ وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ أَتَدْرِي لَمْ صِيرَتِ الْأُمْرَ بَعْدَ لَابْنِي عَبِيدِ اللَّهِ بَعْدَ عَبْدِ اللَّهِ وَمُحَمَّدٍ
أَكْبَرُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ؟ [قَوْلَتْ: لَمْ؟ قَالَ: لَأَنَا حُبِّنَا أَنَّ الْأُمْرَ صَائِرٌ بَعْدِي إِلَى عَبْدِ اللَّهِ
وَعَبِيدِ اللَّهِ، فَنَظَرَتِي إِذَا عَبِيدُ اللَّهِ أَقْرَبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ، فَوَلَيْتَهُ دُونَهُ.

قَالَ: وَبَعَثَ مَرْوَانَ بَعْدَ أَنْ حَدَّثَ صَاحِبَهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ فِي
حِفْيَةٍ: إِنَّ الْأُمْرَ يَا ابْنَ عَمِّ صَائِرٍ إِلَيْكَ فَاتِقُ اللَّهِ فِي الْحَرَمَ، قَالَ: فَعَبَثَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ
الْحَقَّ لَنَا فِي دَمَكَ، وَالْحَقُّ عَلَيْنَا فِي حَرَمَكَ.

زواج السفاح بأم سلمة بنت يعقوب

وَذَكَرَ مَصْبُعُ الزَّيْرِيِّ [عَنْ أَبِيهِ] قَالَ: كَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ بِنْتَ يَعْقُوبَ بْنَ سَلَمَةَ بْنَ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغْرِبِ الْمَخْزُومِيِّ عِنْدَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَلِكِ،

فهلك عنها، ثم كانت عند هشام فهلك عنها، فبینا هي ذات يوم [جالسة] إذ مر بها أبو العباس السفاح، وكان جميلاً وسِيماً، فسألت عنده، فنسب لها، فأرسلت له مولاً لها تعرض عليه أن يتزوجها، وقالت لها: قولي له هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك، وكان معها مال عظيم وجواهر حشم، فأئته المولا فعرضت عليه ذلك، فقال: أنا مُمْلِقٌ لا مال عندي، ودفعت إليه المال، فأنعم لها، وأقبل إلى أخيها فسألته التزويج فزوجه إياها، فأصدقها خمسمائة دينار، وأهدى مائتي دينار ودخل عليها من ليلته، وإذا هي على منصة، فصعد إليها، فإذا كل عضو منها مكمل بالجوهر فلم يصل إليها، فدعت بعض جواريها فنزلت وغيرت لبسها ولبست ثياباً مصبغة وفرشت له فراشاً على الأرض دون ذلك، فلم [يقدر] يصل إليها، فقالت: لا يضرك هذا، كذلك [الرجال] كان يصيّهم مثل ما أصابك، فلم تزل به حتى وصل إليها من ليلته، وحظيت عنده، وحلف أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى، فولدت منه محمداً ورَيْطَة، وغلبت عليه غلبة شديدة، حتى ما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها وبتأميرها حتى أفضت الخلافة إليه، فلم يكن يدنو إلى النساء غيرها لا إلى حرمة ولا إلى أمة، ووفي لها بما حلف أن لا يغيرها.

خالد يصف النساء للسفاح ويغريه بالزواج

فلما كان ذات يوم في خلافته خلا به خالد بن صفوان فقال: يا أمير المؤمنين، إنني فكرت في أمرك، وسعة ملوكك، وقد ملأت نفسك امرأة واحدة [واقتصرت عليها] فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت، وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجواري ومعرفة أخبار حالاتهن والتمتع بما تشتهي منهن فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيباء، وإن منهن البصّة البيضاء، والحقيقة الأدماء، والحقيقة السمراء، والبربرية العجزاء، من مولدات المدينة، تفتن بمحادثتها، وتلذ بخلوتها، وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن وحسن الحديث منهن؟ ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، والمولدات من البصريات والكوفيات، فوات الألسن العذبة، والقدود المقهفة، والأوساط المختصرة، والأصداع المزّفنة، والعيون المكحلة، والثدي المحققة وحسن زيهن وزينتهن وشكليهن، لرأيت شيئاً حسناً، وجعل خالد يجيد في الوصف، ويكثر في الإطناب بحلوة لفظه وجودة وصفه، فلما فرغ كلامه قال له أبو العباس: ويحك يا خالد! ما صَلَكَ مسامعي والله قط كلام أحسن مما سمعته منك، فأعذ على كلامك فقد وقع مني موقعاً، فأعاد عليه [كلامه] خالد أحسن مما ابتدأه، ثم انصرف، وبقي أبو العباس مفكراً فيما سمع منه، فدخلت عليه أم سلمة امرأته، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت: إني لأنكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه، أو

أناك خبر فارثنت له؟ قال: لم يكن من ذلك شيء، قالت: فما قصتك؟ فجعل ينزوبي عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد له، فقالت: فما قلْتَ لابن الفاعلة؟ قال لها: سبحان الله ينصحني وتشتمينه؟ فخرجت من عنده مغضبة، وأرسلت إلى خالد جماعة من التجارية ومعهم الكامر كوباث، وأمرتهم أن لا يتركوا منه عضواً صحيحاً، قال خالد: فانصرفت إلى متزلي، وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين، وإعجابه بما ألقيته إليه، ولم أشك أن صلته ستأتيني، فلم ألبث حتى صار إلى أولئك التجارية وأنا قاعد على باب داري، فلما رأيتمهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزه والصلة، حتى وقفوا علىي، فسألوا عنني، قلت: ها أنا ذا خالد، فسبق إلى أحدهم بهراوة كانت معه فلما أهوى بها إلى وثبت فدخلت متزلي، وأغلقت الباب علىي، واستترت ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من متزلي، ووقع في خلدي أني أوتيت من قبل أم سلمة، وطلبني أبو العباس طلباً شديداً، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا علىي، وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأيقنت بالموت، فركبت وليس علىي لحم ولا دم، فلم أصل إلى الدار [حتى استقبلني عدة رسائل، فدخلت عليه فألفيتها خالياً، فسكنت بعض السكون، فسلمت] فأواماً إلى بالجلوس، ونظرت فإذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخت، وحركة خلفها، فقال [لي]: يا خالد، لم أرك منذ ثلاثة، قلت: كنت علىاً يا أمير المؤمنين، قال: ويحك!! إنك [كنت] وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه، فأعدته علىي، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد، فقال: ويحك!! لم يكن هذا في الحديث، قلت: بل والله يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر يُغلى عليهم، قال أبو العباس: برئت من قرابتني من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك في حديثك، قال: وأخبرتك أن الأربعة من النساء شر مجموع لصحابهن يشينه ويهرمنه ويسقمه، قال: ويلك!! والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت، قال خالد: بل والله، قال: ويلك! وتكتذبني؟ قال: وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين؟ قال: مرّ في حديثك، قال: وأخبرتك أن أبكار الجواري رجال، ولكن لا خصي لهن، قال خالد: فسمعت الصحوك من وراء الستر، قلت: نعم وأخبرتك أيضاً أنبني مخزوم زينكانة قريش، وأن عندك زينكانة من الرياحين، وأنت تطمح بعينك إلى حرائر النساء وغيرهن من الإمام، قال خالد: فقيل من وراء الستار: صدقت والله يا عماه وبِرِّزَتْ، بهذا حدثت أمير المؤمنين، ولكن بدأ وغير ونطق عن لسانك، فقال لي أبو العباس: ما لك قاتلك الله وأخراك و فعل بك فعل؟ قال: فتركه وخرجت وقد أيقنت بالحياة، قال خالد: فما

شعرت إلا برسل أم سلمة قد صاروا إلى ومعهم عشرة آلاف درهم وتحثت ويرذون وغلام.

كان السفاح يحب مسامرة الرجال

ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح وكان كثيراً ما يقول: إنما العجب من يترك أن يزداد علماً، ويختار أن يزداد جهلاً، فقال له أبو بكر الهذلي: ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك، ويدخل إلى امرأة أو جارية، فلا يزال يسمع سخفاً، ويروي نقصاً، فقال له الهذلي: لذلك فضلكم الله على العالمين، وجعل منكم خاتم النبيين.

السفاح وأبو نخيلة

ودخل عليه أبو نخيلة الشاعر، فسلم عليه، وانتسب له، وقال: عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك، فأفتاذن لي في إنشادك؟ فقال له: لعنك الله! ألسنت القائل في مسلمة بن عبد الملك بن مروان:

أَمْسِلَمْ، إِنِّي يَا ابْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَاجَا وَيَا جَبَلَ الْأَرْضِ
شَكَرْتُكَ، إِنَّ الشَّكَرَ حَبْلٌ مِّنَ التَّقْىٰ وَمَا كُلَّ مَا أُولَئِنَّهُ نِعْمَةٌ يَقْضِي
وَأَحِيَّتَ لِي ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا وَلَكَنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَبْهَهُ مِنْ بَعْضِ
قَالَ: فَأَنَا يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي أَقُولُ:

لَمَا رَأَيْنَا اسْتَمْسَكْتَ يَدَاكَا كَنَا أَنَاسًا تَرْهَبُ الْمَلَائِكَا
وَنَرْكَبُ الْأَعْجَازَ وَالْأُورَاكَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا خَلَا الإِشْرَاكَا
فَكَلِمَا قَدْ قَلْتَ فِي سَوَاكَا زُورٌ، وَقَدْ كَفَرَ هَذَا ذَاكَا
إِنَا انتَظَرْنَا قَبْلَهَا أَبَاكَا ثُمَّ انتَظَرْنَا بَعْدَهَا أَخَاكَا
فَكَنْتَ أَنْتَ لِلرِّجَالِ ذَاكَا قَالَ: فَرَضَيْتَ عَنِّي وَوَصَلَهُ وَأَجَازَهُ.

كان أبسط وجهها إذا حضر طعامه

وكان أبو العباس إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهها، فكان إبراهيم بن مخرمة الكندي إذا أراد أن يسأله حاجة أخرى حتى يحضر طعامه ثم يسأله، فقال له يوماً: يا

إبراهيم، ما دعاك إلى أن تشغلني عن طعامي بحواتجك؟ قال: يدعوني إلى ذلك التماس النجح لما أسأل، قال أبو العباس: إنك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفِقطة.

بعض عادات وسياسات السفاح

وكان إذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته لم يسمع من أحدهما في الآخر شيئاً ولم يقبله، وإن كان القائل عذلاً في شهادته، وإذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحد منها لصاحبها ولا عليه، ويقول: إن الضغينة القديمة تولد العداوة المُمُضضة، وتحمل على إظهار المسالمة، وتحتها الأفعى التي إذا تمكنت لم تُبْتَ.

وكان في أول أيامه يظهر لنديائه، ثم احتجب عنهم، وذلك لسنة خلت من ملكه، لأمر قد ذكرناه فيما سلف [من كتبنا، وكان قعوده من وراء الستارة، على حسب ما ذكرناه فيما سلف] من هذا الكتاب في سيرة أردشير بن بابك وأيامه.

وكان يطرب من وراء الستر [على حسب ما ذكرنا] ويصيح بالمطرب له من المغنين: أحسنت والله، أعد هذا الصوت.

وكان لا ينصرف عنه أحد من نديائه ولا من مُطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة، ويقول: لا يكون سرورنا معجلاً، ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلاً، وقد سبقه إلى هذا الفعل ملك من الملوك التي للفرس، وهو بهرام جور.

وحضره أبو بكر الهذلي ذات يوم، والسفاح مُقْبِل عليه يحادثه بحديث لأنوشروان في بعض حروبه بالشرق مع بعض ملوك الأمم، فعصفت الريح فأذرت تراباً وقطعاً من الأجر من أعلى السطح إلى المجلس، فجزع من حضر المجلس لوقوع ذلك، وارتاع له، والهذلي شاخص نحو أبي العباس لم يتغير كما تغير غيره، فقال له أبو العباس: الله أنت يا أبي بكر، لم أر كاليلوم، أما رأيتك ما رأينا ولا أحسست بما ورد علينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وإنما جعل للرجل قلب واحد، فلما غمره السرور بفائدة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، والله عز وجل إذا أفرد بكرامته أحداً وأحب أن يبقى له ذكرها جعل تلك الكرامة على لسان النبي أو خليفة، وهذه كرامة حُصِّبَت بها فمال إليها ذهني، وشغل بها فكري، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها، ولا وَجَمِت لها، إلا بما يلزمني من نفسي لأمير المؤمنين أعزه الله تعالى، فقال له السفاح: لئن بقيت لك لأرفع منك وضياعاً لتطيف به السباع، ولا ينحط عليه العقاب.

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وصية عبد الملك للشعبي في فضل الإنصات للملوك.

من النصائح في مخالطة الملوك

وقد حكى عن عبد الله بن عياش المتفوّف أنه قال: لم تقرب العامة إلى الملوك بمثل الطاعة، ولا العبيد بمثل الخدمة، ولا البطانة بمثل حسن الاستماع.

وقد حكى عن روح بن زنباع الجذامي أنه كان يقول: إذا أردت أن يمكّنك الملك من أذنه فأمكّن أذنك من الإصغاء إلى حديثه، ولا يتعجب الرجل عندي إذا كان يصغي إلى حديثه، ولا يقدح ما قيل فيه في قلبي لما تقدم له من حسن الاستماع عندي.

وقد حكى عن معاوية أنه كان يقول: يُغلب الملك حتى يُركب لشئين: بالحلم عند سورته، والإصغاء إلى حديثه.

ووُجِدَتْ في سير الملوك من الأعاجم أن شِيرُوَيْهَ بن أَبْرُوَيْزَ بَنْتَاهُ هو في بعض مُنْتَرَهاتِه بِأَرْضِ الْعَرَاقِ، وَكَانَ لَا يُسَايِرُهُ أَحَدُ مِنَ النَّاسِ مُبِتَدِئًا، وَأَهْلَ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَّةِ خَلَفَ ظَهْرَهُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ، إِنَّ التَّفَتَ يَمِينًا دَنَا مِنْهُ صَاحِبُ الْجَيْشِ، وَإِنَّ التَّفَتَ شَمَالًا دَنَا مِنْهُ الْمُؤْبِدَانُ، فَأَمَرَ مَنْ دَنَا مِنْهُمْ بِإِحْضَارِ مَنْ أَرَادَ مَسَامِرَتِهِ، فَالْتَّفَتَ فِي مَسِيرِهِ هَذَا يَمِينًا، فَدَنَا مِنْهُ صَاحِبُ الْجَيْشِ، فَقَالَ: أَيْنَ شَدَادَ بْنَ جَرْثَمَةَ؟ فَأَحْضَرَ، فَسَايِرَهُ، فَقَالَ لَهُ شِيرُوَيْهَ: أَفَكَرْتُ فِي حَدِيثِ جَدِّنَا أَرْدَشِيرَ بْنَ بَابِكَ حِينَ وَاقَعَ مَلْكُ الْخَزْرِ، فَحَدَّثْتُنِي بِهِ إِنْ كُنْتَ تَحْفَظُهُ، وَكَانَ شَدَادُ قَدْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ أَنْوَشَرْوَانَ، وَعَرَفَ الْمَكِيدَةَ، وَكَيْفَ كَانَ أَرْدَشِيرَ أَوْقَعَهَا بِمَلْكِ الْخَزْرِ، فَاسْتَعْجَمَ عَلَيْهِ شَدَادُ، وَأَوْهَمَهُ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ، فَحَدَّثَهُ شِيرُوَيْهَ بِالْحَدِيثِ، فَأَصْنَعَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ بِجُوارِهِ كَلَاهَا، وَكَانَ مَسِيرُهُمْ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ، فَتَرَكَ الرَّجُلُ لِإِقْبَالِهِ عَلَى شِيرُوَيْهَ التَّنَظَّرَ إِلَى مَوْطِئِ حَافِرِ دَابِتِهِ، فَزَلَّتْ إِحْدَى قَوَائِمِ الدَّابَّةِ، فَمَالَتْ بِالرَّجُلِ إِلَى الْيَمِينِ، فَوَقَعَ فِي الْمَاءِ، وَنَفَرَتِ الدَّابَّةُ، فَابْتَدَرَهَا حَاشِيَةُ الْمَلَكِ وَغَلَّمَاهُ فَأَمَالُوهَا عَنِ الرَّجُلِ، وَجَذَبُوهُ فَحَمَلُوهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ حَتَّى أَخْرَجُوهُ فَاغْتَمَّ الْمَلَكُ لِذَلِكَ، وَنَزَلَ عَنِ دَابِتِهِ وَبَسَطَ لَهُ هَنَالِكَ حَتَّى تَغَدَّى فِي مَوْضِعِهِ، وَدَعَا بِشَيْبَ منْ خَاصِّ كَسوَتِهِ فَأَلْقَيَتْ عَلَى شَدَادَ وَأَكَلَ مَعَهُ، وَقَالَ لَهُ: غَفَلْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَوْضِعِ حَافِرِ دَابِتِكَ، فَقَالَ: أَيْهَا الْمَلَكُ، إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِ نِعْمَةٍ قَابِلُهَا بِمَحْنَةٍ، وَعَارَضَهَا بِيَلِيةٍ، وَعَلَى قَدْرِ النَّعْمِ تَكُونُ الْمَحْنَةُ، وَإِنَّ اللَّهَ أَنْعَمَ عَلَيَّ بِنَعْمَتِي عَظِيمَتِيْنِ هَمَا إِقْبَالُ الْمَلَكِ عَلَيَّ بِوْجَهِهِ مِنْ بَيْنِ هَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ وَهَذِهِ الْفَائِدَةُ وَهِيَ تَدْبِيرُ الْحَرْبِ حَتَّى حَدَّثَ بَهَا عَنِ أَرْدَشِيرَ حَتَّى إِنِّي لَوْ دَخَلْتُ إِلَى حِيثَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرِبُ لَكُنْتُ رَابِحًا، فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ

نعمتان جليلتان في وقت واحد قابلتهما هذه المحنة، ولو لا أساورة الملك ويُمن جَدُّه لكونت بعرض هلكة، وعلى ذلك فلو غرفت حتى ذهبت عن جديد الأرض لكان قد أبقي لي الملك ذكرًا مخلداً ما بقي الضياء والظلام [والجنوب والصبا] فسُرَّ الملك بذلك، وقال : ما ظنتك بهذا المقدار الذي أنت فيه ، فحشا فاه جوهراً ودرأ رائقًا ثميناً، واستبطنه حتى غالب على أكثر أمره.

وإنما ذكرنا هذا الخبر من أخبار من سلف من ملوك الفرس ليعلم أن أبا بكر الهمذلي لم يبتدئ بحال لم يسبقه إليها غيره، ويتقدمه بها سواه .

أحسن المواقع من الملوك

وأحسن المواقع من الملوك الاستماع منها، والأخذ عنها، وقد كان حكماء اليونانيين نقول : إن الواجب على من أقبل عليه ملك أو ذو رياضة بحديث أن يصرف [قلبه] كله إلى ذلك ، وإن كان يعرف الحديث الذي يسمعه من الملك ، كأنه لم يسمعه قط ، ويظهر السرور [بالفائدة] من الملك والاستشار بحديثه ، وإن في ذلك أمرين : أحدهم ما يظهر حسن أدبه ، فإنه يعطي الملك حقه بحسن الاستماع لحديثه والاستغراب له [منه] كأنه لم يسمعه ، وإظهار السرور والاستفادة منه ؛ فالنفس إلى الفوائد من الملوك والحديث عنهم أشهى وأقرب منها إلى فوائد السوقه وما أشبهها .

معاوية وابن شجرة الراهاوي

وقد ذكر جماعة من الأخباريين كابن دأب وغيره نحو هذا المعنى عن معاوية بن أبي سفيان ، ويزيد بن شجرة الراهاوي ، وهو أن ابن شجرة كان يُساير ذات يوم معاوية وكان آنساً به ، وإلى حديثه تائقاً ، ومعاوية مقبل عليه يحدثه عن جزعان يوم كان لبني مخزوم وغيرهم من قريش ، كان فيه حرب عظيمة فتى فيه خلق من الناس ، وذلك قبل الإسلام ، وقيل : إن ذلك كان قبل الهجرة ، وكانت لأبي سفيان فيه مكرمة وسابقة في الرياسة ، وهو أنه لما أشرف الفريقان على القناء صعد على نَشَرٍ من الأرض ثم صاح بالفريقين ، وأشار بكمه ، فانصرف الفريقان جميعاً انتقاداً إلى أمره ، وكان معاوية مُعْجِباً بهذا الحديث ، في بينما هو يحدثه به ويزيد بن شجرة مقبل عليه ، وقد استخففهما لذلة المحدث والمستمع إذ صك جبين يزيد بن شجرة حجر عاثر فأدماه ، فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ، وغير ذلك ، ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، فقال له معاوية : الله أنت يا بن شجرة ، أما ترى ما نزل بك ؟ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا دَمٌ يسيل على ثوبك ، قال : أعتق ما أملك إن لم يكن حديث أمير المؤمنين

اللهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي، فما شعرت بشيء مما حَدَثَ، حتى نبهني عليه أمير المؤمنين، فقال معاوية: لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين والجماهير من حضر معنا بصفتين، ثم أمر له وهو في مسيرة بخمسمئة ألف درهم، وزاده في عطائه ألفاً من الدرهم، وجعله بين جلدته وثوبه.

تعليق

وقد قال بعض أهل المعرفة والأدب من مصنفي الكتب في هذا المعنى وغيره مما حكيناه عن معاوية وابن شجرة: لشَّنْ كان ابن شجرة خَدَعَ معاوية في هذا ومعاوية من لا يخدع فيما مثله إلا كما قال الأول:

* من يَنْبِئُ الْعَيْرَ يَنْكُ نِيَاكَا *

وإن كان قد بلغ من بلادة ابن شجرة، وقلة حسه، ما وصف به نفسه فما كان جديراً بخمسمئة ألف [درهم] صِلَةَ، وزيادة ألف في عطائه، وما أظن ذلك خفي عن معاوية.

حسن الاستماع

قال المسعودي: وقد قالت الحكماء في هذا وأكثرت، وأمرت بحسن الاستماع [والصمت] وأطَبَتْ، فقالوا: لا تحسن المحادثة إلا بحسن الفهم، وقالوا: تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، وحسن الاستماع هو إمهال المحدث حتى ينقضي حديثه.

من أدب الحديث

ومن أدب الحديث وواجباته: أن لا يقتضب اقتضايَا، ولا يهجم عليه، وأن يتوصل إلى إجرائه بما يشاكله، وأن يستنسب له ما يحسن أن يجري في عرضه حتى يكون بعض المفاوضة متعلقاً ببعض، على حسب ما قالوا في المثل: إن الحديث ذو شجون، يريدون بذلك تشعبه وتفرعه عن أصل واحد إلى وجوه من المعاني كثيرة؛ إذ كان العيش كله في الجليس الممتع، وقال رجل: والله أَمَلُ الحديث، فقال السامع: إنما يمل العتيق لا الحديث.

وقد أكثرت الشعرا من الإغراء في هذا المعنى، ومن ذلك قول [علي بن] العباس الرومي:

وَسَئَمَتْ كُلَّ مَارْبَى فَكَانَ أَطَيْبَهَا غَثِيثُ

إلا الحديث فإنه مثل اسمه أبداً حديث

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول إبراهيم بن العباس:

إن الزمان وما ترِينَ بمُفْرقي صَرَفَ الغواية فانصرَفْتُ كريماً
وضَجِرْتُ إلا من لقاء محدث حسن الحديث يزيدني تعليماً

وقد ذكر بعض المحدثين من أهل الأدب أن من الأدب عدم إطالة الحديث من النديم، وأن أخلاى الحديث وأحسنه موقعاً أن تجتب [منه] الأحاديث الطوال ذات المعاني المغلغلة والألفاظ الحشوية التي ينقضي باقتصاصها زمان المجلس، وتعلق بها النفوس، وتحتسي على أواخرها الكؤوس، فإن ذلك بمحالس الفُصّاص، أشبه منه بمحالس الخواص.

وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد الله بن المعتز بالله، ووصف ذلك من أصحاب الشراب على المعاقة، فقال:

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر، وما عَدَاه كلام
وكأن السُّقَاءَ بين الندامى ألقات بين السطور قيام
وهذه طريقة مَنْ ذهب هذا المعنى إلى استماع الملح.

أول وزير في الدولة العباسية

وكان أول من وقع عليه اسم الوزارة في دولة بني العباس أبو سَلَمة حفص بن سليمان الخَلَال الهمданى، مولى لسيغ، وكان في نفس أبي العباس منه شيء؛ لأنه كان حاول في رد الأمر عنهم إلى غيرهم، فكتب أبو مسلم إلى السفاح يشير عليه بقتله، ويقول له: قد أَحَلَ اللَّهُ لَكَ دَمَهُ؛ لأنَّه قد نكث وغيره بدل، فقال السفاح: ما كنت لأفتح دولتي بقتل رجل من شيعتي، لا سيما مثل أبي سَلَمة، وهو صاحب هذه الدعوة، وقد عرض نفسه، وبذل مهجته، وأنفق ماله، وناصح إمامه، وجاهد عدوه، وكلمه أبو جعفر أخيه وداود بن علي عمه في ذلك، وقد كان أبو مسلم كتب إليهما يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتله، فقال أبو العباس: ما كنت لأفسد كثيراً إحسانه وعظيم بلائه وصالح أيامه بزَلَةٍ كانت منه، وهي خطورة من خطرات الشيطان، وغفلة من غفلات الإنسان، فقالا له: فينبغي يا أمير المؤمنين أن تتحرس منه، فإننا لا نأمنه عليك، فقال: كلا إبني لآمنه في ليلي ونهارى وسرى وجهري ووحدتى وجماعتى، فلما اتصل هذا القول من أبي العباس بأبي مسلم أكبره وأعظمه، وخف من ناحية أبي سَلَمة أن يقصده بمكره، فوجَّه جماعة من

ثقات أصحابه في إعمال الحيلة في قتل أبي سلامة، وقد كان أبو العباس يأنس بأبي سلامة ويسمى عنده، وكان أبو سلامة فكهأً ممتعًا أديباً عالماً بالسياسة والتدبر، فيقال: إن أبو سلامة انصرف ليلة من عند السفاح من مدينة الأنبار، وليس معه أحد، فوثب عليه أصحاب أبي مسلم فقتلوه، فلما اتصل خبره بالسفاح أنشأ يقول:

إلى النار فليذهب، ومن كان مثله على أي شيء فائتنا منه نأسف

وكان أبو مسلم يقال له: أمين آل محمد، وأبو سلامة حفص بن سليمان يدعى

وزير آل محمد، فلما قتل غيلة على ما ذكرنا قال في ذلك الشاعر من أبيات:

إن المساءة قد تسرّ، وربما كان السرور بما كرهت جديراً
 إن الوزير وزير آل محمد أودي؛ فمن يشتاكَ كان وزيراً

وقد أتينا على خبر مقتله وكيفية أمره في الكتاب الأوسط.

مسامرات السفاح

وكان السفاح يعجبه المحادثة، ومفاخرات العرب من نزار واليمين، والمذاكرة بذلك، ولخالد بن صفوان ولغيره من قحطان أخبار حسان، ومفاخرات ومذاكرات ومنادمات ومسامرات مع أبي العباس [السفاح قد أتينا على مبسوطها وما اخترناه من غررها في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط] فأغنى ذلك عن ذكرها.

ومما ذكر من أخباره واستفاض من أسماره، ما ذكره البهلوان بن العباس عن الهيثم بن عدي الطائي، عن يزيد الرقاشي، قال: كان السفاح يعجبه مسامرة الرجال، وإنني سمرت عنده ذات ليلة، فقال: يا يزيد، أخبرني بأطرف ما سمعته من الأحاديث، فقلت: يا أمير المؤمنين، وإن كان فيبني هاشم؟ قال: ذلك أعجب إلي، قلت: يا أمير المؤمنين، نزل رجل من تنوخ بحري منبني عامر بن صبغة، فجعل لا يحط شيئاً من متعاه إلا تمثل بهذا التست:

لعمرك ما تَبْلَى سرائر عامرٍ من اللؤم ما دامت عليها جلودها
 فخرجت إليه جارية من الحي، فحادثته وآنسنته، وسألته حتى أنس بها، ثم قالت:
 من أنت مُتَعْثِثْ بُكْ؟! قال: رجل منبني تميم، فقالت: أتعرف الذي يقول:
 تميم بِطْرِق اللؤم أهْدَى من القطا ولو سلكت سُبْلَ المكارم ضَلَّتِ
 ولو أن برغوثاً على ظهر قُمْلة يكر على جَمْعِي تميم لولتِ
 ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا وما ذبحت يوماً تميم فسمت

أرى الليل يُجلوه النهار، ولا أرى عظام المخازى عن تميم تجلت
قال: لا والله ما أنا منهم، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من عجل، قالت:
أتعرف الذي يقول:

أرى الناس يُعطُونَ الجزيلاً، وإنما عطاء بني عجل ثلات وأربع
إذا مات عجلي بأرض فإنما يشق له منها ذراع وإصبع
قال: لا والله ما أنا من عجل، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من بني يشكر،
قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا يشكري مَسْ ثوبكَ ثوبه فلا تذكرن الله حتى تظهراً
قال: لا والله ما أنا من يشكر، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من بني عبد القيس،
قالت: أتعرف الذي يقول:

رأيت عبد القيس لاقت ذلاً إذا أصابوا بصلًا وخلاً
ومالحاً مصنعاً قد طلا باتوا يسلون النساء سلاً
* سَلَ النَّبِيَّطَ الْقَضَبَ الْمُبْتَلَا *

قال: لا والله ما أنا من عبد القيس، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من باهله،
قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا ازدحم الكرام على المعالي تنحى الباهلي على الزحام
فلو كان الخليفة باهلياً لقصر عن مناؤة الكرام
وعرضاً الباهلي وإن تَوَقَّى عليه مثل منديل الطعام
قال: لا والله ما أنا من باهله، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من بني فَرَّارَةَ،
قالت: أتعرف الذي يقول:

على قلوصكَ، واكتبهَا بأسياز
بعد الذي امتهنَ أير العير في النار
قالوا لأهمهم: بولي على النار
قال: لا والله ما أنا من فزاره، قالت: فمن أنت؟ قال: أنا رجل من ثقيف،
قالت: أتعرف الذي يقول:

فما لهم أب إلا الضلال
إلى أحد فذاك هو المحال

أضل الناسبون أبا ثقيف
فإن نسبت أو انتسبت ثقيف

خنازير الْحُشُوشِ فَقْتُلُوهَا إِنْ دَمَاءَهَا لَكُمْ حَلَالٌ
 قال: لا والله ما أنا من ثقيف، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من بني عبس،
 قالت: أتعرف الذي يقول:
 إذا عَبْسِيَّةً ولَدَتْ غَلَامًا فَبَشَّرَهَا بِلَوْمٍ مُسْتَفَادٍ
 قال: لا والله ما أنا من عبس، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من ثعلبة، قالت:
 أتعرف الذي يقول:
 وَثَعْلَبَةَ بْنَ قَيْسَ شَرُّ قَوْمٍ وَأَلْأَمَهُمْ وَأَغْدَرُهُمْ بِجَارٍ
 [قال: لا والله ما أنا من ثعلبة، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من غنيٍّ، قالت:
 أتعرف الذي يقول:
 إِذَا غَنَوْيَةً ولَدَتْ غَلَامًا فَبَشَّرَهَا بِخِيَاطٍ مُجِيدٍ]
 قال: لا والله ما أنا من غنيٍّ، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من بني مرة، قالت:
 أتعرف الذي يقول:
 إِذَا مُرِيَّةً خَضَبَتْ يَدَاهَا فَزَوْجَهَا وَلَا تَأْمُنْ زَنَاهَا
 قال: لا والله ما أنا من بني مرة، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من بني ضبة،
 قالت: أتعرف الذي يقول:
 لَقَدْ زَرِقْتَ عَيْنَاكَ يَا ابْنَ سَكَبَرَ كَمَا كَلَ ضَبَّيِّ مِنَ اللَّؤْمِ أَزْرَقَ
 قال: لا والله ما أنا من بني ضبة، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من بجيلة، قالت:
 أتعرف الذي يقول:
 سَأَلْنَا عَنْ بَجِيلَةَ حِينَ حَلَتْ لَنْخِبَرَ أَيْنَ قَرَّ بِهَا الْقَرَارُ؟
 فَمَا تَدْرِي بَجِيلَةَ حِينَ تُدْعَى أَقْحَطَانَ أَبْوَهَا أَمْ نَزَارُ؟
 فَقَدْ وَقَعَتْ بَجِيلَةَ بَيْنَ بَيْنَ وَقَدْ خَلَعَتْ كَمَا خَلَعَ العَذَارُ
 قال: لا والله ما أنا من بجيلة، قالت: فمن أنت ويحك؟! قال: رجل من بني
 الأَزْدِ، قالت: أتعرف الذي يقول:
 إِذَا أَزْدِيَّةً ولَدَتْ غَلَامًا فَبَشَّرَهَا بِمَلَاحٍ مُجِيدٍ
 قال: لا والله ما أنا من الأزد، قالت: فمن أنت ويلك؟! أَمَا تَسْتَحِي؟! قَلْ الْحَقُّ،
 قال: أنا رجل من خُزَاعَةَ، قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا افتخرت خزاعة في قديم وجذنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهراً بِرِزْقَ، بئس مفترخ الفخور
قال: لا والله ما أنا من خزاعة، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من سليم، قالت:
أتعرف الذي يقول:

فما لِسْلَيْمَ شَتَّتَ اللَّهُ أَمْرَهَا تَنِيكَ بِأَيْدِيهَا وَتَعْيَا أَيُورَهَا
قال: لا والله ما أنا من سليم، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من لقيط، قالت:
أتعرف الذي يقول:

لعمرك ما البحار ولا الفيافي	بأوسع من فَقَاح بني لقيط
لتقيط شر مَنْ ركب المطايا	وأنزل من يدب على البسيط
ألا لعن الإله بني لقيط	بقايا سبية من قوم لوط

قال: لا والله ما أنا من لقيط، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من كندة، قالت:
أتعرف الذي يقول:

إذا ما افتخر الكندي ذُو الْبَهْجَةِ وَالْطُّرَّةِ	ذو الْبَهْجَةِ وَالْطُّرَّةِ
فِي النَّسِيجِ وَبِالْخَفَّةِ	فِي النَّسِيجِ وَبِالْخَفَّةِ
[فَدَعَ كِنْدَةَ لِلنَّسِيجِ فَأَعْلَى فَخْرَهَا عَرَّةَ]	[فَدَعَ كِنْدَةَ لِلنَّسِيجِ فَأَعْلَى فَخْرَهَا عَرَّةَ]

قال: لا والله ما أنا من كندة، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من خثعم، قالت:
أتعرف الذي يقول:

وَخَثْعَمْ لَوْ صَفَرْتَ بِهَا صَفِيرًا لَطَازْثُ فِي الْبَلَادِ مَعَ الْجَرَادِ	
قال: لا والله ما أنا من خثعم، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من طيء، قالت: أتعرف الذي يقول:	

وَمَا طَيْءَ إِلَّا تَبَيَّطَ تَجَمَّعَتْ	فَقَالَتْ طِيَانَا كَلْمَةً فَاسْتَمْرَتْ
وَلَوْ أَنْ حُرَّ قَوْصَأْ يَمْدُ جَنَاحَهُ عَلَى جَبَلَيْ طَيِّ إِذَا لَاستَظْلَتْ	
قال: لا والله ما أنا من طيء، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من مُزينة، قالت: أتعرف الذي يقول:	

وهل مزينة إلا من قبيلة لا يُرْتَجِي كرم فيها ولا دين

قال: لا والله ما أنا من مُزينة، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من النَّخْع، قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا النَّخْع اللثَّام عَدُوا جمِيعاً تأدي الناس من وفر الزحام
وما تسمو إلى مجد كريم وما هم في الصميم من الكرام

قال: لا والله ما أنا من النَّخْع، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من أَوْدِ، قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا نَزَلْت بِأَوْدِ في ديارهِم فاعلم بأنك منهم لست بالناجي
لا تركنَّ إلى كهل ولا حَدَث فليس في القوم إلا كل عفاج

قال: لا والله ما أنا من أَوْدِ، قالت: فمن أنت! قال: أنا رجل من لَخْم، قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا ما انتمى قوم لفخر قدِيمهم تباغَدَ فخر القوم من لَخْم أجمعوا

قال: لا والله ما أنا من لَخْم، قالت: فمن أنت؟ قال: أنا رجل من جُذَام، قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا كَأسَ المُدَام أَدِيرَ يوماً لمكرمة تنحى عن جُذَام

قال: لا والله ما أنا من جُذَام، قالت: فمن أنت ويلك؟!! أما تستحي؟ أكثرت من الكذب!! قال: أنا رجل من شَنُوخ، وهو الحق، قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا شَنُوخ قَطَعَتْ مَثَلَاهَا في طلب الغارات والشار
آبَتْ بِخِرْزِي من إله العلى وشهرة في الأهل والجار

قال: لا والله ما أنا من شَنُوخ، قالت: فمن أنت ثَكَلَثَكَ أمك؟! قال: أنا [رجل]
من حَمِير، قالت: أتعرف الذي يقول:

بَيْتَ حَمِير تهجوني، فقتلت لهم: ما كنت أحسبهم كانوا ولا خُلِقُوا
لأن حَمِير قوم لا نصاب لهم كالعود بالقاع لا ماء ولا وَرَق
لا يكثرون وإن طالت حيائِهِم ولو يبول عليهم ثعلب غرقوا

قال: لا والله ما أنا من حَمِير، قالت: فمن أنت؟ قال: أنا رجل من يُحَابِر،
قالت: أتعرف الذي يقول:

ولو صَرَار بأرض يُحَابِر لماتوا وأضَحُوا في التراب رمِيما

قال: لا والله ما أنا من يحابر، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من قُشير، قالت: أتعرف الذي يقول:

بني قشير قتلت سيدكم فالليوم لا فِدْيَةُ ولا قَوْدُ

قال: لا والله ما أنا من قُشير، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من أمية، قالت: أتعرف الذي يقول:

وهي من أمية بنيناثها فهان على الله فقدانها
وكانت أمية فيما مضى جريء على الله سلطانها
فلا آل حرب أطاعوا الرَّسُولَ ولم يَئِقِ الله مَرْوَانُهَا

قال: لا والله ما أنا من بني أمية، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من بني هاشم،
قالت: أتعرف الذي يقول:

بني هاشم عُودوا إلى نَخَلَاتِكُمْ فقد صار هذا التمر صاعاً بدرهم
إإن قُلتُمْ رَهْطُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ فإن النصارى رهط عيسى ابن مريم

قال: لا والله ما أنا من بني هاشم، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من هَمْدَانَ،
قالت: أتعرف الذي يقول:

إذا هَمْدَانَ دارت يوم حَزْبٍ رحاماً فَوْقَ هامات الرجال
رأيَتُهُمْ يَحْشُونَ المطايَا سراعاً هاربين مِنَ القتال

قال: لا والله ما أنا من هَمْدَانَ، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من قُضَاعَةَ،
قالت: أتعرف الذي يقول:

لا يفخرُنَ قَضَاعِيُّ بأسرتِهِ فليس من يَمِنِ محضاً ولا مُضَرِّ
مُذَبِّذِينَ فلا قَحْطَانُ والدهم ولا نزار، فخلوهم إلى سقر

قال: لا والله ما أنا من قُضَاعَةَ، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من شَيْيَانَ، قالت:
أتعرف الذي يقول:

شَيْيَانَ قَوْمٌ لَهُمْ عَدِيدٌ فَكَلَّهُمْ مُّقْرِفٌ لَئِمَّ
ما فيَهُمْ ماجدٌ حَسِيبٌ ولا نجِيبٌ ولا كَرِيمٌ

قال: لا والله ما أنا من شَيْيَانَ، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من بني نَمِيرَ،
قالت: أتعرف الذي يقول:

فغضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
 فلو وضعْت فِقَاحُ بني نمير على خَبَثِ الحديد إذاً لذاباً
 قال: لا والله ما أنا من نمير، قالت: فمن أنت؟ قال: أنا رجل من تغلب، قالت:
 أتعرف الذي يقول:

لا تطلبنْ خُوولة في تغلب فالزنج أَكْرَمُ منهمُ أخواهَا
 والتغلبُي إذا تنحنح للقبرى حَكَ اسْتَه وتمثَّل الأمثala
 قال: لا والله ما أنا من تغلب، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من مجاشع، قالت:
 أتعرف الذي يقول:

تبكي المُغَيَّبة من بناة مجاشع ولها إذا سمعت نهيق حمار
 قال: لا والله ما أنا من مجاشع، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من كلب، قالت:
 أتعرف الذي يقول:

فلا تَقْرَبَا كَلْبًا ولا بَاب دارها فما يطمع الساري يرى ضوء نارها
 قال: لا والله ما أنا من كلب، قالت: فمن أنت؟ قال: أنا رجل من تيم، قالت:
 أتعرف الذي يقول:

[تَيْمِيَّة مثل أنف الفيل مقبلها تهدى الرحا ببنان غير مخدوم]
 قال: لا والله ما أنا من تيم، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من جرم، قالت:
 أتعرف الذي يقول:

تَمَثِّينِي سَوِيقَ الْكَرْمَ جَرْمَ وما ذاك السويق؟
 فما شربوه لما كان جلاً ولا غالوا به في يوم سوق
 فلما أنزل التحرير فيها إذا الجرمي منها لا يفيق
 قال: لا والله ما أنا من جرم، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من سليم، قالت:
 أتعرف الذي يقول:

إذا ما سليم جئتَها لغدائها زَجَعتْ كما قد جئتَ عَرَثَانَ جاءعاً
 قال: لا والله ما أنا من سليم، قالت: فمن أنت؟ قال: رجل من الموالي، قالت:
 أتعرف الذي يقول:

ألا من أراد الفحش واللؤم والخنا فعند الموالي الجيد والطرفان

قال: أخطأت نسيبي وربّ الكعبة، أنا رجل من الخوز، قالت: أتعرف الذي يقول:

لا بارك الله ربّي فِيْكُمْ أَبْدًا يا معاشر الْخُوزِ؛ إن الخوز في النار

قال: لا والله ما أنا من الخوز، قالت: فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أولاد حام،

قالت: أتعرف الذي يقول:

فلا تنكحْنَ أَوْلَادَ حَامٍ؛ فَإِنَّهُمْ مَشَاوِيْهُ خَلْقُ الله حَاشَا ابْنَ أَكْوَعَ

قال: لا والله ما أنا من ولد حام، لكنني من ولد الشيطان الرجيم، قالت: فلعنة الله

ولعن أبيك الشيطان معك، أتفتعرف الذي يقول:

أَلَا يَا عَبَادَ الله هَذَا عَدُوكُمْ وَهَذَا عَدُوُّ الله إِبْلِيس فَاقْتُلُوا

فقال لها: هذا مقام العائذ بك، قالت: قم فازحَنْ خاسِئاً مذموماً، وإذا نزلت بقوم

فلا تنشد فيهم شعراً حتى تعرف من هم، ولا ت تعرض للمباحث عن مساوىء الناس،

فلكل قوم إساءة وإحسان، إلا رسول رب العالمين، ومن اختاره الله على عباده، وعصمه

من عدوه، وأنت كما قال جرير للفرزدق:

وُكِنْتَ إِذَا حَلَّتَ بِدارِ قَوْمٍ رَحِلْتَ بِخَزْبِيَّةٍ وَتَرَكْتَ غَارَا

قال لها: والله لا أنشدت بيت شعر أبداً، فقال السفاح: لئن كُنْتَ عملت هذا

الخبر ونظمت فيمن ذكرت هذه الأسعار فلقد أحسنت، وأنت سيد الكاذبين، وإن كان

الخبر صدقًا وكنت فيما ذكرته محققاً فإن هذه الجارية العامرة لم أنحضر الناس جواباً،

وأبصرهم بمثالب الناس.

قال المسعودي: وللسفاح أخبار غير هذه وأسماء حسان قد أتينا على مبوسطها في

كتابينا أخبار الزمان والأوسط.

ذكر خلافة أبي جعفر المنصور

موجز

ويويع أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وهو بطريق مكة، أخذ له البيعة عمّه عيسى بن علي، ثم لعيسى بن موسى من بعده، يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة حَلَّتْ من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، والمنصور يومئذ ابن إحدى وأربعين سنة، وكان مولده في ذي الحجة سنة خمس وستين، وكانت أمه أم ولد يقال لها سلامـة بـبرـية، وكانت وفاته يوم السبت لـست حـلـونـى من ذي الحـجـة سـنة ثـمانـ وـخـمـسـيـنـ وـمـائـةـ؛ فـكـانـتـ وـلـايـتهـ اـثـنـيـنـ وـعـشـرـيـنـ سـنةـ إـلـاـ تـسـعـةـ أـيـامـ، وـهـوـ حاجـ عـنـدـ وـصـولـهـ إـلـىـ مـكـةـ فـيـ الـمـوـضـعـ الـمـعـرـوـفـ بـبـيـسـتـانـ بـنـيـ عـامـرـ مـنـ جـادـةـ الـعـرـاقـ، وـمـاتـ وـهـوـ اـبـنـ ثـلـاثـ وـسـتـيـنـ سـنةـ، وـدـفـنـ بـمـكـةـ مـكـشـوـفـ الـوـجـهـ لـأـنـهـ كـانـ مـخـرـماـ، وـقـيلـ : إـنـهـ مـاتـ بـالـبـطـحـاءـ عـنـدـ بـئـرـ مـيمـونـ وـدـفـنـ بـالـحـجـوـنـ، وـهـوـ اـبـنـ خـمـسـ وـسـتـيـنـ سـنةـ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ.

ذكر جمل من أخباره، وسيره ولمع مما كان في أيامه

رُؤيا أم المنصور

ذكر عن سلامة أم المنصور أنها قالت: رأيت لما حملت بأبي جعفر [المنصور] كأنَّأسداً خرج من قُبلي فأقْعَى وزَأْرَ وضرب بذنبه، فأقبلت إليه الأسدُ من كل ناحية فكلما انتهى إليه أسدٌ منها سَجَدَ له.

المنصور ورفيق سفر ضرير شاعر

وحدث علي بن محمد المدائني أن المنصور قال: صحبت رجلاً ضريراً إلى الشام وكان يريد مروان بن محمد بشعر قاله فيه، قال: فسألته أن ينشدني فأنشدني ليت شعرى أفاح رائحة المسك وما إن إخال بالخيف إنسى حين غابت بنو أمية عنه والبهاليل منبني عبد شمس خطباء على المنابر فرساً ن عليها، وقالَ غير خرس لا يُعابون قائلين، وإن قالوا لوا أصابوا، ولم يقولوا بلبس وخلوم إذا الحلوم اشترخت ووجوه مثل الدنانير ملنس قال المنصور: فوالله ما فرغ من شعره حتى ظنت أن العمى [قد] أدركني، وكان والله ممتع الحديث حسن الصحبة.

قال: وحججت سنة إحدى وأربعين ومائة، فنزلت على الحمارة في جبل زرود في الرمل أمشي لتندرِ كان علىَّ، فإذا أنا بالضرير، فأوْمأت إلى من كان معِي أن يتَّخروا، فتأخروا، ودنوت منه، فأخذت بيده فسلمت عليه: فقال: من أنت جعلني الله فداك فما أثبتك معرفة؟ قلت: رفيقك إلى الشام في أيامبني أمية وأنت متوجه إلى مروان، فسلم علىَّ وتنفس وأنشاً يقول:

آمَتْ نساءُ بني أميةَ منهمُ وبناهُم بمضيِّعةِ أیتامٍ

نامت جدودهم وأسقط نجمهم والنجم يسقط والجدود نيا
خلت المنابر والأسرة منهم فعليهم حتى الممات سلام
فقلت له : كم كان مروان أعطاك؟ فقال : أغناي فلا أسأل أحداً بعده ، قلت : كم؟
قال : أربعة آلاف دينار وخلع وحملان ، قلت : وأين ذاك؟ قال : بالبصرة ، قلت : أتبثني
معرفة؟ فقال : أما معرفة الصحبة فقد لعمري وأما معرفة النسب فلا ، قلت : أنا أبو جعفر
المنصور أمير المؤمنين ، فوقع عليه الإفك ، وقال : يا أمير المؤمنين اعذر فإن ابن عمك
محمدأ رض قال «جَبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَيَغْضُبُ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا» ، قال
أبو جعفر : فهمت والله به ثم تذكرة الحرمة والصحبة ، قلت للمسيب :
أطلقه [فأطلق] ثم بدا لي في مسامرته رأي ، فأمرت بطلبه فكان البيداء أبادته .

المنصور وأهله يتحدثون عن سيربني أمية

وحدث الربيع قال : اجتمع عند المنصور عيسى بن علي ، وعيسى بن موسى ،
ومحمد بن علي ، وصالح بن علي ، وقثم بن العباس ، ومحمد بن جعفر ، ومحمد بن
إبراهيم ، فذكروا خلفاءبني أمية وسيرهم وتدييرهم ، والسبب الذي به سُلِّيُوا عزهم ، فقال
المنصور : أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي ما صنع ، وأما سليمان فكانت همته بطنه
وفرجه ، وأما عمر [بن عبد العزيز] فكان أغوراً بين عميان ، وكان رجل القوم هشام ، ولم
تزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه ، ويصونون ما وهب
الله لهم منه مع كسبهم معايي الأمور ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى الأمر إلى أبناءهم
المترفين ، فكانت همتهم قصد الشهوات ، وركوب اللذات ، من معاصي الله عز وجل ؛
جهلاً منهم باستدراجه ، وأمناً منهم لمكره ، مع اطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم
بحق [الله تعالى وحق] الرياسة ، وضعفهم عن السياسة ، فسلبهم الله العز ، وألسنهم
الذل ، وتفى عنهم النعمة ؛ فقال صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان
لما دخل أرض التوبة هارباً فيمن اتبعه سأله ملك النوبة عن حالهم وهيئتهم وما نزل بهم ،
وكيف كانت سيرتهم ، فأخبره بجميع ذلك ، فركب إلى عبد الله ليسأله عن شيء من
أمورهم ، والسبب الذي به زالت النعمة عنهم ، وكلمه بكلام سقط عن حفظه ، ثم
أشخصه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به ليحدثه عن أمره فعل ، فأمر
المنصور بإحضاره في مجلسه ، فلما مثلَ بين يديه قال له : يا عبد الله قصّ علىَ قصتك
وقصة ملك التوبة ، قال : يا أمير المؤمنين ، قدمت إلى التوبة ، فأقمت بها ثلاثة ، فأثناني
ملكتها ، فقدت على الأرض وقد أعددت له فراشاً [له قيمة] قلت له : ما منعك من القعود

على فراشنا؟ فقال: لأنني ملك، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله، ثم قال: لم تشربون الخمر وهي محمرة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيداً وأتباعنا، قال فلم تطؤون الزرع بدوايكم والفساد محرم عليكم في كتابكم؟ فقلت: فعل ذلك عبيداً وأتباعنا لجهلهم، قال: فلم تلبسون الديباج والحرير والذهب وهو محرم عليكم في كتابكم ودينكم؟ فقلت: ذهب منا الملك فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا، فأطرق إلى الأرض بقلب يده مرة وينكت في الأرض أخرى، ويقول: عبيداً وأتباعنا وأعاجم دخلوا علينا في ديننا، ثم رفع رأسه فقال: ليس كما ذكرت، بل أنت قوم استحللت ما حرم الله، وركبت ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم؛ فسلبكم الله العز، وألسنكم الذلة بذنبكم، والله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها فيكم، وأنا خائف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم بيلدي فينالني معكم، وإنما حق الضيافة ثلاث؛ فتزوج ما احتجت إليه وارحل عن أرضي ففعلت، فتعجب المنصور وأطرق ملياً، فرق له وهم بإطلاقه، فأعلمه عيسى بن علي أن في عنقه بيعة له، فأعاده إلى الحبس.

وفاة محمد بن جعفر الطالبي

قال المسعودي: ولعشر سنين خلت من خلافة المنصور توفي أبو عبد الله [محمد بن] جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، سنة ثمان وأربعين ومائة، ودفن بالقبيع مع أبيه وجده، وله خمس وستون سنة، وقيل: إنه سم، وعلى قبورهم في هذا الموضع من القبيع رخامة عليها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله مُيد الأمم، ومحيي الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد رضي الله عنهم ! .

وزراء المنصور

واستوزر أبو جعفر المنصور بن عطيه الباهلي، ثم استوزر أبو أيوب الموريانى الخوزي، وكان له بأبي جعفر أسباب: منها أنه كان يكتب لسلامان بن حبيب بن المهلب، وقد كان سليمان ضرب المنصور بالسوط في أيام الأمويين، وأراد هتكه، فخلصه كاتبه أبو أيوب من يده، فكان ذلك سبب الاتصال به، فلما استوزره أتهمه بأشياء منها اختياع الأموال وسوء النية، فكان على الإيقاع به، وتطاول ذلك، فكان كلما دخل عليه ظن أنه سيوقع به، ثم يخرج سالمًا، فقيل: إنه كان معه دهن قد عمل فيه شيئاً من

السحر يطليه على حاجبيه إذا أراد الدخول على المنصور، فسار في العامة دهن أبي أيوب لما ذكرنا، ثم أوقع به، واستكتب أبان بن صدقة إلى أن مات.

المنصور يسأل عن تدبيرات هشام بن عبد الملك

وذكر لأبي جعفر تدبير هشام في حرب كانت له، فبعث إلى رجل كان ينزل برصافة هشام يسأله عن تلك الحرب، فقدم عليه الرجل، فقال له: أنت صاحب هشام؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فأخبرني كيف فعل في حرب ذي ربيعاً في سنة كذا وكذا، قال: فعل رضي الله عنه فيها كذا وكذا، وفعل رحمة الله كذا وكذا، فأغاظ ذلك المنصور، فقال له: قم عليك غضب الله، تطاولاً بساطي وترحّم على عدو؟ فقام الشيخ وهو يقول: إن لعدوك قلادة في عنقي، ومنة في رقبتي لا ينزعها إلا غاسلي، فأمر المنصور برده، وقال: كيف قلت: قال: إنه كفاني الطلب، وصان وجهي عن السؤال، فلم أقف على باب عربي ولا عجمي منذ رأيته، أفلا يجب لي أن أذكره إلا بخير وأتبعه بشتاوى؟ فقال: بلـى، الله أَمْ نهضت عنك! أشهد أنك نهیض حرة وغِرَاسُ كريم، ثم استمع منه، وأمر له بجائزه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما آخذها لحاجة، وما هو إلا أن أتبَّعَ بحبائك وأتشرف بصلتك، فأأخذ الصلة، فقال له المنصور: مت إذا شئت، الله أنت! لو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجدًا وقال لجلسائه بعد خروجه عنه: في مثل هذا تحسن الصناعة، ويوضع المعرفة، ويُجاد بالمضون، وأنت في عسكرنا مثله؟.

المنصور ومعن بن زائدة

دخل معن بن زائدة على المنصور، فلما نظر إليه قال: هـيـه يا معن، تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

مـعـنـ بـنـ زـائـدـ الـذـيـ زـيـدـ بـهـ شـرـفـ بـثـوـ شـيـبـاـنـ

قال: كلا يا أمير المؤمنين، إنما أعطيته على قوله:

ما زـلـتـ يـوـمـ الـهـاشـمـيـةـ مـعـلـنـاـ بـالـسـيفـ دـوـنـ خـلـيـفـةـ الرـحـمـنـ فـمـنـعـتـ حـوـزـتـهـ، وـكـنـتـ وـقـاءـهـ مـنـ وـقـعـ كـلـ مـهـنـدـ وـسـيـانـ

قال: أحسنت يا معن، وكان معن من أصحاب [يزيد بن] عمر بن هبيرة، وكان مسترراً حتى كان يوم الهاشمية - وقد كان سمعت فيه عدة من أهل خراسان - فإنه حضر وهو معمتم متلثم، فلما نظر إلى القوم قد وَبَّوا على المنصور تقدم، ثم جعل يضرفهم بالسيف قدامه، فلما أنفروا وتفرقوا عنه قال: مَنْ أَنْتَ: فحسر عن وجهه، وقال: أنا

طلَبْتُكَ يا أمير المؤمنين مَعْنُ بن زائدة، فلما انصرف المنصور آمَّهُ وحَبَاهُ وأكرمه وكساه ورتبه.

[ودخل مَعْنُ بن زائدة يوماً على المنصور، فقال له: ما أُسْرَعَ النَّاسَ إِلَى حَسْدِ قومك! فقال: يا أمير المؤمنين.

إِنَّ الْغَرَانِيقَ تَلَقَّاهَا مَحَسَّدَةً وَلَنْ تَرِي لِلثَّامِ النَّاسَ حُسَادًا]

المنصور يقع بين يديه سهم كتب عليه شعر وظلمة

وذكر ابن عياش المتنوف أن المنصور كان جالساً في مجلسه المبني على طاق باب خراسان من مدنته التي بناها وأضافها إلى اسمه، وسمها مدينة المنصور، مُشَرِّفاً على دجلة، وكان قد بني على كل باب من أبواب المدينة في الأعلى من طاقه المعقود مجلساً يُشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه، وكانت أربعة أبواب شوارع محدقة وطاقات معقودة، وهي باقية إلى وقتنا هذا الذي هو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، فأول أبوابها باب خراسان، وكان يسمى بباب الدولة؛ لإقبال الدولة العباسية من خراسان، ثم باب الشام، وهو تلقاء الشام، ثم باب الكوفة، وهو تلقاء الكوفة، ثم باب البصرة، وهو تلقاء البصرة، وقد أتينا على كيفية خبر بناء تلك المدينة، واختيار المنصور لهذه البقعة بين دجلة والفرات ودُجَيل والصَّرَاءَ، وهذه أنهار تأخذ من الفرات، وأخبار بغداد وعلة تسميتها بهذا الاسم، وما قاله الناسُ في ذلك، وخبر القبة الخضراء وسقوطها في هذا العصر، وقصة قبة الحجاج الخضراء التي كان الحجاج بناها بواسط العراق، وبقاوئها إلى ذلك الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، في كتابنا الأوسط الذي كتبنا هذا تالِ له، في بينما المنصور جالس في هذا المجلس من أعلى باب خراسان إذ جاء سهم عائد حتى سقط بين يديه، فذُعِرَ منه المنصور ذرعاً شديداً ثم أخذه فجعل يقلبه فإذا هو مكتوب عليه بين الريشتين:

أَتَضْمَعُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى التَّنَادِ وَتَحْسِبُ أَنَّ مَالِكَ مِنْ مَعَادِ
سَتْسَأَلُ عن ذنوبك والخطايا وتسأَلُ بعد ذاك عن العباد

ثم قرأ عند الريشة الأخرى:

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسْنَتْ وَلَمْ تَخْفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدْرُ
وَسَأَلْمَثَكَ الْلَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ الْلَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ

ثم قرأ عند الريشة الأخرى:

هي المقاديرُ تجري في أعيتها فاصبر فليس لها صبر على حال يوماً ثُرِّ بكَ حَسِيسَ القوم ترفعه إلى السماء، ويوماً تخفض العالى وإذا على جانب السهم مكتوب: همدان منها رجل مظلوم في حبسك، فبعث من فوره بعدة من خاصته، ففتشوا الحبوس والمطابق، فوجدوا شيئاً في بنية من الحبس فيه سراج يسرج وعلى بابه بارية مسبلة، وإذا الشيخ موثق بالحديد متوجه نحو القبلة يردد هذه الآية ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلِبٍ يَنْتَلِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] فسألوه عن بلده، فقال: همدان، فحمل، ووضع بين يدي المنصور، فسأله عن حاله فأخبره أنه رجل من أبناء مدينة همدان، وأرباب نعمها، وأنه والي علينا دخل بلدنا، ولني ضيعة في بلدنا تساوي ألف ألف درهم، فأرادأخذها مني، فامتنعت فكبلي في الحديد، وحملني وكتب إليك أني عاص، فطرحت في هذا المكان، فقال: متذكم [لنك في الحبس]? قال: منذ أربعة أعوام، فأمر بك الحديد عنه، والإحسان إليه، والإطلاق له، وأنزله أحسن منزل، ورده إليه، فقال له: ياشيخ قد رأذنا عليك ضياعتك بخارجها ما عشت وعشنا، وأما مدتيتك همدان فقد وليناك عليها، وأما الوالي فقد حكمناك فيه، وجعلنا أمره إليك، فجزاه خيراً، ودعا له بالبقاء، وقال: يا أمير المؤمنين أما الضيعة فقد قبلتها، وأما الولاية فلا أصلح لها، وأما واليك فقد عفوت عنه، فأمر له المنصور بممال جزيل، وبر واسع، واستحلله وحمله إلى بلده مكرماً، بعد أن صرف الوالي وعاقبه على ما جنى من انحرافه عن سنته العدل وواضحة الحق، وسأل الشيخ مكتابته في مهماته وأخبار بلده، وإعلامه بما يكون من ولاته على الحرب والخارج، ثم أنشأ المنصور ويقول:

من يصاحب الدهر لا يأمن تصرفاً يوماً، وللدهر إحلاء وإمرار
لكل شيء وإن دامت سلامته إذا انتهى فله لا بدّ إقصار

المنصور يستشير في أمر أبي مسلم

وقال المنصور يوماً لسالم بن قتيبة: ما ترى في أمر أبي مسلم؟ قال: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فقال: حسبك يا ابن قتيبة، لقد أودعتها أذناً واعية.

وذكر ابن دأب وغيره عن عيسى بن علي قال: ما زال المنصور يشاورنا في جميع أموره حتى امتدحه إبراهيم بن هرمة فقال في قصيدة له:

إذا ما أراد الأمر ناجي ضميره فناجي ضميرًا غير مختلف العقل
ولم يشرك الأذنين في سر أمره إذا انتقضت بالأصبعين قوي الحل

ولما أراد المنصور قتل أبي مسلم سقط بين الاستبداد برأيه والمشورة فيه، فأرقة ذلك، فقال:

تَقَسَّمَنِي أُمْرَانٌ لَمْ أَمْتَحِنْهُمَا
بِحَزْمٍ، وَلَمْ تُعرِكْ قَوَافِي الْكَرَاكِرَ
وَمَا سَاوَرَ الْأَحْشَاءَ مُثْلِدَهَا عَلَيْكَ الْمَصَادِرَ
وَقَدْ عَلِمْتَ أَبْنَاءَ عَدْنَانَ أَنْتِي
عَلَى مِثْلَهَا مِقدَامَةً مُتَجَاسِرَ

خروج عبد الله بن علي

وقد كان عبد الله بن علي خالفاً على المنصور، ودعا إلى نفسه منْ كان معه من أهل الشام [وغيرهم، فباعوه] وزعم أن السفاح جعل الخلافة منْ بعده لمن انتدب لقتل مروان، فلما بلغ المنصور ذلك من فعل عبد الله كتب إليه:

سأجعل نفسي منك حيث جعلتها وللدهر أيام لهن عواقب
ثم بعث إليه بأبي مسلم، فكانت له معه حروب كثيرة ببلاد نصبيين في الموضع
المعروف بدير الأعور، وصبر الفريقان [جميعاً] شهوراً على حربها، واحتفروا الخنادق،
ثم انهزم عبد الله بن علي فيمن كان معه، وسار في نفر من خواصه إلى البصرة، وعليها
أخوه سليمان بن علي عم المنصور، فظفر أبو مسلم بما كان في عسكر عبد الله، فبعث
إليه المنصور يقطنين بن موسى لقبض الخزائن، فلما دخل يقطنين على أبي مسلم قال:
السلام عليك أيها الأمير، قال: لا سلام الله عليك يا ابن اللخنة! أوتمن على الدماء ولا
أوتمن على الأموال؟ فقال له: ما أبدى هذا منك أيها الأمير؟ قال: أرسلك صاحبك
لقبض ما في يدي من الخزائن، فقال له: امرأته طالق ثلاثة إن كان أمير المؤمنين وجهني
إليك لغير تهشتك بالظفر، فاعتنته أبو مسلم، وأجلسه إلى جانبه، فلما انصرف قال
لأصحابه: والله إني لأعلم أنه قد طلق زوجته [ثلاثة] ولكنه وفى لصاحبه.

خلاف أبي مسلم للمنصور وقتله

وسار أبو مسلم من الجزيرة وقد أجمع على خلاف المنصور، واجتاز على طريق
خراسان متذكراً للعراق ي يريد خراسان، وسار المنصور من الأنبار يريد المدائن، فنزل
برومية المدائن التي بناها كسرى، وقد قدمنا ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب، وكتب
إلى أبي مسلم: إني قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتملها الكتاب، فأقبل فإن مقامك
عندنا قليل، فقرأ الكتاب ومضى على حاله، فسرح إليه المنصور جريراً بن يزيد بن

جرير بن عبد الله البَجْلِيُّ، وكان واحد أهل زمانه، وداهية عصره، وكانت المعرفة بينه وبين أبي مسلم [قديمة] بخراسان، فأتاه فقال: أيها الأمير، ضربت الناس عن عرضين لأهل هذا البيت، ثم تصرف على هذه الحالة؟ ما آمن أن يعييك من هنالك ومن هننا، وأن يقال: طلب بثار قوم ثم نقض بيعتهم، فيخالفك مَنْ تأمن مخالفته إياك، وإن الأمر لم يبلغ عند خليفتك ما تكره، ولا أرى أن تصرف على هذه الحال، فأراد أن يجيب إلى الرجوع، فقال له مالك بن الهيثم: لا تفعل، فقال لمالك: ويلك!! لقد بليت بابليس وما بليت بمثل هذا قط، يعني الجريري، فلم يزل به حتى أقبل به على المنصور، وكان أبو مسلم يجد خبره في الكتب السالفة [ونعته] وأنه يقتل بالروم، وكان يكثر من قول ذلك، وأنه يقتل بالروم على حسب ما وجد في المَلَاحِم وأنه يميت دولة ويحيي أخرى، فلما دخل على المنصور وقد تلقاه الناس رَحِبَ به [وعائقه] وقال له: كِدْتُ أن تمضي قبل أن أقضي عليك بما أريد، قال: فقد أتيت يا أمير المؤمنين فأمر بأمرك، فأمر بالانصراف إلى منزله، وانتظر فيه الفُرَصَ والغوائل، فركب أبو مسلم إلى المنصور مراراً [وهو لا يُظْهِرُ له شيئاً، ثم ركب] وقد أظهر له التجني، فسار أبو مسلم إلى عيسى بن موسى، وكان له فيه رأي جميل، فسأل الركوب معه إلى المنصور ليعدله بحضرته، فأمر أن يتقدمه إلى المنصور فإنه بالأثر، فتقدم أبو مسلم إلى مَضْرِبِ المنصور، وهو على دجلة برومية المدائن، فدخل وجلس تحت الشراع - وقيل الرواق - فأخبر أن المنصور يتوضأ للصلوة، وكان المنصور قد تقدم إلى صاحب حَرَسِه عثمان [بن نهيك] في عدة فيهم شبيب بن رواح المروري وأبو حنيفة حَزْبُ بن قيس، وأمرهم أن يقوموا خلف السرير الذي كان وراء أبي مسلم وأمرهم أنه إذا عاتبه وظهر صوته لا يظهروا، فإذا صفق يد على يد فليظهوروا، ولি�ضرموا عنقه وما أدركوا منه بسيوفهم، وجلس المنصور، فقام أبو مسلم من موضعه ودخل فسلم عليه، فرَدَ عليه، وأذن له بالجلوس، وحادثه ساعة، ثم أقبل يعاتبه ويقول: فعلت وفعلت، فقال أبو مسلم: ليس يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني، فقال له: يا ابن الخبيث وإنما فعلت ذلك بِجَدْنَا وَحُظْوظُنَا، ولو كان مكانك أمة سوداء لأجَزَتْ، ألسْتَ الكاتب إِلَيْيَ تبدأ بنفسك، والكاتب إِلَيْ تخطب آسية بنت علي وتزعم أنك ابن سليمان بن عبد الله بن العباس؟ لقد ارتَقَيْتَ لَا أَمْ لَكَ مُرْتَقَى صعباً، فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها ويعذر إليه، فقال المنصور، وهو آخر ما كلمه به: قتلني الله إن لم أقتلك، وذكر له قتله لسليمان بن كثير، ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى، فخرج إليه القوم، فَدَرَهُ عثمان بن نهيك فضربه ضربة خفيفة بالسيف قطعت نجاد سيف

أبي مسلم، وضربه شبيب بن رواح فقطع رجله، واعتورته السيوف، فخلطت أجزاؤه، وأتوا عليه، والمنصور يصيح: اضربوا قطع الله أيديكم، وقد كان أبو مسلم عند أول ضربة قال: استبقيني يا أمير المؤمنين لعدوك، قال: لا أبقاني الله أبداً إن أبقيتك! وأي عدو أعدى لي منك؟ .

وكان قتله في شعبان من سنة ست وثلاثين ومائة، وفيها كانت بيعة المنصور، وهزيمة عبد الله بن علي، وأدرج أبو مسلم في بساط.

ودخل عيسى بن موسى فقال: يا أمير المؤمنين، أين أبو مسلم؟ فقال: قد كان هنا آنفاً، فقال: يا أمير المؤمنين، قد عرفت طاعته ونصيحته، ورأى إبراهيم الإمام فيه، فقال له المنصور: يا أنوك خلق الله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه، ها هو ذاك في البساط، فقال عيسى: إنما الله وإنما إليه راجعون.

ودخل عليه جعفر بن حنظلة فقال له المنصور: ما تقول في أمر أبي مسلم فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتلت ثم اقتل ثم اقتل، فقال المنصور: وفتك الله! ها هو في البساط، فلما نظر إليه قتيلاً قال: يا أمير المؤمنين، عَدْ هذا اليوم أول خلافتك، وقد كان السفاح هم بقتله برأي المنصور ثم رجع عن قتله، وأقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم بين يديه طریحاً فقال:

زعمت أن الدين لا ينقضي فاستوف بالكيل أبا مجرم
اشرب بكأس كنت تسقى بها أمراً في الحلق من العلقم
ودعا المنصور بنصر بن مالك، وكان على شرطة أبي مسلم، فقال: استشارك أبو مسلم بالمسير إلى فنهيه؟ قال: نعم، قال: ولم؟ قال: سمعت أخاك إبراهيم الإمام يحدث عن أبيه قال: لا يزال المرء يزداد في عقله إذا ما مَحَضَ النصيحة لمن شاوره، فكثُر له كذلك، وأنا الآن لك كذلك.

واضطرب أصحاب أبي مسلم ففرقوا بينهم الأموال، وعلموا بقتله، فأمسكوا رغبة ورهبة.

خطبة المنصور بعد قتل أبي مسلم

وخطب المنصور الناس بعد قتله أبي مسلم فقال: أيها الناس، لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسِرُّوا غِشَّ الأئمة، فإن من أسرَّ غشَ إمامه أظهر الله سريرته في فلَّات لسانه، وسقطات أفعاله، وأبداتها الله لإمامه الذي بادر باعزاز دينه به،

وإلاه حقه بفلجه، إنما لم تَخْسِمْ حقوقكم، ولم نبخس الدين حقه عليكم، إن من نازعنا [عروة] هذا القميص أو طأناه ما في هذا الغمد، وإن أبو مسلم بـأيَّـنا وبـأيَّـنا لنا على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح لنا دمه، ثم نكث بيعته هو، فحكمـنا عليه لأنفسـنا حـكمـه على غيرـه لنا، ولم تـمنعـنا رعايةـ الحقـ لهـ منـ إقـامـةـ الحقـ عليهـ.

الخرمية الفرقـةـ التيـ تتـولـىـ أبيـ مـسـلمـ

ولما نـمـيـ قـتـلـ أـبـيـ مـسـلمـ إـلـىـ خـرـاسـانـ وـغـيرـهـ مـنـ الـجـبـالـ اضـطـرـبـتـ الـخـرمـيـةـ،ـ وـهـيـ الطـائـفـةـ الـتـيـ تـدـعـيـ بـالـسـلـمـ الـقـائـلـونـ بـأـبـيـ مـسـلمـ وـإـمامـتـهـ،ـ وـقـدـ تـنـازـعـواـ فـيـ ذـلـكـ بـعـدـ وـفـاتـهـ:ـ فـمـنـهـمـ مـنـ رـأـيـ أـنـهـ لـمـ يـمـتـ وـلـنـ يـمـوتـ حـتـىـ يـظـهـرـ فـيـمـلـاـ الـأـرـضـ عـدـلـاـ،ـ وـفـرـقـةـ قـطـعـتـ بـمـوـتـهـ وـقـالـتـ بـإـيـامـةـ اـبـتـهـ فـاطـمـةـ،ـ وـهـؤـلـاءـ يـذـعـنـ فـاطـمـيـةـ،ـ وـأـكـثـرـ الـخـرمـيـةـ فـيـ هـذـاـ الـوقـتــ وـهـوـ سـنـةـ اـثـتـيـنـ وـثـلـاثـيـنـ وـثـلـاثـمـائـةــ الـكـرـدـكـيـةـ وـالـلـوـدـ شـاهـيـةـ وـهـاتـانـ الـفـرـقـاتـ أـعـظـمـ الـخـرمـيـةـ،ـ وـمـنـهـمـ كـانـ بـابـكـ الـخـرمـيـ الـذـيـ خـرـجـ عـلـىـ الـمـأ~مـونـ وـالـمـعـتـصـمـ بـالـبـدـيـنـ مـنـ أـرـضـ الـرـانـ وـأـذـرـيـجانـ،ـ وـسـنـأـتـيـ عـلـىـ خـبـرـهـ وـخـبـرـ مـقـتـلـهـ فـيـ أـخـبـارـ الـمـعـتـصـمـ فـيـمـاـ يـرـدـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ إـنـ شـاءـ اللـهـ،ـ وـأـكـثـرـ الـخـرمـيـةـ بـبـلـادـ خـرـاسـانـ وـالـرـيـ وـأـصـبـهـانـ وـأـذـرـيـجانـ وـكـرـجـ أـبـيـ دـلـفـ وـالـبـرـجـ الـمـوـضـعـ الـمـعـرـوفـ بـالـرـذـ وـالـوـرـسـنـجـانـ ثـمـ بـبـلـاـ الصـيـرـوـانـ وـالـصـيـرـمـةـ وـأـرـيـوـجـانـ مـنـ بـلـادـ مـاـسـبـدـانـ وـغـيرـهـ مـنـ تـلـكـ الـأـمـصـارـ وـأـكـثـرـ هـؤـلـاءـ فـيـ الـقـرـىـ وـالـضـيـاعـ،ـ وـسـيـكـونـ لـهـمـ عـنـدـ أـنـفـسـهـمـ شـأـنـ وـظـهـورـ يـرـاعـونـهـ وـيـتـظـرـوـنـهـ فـيـ الـمـسـتـقـلـ مـنـ الزـمـانـ،ـ وـيـعـرـفـونـ هـؤـلـاءـ بـخـرـاسـانـ وـغـيرـهـ بـالـبـاطـنـيـةـ،ـ وـقـدـ أـتـيـنـاـ عـلـىـ مـذـاهـبـهـمـ وـذـكـرـ فـرـقـهـمـ فـيـ كـتـابـنـاـ [ـالـمـقـالـاتـ،ـ فـيـ أـصـوـلـ الـدـيـانـاتـ]ـ وـإـنـ كـانـ قدـ سـبـقـنـاـ إـلـىـ ذـلـكـ مـؤـلـفـوـ الـكـتـبـ]ـ فـيـ [ـالـمـقـالـاتـ].ـ

بـيـنـ الـخـرمـيـةـ وـجـيـشـ الـمـنـصـورـ

فـاجـتمـعـتـ الـخـرمـيـةــ -ـ حـينـ عـلـمـ بـقـتـلـ أـبـيـ مـسـلمـ -ـ [ـبـخـرـاسـانـ،ـ فـخـرـجـ فـيـهـمـ رـجـلـ يـقـالـ لـهـ بـسـنـفـادـ مـنـ نـيـساـبـورـ يـطـلـبـ بـدـمـ أـبـيـ مـسـلمـ]ـ فـسـارـ فـيـ عـسـكـرـ عـظـيمـ مـنـ بـلـادـ خـرـاسـانـ إـلـىـ الـرـيـ،ـ فـغلـبـ عـلـيـهـ وـعـلـىـ قـوـمـسـ وـمـاـ يـلـيـهـ،ـ وـقـبـضـ عـلـىـ مـاـ كـانـ بـالـرـيـ مـنـ خـزـائـنـ أـبـيـ مـسـلمـ،ـ فـكـثـرـ جـمـعـ بـسـنـفـادـ بـمـنـ حـولـهـ مـنـ أـهـلـ الـجـبـالـ وـطـبـرـسـانـ،ـ وـلـمـ اـتـصـلـ خـبـرـ مـسـيرـهـ بـالـمـنـصـورـ سـرـحـ إـلـيـهـ جـهـورـ بـنـ مـارـ العـجـلـيـ فـيـ عـشـرـةـ آـلـافـ رـجـلـ،ـ وـتـلـاهـ بـالـعـسـكـرـ فـالـتـقـواـ بـيـنـ هـمـذـانـ وـالـرـيـ عـلـىـ طـرـفـ الـمـفـازـةـ،ـ فـاقـتـلـوـاـ قـاتـلـاـ شـدـيـداـ،ـ وـصـبـرـ الـفـرـيقـانـ جـمـيـعاـ،ـ فـقـتـلـ بـسـنـفـادـ،ـ وـولـيـ أـصـحـابـهـ؛ـ فـقـتـلـ مـنـهـمـ سـتـونـ أـلـفـاـ وـسـيـ مـنـهـمـ سـبـاـيـاـ وـذـرـاريـ كـثـيرـةـ،ـ وـكـانـ بـيـنـ خـرـوجـهـ إـلـىـ مـقـتـلـهـ سـبـعـونـ لـيـلـةـ،ـ وـذـلـكـ فـيـ سـنـةـ سـتـ وـثـلـاثـيـنـ وـمـائـةـ بـعـدـ قـتـلـ أـبـيـ مـسـلمـ بـأـشـهـرـ.

ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية)

وفي سنة خمس وأربعين ومائة كان ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم بالمدينة، وكان قد بويع له في كثير من الأمصار، وكان يُدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه، وكان مستخفياً من المنصور، ولم يظهر حتى قَبَضَ المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله وعدتهم، ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة دعا المنصور إسحاق بن مسلم العقيلي، وكان شيئاً ذا رأي وتجربة، فقال له: أشِرْ عَلَيَّ في خارجي خرج علي، قال: صَفَ لِي الرَّجُلُ، قال: رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ بَنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ذُو عِلْمٍ وَزَهْدٍ وَوُرُوعٍ، قال: فَمَنْ تَبَعَهُ؟ قال: وَلَدُ عَلِيٍّ وَوَلَدُ جَعْفَرٍ عَقِيلٍ وَوَلَدُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ [بن العوام] وسائل قريش وأولاد الأنصار، قال له: صَفَ لِي الْبَلْدَ الَّذِي قَامَ بِهِ، قال: بَلْ لَيْسَ بِهِ زَرْعٌ وَلَا ضَرْعٌ وَلَا تِجَارَةٌ وَاسِعَةٌ فَفَكَرَ سَاعَةً ثُمَّ قال: اشْحَنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْبَصَرَةَ بِالرِّجَالِ، فقال المنصور في نفسه: قد خَرَفَ الرَّجُلُ، أَسْأَلَهُ عَنْ خَارجي خرج بالمدينة يقول لي اشْحَنْ الْبَصَرَةَ بِالرِّجَالِ، فقال له: انْصَرِفْ يَا شِيخُ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا يَسِيرُ حَتَّى وَرَدَ الْخَبَرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ قَدْ ظَهَرَ بِالْبَصَرَةِ، فقال المنصور: عَلِيٌّ بِالْعَقِيلِيِّ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَذْنَاهُ ثُمَّ قال لَهُ: إِنِّي كُنْتُ قَدْ شَأْوَرْتُكَ فِي [أَمْرٍ] خَارجي خرج بالمدينة فأشرتُ عَلَيْهِ أَنَّ اشْحَنَ الْبَصَرَةَ [بِالرِّجَالِ] أَوْ كَانَ عَنْدَكَ مِنَ الْبَصَرَةِ عِلْمٌ؟ قال: لَا، وَلَكِنَّ ذَكْرَتِي خَرُوجَ رَجُلٍ إِذَا خَرَجَ مِثْلُهِ لَمْ يَتَخَلَّ عَنْهُ أَحَدٌ، ثُمَّ ذَكَرَتِي الْبَلْدَ الَّذِي هُوَ فِيهِ إِذَا هُوَ ضِيقٌ لَا يَحْتَمِلُ الْجَيُوشَ، فَقَلَّتِي: إِنَّهُ رَجُلٌ سَيِطِّبُ غَيْرَ مَوْضِعِهِ، فَفَكَرَتِي فِي مَصْرٍ فَوَجَدْتُهَا مَضْبُوْطَةً، وَالشَّامُ وَالْكُوفَةُ كَذَلِكَ، وَفَكَرَتِي فِي الْبَصَرَةَ فَخَفَتْ عَلَيْهَا مِنْهُ [لَخْلُوهاً]، فَأَشَرَتْ بِشَحْنَهَا، فَقَالَ لِهِ الْمُنْصُورُ: أَحْسَنْتَ، وَقَدْ خَرَجَ بِهَا أَخْوَهُ، فَمَا الرَّأْيُ فِي صَاحِبِ الْمَدِينَةِ؟ قال: تَرَمِيَهُ بِمِثْلِهِ، إِذَا قَالَ: أَنَا بْنُ رَسُولِ اللَّهِ، قال هذا: وَأَنَا بْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، فقال المنصور لعيسي بن موسى: إِمَّا أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ وَأَقِيمَ أَنَا أَمْدُكَ بِالْجَيُوشِ، إِمَّا أَنْ تَكْفِينِي مَا أَخْلَفَ وَرَأَيِّي وَأَخْرُجَ أَنَا إِلَيْهِ، فقال عيسى: بِلَ أَقِيكَ بِنَفْسِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَكُونُ الَّذِي يَخْرُجُ إِلَيْهِ، فَأَخْرَجَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْكُوفَةِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافِ فَارِسٍ وَأَلْفَيْ رَاجِلٍ، وَتَبَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ قَحْطَبَةَ فِي جَيْشِ كُثُيفٍ، فَقَاتَلُوا مُحَمَّداً بِالْمَدِينَةِ حَتَّى قُتِلَ وَهُوَ بْنُ خَمْسٍ وَأَرْبَعينَ سَنَةً، وَلَمَّا اتَّصلَ بِإِبْرَاهِيمَ قُتِلَ أَخِيهِ مُحَمَّدُ [بْنُ عَبْدِ اللَّهِ] وَهُوَ بِالْبَصَرَةِ صَدَعَ الْمَنْبَرَ فَنَعَاهُ وَتَمَثَّلَ:

أَبَا الْمَنَازِلِ يَا خَيْرِ الْفَوَارِسِ مِنْ يُقَجِّعُ بِمِثْلِكَ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ فُجِعَ

الله يعلم أني لو خشيتهم وأوجسَ القلب من خوف لهم فزعاً
لم يقتلوه ولم أسلم أخيَّ لهم حتى نموت جميعاً أو نعيش معاً.

تفرق اخوة محمد بن عبد الله في البلاد

وقد كان تفرق اخوة محمد وولده في البلدان يدعون إلى إمامته؛ فكان فيمن توجه ابنه علي بن محمد إلى مصر، فقتل بها، وسار [ابنه] عبد الله إلى خراسان فهرب لما طلب إلى السندي، فقتل هناك، وسار ابنه الحسن إلى اليمن؛ فحبس فمات في الحبس، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة، ومضى أخوه يحيى إلى الري ثم إلى طبرستان، فكان من خبره في أيام الرشيد ما سنورده فيما يرد من هذا الكتاب، ومضى أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب فأجابه خلق من الناس، وبعث المنصور من أغاثاته [بالاسم] فيما احتوى عليه من مدن المغرب.

الأدلة

قام ولده إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن مقامه، فَعُرِفَ بالبلد بهم، فقيل: بلد إدريس بن إدريس، وقد أتينا على خبرهم عند ذكرنا الخبر عبيد الله صاحب المغرب وبنائه المدينة المعروفة بالمهدية، وخبر أبي القاسم ابنه بعده، وانتقالهم من مدينة سلمية من أرض حمص إلى المغرب، في الكتاب الأوسط، ومضى إبراهيم أخوه إلى البصرة وظهر بها، فأجابه أهل فارس والأهواز وغيرهما من الأمصار [وسار من البصرة] في عساكر كثيرة من الزيدية وجماعة من يذهب إلى قول البغداديين من المعتزلة وغيرهم، ومعه عيسى بن زيد بن [علي بن] الحسن بن علي بن [الحسين بن علي] بن أبي طالب رضي الله عنهم، فسير إليه المنصور عيسى بن موسى وسعيد بن سلم في العساكر، فحارب حتى قتل في الموضع المعروف بباخرمي، وذلك على ستة عشر فرسخاً من الكوفة من أرض الطف، وهو الموضع الذي ذكرته الشعراة من رثي يابراهم، فمن ذكر ذلك دغيل بن علي [الخزاعي، فقال] في قصيدة [له] أولها:

مدارس آياتٍ خلَّتْ من تلاوة ومنزلٍ وَخَيِّ مُقْفِر العرصات

ومنها قوله فيهم:

قبور بکوفان، وأخرى بطيبة وأخرى بقَنْخَ، يا لها صلوات وأخرى بأرض الجوزجان محلها وقبر بباخرمي لدى الغَرَبَاتِ
وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعيناً رجل، وقبل: خمسيناً [رجل].

وروى بعض الأخباريين عن حماد التركي قال: كان المنصور نازلاً في ذيئر على شاطئ دجلة في الموضع الذي يسمى اليوم الخلد، ومدينة السلام، إذ أتى الربع في وقت الهاجرة، والمنصور [نائم] في البيت الذي هو فيه، وحماد قاعد على الباب [والخريطة بيد الربع، بخروج محمد بن عبد الله] فقال: يا حماد افتح الباب، فقلت: الساعة هجع أمير المؤمنين، فقال: افتح ثكلاًتك أملك، قال: فسمع المنصور كلامه، فنهض يفتح الباب بيده وتناول منه الخريطة، فقرأ ما فيها من الكتب وتلا هذه الآية ﴿وَلَقَيْنَا بِنَهْمَهُ الْمَدَوَّهَ وَالْبَعْصَةَ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَكُمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرَبِ أَطْفَاهَا اللَّهُ وَيَسِّعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادُوا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤] ثم أمر بإحضار الناس والقواد والمالي وأهل بيته وأصحابه، وأمر حماداً التركي بإسراج الخيل، وأمر سليمان بن مجالد بالتقدم، [والمسيب بن زهير فأخرج الأقوات] ثم خرج فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال:

ما لي أكْفُكُ عن سعد ويشتمني وإن شتمتبني بني سعد لقد سكنوا؟
جهلاً علينا وجبننا عن عدوهم لبست الخصلتان الجهل والجبن

أما والله لقد عجزوا عن أمير قمنا له، فما شكروا [القائم] ولا حمدوا الكافي، ولقد مهدوا فاستوعروا، وغبطوا فغمطوا، فماذا تحاول مني؟ أسيقي رنقاً على كدر؟ كلا والله، لأن أموراً معززاً أحب إلي [من] أن أحيا مستذلاً، ولئن لم يرض العفو مني ليطلبنَّ ما لا يوجد عندي، والسعيد من وعظ بغيره، ثم نزل، فقال: يا غلام، قدم، فركب من فوره إلى معسكره، وقال: اللهم لا تكثنا إلى خلقك فضيع، ولا إلى أنفسنا فنعجز [فلا تكلنا إلا إليك].

وذكر أن المنصور هيئت له عجة من معه وسكر فاستطابها، فقال: أراد إبراهيم [أن] يحرمني هذا وأشباهه.

وذكر [أن] المنصور قال يوماً لجلسائه بعد قتل محمد وإبراهيم: تالله ما رأيت رجالاً أنسخ من الحجاج لبني مروان، فقام المسيب بن زهير الضبي فقال: يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه، والله ما خلق الله على جديد الأرض خلقاً أعز علينا من نبينا ﷺ، وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك، و فعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟ فقال له المنصور: اجلس لا جلس.

وقد ذكرنا أنه كان قبض على عبد الله بن الحسن بن علي رضي الله عنه [ومحمد وإبراهيم ابني عبد الله] وعلى كثير من أهل بيته، وذلك في سنة أربع

وأربعين ومائة في مُنصرَفِه من الحج، فحملوا من المدينة إلى الربذة من جادَّة العراق، وكان ممن حمله مع عبد الله بن الحسن إبراهيم بن الحسن بن الحسن، وأبو بكر بن الحسن بن الحسن، وعلى الخير، وأخوه العباس، وعبد الله بن الحسن بن الحسن [والحسن بن عثمان بن عفان أخو عبد الله بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين بن علي، وجدتهما فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فجرد المنصور بالربذة محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فضريه ألف سوط، وسألَه عن ابْنِي أخيه محمد وإبراهيم، فأنكر أن يعرف مكانهما، فسألَتْ جدته العثمانية في ذلك الوقت، وارتَحَلَ المنصور عن الربذة وهو في قبة، وأوهنَ القوم بالجهد، فحملوا على المحامل المكشوفة، فمر بهم المنصور في قبته على الجمازة فصاح به عبد الله بن الحسن: يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر، فصبرهم إلى الكوفة، وحبسوا في سردار تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسود الليل، وخَلَى منهم سليمان وعبد الله ابن داود بن الحسن وموسى بن عبد الله بن الحسن والحسن بن جعفر، وحبس الآخرين من ذكرنا [هم] حتى ماتوا، وذلك على شاطئ الفرات بالقرب من قطْرَة الكوفة، ومواضعهم بالكوفة تُزار في هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد هام عليهم الموضع، وكانو يتوضؤون في مواضعهم فاشتتدت عليهم الرائحة، فاحتال بعض مواليهم حتى أدخل إليهم شيئاً من الغالية فكانوا يدفعون بشمها تلك الروائح المتتنَّة، وكان الورم [ييدو] في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه.

وذكر [من وجه آخر] أنهم لما حبسوا في هذا الموضع أشكَلَ عليهم أوقات الصلاة فجزَّوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد منهم من حزبه، وكان عدد من بقي منهم خمسة، فمات إسماعيل بن الحسن، فترك عندهم حتى جَيَّفَ، فصعق داود بن الحسن فمات، وأتى برأس إبراهيم بن عبد الله فوجه به المنصور مع الربع إليهم، فوضع الرأس بين أيديهم وعبد الله يصلِّي فقال له إدريس أخوه: أسرع في صلاتك يا أبا محمد، فالتفت إليه وأخذ الرأس فوضعه في حجره وقال له: أهلاً وسهلاً يا أبي القاسم، والله لقد كنت - ما علمْتُك - من الدين قال الله عز وجل فيهم: ﴿الَّذِينَ يُؤْفَوْنَ يَهْدِي اللَّهُ وَلَا يَنْقُضُونَ الْبِيْتَقَ وَالَّذِينَ يَصِلُّونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٠] إلى آخر الآية فقال له الربع: كيف أبو القاسم في نفسه؟ قال: كما قال الشاعر:

فَتَى كَانَ يَحْمِيهِ مِنَ الذُّلِّ سَيْفَهُ وَيَكْفِيهِ أَنْ يَأْتِيَ الذُّنُوبَ اجْتِنَابَهَا

ثم التفت إلى الربيع فقال [له]: قل لصاحبك قد مضى من [بؤسنا أيام، ومن نعيمك] أيام، والملتقى يوم القيمة، قال الربيع: فما رأيت المنصور قط أشد انكساراً منه في الوقت الذي بلغته فيه هذه الرسالة، فأخذ هذا المعنى العباس بن الأحنف فقال:

فإن تلحظي حالي وحالك مَرَّةً بنظرة عين عن هوى النفس تحجب
تَرَى كل يوم مَرَّةً من بُؤس عيشتي تمر بيوم من نعيمك يُحسب

قال المسعودي: ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن و [إخوته والنفر الذين كانوا معه من] أهل بيته صعد المنبر بالهاشمية، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا، وأهل دعوتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا، إن ولد ابن أبي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير، فقام فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فما أفلح، وحكم الحكمين؛ فاختلت عليه الأمة، وافتقرت الكلمة، ثم وَثَبَ عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه، ثم قام بعده الحسن بن علي رضي الله عنه فوالله ما كان برجل، عرضت عليه الأموال فقبلها، وَدَسَّ إِلَيْهِ معاوية إِنِّي أَجْعَلُكَ وَلِيَ عَهْدِي، فخلعه وانسلخ له مما كان فيه، وسلمه إليه، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غداً أخرى، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه، ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراء في الفتنة، أهل هذه المدرة أهل الكوفة، وأشار إلى الكوفة، فوالله ما هي لي بحرب فأحاربها، ولا هي لي بسلم فأسلامها، فرق الله بين وبينها! فخذلوه وأبرئوا أنفسهم منه، فأسلموه حتى قتل، ثم قام من بعده زيد بن علي ناشد الله في الخروج، وقال له: لا تقبل أقاويل أهل الكوفة فإننا نجد في محمد بن علي ناشد الله في الخروج، وقتل له: فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه، وقد كان أبي علمنا أن بعض أهل بيتنا يُضليل بالكُنَاسَةِ، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب، وناشد الله بذلك عمي داود وحَذَرَ رحْمَهُ اللهُ عَذَرَ أَهْلَ الْكُوفَةِ، فلم يقبل، وتم على خروجه، فقتل وصلب بالكُنَاسَةِ، ثم وَثَبَ بَنُو أُمِّيَّةٍ عَلَيْنَا فَابْتَزُونَا شَرْفَنَا، وأَذْهَبُوا عَزْنَا، وَاللهُ مَا كَانَ لَهُمْ عَنْدَنَا تِرَةً يَطْلُبُونَهَا، وَمَا كَانَ ذَلِكَ كَلَهُ إِلَّا فِيهِمْ وَبِسَبِّ خَرْوَجَهُمْ، فَنَفَوْنَا عَنِ الْبَلَادِ، فَصَرَنَا مَرَّةً بِالطَّائِفِ، وَمَرَّةً بِالشَّامِ، وَمَرَّةً بِالسَّرَّاَةِ، حَتَّى ابْتَعَثْنَا اللَّهَ لَنَا شِيَعَةً وَأَنْصَارًا، فَأَحْيَا اللَّهُ شَرْفَنَا وَعَزْنَا بِكُمْ، [يا أهل خراسان، ودفع بحقكم أهل الباطل] وأظهر لنا حقنا، وأصار إلينا [أمرنا و] ميراثنا من نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقر الحق في قراره، وأظهر الله مناره، وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فيها علينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسداً منهم لنا وبغياناً علينا

بما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه ، وجبناً من بنى أمية ، وجراءة علينا ، إني والله يا أهل خراسان ما أتيت ما أتيت من هذا الأمر من جهالة [ولا عن ظنة] ولقد كنت تبلغني عنهم بعض السقم ولقد كنت سميت لهم رجالاً فقلت: قم أنت يا فلان ، فخذ معك من المال كذا وكذا ، وقم أنت يا فلان فخذ معك من المال كذا وكذا ، وحدوث لهم مثلاً يعملون عليه فخرجو حتى أتوا المدينة فلقوهم فدسوا ذلك المال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايدهم لي ، فاستحللت به دماءهم وحلت عند ذلك بقضفهم يبعي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي ، ثم قرأ في درج المنبر ﴿وَحِلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُلِّيَ أَشْيَاعُهُمْ مِنْ قَبْلِ إِلَيْهِمْ كَانُوا فِي شَيْءٍ مُّرْسِلِينَ﴾ [سبأ: ٥٤].

بين المنصور والربيع

قال المسعودي : وقال المنصور للربيع يوماً: اذكر حاجتك ، قال: يا أمير المؤمنين ، حاجني أن تحب الفضل [ابني] فقال له: ويحك!! إن المحبة إنما تقع بأسباب ، قال: يا أمير المؤمنين ، قد أمكنك الله من إيقاع السبب ، قال: وما ذاك؟ قال: تُفضيل عليه ، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك ، وإذا أحبك أحببته [قال: والله قد أحببته قبل إيقاع السبب ، ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شيء؟ قال: لأنك] إذا أحببته كبر عنك صغير إحسانه ، وصغر عنك كبير إساءاته ، وكانت ذنبه كذنب الصبيان ، وحاجته إليك كحاجة الشفيع العريان .

وقال المنصور يوماً للربيع: ويحك يا ربيع!! ما أطيب الدنيا لو لا الموت ، قال له: ما طابت إلا بالموت ، قال: وكيف ذلك؟ قال: لو لا الموت لم تقدر هذا المقعد ، قال: صدقت.

بين المنصور وعمرو بن عبيد

وذكر إسحاق بن الفضل قال: بينما أنا على باب المنصور إذ أتى عمرو بن عبيده فنزل عن حماره ، وجلس ، فخرج إليه الربيع ، فقال له: قم أبا عثمان ، بأبي أنت وأمي؟ فلما دخل على أبي جعفر أمر أن تفرش له لبود بقربه ، وأجلسه إليه بعد ما سلم ، ثم قال: يا أبا عثمان ، عظني بموعظة ، فوعظه؟ بمواعظ ، فلما أراد النهوض قال: أمرنا لك بعشرة آلاف ، قال: لا حاجة لي فيها ، قال أبو جعفر: والله لتأخذنها ، قال: لا والله لا آخذنها ، وكان المهدى حاضراً ، فقال: يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت عمرو إلى أبي جعفر فقال: من هذا الفتى؟ قال: هذا محمد ابني ، وهو المهدى ، وهو ولئ عهدي ،

قال: أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار، ولقد سميته باسم ما استحقّه عملاً، ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه، ثم أقبل عمرو على المهدي فقال: نعم يا ابن أخي، إذا حلف أبوك أخْثَه عُمُوك؛ لأن أباك أقوى على الكفارات من عُمُوك، فقال له المنصور: هل لك من حاجة يا أبا عثمان؟ قال: نعم، قال: ما هي؟ قال: أن لا تبعث إلي حتى آتِيك، قال: إذا لا نلتقي، قال: هي حاجتي، فمضى وأتبعه المنصور بطرفه، ثم قال:

كُلُّكُمْ يَمْشِي زُوِيدٌ كُلُّكُمْ يَطْلُبْ صَيْدٍ
غَيْرُ عُمَرُ بْنُ عَبْيَدٍ

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور بعد ما بايع للمهدي، فقال له: يا أبا عثمان هذا ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، فقال له عمرو: يا أمير المؤمنين، أراك قد وطَذَتْ له الأمور، وهي تصير إليه، وأنت عنه مسؤول، فاستعبر المنصور وقال له: عظني يا عمرو، قال: يا أمير المؤمنين، إن الله [قد] أعطاك الدنيا بأسرها، فأشترِ نفسك منه ببعضها، وإن هذا الذي [أصبح] في يديك لو بقي في يد غيرك لم يصل إليك، فاحذر ليلة تمغض بيوم لا ليلة بعده، وأشارد:

بِأَيْهَا ذَا الَّذِي قَدْ غَرَّهُ الْأَمْلُ
وَدُونَ مَا يَأْمُلُ التَّنْغِيْصُ وَالْأَجْلُ
أَلَا تَرَى إِنَّمَا الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا
كَمْنَزُلُ الرَّكْبِ حَلْوًا ثَمَّتَ ارْتَحَلُوا
خُسْنَفُهَا رَصَدٌ، وَعِيشَهَا نَكَدٌ
تَظَلُّ تَقْرَعُ بِالرُّوعَاتِ سَاكِنَهَا
وَصَفْوُهَا كَدْرٌ، وَمَلْكُهَا ذُولٌ
فَمَا يَسْوَغُ لَهُ لَيْنٌ وَلَا جَذْلٌ
تَظَلُّ فِيهِ بَنَاتُ الدَّهْرِ تَنْتَصِلُ
وَكُلُّ عَشْرَةِ رِجْلٍ عَنْهَا زَلْلٌ
وَالنَّفْسُ هَارِبَةٌ، وَالْمَوْتُ يَرْضُدُهَا
وَالْمَرْءُ يَسْعِي لِمَا يَبْقَى لَوْارَثَهُ

موت عمرو بن عبيد

ومات عمرو بن عبيد في أيام المنصور سنة أربع وأربعين ومائة [وقيل: سنة خمس وأربعين ومائة] ويكتنى أبا عثمان، وهو عمرو بن عبيد بن باب، مولىبني تميم، وكان جده باب من سبئي كابل من رجال السندي، وكان شيخ المعتزلة [في وقته] ومفتيها، وله خطب ورسائل، وكلام كثير في العدل والتوحيد وغير ذلك. وقد أتينا على أخباره والغرر من كلامه ومناظراته في كتابنا في المقالات في أصول الديانات.

وفي سنة إحدى وأربعين ومائة شخص المنصور إلى بيت المقدس فصلَّى فيه لنذر كان عليه وانصرف.

موت هشام بن عروة

وفي سنة ست وأربعين ومائة مات هشام بن عروة [بن الزبير] وهو ابن خمس وثمانين، وكان إذا أسمعه رجل كلاماً قال: أنا أرفع نفسِي عنك، ثم نازع علي بن الحسن، فأسرع إليه هشام، فقال له علي: إني أدعوك إلى ما كنت تدعو إليه.

موت أبي حنيفة النعمان وجماعة

وفي سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت مولى ثيم اللات من بكر بن وائل في أيام المنصور ببغداد، توفي وهو ساجد في صلاته، وهو ابن تسعين سنة [وفيها مات عبد الملك بن عبد العزيز بن جرير المكي، مولى خالد بن أسد، ويكتنى أبا الوليد، وهو ابن سبعين سنة، وفيها مات محمد بن إسحاق بن بسّار مولى قيس بن مخرمة من بني المطلب، ويكتنى أبا عبد الله، ويقال: مات سنة إحدى، ويقال: سنة اثنتين وخمسين ومائة].

وفي سنة سبع وخمسين مات الأوزاعي، ويكتنى أبا عمرو عبد الرحمن بن عمرو من أهل الشام، وإنما كان متزلاً فيهم - أعني الأوزاع - ولم يكن منهم، وذلك بدمشق [فأضيف إليهم، وكان من سبعة أهل اليمن] في آخر أيام المنصور، وله تسعون سنة.

[وفي أيام المنصور مات ليث بن أبي سليم الكوفي، مولى عتبة بن أبي سفيان، سنة ثمان وخمسين ومائة] وفي سنة ست وخمسين ومائة مات سوار بن عبد الله القاضي، وفي سنة أربع وخمسين ومائة مات أبو عمرو بن العلاء في أيام المنصور.

مقتل عبد الله بن علي، عم المنصور

وطال حبس عبد الله بن علي بأمر المنصور، وأقام في محبسه تسع سنين، [وقيل غير ذلك] فلما أراد المنصور الحجَّ في سنة تسع وأربعين ومائة حوله من عنده إلى عيسى بن موسى، وأمره بقتله، وأن لا يعلم بذلك أحداً، فبعث عيسى بن موسى إلى ابن أبي ليلي وابن شبرمة، فشاورهما في ذلك، فقال ابن [أبي ليلي]: افضل بما أمرك به أمير المؤمنين، وقال ابن [شبرمة]: لا تفعل، فأبى أن يقتله، وأظهر لأبي جعفر أنه قتله، وشاع ذلك؛ فكلم بنو على [المنصور] في أخيهم عبد الله، فقال لهم: هو عند

عيسى بن موسى، فلما قدموا مكة أتوا عيسى بن موسى فسألوه عنه؟ فقال: قد قتله، فرجعوا إلى أبي جعفر، فقالوا: زعم عيسى أنه قد قتل، فأظهر أبو جعفر الغضب على عيسى، وقال: يقتل عمي؟ والله لأقتلنـه، وكان أبو جعفر أحـبـ أن يكون عيسى قتله فيقتله به فيستريح منها جميعـا، قال: فدعا بهـ، فقال: لم قتلت عمـي؟ قال: أنت أمرتني بقتلهـ، قال: لم أمرك بذلكـ، فقال: هذا كتابـكـ إلىـ فيهـ، قال: لم أكتبهـ، فلما رأى الجـدـ من المنصورـ، وتخوفـ علىـ نفسهـ قال: هو عندي لم أقتلهـ، قال: ادفعـهـ إلىـ أبي الأزـهرـ المهلـبـ بنـ أبيـ عـيسـىـ، فدفعـهـ إـلـيـهـ، فـلـمـ يـزـلـ عـنـهـ مـحـبـوـسـاـ، ثـمـ أـمـرـهـ بـقـتـلـهـ، فـدـخـلـ عـلـيـهـ وـمـعـهـ جـارـيـةـ لـهـ فـخـنـقـهـ حـتـىـ مـاتـ ثـمـ مـدـهـ عـلـىـ الفـراـشـ، ثـمـ أـخـذـ الـجـارـيـةـ ليـخـنـقـهـاـ فـقـالـتـ: ياـ عـبـدـ اللهـ، قـتـلـةـ غـيرـ هـذـهـ فـكـانـ أـبـوـ الأـزـهـرـ يـقـولـ: ماـ رـحـمـتـ أـحـدـ قـتـلـهـ غـيرـهـ، فـصـرـفـتـ وـجـهـيـ عـنـهـ، وـأـمـرـتـ بـهـ فـخـنـقـتـ، وـوـضـعـتـهـ عـلـىـ الفـراـشـ، وـأـدـخـلـتـ يـدـهـ تـحـتـ جـنـبـهـ وـيـدـهـ تـحـتـ جـنـبـهـ كـالـمـعـتـقـينـ، ثـمـ أـمـرـتـ بـالـبـيـتـ فـهـدـمـ عـلـيـهـمـاـ، ثـمـ أـخـضـرـنـاـ القـاضـيـ اـبـنـ عـلـاثـةـ وـغـيرـهـ فـنـظـرـوـاـ إـلـىـ عـبـدـ اللهـ وـالـجـارـيـةـ مـعـتـقـيـنـ عـلـىـ تـلـكـ الـحـالـ، ثـمـ أـمـرـ بـهـ فـدـنـ فـيـ مـقـبـرـةـ أـبـيـ سـوـيدـ بـيـابـ الشـامـ مـنـ بـغـدـادـ فـيـ الـجـانـبـ الـغـرـبـيـ.

قال المسعودي: وذكر عبد الله بن عياش المתוوف قال: قال المنصور يوماً ونحن عنده: أتعرفون جباراً أول اسمه عين قتل جباراً أول اسمه عين، وجباراً أول اسمه عين؟ قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين، عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال المنصور: أفتعرفون خليفة أول اسمه عين قتل جباراً أول اسمه عين، وجباراً أول اسمه عين، وجباراً أول اسمه عين؟ قلت: نعم، أنت يا أمير المؤمنين، قلت عبد الرحمن بن مسلم، وعبد الجبار بن عبد الرحمن، وعمك عبد الله بن علي سقط عليه البيت، قال: بما ذنبي إن كان سقط عليه البيت؟ قلت: لا ذنب لكـ، فتبسم ثم قال: هل تحفظ الآيات التي قالتها زوجة الوليد بن عبد الملك أخت عمرو بن سعيد حين قتل عبد الملك أخاهـ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، خـرـجـتـ فـيـ الـيـوـمـ الـذـيـ قـتـلـ فـيـهـ أـخـوـهـاـ عـمـرـ وـهـيـ حـاسـرـةـ تـنـشـدـ:

أيا عين جودي بالدموع على عمرو عشيـةـ يُبـتـئـ الخـلاـفـةـ بـالـقـهـرـ
غـدرـتـ بـعـمـرـوـ يـاـ بـنـيـ بـيـطـ باـطـلـ
وـكـلـكـمـ يـبـنـيـ الـبـيـوتـ عـلـىـ عـدـرـ
وـمـاـ كـانـ عـمـرـوـ عـاجـزاـ، غـيرـ أـنـهـ
كـأنـ بـنـيـ مـرـوـانـ إـذـ يـقـتـلـوـنـهـ
لـحـيـ اللـهـ دـنـيـاـ تـعـقـبـ النـارـ أـهـلـهـاـ
وـتـهـتـكـ ماـ بـيـنـ الـقـرـابـةـ مـنـ سـتـرـ

ألا يا لقومي للوفاء ولللغدر وللمغلقين الباب فسراً على عمرو فرُحْنَا وراح الشامتون عَشِيَّةً كان على أعناقهم فلق الصخر قال ابن عياش: فقال المنصور: فما الآيات التي بعث بها عمرو بن سعيد إلى عبد الملك بن مروان؟ قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين كتب إليه:

يريد ابن مروان أُموراً أظنها ستتحمله مني على مركب ضغبٍ لينقض عهداً كان مروان شَدَّهْ وأدرك فيه بالقطيعة والكذب فقدمته قبلي، وقد كنت قبله ولو لا انتقامي كان كرب من الكرب وكان الذي أعطيت مروان هَفَوَةً غلت بها رأياً، وخطباً من الخطب فإن تُنفذوا الأمر الذي كان بيننا فقلنا جميعاً بالسُّهُولة والرُّحْب وإن يُعطَها عَبْدُ العزيز ظَلَمَةً فأؤلئى بها مِنَّا ومنه بنو حَرْبٍ

وفاة المنصور

وكان مولد المنصور في السنة التي مات فيها الحجاج بن يوسف، وهي سنة خمس وتسعين، وكان يقول: ولدت في ذي الحجة، وأُعذرت في ذي الحجة، ووليت الخلافة في ذي الحجة، وأحسب المنية تكون في ذي الحجة، فكان كما ذكر.

وحدث الفضل بن الربيع قال: كنت مع المنصور في السفر الذي مات فيه فنزل منزلًا من المنازل، فبعث إلى وهو في قبة ووجهه إلى الحائط، فقال لي: ألم أنهك أن تدع العامة يدخلون هذه المنازل فيكتبوا فيها ما لا خير فيه؟ قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ألم ترى على الحائط مكتوباً.

أبا جعفر حَائِث وفاتك، وانقضت سُنُوك، وأمْرَ الله لا بُدَّ نَازِلٌ
أبا جعفر، هل كاهن أو مُنَجِّم يرُدُّ قضاء الله، أم أنت جاهل؟

قال: قلت: والله ما أرى على الحائط شيئاً، وإن لنقي أبيض، قال: والله، قلت: الله، قال: إنها والله إذا نفسي نعيت إلى الرحيل، بادر بي إلى حَرَم ربِّي وأمنِي هارباً من ذنبي وإسرافي على نفسي. فرحلنا وقد ثقل، حتى إذا بلغنا بئر ميمون، قلت له: هذه بئر ميمون، وقد دخلت الحرم [قال: الحمد لله] فتوفي بها.

صفات المنصور

وكان [المنصور] من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز كل

وصف ، وكان يعطي الجزيل والخطير ما كان عطاوه حزماً ، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعاً ، وكان كما قال زياد: لو أن عندي ألف بغير عندي بغير أجرب لقمت عليه قيام مَنْ لا يملك غيره ، وخلف أبو جعفر ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار ، وكان مع هذا يضن بماله ، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكاريق والجلود ، وعليه الحطب والتواابل ، ومن كرمه أنه وصل عمومته وهم عشرة في يوم واحد بعشرة آلاف درهم ، وأسماؤهم: عبد الله بن علي ، وعبد الصمد بن علي ، وإسماعيل بن علي ، وعيسي بن علي ، وداود بن علي ، وصالح بن علي ، وسليمان بن علي ، وإسحاق بن علي ، ومحمد بن علي ، ويحيى بن علي ، وكان يعمل في بناء مدينة بغداد التي بناها وعرفت به في كل يوم خمسون ألف رجل .

أولاده

وكان له من الولد: المهدي وجعفر ، وأمهما أم موسى الحميرية ، وتوفي جعفر في حياة أبيه المنصور ، وسلامان وعيسي ويعقوب وجعفر الأصغر ، من كردية ، وصالح الملقب بالسكن ، وبنت تسمى عالية .

قال المسعودي: وللمنصور أخبار حسان مع الريبع وعبد الله بن عياش وجعفر بن محمد وعمرو بن عبيد وغيرهم ، وله خطب ومواعظ وسيارات في الملك ، قد أتينا على أكثرها في كتابنا أخبار الزمان [وال الأوسط] ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً تَدُلُّكَ على ما سبق في كتابنا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر خلافة المهدي محمد بن عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس

موجز

ويكنى أبي عبد الله، وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن [ذى] سهم بن أبي سَرْح، ومن ولد ذي رُعَيْنِ من ملوك حمير.

أخذ له البيعة بمكة الرَّبِيعُ مولاه يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، وأتاه ببني أبيه وبيعته منارة مولاه، فأقام يومين بعد ذلك، ثم خطب الناس [فنعى أباه ودعا إلى بيته] وبويع بيعة العامة، وكان مولده سنة سبع وعشرين ومائة، وخرج من مدينة السلام في سنة تسع وستين ومائة يريد بلاد قرماسين منبلاد الْدِيَّورِ، وقد وصف له طيب ماسبدان من بلاد السيروان وجرجان، فعدل إلى الموضع المعروف بأرزن والران، فمات بقريبة يقال لها ردين ليلة الخميس لسبعين بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة، فكانت خلافته عشر سنين وشهراً وخمسة عشر يوماً، وقبض عليه ثلاثة وأربعون سنة، وصلى عليه هارون الرشيد، وكان موسى الهاדי غائباً بجرجان، وقيل: إنه مات مسموماً في قطائف أكلها، ولبسه حسنة [جاريتها] وغيرها من حشمه المسوخ والسوداد جزاً عليه، فقال في ذلك أبو العناية:

رُخْنَ فِي الرَّوْشِيِّ وَاصْبَحَ عَلَيْهِنَّ الْمُسْوَخُ
كُلَّ نَطَاحٍ إِنْ عَاشَ، لَهُ يَوْمًا نَطُوخُ
لَسْتَ بِالْبَاقِي وَلَوْ عَمِرتَ مَا عُمِّرَ نَوْخُ
فَعَلَى نَفْسِكَ نُخْ إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ تَنْسُوخُ

ذكر جمل من أخبار وسيره، ولمع مما كان في أيامه

المهدي وشريك القاضي

ذكر الفضل بن الربيع قال: دخل شريك [القاضي] على المهدي يوماً، فقال له: لا بد أن تجيئني إلى حضرة من ثلاثة [خصال] قال: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: إما أن تلي القضاء، أو تحدث ولدي وتعلمهم، أو تأكل عندي أكلة، ففكرا ثم قال: الأكلة أخفهن على نفسي فاحتبسه وقدم إلى الطباخ أن يصلح له ألواناً من المخ المعقود بالسكر الطبرزد والعسل، فلما فرغ من غذائه قال له القيم على المطبخ: يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً، قال الفضل بن الربيع: فحدثهم والله شريك بعد ذلك، وعلم أولادهم، وولي القضاء لهم، ولقد كتب بأزارقه إلى الجهد فضايقه في النقص، فقال له الجهد: إنك لم تبع بزاً، قال له شريك: بل والله لقد بعث أكبر من البز، لقد بعث ديني.

المهدي وعمرو بن الربيع يجوعان في طريقةهما للصيد

وقال الفضل بن الربيع: خرج المهدي متزهاً ومعه عمرو بن ربيع مولاه، وكان شاعراً، فانقطع عن العسكر، والناس في الصيد، وأصحاب المهدي جوع شديد، فقال لعمرو: ويحك! ازئن لي إنساناً نجد عنده ما نأكل، فما زال عمرو يطوف إلى أن وجد صاحب مقلة وإلى جانبها كوخ له، فصعد إليه فقال له: هل عندك شيء يؤكل؟ قال: نعم، رفاق من خبز شعير ورثيّة، وهذا البقل والكراث، فقال له المهدي: إن كان عندك زيت فقد أكملت، قال: نعم، عندي فضة منه، فقدم إليهما ذلك، فأكلوا أكلة كثيراً، وأمعن المهدي حتى لم يبق فيه فصلة، فقال لعمرو: قل شعراً تصف به ما نحن فيه، فقال عمرو:

إِنَّ مِنْ يُطْعِمُ الرَّثِيشَةَ بِالْزَيْتِ وَخُبْزَ الشَّعِيرِ بِالْكُرَاثِ
لِحَقِيقَ بِصَفَعَةٍ أَوْ بِثَنْتَيْنِ لِسُوءِ الصَّنِيعِ أَوْ بِثَلَاثِ

فقال المهدى : بئس والله ما قلت ، ولكن أحسن من ذلك :

لحقيقة ببدنة أو بثنتين لحن الصنيع أو بثلاث

ووافى العسكر ، ولحقته الخزائن والخَدْمُ والموكب ، فأمر لصاحب المقلة بثلاث
يَدِير دراهم .

ومرة أخرى يجوع المهدى في طريقه للصيد

قال : وعارض به فرسه مرة أخرى ، وقد خرج للصيد ، فدفع إلى خباء أعرابي وهو جائع ، فقال : يا أعرابي هل عندك قرئي فإني ضيفك ؟ قال : أراك [طريراً] جسيماً عمياً ، فإن احتملت [الموجود] فربنا لك ما يحضرنا ، قال : هات ما عندك [فأخرج له خبز ملة] ، فأكلها ، وقال : طيبة ، هات ما عندك ، فأخرج إليه لبناً في كرش سقاء ، فشرب ، وقال : طيب ، هات ما عندك] فأخرج له فضلة نبيذ في ركوة ، فشرب الأعرابي واحداً وسقاها ، فلما شرب قال المهدى : أتدرى من أنا ؟ قال : لا والله ، قال : أنا من خدم الخاصة ، قال : بارك الله في موضعك وحباك من كنت ، ثم شرب الأعرابي قدحاً وسقاها ، فلما شرب قال له : يا أعرابي أتدرى من أنا ؟ قال : نعم ذكرت أنك من خدم الخاصة ، قال : لست كذلك قال : فمن أنت ؟ قال : أنا أحد قواد المهدى ، قال : رحبت دارك ، وطاب مزارك ، ثم شرب الأعرابي قدحاً وسقاها ، فلما شرب الثالث قال : أعرابي ، أتدرى من أنا ؟ قال : نعم ، زعمت أنك أحد قواد المهدى ، قال : فلست كذلك [قال : فمن أنت ؟ قال : أمير المؤمنين [بنفسه] ، فأخذ الأعرابي ركوة فوكانها ، فقال له المهدى : اسقنا ، قال : لا والله لا تشرب منها جرعة فما فوقها ، قال : ولم ؟ قال : سقيتك قدحاً ؟ فزعمت أنك من خدم الخاصة ، فاحتملناها لك ، ثم سقيناك آخر فزعمت أنك أحد قواد المهدى [فاحتملناها لك] ، ثم سقيناك الثالث فزعمت أنك أمير المؤمنين ، ولا والله ما آمن أن أسبيك الرابع فتقول : إنك رسول الله فضحك المهدى ، وأحاطت به الخيل ، فنزل إليه أبناء الملوك والأشراف ، فطار قلب الأعرابي ، فلم يكن همه إلا النجاة [بنفسه] ، وجعل يشتند في عدوه] فقال له المهدى : لا بأس عليك ، وأمر له بصلة [جزيلة من مال] وكسوة وبزة والله ، فقال : أشهد أنك صادق ، ولو ادعيت الرابعة الخامسة لخرجت منها ، فضحك المهدى منه حتى كاد أن يقع عن فرسه حين ذكر الرابعة والخامسة ، وجعل له رزقاً ، وألحقه بخواصه .

وزراء المهدى

وكان وزيره أبو عبيد الله معاوية بن عبد الله الأشعري، وهو جد محمد بن عبد الوهاب [الكاتب] وكان كاتبه قبل الخلافة، فقتل المهدى ابناً لأبي عبيد الله على الزندقة، فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه [فعزله] وعاش أبو عبيد الله إلى سنة سبعين ومائة، ثم اختص المهدى بعقوب بن داود السلمى، وخرج كتابه على الدواوين: إن أمير المؤمنين قد آخاه، وكان يصل إليه في كل وقت دون الناس كلهم، ثم اتهمه بشيء من أمر الطالبين، فَهُمْ بقتله، ثم حبسه [فبقي في حبسه] إلى أيام الرشيد، فأطلقه الرشيد، وقد قيل في أمره: إنه كان يرى الإمام في الأكبر من ولد العباس، وأن غير المهدى من عمومته كان أحق بها منه.

خصال المهدى وأعماله

وكان المهدى محباً إلى الخاص والعام؛ لأنّه افتتح أمره بالنظر في المظالم والكف عن القتل، وأمن الخائف، وإنصاف المظلوم، وبسط يده في الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار، سوى ما جباه في أيامه، فلما فرغت بيوت الأموال أتى أبو حارثة النهري خازن بيوت أمواله، فرمى بالمفاتيح بين يديه، وقال: ما معنى مفاتيح بيوت فرع؟ ففرق المهدى عشرين خادماً في جباية الأموال، فوردت الأموال بعد أيام قلائل فتشاغل أبو حارثة [النهري] بقبضها وتصححها] عن الدخول على المهدى ثلاثة أيام فلما دخل عليه قال: ما أخرك؟ فقال: الشغل بتصحح الأموال، فقال: أنت أعرابي أحمق، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا إذا احتجنا إليها، قال أبو حارثة: إن الحادثة إذا حدثت لم تتطرق حتى توجه في استخراج الأموال وحملها، وقيل: إنه فرق في عشرة أيام من صلب ماله عشرة آلال [ألف] درهم، فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه خطياً فقال: وللمهدى أشباه، فمنها القمر الظاهر، والربيع الباكر، والأسد الخادر، والبحر الراخر، فاما القمر الظاهر فأشبه منه حسنة وباه، وأما الربيع الباكر فأشبه منه طيبة وهواء، وأما الأسد الخادر فأشبه منه غرته ومضاه، وأما البحر الراخر فأشبه منه وجوده وسخاره.

الخيزان وامرأة مروان بن محمد

وكان الخيزران أم الهادى والرشيد في دارها المعروفة [اليوم] بأشناس، وعندما أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات [بني] هاشم، وهي على بساط أرمني وهن على

نمارق أرمنية، وزينب بنت سليمان بن علي أعلاهن مرتبة، فبينا هن كذلك إذ دخل خادم لها فقال: بالباب امرأ ذات حسن وجمال في أطمار رثة تأبى أن تخبر باسمها وشأنها غيركن، وتروم الدخول عليك، وقد كان المهدى تقدم إلى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان بن علي، وقال لها: اقتبسى من آدابها، وخذنى من أخلاقها؛ فإنها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا، فقالت الخيزران للخدم: ائذن لها، فدخلت امرأ ذات بهاء وجمال في أطمار رثة، فتكلمت فأوضحت عن بيان [على لسان] فقالوا لها: من أنت؟ قالت: أنا مزنة امرأة مروان بن محمد، وقد أصارني الدهر إلى ما ترين، والله ما الأطمار [الرثة] التي على إلا عارية، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر وصار لكم دوننا لم تأمن مخالطة العامة على ما نحن فيه من الضرر على بادرة إلينا تزيل موضع الشرف، فقصدناكم لنكون في حجابكم على أية حالة كانت، حتى تأتى دعوة من له الدعوة، فاغرورقت علينا الخيزران ونظرت إليها زينب بنت سليمان بن علي، فقالت [لها]: لا حَقْفَ اللَّهُ عَنْكَ يَا مزنة، أتذكرين وقد دخلت عليك بَحْرَانَ وَأَنْتَ عَلَى هَذَا الْبَسَاطِ بِعِينِهِ، [وَنَسَاءُ قَرَابَتْكُمْ عَلَى هَذِهِ النَّمَارِقَ] فتكلمت في جثة إبراهيم الإمام، فانتهريتني وأمرت بإخراجي، وقلت: ما للنساء والدخول على الرجال في آرائهم؟ فوالله لقد كان مروان أزعى للحق منك؛ لقد دخلت إليه فحلف أنه ما قتله، وهو كاذب، وخيرني بين أن يدفعه أو يدفع إلي جثته [فاخترت جثته] وعَرَضَ عَلَيَّ مَالًا فلم أقبله؛ فقالت مزنة: والله ما نظن هذه الحالة أدنى إلى ما ترين إلا بالفعال التي كانت مني؛ وكأنك استحسنته فحرّضت الخيزران على فعل مثله، إنما كان يجب أن تحضيها على فعل الخير وترك المقابلة بالشر؛ لتحرز بذلك نعيمها، وتصون بها دينها؛ ثم قالت لزينب: يا بنت عم؛ كيف رأيت صنيع الله بنا في العقوق فأحيبت التأسى بنا؛ ثم ولت باكية [وكرهت الخيزران أن تختلف زينب فيها] فغمزت الخيزران بعض جواريها، فعدلت بها إلى بعض المقاصير، وأمرت بتغيير حالها والإحسان إليها، فلما دخل المهدى عليها - وقد انصرفت زينب وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمته في كل عشية - قَسَّتْ عليه الخيزران قصتها، وما أمرت به من تغيير حالها، فدعا بالجارية التي ردتتها؛ فقال لها: لما ردّذتها إلى المقصورة ما الذي سمعتها تقول؟ قالت: لحقتها في الممر الفلامي وهي تبكي في خروجها مؤتسية وهي تقرأ **«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبًا كَانَتْ مَأْمَنَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَانَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُرْجُ وَالْغَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ»** [الحل: ١١٢]؛ ثم قال للخيزران: والله والله لو لم تفعلي بها ما فعلت، ما كلمنتك أبداً، وبكي بكاء كثيراً، وقال: اللهم إني أعوذ بك من زوال النعمة؛ وأنكَرَ فعل زينب، وقال: لولا أنها أكبر نسائنا

لحلفت ألا أكلمها؛ ثم بعث إليها بعض الجواري إلى مقصورتها التي أخليت لها، وقال للجارية: اقرئي عليها السلام [مني] وقولي لها يا بنت عم إن أخواتك قد اجتمعن عندي؛ ولو لا أني أغمرك لجتناك؛ فلما سمعت الرسالة علمت مراد المهدى؛ وقد حضرت زينب بنت سليمان؛ فجاءت مزنة تسحب أذياها؛ فأمرها بالجلوس؛ ورَبَّ بها [واستدناها] ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان بن علي، ثم تفاوضوا أخبار أسلافهم، وأيام الناس، والدول وتنقلها، فما تركت لأحد في المجلس كلاماً، فقال لها المهدى: يا بنت عم، والله لو لا أني لا أحب أن أجعل لقوم أنت منهم من أمرنا شيئاً لتزوجتك، ولكن لا شيء أضوئ لك من حجابي، وكونك مع أخواتك في قصري: لك ما لهن، وعليك ما عليهن، إلى أن يأتيك أمر من له الأمر فيما حكم به على لخلق، ثم أقطعها مثل مالهن من الإقطاع وأخدمها وأجازها، فأقامت في قصره إلى أن قبض المهدى وأيام الهادى وصدرأ من أيام الرشيد، وماتت في خلافته، لا يفرق بينها وبين نساءبني هاشم [وخواص حرائرهم وجواريهم] فلما قُبضت جزع الرشيد والحرم جزاً شديداً.

عبد الله بن عمرو بن عتبة يعزي المهدى وييهنه

وحدثنا الرياشي عن الأصمى: دخل عبد الله بن عمرو بن عتبة على المهدى يعزيه بالمنصور، فقال: آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك الله له فيما خلفه فيه، ولا مصيبة أعظم من [فقد] إمام والد، ولا عقبى أجل من خلافة الله على أولياء الله، فاقبل يا أمير المؤمنين [من الله أفضل] العطية، واحتسب عند الله أفضل الرزية.

عتبة الجارية وأبو العتاهية

ولما كثر تَشْبِيْبُ أبي العتاهية بعتبة جارية الخيزران شكت إلى مولاتها ما يَلْحَقُهَا من الشناعة، ودخل المهدى وهي تبكي بين يدي الخيزران، فسألها عن خبرها، فأخبرته، فأمر بإحضار أبي العتاهية، فأدخل إليه، فلما وقف بين يديه قال: أنت القائل في عتبة: الله بيضني وبين مولاتي أبدت لي الصدّ والملامات

ومتي وصلتك حتى تشكو صدّها عنك؟ قال: يا أمير المؤمنين [ما قلت ذلك بل أنا الذي أقول:

يا ناق حُشى بنا ولا تَهْنِي نفسك فيما ترين راحات
حتى تجيئي بنا إلى ملك تَوَجَّهُ الله بالمهابات
يقول للريح كلما عصفت: هل لك يا ريح في مُبَارَّاتي

عليه تاجان فوق مَفْرِقِهِ تاج جمال و تاج إخْبَاتِ

قال: فنكش [المهدى] رأسه، و نكت بالقضيب [الذى كان في يده] ثم رفع رأسه
فقال: أنت القائل:

ألا ما لسِيدِتِي مالها أدْلُتْ فَأَخْمِلْ إِدَلَّهَا؟
و جارية من جواري الْمُلُوْكِ قد أَسْكَنَ الْحَسْنَ سرِبَالِهَا

[قال: وما علمك بما حواه سرِبَالِهَا؟ فأجابه معارضًا له فيه:]

أَتَتِهِ الْخَلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تَجْرِزُ أَذِيَالِهَا
فَلَمْ تَكْ تَضَلُّعْ إِلَّا لَهِ وَلَمْ يَكْ يَصْلَحْ إِلَّا لَهَا]

ثم سأله عن أشياء، فأفحى أبو العتاهية [في الجواب]، فأمر المهدى بجلده نحوًا
من حد، وأخرج مجلودًا، فلقيته عتبة وهو على تلك الحال، فقال:

بَخِّ بَخِّ يا عتب من أجلكم قد قَتَلَ المهدى فيكم قتيلا

فتغرغرت عيناهما، وفاض دمعها، وصادفت المهدى عند الخيزران، فقال: ما عتبة
تبكي؟ قالوا له: رأت أبا العتاهية مجلودًا، وقال لها كيت وكيت، فأمر له بخمسين ألف
درهم، ففرقها أبو العتاهية على مَنْ [كان] بالباب، فكتب صاحب الخبر بذلك، فوجئ
إليه: ما حملك على أن أكرمتك بكرامة فقسمتها؟ قال: ما كنت لأكل ثمن من أحبيت،
فوجأه إليه بخمسين ألفاً أخرى، وحلف عليه أن لا يفرقها، فأخذها وانصرف.

من أبي العتاهية إلى المهدى

قال المبرد: أهدى أبو العتاهية إلى المهدى في يوم نوروز [أو مهرجان] برنية صينية
فيها ثوب ممسك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية:

نفسِي بشيءِ من الدُّنْيَا معلقةُ اللهِ والقائمِ المُهَدِّي يكفيها
إنِّي لِأَيُّسِّ منها ثُمَّ يُطْمِعُني فيها احتقارُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

فهمَ أن يدفعُ إليه عتبة، فقالت له: أمير المؤمنين، مع حرمتي [وحقى] وخدمتي
تدفعني إلى باع حرار يكتسب بالشعر؟ فبعث إليه: أما عتبة فلا سبيل لك إليها، وقد أمرنا
لك بملء البرنية مالًا، فخرجت عتبة وهو يناظر الكتاب، ويقول: إنما أمر لي بدنانير،
وهم يقولون: بدرابيم، فقالت: أما لو كنت عاشقًا لعتبة لشغلت عن العَيْنِ والَّوْرِقِ.

من طرف أبي العتاهية

وكان أبو العتاهية [وهو إسماعيل بن القاسم] بائع جرار، وكان [من أسهل الناس لفظاً] وأقدرهم على وزن الكلام، وكان حلو الأنفاظ، حتى إنه يتكلم بالشعر [في جميع حالاته، ويخاطب به جميع أصناف الناس] قد جعله شرعاً وثاراً.

واجتمع أبو نواس وجماعة، فدعا أحدهم بماء فشرب ثم قال:

* عذب الماء وطابا *

ثم قال: أجيروا [فترددوا] فلم يحضر أحداً ما يجانسه في سهولته وقرب مأذنه، حتى جاء أبو العتاهية فقال: فيم أنت؟ فأعلمه وأنشدوه القسم، فقال:

* حبذا الماء شراباً *

ومن مختار شعره في عتبة:

بالله يا حلوة العينين زوريني
هذان أمران، فاختاري أحبهما
إن شئت موتاً فانت الدَّهْرَ مالكة
يا عتب ما أنت إلا بِدْعَةُ خلقت
إني لأعجب من حب يقربني
[لو كان ينصفني مما كلفت به
[يا أهل ودي إني قد لطفت بكم
الحمد لله قد كنا نظنكم
أما الكثير فلا أرجوه منك، ولو

ومن مختار شعره فيها قوله:

ويا ذات الملاحة والنظافة
ولم أرزق فديتك منك رففة
صريعاً كالصرير من السلافه
أنك قد بعثت علئي آفه
أظل إذا رأيتك مستكيناً

[ومما اخترناه من شعره واستحسنه ذوق الحجا قوله:

ما أغفل الناس عن بلائي وعن شقائي
والناس لا يعرفون دائني
يلومني الناس في حبيب

يا لهف نفسي على خليل أصبح في كفه شفائي
 صيرني حبّه غريباً في غير أرض، ولا سماء
 قد بلغ الجد بي مَدَاه فما عزائي؟
 أنت بلائي، وأنت دائني
 والله ما تذكرين إلا فاضت دموعي على ردائي
 يا أهل ودي إلى جفائي؟
 فأنتم الهم في صباحي
 وأنتم الهم في مسائي
 إني على ما لقيت منكم لمعجب منكم بدائي
 شَتَان ما بينكم وبيني في نصح حبي، وفي وفائي
 منحتكم ضيوفي وودي فكان ذا منكم جزائي]
 وحدث المبرد محمد بن يزيد أن زَيْنَة ابنة أبي العباس السفاح وجهت إلى
 عبد الله بن مالك الخزاعي في شراء رقيق للعتق؛ وأمرت جاريتها عتبة - وكانت لها ثم
 صارت إلى الخيزران بعدها - أن تحضر ذلك، فانها لجالسة إذ جاء أبو العتابية في زي
 متنسك فقال: جعلني الله فداك!! أنا شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة، فإن رأيت
 أعزك الله [أن تأمرني] بشرائي وعتقى فعلت مأجورة، فأقبلت على عبد الله فقالت: إني
 لأرى هيئة جميلة، وضعفاً ظاهراً، ولساناً فصيحاً، ورجلًا بليغاً، فاشتره وأعتقه، فقال:
 نعم، فقال أبو العتابية: أتأذنين لي أصلحك الله في تقبيل يدك [شكراً لك على جميل
 فعلك وما أوليتي] فأذنت له لي، فَقَبَّلَ يدها وانصرف، فضحك عبد الله بن مالك،
 وقال: أتدرين من هذا؟ قالت: لا، قال: هذا أبو العتابية، وإنما احتال عليك حتى قُبِّلَ
 يدك] فَسَرَّت وجهها خجلاً، وقالت: سَوَّأَ لك يا أبو العباس، أمثلك يبعث؟ إنما اغترنا
 بكلامك، وقامت فلم تَعُدْ إليه.

ولأبي العتابية أشعار حسان سنذكرها في أخبار من يرد من الخلفاء، [وسنذكر لمعاً
 من أخباره وما استحسنه من أشعاره وذكر وفاته] ولو لم يكن لأبي العتابية سوى هذه
 الأيات التي أبان فيها عن صدق الإباء ومحض الوفاء [لكان مبرزاً على غيره، ومن كان
 في عصره] وهي:

إنَّ أَخَاكَ الصَّدِيقَ مِنْ كَانَ مَعَكَ
 وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعُكَ
 شَتَّتَ شَمْلَ نَفْسَهُ كَيْ يَجْمِعُكَ
 وَمَنْ إِذَا رَيْبَ الزَّمَانَ صَدَعَكَ

وهذه الصفة في عصرنا معدومة، ومستحيل وجودها، ومتغدر كونها [ومتعسر رؤيتها].

محمد المهدي والشريقي بن القظامي

وروى ابن عياش [وابن دأب] أن المنصور كان قد ضم الشريقي بن القظامي إلى المهدي، حين خلفه بالري، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب، ومكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار، وقراءة الأشعار، فقال له المهدي ذات ليلة: يا شرقي أرخ قلبي بشيء يُلْهِيهِ، قال: نعم أصلح الله الأمير، ذكروا أنه كان في ملوك الحيرة ملك له نديمان قد نزله من قلبه منزلة مكينة، وكان لا يُفَارِقُهُ في لاهوته [وأنسه] ومنامه وبقطنه، [ومُقامه وظنه] وكان لا يقطع أمراً دونهما، ولا يصدر إلا عن رأيهما، فغبر بذلك دهراً طويلاً، فبينا هو ذات ليلة في شربه ولدهوه إذ غلب عليه الشراب فأزال عقله، فدعا بسيفه وانتضاه، وشدّ عليهما فقتلهمما، وغلبه عيناه فتام، فلما أصبح سألهما، فأخبر بما كان منه، فأكَبَ على الأرض عاصتاً لها تأسفاً عليهما وجزعاً لفارقهما، وامتنع من الطعام والشراب، ثم حلف لا يشرب شراباً يزعج قلبه ما عاش، ووارهما، وبين على قبريهما قبة، وسماها الغرين، وَسَنَّ أن لا يمر بهما أحد [من الملك فمن دونه] إلا سجد لهما، وكان إذا سنَّ الملك [منهم] سنة توارثوها، وَأَخْيَرُوا ذُكرها ولم يميتوها، وجعلوها عليهم حكماً واجباً، وفرضوا لازماً، وأوصى بها الآباء أعقابهم، فغبر الناس بذلك دهراً طويلاً، لا يمر [بقبريهما] أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهم؛ فصار ذلك سنة لازمة [وأمراً] كالشريعة والفرضة، وحكم فمن أبي أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يحكم له بخصليتين يجاب إليهما كانتا ما كانتا. قال: فمَرَ يوماً قصّار معه كارة ثياب وفيها مُدْفَعَةٌ. فقال الموكلون بالغررين للقصّار: اسجد فأبى أن يفعل، فقالوا له: إنك مقتول إن لم تفعل، فأبى؛ فرفعوه إلى الملك وأخبروه بقصته، فقال: ما منعك أن تسجد؟ قال: سجّدت ولكن كذبوا عليّ، وقال: الباطل قلت؛ فاحتكم في خصلتين فإنك مُجَابٌ إليهما، وإنني قاتلتك [بعد]، قال: لا بد من قتلي بقول هؤلاء [عليّ]؟ قال: لا بد من ذلك قال: أحتكم أن أضرب رقبة بمدقتي هذه، قال له الملك: يا جاهل، لو حكمت علي أن أجري على من تخلف وراءك ما يغنيهم كان أصلح لهم، قال: ما أحكم إلا بضربي لرقبة الملك، فقال الملك لوزرائه: ما ترون فيما حكم به هذا الجاهل؟ قالوا: نرى أن هذه سنة [أنت سنتها] وأنت أعلم بما في نقض السنن من العار والنار وعظم الإثم، وأيضاً إنك متى نقضت سنة نقضت أخرى ثم يكون ذلك لمن بعدك كما كان لك، فتبطل السنن، قال: فارغوا إلى القصّار أن يحكم بما شاء ويعيني من هذه؛ فإني أجبيه إلى ما شاء الله ولو بلغ

حکمه شَطْر مُلْکِي، فرغبوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا أَحْكَم إِلَّا بِضَرْبَةٍ فِي عَنْقِ الْمَلِكِ قَالَ: فَلِمَا رَأَى الْمَلِكَ ذَلِكَ وَمَا عَزَمَ عَلَيْهِ الْقَصَارُ قَعَدَ لَهُ مَقْعِدًا عَامًا وَأَحْضَرَ الْقَصَارَ فَأَبْدَى مُدْفَعَتَهُ وَضَرَبَ بِهَا عَنْقَ الْمَلِكِ فَأَوْهَنَهُ وَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَأَقَامَ وَقِيَذًا سَتَةَ أَشْهُرٍ، وَبَلَغَتْ بِهِ الْعَلَةُ إِلَى أَنْ كَانَ يَسْقِي الْمَاءَ بِالْقَطْرِ، فَلِمَا أَفَاقَ وَتَكَلَّمَ وَأَكَلَ وَشَرَبَ وَاسْتَقَلَ سَأَلَ عَنِ الْقَصَارِ، فَقَيْلَ: إِنَّهُ مَحْبُوسٌ، فَأَمْرَ بِإِحْضَارِهِ فَحَضَرَ، فَقَالَ: لَقَدْ بَقَيْتَ لَكَ خَصْلَةً فَاحْكُمْ بِهَا، فَإِنِّي قَاتَلْتُ لَا مَحَالَةً إِقْمَادَ لِلسَّنَةِ قَالَ الْقَصَارُ: إِنَّمَا كَانَ لَا بَدَّ مِنْ قَتْلِي فَإِنِّي أَحْكَمْ أَنْ أَضْرِبَ الْجَانِبَ الْآخَرَ مِنْ رَقْبَةِ الْمَلِكِ مَرَةً أُخْرَى، فَلِمَا سَمِعَ ذَلِكَ خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْجَزْعِ، وَقَالَ: ذَهَبَتْ نَفْسِي وَاللَّهُ إِذَا، ثُمَّ قَالَ لِلْقَصَارِ: وَيْلَكَ!! دَعْ عَنْكَ مَا لَا يَنْفَعُكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْفَعُكَ مِنْهُ مَا مَضِيَّ، وَاحْكُمْ بِغَيْرِهِ وَأَنْفَذْهُ لَكَ كَاتِنًا مَا كَانَ، قَالَ: مَا أَرَى حَقِّي إِلَّا فِي ضَرْبَةٍ أُخْرَى، فَقَالَ الْمَلِكُ لِوَزْرَائِهِ: مَا تَرَوْنَ؟ قَالُوا: تَمَوْتُ عَلَى السَّنَةِ [أَصْلَحْ لَكَ]، قَالَ: وَيْلَكُمْ!! إِنْ ضَرَبَ الْجَانِبَ الْآخَرَ مَا شَرِبَتِ الْمَاءُ الْبَارِدُ أَبْدًا لَأَنِّي أَعْلَمُ مَا قَدْ نَالَنِي، قَالُوا: فَمَا عَنَّنَا حِيلَةً، فَلِمَا رَأَى مَا قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِ قَالَ لِلْقَصَارِ: أَخْبَرْنِي، أَلَمْ أَكُنْ قَدْ سَمِعْتُكَ تَقُولُ يَوْمَ أَتَيْتُكَ الْمُوْكَلُونَ بِالْغَرَبَيْنِ إِنَّكَ قَدْ سَجَدْتَ وَإِنَّهُمْ كَذَبُوا عَلَيْكَ، قَالَ: قَدْ كُنْتَ قَلْتَ ذَلِكَ فَلَمْ أَصْدِقْ، قَالَ: فَكَنْتَ سَجَدْتَ قَالَ: نَعَمْ، فَوَثَبَ [الْمَلِكُ] مِنْ مَجْلِسِهِ وَقَبَلَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ صَادِقٌ، وَإِنَّهُمْ كَذَبُوا عَلَيْكَ، وَقَدْ وَلَيْتَكَ مَوْضِعَهُمْ، وَجَعَلْتَ إِلَيْكَ [بِأَسْهَمِهِمْ، وَ] أَمْرَهُمْ [فِي تَأْدِيبِهِمْ] فَضَحَّكَ الْمَهْدِيُّ حَتَّى فَحَصَنْ بِرْ جَلِيهِ، وَقَالَ: أَحْسَنْتَ، وَوَصَّلَهُ.

المهدي ومروان بن أبي حفصة

قال الهيثم بن عدي: كُنْتَ فِي مَجْلِسِ الْمَهْدِيِّ، فَأَتَاهُ الْحَاجِبُ فَقَالَ: ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ بِالْبَابِ، فَقَالَ: لَا تَأْذِنْ لَهُ إِنَّهُ مَنَافِقٌ كَذَابٌ، فَكَلَمَهُ الْحَسَنُ بْنُ فَحْطَبَ فِيهِ، فَأَدْخَلَهُ، فَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ: يَا فَاسِقُ الْسُّلْطَانِ الْقَاتِلِ فِي مَعْنَى: جَبَلٌ تَلُوذُ بِهِ نِزَارٌ كَلِيَّا صَفْبُ الدُّرَى مَتَمْنَعُ الْأَزْكَانِ

قال: بَلْ أَنَا الَّذِي أَقُولُ فِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: يَا ابْنَ الَّذِي وَرَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا دُونَ الْأَقَارِبِ مِنْ ذُوِّ الْأَرْحَامِ وَأَنْشَدَهُ الْأَيَّاتِ كُلَّهَا، فَرَضَيْتُ عَنْهُ وَأَجَازَهُ.

بين المهدي وسفيان الثوري

وقال القعقاعي بن حكيم: كنت عند المهدي، وأتى سفيان الثوري، فلما دخل عليه

سلَّمَ تسلِيمُ الْعَامَةِ، وَلَمْ يَسْلِمْ تسلِيمَ الْخَلْفَةِ، وَالرَّبِيعُ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ مُتَكَبِّرٌ عَلَى سَيِّفِهِ [يَرِقْبُ أُمْرَهُ]، فَأَقْبَلَ الْمَهْدِي بِوَجْهِ طَلْقٍ وَقَالَ لَهُ: يَا سَفِيَّانَ، تَفَرَّ مِنَ هَذَا وَهُنَّا وَتَظَنُّ أَنَا لَوْ أَرْدَنَاكَ بِسَوْءَ لَمْ نَقْدِرُ عَلَيْكَ، فَقَدْ قَدَرْنَا عَلَيْكَ الْآنَ، أَفَمَا تَخْشِي أَنْ نَحْكُمُ فِيكَ بِهَوَانِ؟ قَالَ سَفِيَّانَ: إِنْ تَحْكُمُ فِيَّ يَحْكُمُ فِيكَ مَلِكٌ قَادِرٌ يَفْرَقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَقَالَ لَهُ الرَّبِيعُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَهْذَا الْجَاهِلُ أَنْ يَسْتَقْبِلَكَ بِمَثْلِ هَذَا؟ ائْذِنْ لِي أَنْ أَضْرِبَ عَنْتَهُ، فَقَالَ لَهُ: اسْكُتْ وَيْلَكَ، مَا يَرِيدُ هَذَا وَأَمْثَالَهُ إِلَّا أَنْ نَقْتَلَهُمْ فَنُشْقِي بِسَعَادِهِمْ، اكْتُبُوا بِعَهْدِهِ عَلَى قَضَاءِ الْكُوفَةِ، عَلَى أَنْ لَا يُغْتَرِّضَ عَلَيْهِ فِي حَكْمٍ، فَكَتَبَ بِعَهْدِهِ وَدَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَأَخْذَهُ وَخَرَجَ وَرَمَّى بِهِ فِي الدَّجْلَةِ وَهَرَبَ، فَطَلَبَ فِي كُلِّ بَلْدٍ، فَلَمْ يُوجَدْ.

رؤيا المهدي قبيل وفاته

وَقَالَ عَلِيُّ بْنَ يَقْطِينَ: كُنَا مَعَ الْمَهْدِي بِمَاسِبَدَانِ، فَقَالَ لِي يَوْمًا: أَصْبَحْتَ جَائِعًا فَأَتَنِي بِأَزْغَفَةٍ وَلَحْمَ بَارِدٍ، فَفَعَلْتُ، فَأَكَلْتُ ثُمَّ دَخَلَ الْبَهْوَ وَنَامَ، وَكُنَّا نَحْنُ فِي الرَّوَاقِ، فَانْتَهَنَا لِبَكَائِهِ، فَبَادَرْنَا إِلَيْهِ مُسْرِعِينَ، فَقَالَ أَمَا رَأَيْتَ مَا رَأَيْتَ؟ قَلَنا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا، قَالَ: وَقَفَ عَلَيَّ رَجُلٌ لَوْ كَانَ فِي أَلْفِ [رَجُلٍ] مَا خَفِيَ عَلَيَّ صَوْتُهُ [وَلَا صُورَتُهُ] فَقَالَ:

كَأَنِّي بِهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلَهُ وَأَوْحَشَ مِنْهُ رَبْعَهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ بَهْجَةِ وَمُلْكِهِ إِلَى قَبْرِ عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
فَلَمْ يَبْقِ إِلَّا ذَكْرُهُ وَحْدَيْهِ تَنَادَى عَلَيْهِ مُغْرِلَاتٍ حَلَائِلُهُ
قال [علي]: فَمَا أَتَتْ عَلَيَّ الْمَهْدِيُّ بَعْدَ رَؤْيَايَهِ إِلَّا عَشْرَةُ أَيَّامٍ حَتَّى تَوَفَّى.

وفاة زفر بن الهذيل وجماعة من العلماء

قَالَ الْمَسْعُودِيُّ: وَكَانَتْ وَفَاتَةُ زَفْرَ بْنِ الْهَذَيْلِ الْفَقِيهِ صَاحِبُ أَبِي حَيْفَةِ النَّعْمَانِ بْنِ ثَابَتِ سَنَةِ ثَمَانِ وَخَمْسِينَ وَمَائَةً، وَفِيهَا كَانَتْ بَيْعَةُ الْمَهْدِيِّ كَمَا قَدَّمْنَا.

وَمَاتَ سَفِيَّانَ بْنَ سَعِيدَ بْنَ مَسْرُوقَ الثُّورِيَّ بِالْبَصَرَةِ، وَكَانَ مِنْ تَمِيمٍ، وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ وَسَتِينِ سَنَةً، وَيُكْنَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ إِحدَى وَسَتِينَ وَمَائَةً.

وَمَاتَ ابْنُ أَبِي ذَبْبٍ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْمَغْيِرَةِ، وَيُكْنَى أَبَا الْحَارِثَ، بِالْكُوفَةِ سَنَةِ تَسْعَ وَخَمْسِينَ وَمَائَةً، وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ.

وفي سنة ستين ومائة مات شعبة بن الحجاج، ويكنى أبا بسطام، وهو مولى لبني شقرة من الأزد، وفيها توفي عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، وفي سنة ست وستين ومائة مات حماد بن سلامة في أيام المهدى.

قال المسعودي: وللمهدى أخبار حسان، ولما كان في أيامه من الكوازن والحروب وغيرها، قد أتينا على مبوسطه في الكتاب الأوسط، وكذلك من مات في سلطانه من الفقهاء وأصحاب الحديث وغيرهم، وبالله التوفيق.

ذكر خلافة موسى الهادي

موجز

ويويع موسى بن محمد الهادي [يوم الخميس] لسبع بيّن من المحرم، وهو ابن أربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر، صبيحة الليلة التي كانت فيها وفاة والده المهدي، وذلك في سنة تسع وستين ومائة، وتوفي بعيساباذ نحو مدينة السلام سنة سبعين ومائة، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول من هذه السنة، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، وكان يُكنى أبا جعفر، وأمه الخيزران بنت عطاء، أم ولد حرشية، وهي أم الرشيد، وأنته البيعة وهو ببلاد طبرستان وجرجان في حرب كانت هناك؛ فركب البريد وقد أخذ له أخوه هارون البيعة. وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

لما أئْتَ خَيْرَ بْنِي هَاشِمٍ خِلَافَةً اللَّهَ بِجَرْجَانِ
شَمَّرَ لِلْحَرْبِ سَرَابِيلَةً بِرَأْيِ لَا غُنْمَرَ وَلَا وَانِ

ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه

أوضاع الهادي

كان موسى قاسي القلب، شرس الأخلاق، صعب المرام، كثير الأدب، محباً له، وكان شديداً، شجاعاً [بطلاً] جواداً، سخياً.

مثل من شجاعته

حدث يوسف بن إبراهيم الكاتب وكان صاحب [إبراهيم بن] المهدي، عن إبراهيم، أنه كان واقفاً بين يديه وهو على حمارٍ له ببستانه المعروف [به] ببغداد إذ قيل له: قد ظفر برجل من الخوارج، فأمر بإذْخالِه، فلما قرب منه الخارجي أخذ سيفاً من بعض الحرس، فأقبل يريده موسى، ففتحت وكلَّ مَنْ معِه، وإنَّه لواقف على حماره ما يتخلَّلُ، فلما أنَّ قرب منه الخارجي صاح موسى: اضرِبَا عَنْقَهِ، وليس وراءه أحدٌ، فأوهَمَهُ، فالتفتَّ الخارجي لينظر، وجمع موسى نفسه ثم ظهر عليه فصرعه، فأخذ السيف من يده، فضرب عنقه، قال: فكان خوفنا منه أكْثَرَ من الخارجي، فوالله ما أُنكرَ علينا تحيينا، ولا عَذَّلَنا على ذلك ولم يركب حماراً بعد ذلك اليوم، ولا فارقه سيفه.

بين المهدي وعيسي بن دأب

وكان عيسى بن دأب يجالسه، وكان من أهل الحجاز، وكان أكثر أهل عصره أدباً وعلماً ومعرفة بأخبار الناس، وأيامهم، وكان الهادي يدعوه له مُتَكَأً، ولم يكن غيره يطمع منه في ذلك، وكان يقول له: يا عيسى، ما استطلت بك يوماً ولا ليلة، ولا غبت عنِّي إلا طنتتْ أني لا أرى غيرك.

جريمة غلام سندي

وذكر عيسى بن دأب أنه رفع إلى الهادي أن رجلاً من بلاد المنصورة - من بلاد السندي من أشرافهم وأهل الرياسة فيهم من آل الملهم بن أبي صفرة - رَبِّي غلاماً سندياً

أو هندية، وأن الغلام هَوَيَ مولاً لَهُ، فراودها عن نفسها، فأجابته، فدخل مولاً فوجدها معه، فجَبَ ذكر الغلام وَخَصَّاهُ، ثم عالجه إلى أن برأه فأقام مدة، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والأخر يافع، فغاب الرحل عن منزله وقد أخذ السندي الصبيين فصعد بهما إلى أعلى سور الدار إلى أن دخل مولاً [فرفع رأسه] فإذا هو بابنيه مع الغلام على السور، فقال: يا فلان، عرضت ابني للهلاك، فقال: دَعْ ذَا عَنْكَ، وَالله لَوْ لَمْ تَجْبَ نفسك بحضورتي لأرميَّ بهما، فقال له: الله الله في وفي ابني، قال: دَعْ عَنْكَ هَذَا، فوالله ما هي إلا نفسي، وإنِي لأشمع بها من شربة ماء، وأهوى ليرمي بهما، فأسرع مولاً فأخذ مُدِيَّة فجَبَ نفسه، فلما رأى الغلام أنه قد فعل رمي بالصبيين فقطعها، وقال: ذاك الذي فعلت لفعلك بي، وَقَتَلُ هَذِينَ زِيَادَةً، فأمر الهادي [بالكتاب إلى صاحب السندي] بقتل الغلام وتعديه بأفظع ما يمكن من العذاب، وأمر بإخراج كل سندي في مملكته، فرخص السندي في أيامه حتى كانوا يتداولون بالشمن اليسير.

وزراء المهدي

وكان الهادي قد استوزر الربع، وضم إليه ما كان لعمر بن بزيع من الزمام ثم [إنه] ولِي عمر بن بزيع الوزارة وديوان الرسائل، وأفرد الربع بالزمام، فمات الربع في هذه السنة، وقيل: إن الهادي سقا شربة لأجل جارية كان قد وهبها له المهدي كانت قبل ذلك للربع، وقيل غير ذلك.

ظهور الحسين بن علي بن الحسين

وظهر في أيامه الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهو المقتول بفتح، وذلك على ستة أميال من مكة، يوم التَّزوِيَّةِ وكان على الجيش الذي حاربه جماعة من بني هاشم: منهم سليمان بن أبي جعفر، ومحمد بن سليمان بن علي، وموسى بن عيسى، والعباس بن محمد بن علي، في أربعة آلاف فارس؛ فقتل الحسين وأكثر منْ كان معه، وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السابع والطير، وكان معه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، فاسِرٌ في هذا اليوم وضررت رقبته بمكة صبراً، وقتل معه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي، وأسر الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن [بن الحسن بن علي] وضرب عنقه صبراً، وأخذ عبد الله بن الحسن بن علي وللحسين بن علي الأمان، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَكَ، وقتلا بعد ذلك، فسخط الهادي على موسى بن عيسى لقتل الحسين بن علي [بن الحسن بن الحسن] وترك

المَصِيرِ بِهِ إِلَيْهِ لِيُحَكَمْ فِيهِ بِمَا يَرِى وَقَبْضُ أَموَالِ مُوسَى، وَأَظَهَرَ الَّذِينَ أَتَوْا بِالرَّأْسِ الْأَسْتِبْشَارِ، فَبَكَى الْهَادِي وَزَجَرَهُمْ، وَقَالَ: أَتَيْتُمُونِي مُسْتَبْشِرِينَ كَأَنْكُمْ أَتَيْتُمُونِي بِرَأْسِ رَجُلٍ مِّنَ الْتَّرْكِ أَوِ الدِّيلَمِ، إِنَّهُ رَجُلٌ مِّنْ عِنْتَرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَلَا إِنَّ أَقْلَ جِزَائِكُمْ عَنِّي أَلَا أُثْبِكُمْ شَيْئًا.

من مراثي الحسين بن علي صاحب فخ

وفي الحسين بن علي صاحب فخ، يقول بعض شعراء ذلك العصر من أبيات:

فَلَأْبَكِينَ عَلَى الْحَسِينِ بِعَوْلَةٍ وَعَلَى الْحَسَنِ
وَعَلَى ابْنِ عَاتِكَةَ الَّذِي أَثْرَوْهُ لِيْسَ لَهُ كَفَنْ
تَرَكُوا بِفَخْ غُذْوَةَ فِي غَيْرِ مَنْزَلَةِ الْوَطَنِ
كَانُوا كَرَامًا قَتَلُوا لَا طَائِشِينَ وَلَا جُبْنَ
غَسَلُوا الْمَذَلَّةَ عَنْهُمْ غَسْلَ الشَّيَابِ مِنَ الدَّرَنِ
هُدِيَ الْعَبَادُ بِجَهَمِ فَلَهُمْ عَلَى النَّاسِ الْمِئَنْ

طاعة الهاדי لأمه الخيزران

وكان الهاادي كثير الطاعة لأمه الخيزران، مجبياً لها فيما تسأل من الحاجات للناس، فكانت المواكب لا تخلو من بابها؛ ففي ذلك يقول أبو المعافى:

يَا خِيزْرَانْ هَنَاكِ ثُمَّ هَنَاكِ أَنَّ الْعَبَاكَ يَسُوسُهُمْ ابْنَاكَ

فكلمته ذات يوم في أمر، فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلاً، فاعتلت عليها بعلة، فقالت: لا بد من إجابتي، قال: لا أفعل، قالت: فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب الهاادي، وقال: وَيْلٌ لابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها، [والله] لا قضيتها لك، قالت: إذا والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذا والله لا أبالي [وتحمي] وقامت [وهي] مغضبة، فقال: مكانك، فاستوعبى كلامي، والله، وإنما ثُقِيتُ مِنْ قَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَئِنْ بَلَغْنِي أَنَّهُ وَقَفَ بِيَابَكَ أَحَدُ مِنْ فُؤَادِي، أَوْ مِنْ خاصِتي، أَوْ مِنْ خدمِي، لَأُضْرِبَنَّ عَنْهِ، وَلَا قَبْضَنَّ مَالِهِ، فَمَنْ شَاءَ فَلِيَلْزَمُ ذَلِكَ، مَا هَذِهِ الْمَوَابِكُ الَّتِي تَغْدوُ إِلَيْكَ يَابَكَ كُلَّ يَوْمٍ؟ أَمَا لَكَ مِغْرَلٌ يَشْغُلُكَ، أَوْ مُضَحَّفٌ يَذْكُرُكَ، أَوْ بَيْتٌ يَصُونُكَ؟ إِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَفْتَحِي فَاكَ فِي حَاجَةٍ لِمُسْلِمٍ وَلَا ذِمَّيْ، فَانْصَرَفْتَ وَمَا تَعْقَلْتَ مَا تَطَأُ؟ فَلَمْ تَنْطِقْ [عَنْهُ] بِحَلْوٍ وَلَا مِرْ بَعْدَهَا.

أخذ العباسيون ثأربني هاشم منبني مروان

وذكر ابن دأب، قال: دعاني الهاادي في وقت من الليل لم تَجُر العادة أنه يدعوني في مثله، فدخلت إليه، فإذا هو جالس في بيت صغير شتوي، وقد امامه جزء صغير ينظر فيه، فقال لي: يا عيسى، قلت: ليك يا أمير المؤمنين، قال: إني أرقت في هذه الليلة، وتداعت إلى الخواطر، واشتملت على الهموم، وهاج لي ما جرت إليه بنو أمية منبني حزب وبني مروان في سفك دمائنا، قلت: يا أمير المؤمنين، هذا عبد الله بن علي قد قتل منهم على نهر أبي فطروس فلاناً وفلاناً حتى أتيت على تسمية [أكثر] من قتل منهم، وهذا عبد الصمد بن علي قد قتل منهم بالحجاز في وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن علي، وهو القائل بعد سفكه دماءهم:

ولقد شفَّى نَفْسِي وأَبْرَأ سُقْمَهَا أَخْذِي بِشَأْرِي مِنْ بَنِي مَرْوَان
وَمِنْ آلِ جَرْبِ، لَيْتْ شَيْخِي شَاهِدْ سَفْكِي دَمَاءِ بَنِي أَبِي سَفِيَان

قال ابن دأب: فسر والله الهاادي، وظهرت منه أريحية، فقال: يا عيسى داود بن علي هو القائل ذلك والقاتل لمن ذكرت بالحجاز، ولقد ذكرتنيهما، حتى كأني ما سمعتهما، قلت: يا أمير المؤمنين، وقد قيل: إنهمما عبد الله بن علي قالهما على نهر أبي فطروس، قال: قد قيل ذلك.

بعض فضائل مصر وبعض أخبارها وبعض عيوبها

قال ابن دأب: ثم تغلغل بنا الكلام والحديث إلى أخبار مصر وعيوبها وفضائلها وأخبار نيلها، فقال لي الهاادي: فضائلها أكثر، قلت: يا أمير المؤمنين هذه دعوى المصريين [لها] بغير برهان أو رَدُوهُ، والبينة على الدعوى، وأهل العراق يأبون هذه الدعوى، ويدركون أن عيوبها أكثر من فضائلها، قال: مثل ماذا؟ قلت: يا أمير المؤمنين من عيوبها أنها لا تمطر، وإذا أمطرت كرها [ذلك]، وابتلهوا إلى الله بالدعاء [وقد] قال الله عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي يُسْلِلُ الْرِّيحَ بُشْرًا يَكْرَهُ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] فهذه رحمة مجده لهذا الخلق وهم لها كارهون، وهي لهم ضارة غير موافقة لا يزكي عليها زرعهم ولا تخصب [عليها] أرضهم، ومن عيوبها الريح [الجنوبية] التي يسمونها المريسيّة، وذلك أن أهل مصر يسمون أعلى الصعيد إلى بلاد النوبة مريس، فإذا هبت الريح المريسيّة - وهي الجنوبية - ثلاثة عشر يوماً [تاباعاً] اشتري أهل مصر الأكفان والحنوط وأيقتوا بالواباء القاتل، والبلاء الشامل، ثم من عيوبها اختلاف هوانها، لأنهم في يوم واحد يغيرون ملابسهم مراراً كثيرة، فيلبسون القُمْصَ مِرَّة، والمبطنات أخرى،

والخشوع مرة، وذلك لاختلاف جواهر الساعات بها، ولتبادر مهاب الهواء [فيها] في سائر فصول السنة من الليل والنهار، وهي تمير ولا تمтар، فإذا أجدبوا هلكوا. وأما نيلها فكفاك الذي هو عليه من الخلاف لجميع الأنهار، من الصغار والكبار، وليس بالفترات ولا الدجلة ولا نهر بلخ ولا سيحان شيء من التمايسح، وهي في نيل مصر ضارة بلا منفعة، ومفسدة غير مصلحة، وفي ذلك يقول الشاعر:

أظهرت للنيل هجراناً ومقلية إذ قيل لي إنما التمساح في النيل
فمن رأى النيل رأى العين من كثيّر فما رأى النيل إلا في التوأقيل

قال: ويحك!! ما التوأقيل التي ترى النيل فيها؟ قلت: القلال والكيرزان يسمونها بهذا الاسم، قال: وما مراد الشاعر فيما وصف؟ قال: لأنه لا يتمتع بالماء إلا في الآنية، لخوف مباشرة الماء في النيل من التمساح، لأنه يختطف الناس وسائر الحيوان، قال: إن هذا النهر قد منع هذا النوع من الحيوان مصالح الناس منه، وقد كنت متشوقاً إلى النظر إليها، فلقد زهدتني [عنها] بوصفك لها.

مدينة دنقلة

قال ابن دأب: ثم سألني الهاادي عن مدينة دنقلة، وهي دار مملكة النوبة، كم المسافة بينها وبين أسوان؟ قلت: قد قيل أربعون يوماً على شاطئ النيل عما يفصلها.

بين البصرة والковفة

قال ابن دأب: ثم قال [لي] الهاادي: إيهَا يا ابن دأب، دَغْ عنك ذكر المغرب وأخباره، وهلم بنا إلى [ذكر] فضائل البصرة والkovفة وما زادت به كل واحدة [منهما] على الأخرى، قال: قلت: ذكر عن عبد الملك بن عمير، أنه قال: قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة مع مصعب بن الزبير، فما رأيت شيئاً قبيحاً إلا ورأيت في وجه الأحنف منه شيئاً؛ كان صاغل الرأس، أجنح العين، أغصاف الأذن، باخِق العين، ناتيء الوجه، مائل الشدق، متراكب الأسنان، خفيف العارضين، أخفف الرُّجل، ولكنه كان إذا تكلم جَلَى عن نفسه، فجعل يفاخرنا ذات يوم بالبصرة ونفخره بالkovفة، فقلنا الكوفة أغذى وأمراً وأفسح وأطيب، فقال له رجل: والله ما أشبه الكوفة إلا بشابة صبيحة الوجه كريمة الحسب، ولا مال لها؛ فإذا ذكرت حاجتها، فكشف عنها طالبها، وما أشبه البصرة إلا بعجز ذات عوارض موسرة، فإذا ذكرت ذكر يسارها، وذكرت عوارضها، فكشف عنها طالبها، فقال الأحنف: أما البصرة فإن أسفلها قصب، وأوسطها خشب،

وأعلاها رُطْب، نحن أكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً، ونحن أكثر قنداً ونقداً؛ والله ما آتى البصرة إلا طائعاً، ولا أخرج منها إلا كارهاً؛ قال: فقام إليه شاب من بكر بن وائل فقال: يا أبا بحر؛ بم بلغت في الناس ما بلغت؟ فوالله ما أنت بأجملهم، ولا بأشرفهم، ولا بأشجعهم، قال: يا ابن أخي؛ بخلاف ما أنت فيه، قال: وما ذاك؟ قال: بتركى ما لا يعنيني كما عنك من أمري ما لا ينبغي أن يعنيك.

قال المسعودي: ولابن دأب مع الهادي أخبار حسان يطول ذكرها، ويَتَسَعُ علينا شرحها، ولا يتَّسَعُ لنا إيراد ذلك في هذا الكتاب، لاشترطنا فيه على أنفسنا الاختصار والإيجاز بحذف الأسانيد وترك إعادة الألفاظ.

ولأهل البصرة وأهل الكوفة ومن شرب من دجلة مناظرات كثيرة في مياههم ومنافعها ومضارها، منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة، فقالوا: ما ذكركم كَدِرَ زَهِكَ زَفَر، فقال لهم أهل البصرة: من أين يأتي ماءنا الْكَدَرُ وماء البحر صافٍ وماء البطيخة صافٌ، وهما يمْتَزِجانْ وسط بلادنا؟ قال الكوفيون: من طباع الماء العذب الصافي إذا خالط ماء البحر صارا جميعاً إلى الكدوره، وقد يُرَوَّقُ الإنسان ماء أربعين ليلة، فإن جعل منه شيئاً في قارورة أزيدَ وتکدر.

وقد افتخر أهل الكوفة بما هم - الذي هو الفرات - على ماء دجلة، وهو ماء البصرة! فقالوا: ما ذكرنا أغذبُ المياه وأغذتها، وهو أصح للأجسام من ماء دجلة، والفرات خير من النيل، فأما دجلة فإن ماءها يقطع شهوة الرجال، ويذهب بشهيق الخيل، ولا يذهب بصهيلاها إلا مع ذهاب نشاطها، ونقصان قواها، وإن لم يتدعس النازلون عليها أصحابهم قحول في عظامهم وييس في جلودهم، وسائر من نزل من العرب على دجلة لا يقادون يسوقون خيلهم منها ويسقونها من الآبار والرُّكاء، لاختلاط مياهها واختلاف أنواعها [إذ] ليست بماء واحد لمصب الأنهر [إليها] كالرايتين وغيرهما، وسبيل المشروب غير المأكول، لأن اختلاف المأكولات غير ضار، واختلاف الأشربة كالخمر والنبيذ وغيره من الأنذدة إذا شربه الإنسان كان ضاراً، وإذا كان فضيلة مائنا على دجلة فما ينبعها [إذ] ليس بماء ينبع من ماء البصرة وهو يختلط بماء البحر، ومن الماء المستنقع في أصول القصب الهروي، وقد قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مَلْحٌ أَجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، والفرات أغذبُ المياه عذوبة، وإنما اشتقت الفرات لكل ماء عذب من ماء الكوفة.

وقد طعن أيضاً أهل الكوفة على أهل البصرة، فقالوا: البصرة أسرع الأرض خراباً، وأخربها تراباً، وأبعدها من السماء، وأسرعها غرقاً.

وقد أجاب أهل البصرة أهل الكوفة بما سألوا عنه وعابوه به، وكذلك من شرب

من دجلة، وعابوا أهل الكوفة، وذكروا عيوبها، وما يؤثّر عن سكانها من الشح على المأكول والمشرب والغدر وقلة الوفاء.

وقد أتينا على وصف [جميع] ذلك في كتابنا «أخبار الزمان» وكذلك أتينا على خواص الأرض والمياه، وفصول السنة، وانقسام الأقاليم، وما لحق بهذه المعاني، فيما سلف من كتبنا على الشرح والإيضاح، وذكرنا في هذا الكتاب من جميع ذلك لمعاً.

رغبة الهادي في خلع الرشيد من ولایة العهد

فلنرجع الآن إلى أخبار الهادي ونعدل عن هذا السانح.

وقد كان الهادي أراد أن يخلع أخيه الرشيد من ولایة العهد، ويجعلها لابنه جعفر بن موسى، وحبس يحيى بن خالد البرمكي، وأراد قتله، فقال له يحيى وكان القيم بأمر الرشيد: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان ما أسأل الله أن يعيذنا منه وأن لا يبلغناه، وَتَنَسَّأَ فِي أَجْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيْظَنْ أَنَّ النَّاسَ يُسَلِّمُونَ لِجَعْفَرِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَمْرَ وَلَمْ يَلْعُجِ الْحَنْثَ، وَيَرْضُوْنَ بِهِ صَلَاتِهِمْ وَحَجَّهُمْ وَغَزَّوْهُمْ؟ قال: ما أظن ذلك، قال: فتأمن أن يسمو إليها جلة أهل بيتك فتخرج من ولد أبيك إلى غيرهم؟ فتكون قد حملت الناس على التكث، وهوئنت عليهم أيامهم، ولو تركت بيعة أخيك على حالها، وبُويع لجعفر بعده كان آكداً، فإذا بلغ مبلغ الرجال سالت أخاك أن يقدمه على نفسه، قال: نبهتي والله على أمر لم أكن قد انتبهت له، ثم عزم بعد ذلك على خلعه رضي أم كره، وأمر بالتضييق عليه في الأكثر من أموره، فأشار عليه يحيى أن يستأذنه في الخروج إلى الصعيد، وأن يطيل التشاغل بذلك، فإن مدة موسى قصيرة على ما أوجبه قضية المولد، واستأذنه الرشيد، فأذن له، فسار إلى شاطئ الفرات من بلاد الأنباء وهنّي، وتوسط البر مما يلي السماوة، وكتب الهادي إليه يأمره بالقدوم فأكثر الرشيد التعلل، ويسط الهادي لسانه في شتمه، وسنج للهادي الخروج نحو بلاد الحديدة، فمرض هناك، وانصرف وقد ثقل في العلة، فلم يجسر أحد من الناس على الدخول عليه إلا صغار الخدم، ثم أشار إليهم أن يحضروا الخيزران أمه، فصارت عند رأسه، فقال لها: أنا هالك في هذه الليلة، وفيها يلي أخي هارون، وأنت تعلمين ما قضى به أصل مولدي بالري، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتها عن أخرى، مما أوجبه سياسة الملك، لا موجبات الشرع من برك، ولم أكن بك عاقاً، بل كنت لك صائناً وبراً واصلاً، ثم قضى قابضاً على يدها، واضعاً لها على صدره.

وكان مولده بالري، وكذلك مولد [هارون] الرشيد، فكانت تلك الليلة فيها وفاة الهادي، وولادة الرشيد، ومولد المأمون.

الهادي ورجل ذو ذنوب

ويقال: إن الهادي أوقفَ بين يديه رجلاً من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة، فجعل الهادي يذكره ذنبه، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، اعتذاري مما تقرعني به رد عليك، وإنما ذكرت يوجب ذنباً علي، ولكنني أقول:

فإِنْ كُنْتَ تَرْجُو فِي الْغُنْوَبَةِ رَاحَةً فَلَا تَرْهَدْنَ عِنْدَ الْمُعَافَةِ فِي الْأَجْرِ
فأطلقه ووصله.

بين الهادي والرشيد

وحدث عدة من الأخباريين من ذوي المعرفة بأخبار الدولة، أن موسى قال لهارون أخيه: كأني بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا، وتؤمن ما أنت عنه بعيد، ومن دون ذلك خرط القناد، فقال له هارون: يا أمير المؤمنين من تكبر وضع، ومن تواضع رفع، ومن ظلم خذل، وإن وصل الأمر إلي وصلت من قطعت، وبررت من حرمتك، وصبرت أولادك أعلى من أولادي، وزوجتهم بناتي، وقضيت بذلك حق الإمام المهدي، فانجل على موسى الغضب، وبيان السرور في وجهه، وقال: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، إذن مني، فقام هارون قبلاً يده، ثم ذهب ليعود إلى مجلسه، فقال موسى: والشيخ الجليل، والملك النبيل، لا جلست إلا معي في صدر المجلس، ثم قال: يا خزانى! احمل إلى أخي الساعة ألف ألف دينار، فإذا فتح الخراج فاحمل إليه نصفه، فلما أراد هارون الانصراف قدّمت ذاته إلى البساط.

رؤيا المهدي لولديه الهادي والرشيد

قال عمرو الرومي: فسألت الرشيد عن الرؤيا، فقال: قال المهدي: رأيت في منامي كأني دفعت إلى موسى قضيماً، وإلى هارون قضيماً، فأما قضيب موسى فأوزرقي أعلاه قليلاً، وأما قضيب هارون فأورق من أوله إلى آخره، فقص الرؤيا على الحكيم بن إسحاق الصيمرى، وكان يغتربها، فقال له: يملكان جميماً، فأما موسى فتقل أيامه، وأما هارون فيبلغ آخر ما عاش خليفة، وتكون أيامه أحسن الأيام، ودهره أحسن الدهور.

قال عمرو الرومي: فلما أفضت الخلافة إلى هارون زوج حمدونة ابنته من جعفر بن موسى، وفاطمة من إسماعيل بن موسى، ووفى له ما وعده.

حاز الهادي سيف عمرو بن معد يكرب (الصمصامة)

وحدث عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدي، قال: وهب المهدى موسى الهادى سيف عمرو بن معد يكرب الصُّمْصَامَة، فدعا به موسى بعد ما ولى الخلافة، فوضعه بين يديه، وملء مكتل دنانير، وقال لحاجبه: ائذن للشعراء، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا في السيف، فبدأهم ابن يامين البصري فقال:

حَازَ صَمْصَامَةَ الرَّبِيْدِيِّ عَمَرٍ مِنْ جَمِيعِ الْأَنَامِ مُوسَى الْأَمِينُ
سَيْفُ عَمَرٍ، وَكَانَ فِيمَا سَمِعْنَا خَيْرٌ مَا أَعْمَدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونُ
أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّرَاعِقُ نَارًا ثُمَّ شَابَتْ فِيهِ الدُّعَافَ الْمَثُونُ
وَإِذَا مَا شَهَرَتْهُ تَبَهَّرَ الشَّمْسَ ضِيَاءً فَلَمْ تَكُنْ تَسْتَبِينُ
وَكَانَ الْفِرِندُ وَالْجَوْهَرُ الْجَاهُ رِيٌّ فِي صَفْحَتِهِ مَاءٌ مَعِينٌ
مَا يُبَالِي إِذَا الضَّرِبَةُ حَائِثٌ أَشْمَالُ سَطَّثُ بِهِ أُمُّ يَمِينٍ؟

وهي أبيات كثيرة، فقال له الهادي: لك السيف والمكتل، فخذهما؛ ففرق المكتل على الشعراء، وقال: دخلتم معي وحرّتم من أجلي، وفي السيف عوض، ثم بعث إليه الهادي فاشترى منه السيف بخمسين ألفاً.

وللهادي أخبار حسان وإن كانت أيامه قصرت، وقد أتينا على ذكرها في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وبالله التأييد.

ذكر خلافة هارون الرشيد

موجز

وبويع هارون [الرشيد] بنُ المهدِي يوم الجمعة صبيحة الليلة التي مات فيها الهادي، بمدينة السلام، وذلك لاثنتي عشرة ليلة يَقَبِّلُ من ربيع الأول سنة سبعين ومائة، ومات بِطُوسَ بقرية يقال لها سناباذ، يوم السبت لأربع ليالٍ خَلَوْنَ من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، فكانت ولايته ثلاثة وعشرين سنة وستة أشهر، وقيل: ثلاثة وعشرين سنة وشهرين [وثمانية عشر يوماً] وولي الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين سنة [وشهرين] ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر.

ذكر جمل من أخباره، وسيره (ولمع مما كان في أيامه)

الرشيد يستوزر يحيى بن خالد البرمكي

ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد دعا بِيْحِيٌّ بْنُ خَالِدَ الْبَرْمَكِيَّ أَجْلَسَتِي فِي هَذَا الْمَجْلِسِ بِرَبِّكَ وَيُمْنِكَ وَحْسَنَ تَدْبِيرِكَ، وَقَدْ قَلَذْتَكَ الْأَمْرَ، وَدَعَّتَ خَاتَمَهُ إِلَيْهِ، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْمَوْصِلِيُّ :

أَلَمْ تَرْ أَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ سَقِيمَةً فَلَمَّا وَلَىٰ هَارُونَ أَشْرَقَ نُورُهَا
بَيْمَنْ أَمِينَ اللَّهِ هَارُونَ ذِي النَّدَىٰ فَهَارُونَ وَالِيَّهَا، وَبِيْحِيٌّ وَزِيرُهَا
وَمَاتَ رَبِيعَةُ بَنْتِ أَبِي الْعَبَاسِ السَّفَاحِ لِشَهْرِ حَلَّثَ مِنْ أَيَّامِ الرَّشِيدِ، وَقِيلَ: فِي آخِرِ
أَيَّامِ الْهَادِيِّ، وَمَاتَتِ الْخِيزْرَانِ أُمُّ الْهَادِيِّ وَالْرَّشِيدِ فِي سَنَةِ ثَلَاثَ وَسَبْعِينَ وَمَائَةً، وَمَشَى
الْرَّشِيدُ أَمَامَ جَنَازَتِهَا، وَكَانَتِ غَلَةُ الْخِيزْرَانِ مَائَةُ أَلْفٍ وَسَتِينُ أَلْفٍ درَّهْمٌ، وَفِيهَا
مَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمَانَ، وَقَبَضَ الرَّشِيدُ أَمْوَالَهُ بِالْبَصَرَةِ وَغَيْرَهَا؛ فَكَانَ مَبْلَغُهَا نِيَّافَةُ
وَخُمُسِينَ أَلْفَ درَّهْمٍ سُوَى الضَّيَاعِ وَالدُّورِ وَالْمُسْتَعَلَاتِ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمَانَ
يَغْلُبُ كُلَّ يَوْمٍ مَائَةَ أَلْفَ درَّهْمٍ.

محمد بن سليمان وسوار القاضي يعترضهما مجذون

وَحَكِيَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سَلِيمَانَ رَكِبَ يَوْمًا بِالْبَصَرَةِ وَسَوَارَ الْقَاضِيِّ يَسَايِرُهُ فِي جَنَازَةِ
ابْنَةِ عَمِّهِ، فَاعْتَرَضَهُ مَجْنُونٌ كَانَ بِالْبَصَرَةِ يَعْرَفُ بِرَأْسِ النَّعْجَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدَ، أَمِنْ
الْعَدْلَ أَنْ تَكُونَ نَحْلَتَكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَائَةَ أَلْفَ درَّهْمٍ وَأَنَا أَطْلَبُ نَصْفَ درَّهْمٍ فَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ؟
ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى سَوَارِ الْقَاضِيِّ فَقَالَ: إِنَّ كَانَ هَذَا عَدْلًا فَإِنَّا أَكْفَرُ بِهِ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ غَلْمَانُ مُحَمَّدٍ،
فَكَفَّهُمْ عَنْهُ، وَأَمْرَ لَهُ بِمَائَةِ درَّهْمٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مُحَمَّدٌ وَسَوَارٌ مَعَهُ اعْتَرَضَهُ رَأْسُ النَّعْجَةِ
فَقَالَ [لَهُ]: لَقَدْ كَرِمَ اللَّهُ مَنْصِبَكَ، وَشَرْفُ أَبُوكَ، وَحَسَنَ وَجْهُكَ، وَعَظِيمُ قَدْرِكَ،
وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَخِيرٌ يَرِيدهُ اللَّهُ بِكَ، وَلَأَنْ يَجْمِعَ اللَّهُ لِكَ الدَّارِينَ، فَدَنَّا مِنْهُ سَوَارٌ
فَقَالَ: يَا خَيْثَ، مَا كَانَ هَذَا قَوْلُكَ فِي الْبَدَاءَةِ، فَقَالَ لَهُ: سَأْلَتَكَ بِحَقِّ اللَّهِ وَبِحَقِّ الْأَمِيرِ إِلَّا

ما أخبرتني في أي سورة هذه الآية «فَإِنْ أَعْطُوكُمْ مِّنْهَا رَضِيَّاً وَلَمْ يَعْطُوكُمْ مِّنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ» [التوبه: ٥٨] قال: في براءة، قال: صدقت، فبرىء الله رسوله منك، فضحك محمد بن سليمان حتى كاد يسقط عن دابته.

ولما بني محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار دخل إليه عبد الصمد بن شبيب بن شبة، فقال له محمد: كيف ترى بناي؟ قال: بنيت أجلّ بناء، بأطيب فناء، وأوسع قضاء، وأرقّ هواء، على أحسن ماء، بين صرارى وحسان وظباء، فقال محمد: بناء كلامك أحسن من بنائنا، وقيل: إن صاحب الكلام والبني للقصر هو عيسى بن جعفر، على ما حدث به محمد بن زكرياء الغلايبي، عن الفضل بن عبد الرحمن بن شبيب بن شبة، وفي هذا القصر يقول ابن أبي عينية:

رُزْ وادي القصر، نعم القصر والوادي لا بُدَّ من زَوْرَةٍ من غير ميعاد
زره فليس له شبه يُقاربه من منزل حاضرٍ إن شئت أو باد
[ترقى فراقيره والعيسى واقفة والضب والنون والملاح والحادي]

موت الليث بن سعد

وفي سنة خمس وسبعين ومائة مات الليث بن سعد، المصري، الفهمي، ويكنى أبا الحارث، وهو ابن اثنين وثمانين سنة، وكان قد حج سنتين عشرة ومائة وسمع من نافع.

موت شريك النخعي القاضي

وفي سنة خمس وسبعين ومائة مات شريك بن عبد الله بن سنان النخعي القاضي، وكان يكى أبا عبد الله، وهو ابن اثنين وثمانين سنة، وكان مولده بيخارى، وليس بشريك بن عبد الله بن أبي أنمر الليثى ، لأن ابن [أبى] أنمر مات في سنة أربعين ومائة، وإنما ذكرنا ذلك لأنهما يتشابهان في الأباء والأمهات، وبينهما تسع وثلاثون سنة. وكان شريك بن عبد الله النخعي يتولى القضاء بالковفة أيام المهدى، ثم عزله موسى الهاדי، وكان شريك - مع فهمه وعلمه - ذكياً فطناً، وكان قد جرى بينه وبين مصعب بن عبد الله كلام بحضور المهدى فقال له مصعب: أنت تنتقص أبا بكر وعمرو، فقال: والله ما أنتقص جدك وهو دونهما.

وذكر معاوية عند شريك بالحلم، فقال: ليس بحليم من سفه الحق وقاتل علي بن أبي طالب.

وسم من شريك رائحة النبيذ، فقال له أصحاب الحديث: لو كانت هذه الرائحة منا لاستحبينا، فقال: لأنكم أهل الريبة.

موت مالك بن أنس الإمام

ومات في أيام الرشيد أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر، الأصبجي، وهو ابن تسعين سنة، وحمل به ثلاث سنين، وذلك في ربيع الأول، وقيل: إنه صلى عليه ابن أبي ذئب، على ما ذكر من التنازع في وفاة ابن أبي ذئب، وذكر الواقدي أن مالكاً كان يأتي المسجد، ويشهد الصلوات والجمع والجناز، ويعود المرضى، ويقضي الحقوق، ثم ترك ذلك كله، ثم قيل له فيه، فقال: ليس كل إنسان يقدر أن يتكلم بعذرته.

وسعى به إلى جعفر بن سليمان، وقيل له: إنه لا يرى أيمان بيعتكم شيئاً فضربه بالسياط، ومدد لذلك حتى انخلع كتفاه.

حماد بن زيد

وفي السنة التي مات فيها مالك كانت وفاة حماد بن زيد، وهي سنة تسع وسبعين ومائة.

ابن المبارك

وفي سنة إحدى وستين ومائة مات عبد الله بن المبارك، المروزي، الفقيه، بهيأة بعد منصرفة من طرسوس.

القاضي أبو يوسف

وفي سنة اثنين وثمانين ومائة مات أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي وهو ابن تسع وستين سنة، وهو رجل من الأنصار، وولي القضاء سنة ست وستين ومائة في أيام خروج الهادي إلى جرجان، وأقام على القضاء إلى أن مات خمس عشرة سنة.

قال المسعودي: وقد كانت أم جعفر كتبت مسألة إلى أبي يوسف تستفتنه فيها، فأفاتها بما وافق مرادها على حسب ما أوجبته الشريعة عنده وأدأه اجتهاه إليه، فبعثت إليه بحق فضة فيه حقان [من فضة] في كل حق لون من الطيب، وجام ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنانير، وغلمان وتحوت من ثياب، وحمار وبغل، فقال له بعض من حضره: قال رسول الله ﷺ «من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها» فقال أبو يوسف: تأولت الخبر على ظاهره، والاستحسان قد منع من إمضائه، ذاك إذ كان هدايا

الناس التمر واللبن، لا في هذا الوقت وهدايا الناس اليوم العين والورق وغيره، ﴿ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

بين عبد الله بن مصعب الزبيري

وموسى بن عبد الله بن الحسن الطالبي بحضورة الرشيد

وذكر الفضل بن الربيع قال: صار إلى عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، فقال: إن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي قد أرادني على البيعة له، فجمع الرشيد بينهما، فقال الزبيري لموسى: سعيتم علينا وأردتم نقض دولتنا، فالتفت إليه موسى فقال: ومن أنت؟ فغلب [على] الرشيد الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف حتى لا يظهر منه، ثم قال موسى: يا أمير المؤمنين، هذا الذي ترى المُشَنْعَ عَلَيْ خرج والله مع أخي محمد بن عبد الله [بن الحسن بن الحسن بن علي] على جدك المنصور، وهو القائل من أبيات:

قوموا ببیعتکم تنهض بطاعتنا إن الخلافة فيکم يا بني حسن

في شعر طويل، وليس ساعيته يا أمير المؤمنين حبّاً لك، ولا مراعاة لدولتك، ولكن بغضنا لنا جميعاً أهل البيت، ولو وجد من يتصرّ به علينا جميعاً لكان معه، وقد قال باطلًا، وأنا مستحلّفه، فإن حلف أني قلت ذلك فدمي لأمير المؤمنين حلال، فقال الرشيد احلف له يا عبد الله، فلما أراده موسى على اليمين تلّكاً وامتنع، فقال له الفضل: لم تمنع وقد زعمت أنّا أنه قال لك ما ذكرته؟ قال عبد الله: فأنا أحلف له، قال موسى: قل تَقَلَّدْتُ الْحَوْلَ وَالْقُوَّةَ دُونَ حَوْلَ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى حَوْلِي وَقُوَّتِي إِنْ لَمْ يَكُنْ مَا حَكِيَتِهِ عَنِي حَقًا، فاحلف له، فقال موسى: الله أكبر، حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن جده علي عن رسول الله ﷺ أنه قال «ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاثة» والله ما كذبنا ولا كذبنا، وهو أنا يا أمير المؤمنين بين يديك وفي قبضتك، فتقدم بالتوكيل علي، فإن مضت ثلاثة أيام ولم يحدث على عبد الله بن مصعب حادث فدمي لأمير المؤمنين حلال، فقال الرشيد للفضل: خذ بيد موسى فليكن عندك حتى أنظر في أمره.

قال الفضل: فوالله ما صليت العصر من ذلك اليوم حتى سمعت الصراخ من دار عبد الله بن مصعب، فأمرت من يتعرف خبره، فعرفت أنه [قد] أصابه الجذام، وأنه قد توّرم وانسّد، فصررت إليه، فوالله ما كدت أعرفه لأنّه صار كالزق العظيم ثم اسود حتى صار كالفحّم، فصررت إلى الرشيد فعرفته خبره، مما انقضى كلامي حتى أتي خبر وفاته،

فبادرت بالخروج، وأمرت بتعجيل أمره والفراغ منه، وتوليت الصلاة عليه، فلما دأبته في حضرته لم يستقر فيها حتى انكسفت به وخرجت منه رائحة مفرطة التن، فرأيت أحمال شوك تمر في الطريق فقلت: [على بذلك الشوك، فأتيت به، فطرح في تلك الوهدة، فما استقر حتى انكسفت ثانية، فقلت] على بـالـلـوـاـح سـاجـ، فـطـرـحـتـ عـلـىـ مـوـضـعـ قـبـرـهـ، ثـمـ طـرـحـ التـرـابـ عـلـيـهـ، وـانـصـرـفـتـ إـلـىـ الرـشـيدـ فـعـرـفـهـ الـخـبـرـ [وـمـاـ عـاـيـنـتـ مـنـ الـأـمـرـ] فـأـكـثـرـ التـعـجـبـ مـنـ ذـلـكـ، وـأـمـرـنيـ بـتـخـلـيـةـ مـوـسـىـ بـنـ عـبـدـ اللهـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ، وـأـنـ أـعـطـيـهـ أـلـفـ دـيـنـارـ، وـأـحـضـرـ الرـشـيدـ مـوـسـىـ فـقـالـ [لـهـ]: لـمـ عـدـلـتـ عـنـ الـيمـينـ الـمـتـعـارـفـةـ بـيـنـ النـاسـ؟ـ قـالـ: لـأـنـ رـوـيـنـاـ عـنـ جـدـنـاـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ [عـنـ النـبـيـ ﷺ] مـنـ حـلـفـ بـيـمـينـ مـجـدـ اللـهـ فـيـهـ اـسـتـحـيـاـ اللـهـ مـنـ تـعـجـيلـ عـقـوبـتـهـ. وـمـاـ مـنـ أـحـدـ حـلـفـ بـيـمـينـ [كـاذـبـةـ] نـازـعـ اللـهـ فـيـهـ حـوـلـهـ وـقـوـتـهـ إـلـاـ عـجـلـ اللـهـ لـهـ الـعـقـوبـةـ قـبـلـ ثـلـاثـ].

وقيل: إن صاحب هذا الخبر هو يحيى بن عبد الله [بن الحسن بن الحسن بن علي] أخو موسى [بن عبد الله، رضوان الله عليهم!].

وكان يحيى قد سار إلى الدينَم مستجيرًا؛ فباعه صاحب الدينَم من عامل الرشيد بمائة ألف درهم، فقتل، رحمه الله!.

وقد روي من وجه آخر - على حسب تبادل النسخ وطرق الرواية في ذلك في كتب الأنساب والتواريخ - أن يحيى القي في بركة فيها سباع قد جُوّعت، فأمسكت على أكله، ولأذت بناحية، وهابت الدُّنْوُ إليه، فبني عليه ركن بالجص والحجر وهو حيٌّ.

ظهور محمد بن جعفر، ثم هربه إلى المغرب

وقد كان محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي كرم الله وجهه سار إلى مصر، فطلبَ، فدخل المغرب، واتصل ببلاد تاهرت السفلية، واجتمع إليه خلق من الناس، فظهر عليهم بعدل وحسن استقامة، فمات هنالك مسموماً، وقد أتينا على كيفية خبره وما كان من أمره في كتاب «حدائق الأذهان»، في أخبار أهل بيته النبي ﷺ وتفرقهم في البلدان».

الرشيد يحج آخر حجة

وفي سنة ثمانية وثمانين ومائة حجَّ الرشيد، وهي آخر حجَّةَ حجَّها، فذكر عن أبي بكر بن عياش - وكان من [عليه] أهل العلم - أنه قال وقد اجتاز الرشيد بالكوفة في حال منصرفه من هذه الحجَّة: لا يعود إلى هذه الطريق، ولا خليفة من بني العباس بعده

أبداً، فقيل له: أضرب من الغيب؟ قال: نعم، قيل: بؤخي؟ قال: نعم، قيل: إليك؟ قال: لا، إلى محمد صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكذلك أخبر عنه [علي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] المقتول في هذا الموضع، وأشار إلى الموضع الذي قتل فيه [علي] بالكوفة، رضي الله عنه! .

موت الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني

وفي سنة تسع وثمانين ومائة - وذلك في أيام الرشيد - مات عليٌّ بن حمزة الكسائي صاحب القراءات، ويكنى أبا الحسن، وكان قد شَخَّصَ مع الرشيد إلى الري فمات بها، وكذلك مات محمد بن الحسن الشيباني القاضي، ويكنى أبا عبد الله، ودفن بالري وهو مع الرشيد، وتطير من وفاة محمد بن الحسن لرؤيا [كان] رآها في نومه.

يعين بن خالد سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح

وفي هذه السنة كانت وفاة يعین بن خالد بن بزمك.

وفي سنة ثمان وثمانين ومائة كان سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، فحدثت يموت بن المزرع عن الرياشي، قال: سمعت الأصممي يقول: كنت عند الرشيد، وأتى بعد الملك بن صالح يزفل في قيوده، فلما نظر إليه قال: هيه يا عبد الملك، كأني [والله] أنظر إليك وشوبتها قد هم، و[إلى] عارضها قد لمع، وكأني بالوعيد قد أقلع عن برامج بلا معااصم، ورقوس بلا غلام، مهلاً مهلاً بني هاشم، والله سهل لكم الوغر، وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أزمتها، فخذوا حذركم مني قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل، فقال له عبد الملك: أFDA أتكلم أم توأم؟ فقال: توأمًا، قال: فاتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك، وراقبه في رعيائك التي استرعاك، قد سهلت لك والله الوعور، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور، وكنت كما قال أخو جعفر بن كلاب.

وتقام ضيق فرجته بلسان أو بيان أو جدال
لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامي أو زحل

قال: فأراد يعین بن خالد البرمكي أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد، فقال له: يا عبد الملك، بلغني أنك حثود، فقال: أصلاح الله الوزير!! إن يكن العقد هو بقاء الخير والشر عندي إنهما لباقيان في قلبي، فالتفت الرشيد إلى الأصممي، فقال: يا أصممي حررها فوالله ما احتج أحد للعقد بمثل ما احتج به عبد الملك، ثم أمر به فرد إلى

محبسه، ثم التفت إلى الأصمسي، فقال: والله والله يا أصمسي لقد نظرت إلى موضع السيف من عنقه مراراً، يمْنعني من ذلك إيقائي على قومي في مثله.

أهديت للرشيد سمكة فمنعها عنه ابن يختيشوع الطبيب

حدث يوسف بن إبراهيم [بن]المهدي، قال: حدثني سليمان الخادم الخراساني مولى الرشيد، أنه كان واقفاً على رأس الرشيد بالجيرة وهو يتغدى إذ دخل عليه عون العبادي، وكان صاحب الجيرة، وفي يده صحفة فيها سمكة منعوتة بالسمن فوضعها بين يديه ومعه محبس قد اتخذ لها، فحاول الرشيد أكل شيء منها فمنعه جبريل بن يختيشوع، وأشار جبريل إلى صاحب المائدة أن يشيلها عن المائدة ويعزلها له، ففطن له الرشيد، فلما رفعت المائدة وغسل الرشيد يده وخرج جبريل أمرني الرشيد باتباعه وأن أكبسه في منزله وهو يأكل فأرجع إليه بخبره، ففعلت ما أمرني [به] وأحسب أن أمري لم يخف على جبريل فيما تبيّنت من تحرزه، فإنه صار إلى موضع من دار عون، ودعا بالطعام فأحضر له، وفيه السمكة، فدعا بأقداح ثلاثة، فجعل في واحد منها قطعة من السمك وصبَّ عليها [خمراً] من خمر طير ناباذ - وهي قرية بين الكوفة والقادسية ذات كروم وأشجار ونخل ورياض تخرقها الأنهر من كل البقاع من الفرات، شرابها موصوف بالجودة كوصف القطربي - فصبه على السمكة وقال: هذا أكل جبريل، وجعل في قدر آخر قطعة منها، وصبَّ عليها ماء بثلج شديد البرودة، وقال: هذا أكل أمير المؤمنين أعزه الله إن لم يخلط السمك بغيره، وجعل في القدر الثالث [قطعة من السمكة وجعل] قطعاً من اللحم من الألوان مختلفة، من شواء ومن حلوى ومن بوارد ويقول، ومن سائر ما قدم إليه من الألوان، من كل واحد منها جزءاً يسيراً مثل اللقمة، واللقمتين، وصبَّ عليها ماء بثلج، وقال: هذا أكل أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره، [من الطعام] ودفع الثلاثة الأقداح إلى صاحب المائدة، وقال: احتفظ بها إلى أن يتتبه أمير المؤمنين أعزه الله، ثم أقبل جبريل على السمكة فأكل منها حتى تفلع، وكان كلما عطش دعا بقدر من الخمر الصرف فشربه، ثم نام، فلما انتبه الرشيد من نومه سألني عما عندي من خبر جبريل، وهل أكل من السمكة شيئاً أم لم يأكل؟ فأخبرته بالخبر، فأمر بإحضار الأقداح الثلاثة فوجد ما في القدر الأول - وهو الذي ذكر جبريل أنه أكله وصبَّ عليه الخمر الصرف - قد تفتت وانماع واحتلط، ووُجد ما في القدر الثاني - الذي قال جبريل إنه أكل أمير المؤمنين وصبَّ عليه الماء بالثلج - قد ربا وصار على النصف مما كان، ونظر إلى القدر الثالث - الذي قال جبريل وهذا أكل أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره - قد تغيرت رائحته وحدثت له سُهُوكة [شديدة] كاد الرشيد أن يتقيأ حين قرب منه، فأمر [ني] بحمل

خمسة آلاف دينار إلى جبريل وقال: من يلومني على محبة هذا الرجل الذي يدبرني بهذا التدبير؟ فأوصلْتُ إليه المال.

رؤيا الرشيد يؤمر بالتخلية عن موسى بن جعفر

وذكر عبد الله بن مالك الخزاعي - وكان على دار الرشيد وشرطه - قال: أتاني رسول الرشيد في وقت ما جاءني فيه قط، فانتزعني من موضعِي، ومنعني من تغيير ثيابي، فراغني ذلك [منه] فلما صرت إلى الدار سبقني الخادم، فعرَّفَ الرشيد خبري، فأدلن لي في الدخول [عليه]، فدخلت، فوجده قاعداً على فراشه؛ فسلمت، فسكت ساعة، فطار عقلي وتضاعفَ الجزء [علي] ثم قال لي: يا عبد الله، أتدرِّي لم طلبتك في هذا الوقت؟ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: إني رأيت الساعة في منامي كأنَّ حَبَشِيَا قد أتاني ومعه حرية فقال [لي]: إن لم تخل عن موسى بن جعفر الساعة وإن حرتك بهذه الحرية، فاذهب فخل عنـه، فقلت: يا أمير المؤمنين، أطلق موسى بن جعفر؟ ثلثاً، قال: نعم امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر وأعطيه ثلاثة ألف درهم، وقل له: إن أحبيت المقام قبَّلَنا فلك عندي ما تحب، وإن أحبيت المضي إلى المدينة فالإذن في ذلك إليك، قال: فمضيت إلى الحبس لآخرجه، فلما رأي موسى وشب إلى قائمًا وظن أنِّي قد أمرت فيه بمكروه. فقلت: لا تخـف، وقد أمرني أمير المؤمنين بياطلاقك، وأن أدفع إليك ثلاثة ألف درهم، وهو يقول لك: إن أحبيت المقام قبلنا فلك ما تحب، وإن أحبيت الانصراف [إلى المدينة] فالأمر في ذلك مُطلَّقٌ إليك. وأعطيته ثلاثة ألف درهم، وخلت سيله، وقلت: لقد رأيت من أمرك عجباً، قال: فإني أخبرك: بينما أنا نائم إذ أتاني النبي ﷺ فقال: يا موسى، حبسـت مظلوماً فقل هذه الكلمات فإنك لا تبيت هذه الليلة في الحبس، فقلت: بأبي وأمي ما أقول؟ فقال: قل يا سامع كل صوت، ويا سابق الفوت، ويا كاسي العظام لحاماً ونشرها بعد الموت، أسألك بأسمائك الحسنة وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكتون الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين، يا حلِيمًا ذا أناة لا يُثُورَ على أناته، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً، ولا يُخَصَّ عدداً، فرجـعني، فكان ما ترى.

إبراهيم بن المهدى يعني الأسود

وذكر حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: قال إبراهيم بن المهدى: حججت مع الرشيد، فبينا نحن في الطريق وقد انفردَ أسيـرُ وحدـي وأنا على دابتي، إذ غلبتني عيناي، فسلكت بي الدابة غير الطريق، فانتبهت وأنا على غير الجادة، فاشتدَّ بي

الحر، فعطشت عطشاً شديداً، فارتفع لي خباء، فقصدته، فإذا بقية وبجنبها بئر ماء بقرب مزرعة، وذلك بين مكة والمدينة، ولم أربها إنسياً؛ فاطلعت في القبة فإذا أنا بأسود نائم، فأحسن بي ففتح عينيه كأنهما إجاثات، فاستوى جالساً، وإذا هو عظيم الصورة، فقلت: يا أسود، اسقني من هذا الماء، فقال: يا أسود اسقني من هذا الماء، محاكي لي، وقال: إن كنت عطشاناً فانزل واشرب، وكان تحتي برذون خبيث تفور، فخشيت أن أنزل عنه فينفر، فضربت رأس البرذون، وما نفعني الغناء قط إلا في ذلك اليوم، وذلك أني رفعت عقيرتي وأنا أغني:

كَفُّونِي إِنْ مَتْ فِي دُرْعِ أَرْوَى
فَاسْتَقُوا لِي مِنْ بَئْرٍ عَزْوَةَ مَاء
فَلَهَا مَرْبَعٌ بِجَنْبِ أَجَاجٍ
وَمَصِيفٌ بِالْقَصْرِ قَصْرٌ قَبَاءٌ

[سخنة في الشتاء، باردة في الصيف، بذر في الليلة الظلماء].

فرفع الأسود رأسه إلي، وقال: أيما أحب إليك: أن أسقيك ماء وحده، أو ماء وسوقاً؟ قلت: الماء والسوق، فأخرج قباعاً له فصب السوق في القدر فسقاني، وأقبل يضرب بيده على رأسه وصدره، ويقول: واحرّ صدراه، وأنارات اللهب في فؤادي، يا مولاي زدني وأنا أزيدك، وشربت السوق، ثم قال لي: يا مولاي، إن بينك وبين الطريق أميلاً، ولست أشك أنك تعطش، لكنني أملأ قربتي هذه وأحملها قدامك، فقلت: افعل، قال: فملاً قربته وسار قدمي وهو يحمل في مشيته غير خارج عن الإيقاع، فإذا أمسكت لأستريح أقبل علي فقال: يا مولاي، [أما] عطشت، فأغنية النصب، إلى أن أوقفني على الجادة، ثم قال لي: سر رعاك الله ولا سلبك ما كساك من هذه النعم، بكلام عجمي معناه هذا الدعاء، فلتحقت بالقاقة والرشيد [كان] قد فقدني، وقد بث البخت والخيل في البر يطلبونني، فسرّ بي حين رأني، فأتته، فقصصت عليه الأمر، فقال: على بالأسود، فما كان إلا هنيئة حتى مثل بين يديه، فقال له: ويلك!! ما حر صدرك؟ فقال: يا مولاي ميمونة، قال: ومن ميمونة؟ قال: [بنت] حبشية، قال: ومن حبشية؟ قال: بنت بلال يا مولاي، فأمر من يستفهمه، فإذا الأسود عبد لبني جعفر الطيار، وإذا السواد التي يهواها لقوم من ولد الحسن بن علي، فأمر الرشيد بابتاعها له، فأبى مواليها أن يقبلوا لها ثمناً، ووهبها للرشيد، فاشترى الأسود وأعتقه، وزوجه منها، ووهب له من ماله بالمدينة حديقتين وثلاثمائة دينار.

ودخل ابن السماك على الرشيد [يوماً] وبين يديه حمامه تلتقط حباً، فقال له: صفتها وأوجز، فقال: كأنما تنظر من ياقوتين، وتلتقط بدرتين، وتطأ على عققيتين، وأنشدونا لبعضهم:

كَفُّونِي إِنْ مَتْ فِي دُرْعِ أَرْوَى
فَاسْتَقُوا لِي مِنْ بَئْرٍ عَزْوَةَ مَاء
فَلَهَا مَرْبَعٌ بِجَنْبِ أَجَاجٍ
وَمَصِيفٌ بِالْقَصْرِ قَصْرٌ قَبَاءٌ

هتفت هاتفة آذنها إلفٌ بين
 ذات طُوقٍ مثل عَطْف النون أقنى الطرفين
 وترأها ناظرة نحوك من ياقوتتين
 ترجع الأنفاس من ثقبين كاللؤلؤتين
 وترى مثل البساتين لها قادمتين
 ولها لحيان كالصدغين من عرعرتين
 ولها ساقان حمرا وإن مثل الوردتين
 نسجت فوق جناحيه لها برنوستين
 وهي طاووسية اللون بنان المنكبين
 تحت ظل من ظلال الآيك صافي الكتفين
 فقدت إلفاً فناحت من تباريح وبين
 فهئي تبكيه بلا دمع جمود المقلتين
 وهي لا تصبغ عيناهما كما تصبغ عيني

بين الرشيد ومعن بن زائدة

ودخل معن بن زائدة على الرشيد وقد كان وجد عليه، فمشى فقارب الخطو فقال له هارون: كبرت والله يا معن، قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين قال: وإن فيك على ذلك لقيمة، قال: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: وإنك لجلد، قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين. فرضي عنه وولاه.

قال: وعرض كلامه هذا على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة فقال: وَيَحْ
 هذا!! ما ترك لريه شيئاً.

وقال الرشيد يوماً لمعن بن زائدة: إنني قد أعددتك لأمر كبير، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله أعد لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبوسطة بطاعتك، وسيفأ مشحوداً على عدوك، فإن شئت فقل، وقيل: إن هذا الجواب من كلام يزيد بن مزيد.

بين الرشيد والكسائي

وقال الكسائي: دخلت على الرشيد، فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام، فقال: أقعد، فلم أزل عنده حتى خفت عامة من كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصته، فقال لي: يا علي، ألا تُحِب أن ترى محمداً وعبد الله؟ قلت: ما أشوقني إليهما

يا أمير المؤمنين، وأسرني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما، فأمر بإحضارهما، فلم ألبث أن أقبل كوكبي أفق يزينهما هدوء ووقار، وقد غضا أبصارهما، وقاربا خطوهما حتى وقفوا على باب المجلس فسلموا على أبيهما بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء. فأمرهما بالذُّنُوْنَ منه [فدنوا] فصَرَّ مُحَمَّداً عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرني أن أستقرئهما وأسألهما، ففعلت، فما سألهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه، فسر بذلك الرشيد حتى تبنته فيه. ثم قال لي: يا علي، كيف ترى مذهبهما وجوابهما؟ فقلت: يا أمير المؤمنين [هما] كما قال الشاعر:

أرى قَمَرِيْ مَجْدِيْ وَفَرْعَانِيْ خِلَافَةً يَزِينُهُمْ عَرَقَ كَرِيمٍ وَمَحْتَدٍ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ هَمَا فَرَعَ زَكَا أَصْلَهُ، وَطَابَ مَغْرِسَهُ، وَتَمَكَّنَتْ فِي الْثَّرَى عَرْوَقَهُ،
وَعَذَبَتْ مَشَارِبَهُ، أَبُوهُمَا أَغْرَى، نَافَذَ الْأَمْرَ، وَاسْعَ الْعِلْمَ، عَظِيمُ الْحَلْمِ، يَحْكُمَانَ بِحُكْمِهِ،
وَيَسْتَضِيَّانَ بِنُورِهِ، وَيَنْطَقَانَ بِلِسَانِهِ، وَيَتَقْلِبَانَ فِي سَعَادَتِهِ، فَأَمْتَعَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِهِمَا،
وَأَنْسَ جَمِيعَ الْأَمَّةِ بِبَقَائِهِ وَبِقَائِهِمَا [ثم قلت لهما: هل ترويان من الشعر شيئاً؟ فقالا: نعم،
ثم أنسداني محمد:]

وَإِنِّي لَعَفْتُ الْفَقْرَ مُشَرِّكَ الْغَنِيِّ وَتَارَكَ شَكْلَ لَا يَوْافِقُهُ شَكْلِيِّ
وَأَجْعَلَ مَالِيِّ دُونَ عِرْضِيِّ جَنَّةً لِنَفْسِيِّ، وَمَفْضَالَ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِ
ثُمَّ أَنْشَدَ عَبْدَ اللَّهِ:

بَكَرْتُ تَلَوْمُكَ مَطْلَعَ الْفَجْرِ
مَلَكَ الْأَمْوَارَ عَلَيَّ مَقْتَدِرٌ
وَلَرَبِّ مَغْتَبِطٍ بِسَرْزَةٍ
وَتَرَى قَنَاتِيَ حِينَ يَغْمِدُهَا عَضُُّ الثَّقَافَ بِطَيْئَةِ الْكَسْرِ[.]
وَلَقَدْ تَلَوْمَ بِغَيْرِ مَا تَدْرِي
يُعْطِي إِذَا مَا شَاءَ مِنْ يُشْرِرٍ
وَمَفْجَعَ بِنَوَائِبِ الدَّهْرِ
فَمَا رَأَيْتَ أَحَدًا مِنْ أَوْلَادِ الْخَلْفَاءِ وَأَغْصَانَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْمَبَارَكَةِ أَذْرَبَ أَلْسِنَةَ وَلَا
أَحْسَنَ أَفْاظًا وَلَا أَشَدَّ اقْتِدارًا عَلَى تَأْدِيَةِ مَا حَفْظَا مِنْهُمَا، وَدَعَوْتُ لَهُمَا دَعَاءً كَثِيرًا، وَأَمَّنَ
الْرَّشِيدَ عَلَى دُعَائِيِّ، ثُمَّ ضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَجَمَعَ يَدَهُمَا عَلَيْهِمَا، فَلَمْ يَسْطُطُهَا حَتَّى رَأَيْتَ الدَّمْوعَ
تَنْحدِرُ عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ أَمْرَهُمَا بِالْخُرُوجِ، فَلَمَّا خَرَجَا أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: كَأْنَكُمْ بِهِمَا وَقَدْ
حُمِّ الْقَضَاءِ، وَنَزَّلْتُ مَقَادِيرَ السَّمَاءِ، وَبَلَغَ الْكِتَابَ أَجْلَهُ، قَدْ تَشَتَّتَ كَلْمَتَهُمَا، وَاخْتَلَفَ
أَمْرَهُمَا، وَظَهَرَ تَعَدِيهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَرِحْ ذَلِكَ بِهِمَا حَتَّى تَسْفَكَ الدَّمَاءُ، وَتَقْتَلَ الْقَتْلَى،
وَتَهْتَكَ سُورُ النِّسَاءِ، وَيَتَمَّنِي كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ أَنْهُمْ فِي عَدَادِ الْمَوْتَىِّ، قَلْتَ: أَيْكُونُ ذَلِكَ يَا
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ لِأَمْرِ رَوْيِّ فِي أَصْلِ مُولَدَهُمَا أَوْ لِأَثْرِ وَقْعِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي مُولَدَهُمَا؟

فقال: لا والله إلا بأثر واجب حملته العلماء عن الأووصياء عن الأنبياء.

وصية الرشيد لمُؤدب الأمين الأحمر النحوى

قال الأحمر النحوى: بعث إلى الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين، فلما دخلت قال: يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصَرَّيكَ يدك عليه مبسوطة، وطاعتكم عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الآثار، ورَوْهُ الأشعار، وعلمه السنن، وبصره موقع الكلام وببدأ، وامنعه الضحك إلا في أوقاته، وخذنه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا إليه، ورَفِع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إليها، من غير أن تُحرق به فتميت ذهنه، ولا تمنعن في مسامحته فيستَخلِي الفراغ ويألفه، وقومة ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهمَا فعليك بالشدة والغلظة.

العماني عند الرشيد يحرضه على تجديد العهد للامين

ويقال: إن العماني الشاعر قام بحضورة الرشيد [خطياً] فلم يزل يقرظ محمداً ويُحرضه على تجديد العهد له، فلما فرغ من كلامه قال له: أبشر يا عماني بولاية العهد له، فقال: إيه والله يا أمير المؤمنين سُرُورُ العُشِّ بالغيث ، والمرأة التزور بالولد، والمريض المدفن بالبرء ، لأنه نسيج وَحدِه ، وحامِي مجده ، وشبيه حده ، قال: فما تقول في عبد الله؟ قال: مَرْعَى وَلَا كَالسَّعْدَان ، فتبسم الرشيد وقال: قاتله الله! [من أعراي] ما أعرفه بمواضع الرغبة ، أما والله إني لأتعرف في عبد الله حَزْمَ المنصور ، ونسك المهدى ، وعز نفس الهاディ ، والله لو شاء الله أن أنسبه إلى الرابعة لنسبته إليه .

حرص الرشيد على ولادة عهده

قال الأصمسي: بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبيكي [آخر] ثم أنشأ يقول:

فَلَدُّ أمور عباد الله ذا ثقة مُوحَدَ الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوي خطل لا يفهمون إذا ما عشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيماً، ثم قال لمسرور الخادم: علي يحيى، فما لبث أن أتاه فقال: يا أبا الفضل، إن رسول الله ﷺ مات في غير وصية والإسلام جَذْعُه ، والإيمان جديـد ، وكلمة العرب مجتمـعة ، قد آمنـها الله تعالى بعد الخوف ، وأعـزـها بعد الذل ، فما لبث أن ارـتـدَّ عـامةـ العربـ علىـ أبيـ بـكرـ ، وـكانـ منـ خـبرـهـ

ما قد علمت، وإن أبا بكر صَيَّرَ الْأَمْرَ إِلَى عُمَرَ، فَسَلَّمَتِ الْأُمَّةُ لَهُ، وَرَضِيَتْ بِخَلَافَتِهِ، ثُمَّ صَيَّرَهَا عُمَرُ شُوَرَى؛ فَكَانَ بَعْدَهُ مَا قَدْ بَلَغَكَ مِنَ الْفَتْنَى حَتَّى صَارَتِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا، وَقَدْ عَنِتَ بِتَصْحِيفِ هَذَا الْعَهْدِ وَتَصْيِيرِهِ إِلَى مَنْ أَرْضَى سِيرَتَهُ، وَأَحْمَدَ طَرِيقَتَهُ، وَأَثْقَبَ بِحَسْنِ سِيَاسَتِهِ، وَآمَنَ ضَعْفَهُ وَوَهْنَهُ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ، وَبْنُو هَاشِمٍ مَائِلُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ بِأَهْوَانِهِمْ، وَفِيهِ مَا فِيهِ مِنَ الْاِنْقِيَادِ لِهَوَاهُ، وَالْتَّصْرِيفُ مَعَ طَوْبِيهِ وَالتَّبْذِيرُ لِمَا حَوْتَهُ يَدُهُ، وَمَشَارِكَةُ النِّسَاءِ وَالْإِمَامَةِ فِي رَأْيِهِ؛ وَعَبْدُ اللَّهِ الْمَرْضِيُّ الطَّرِيقَةُ، الْأَصْبَلُ الرَّأْيُ، الْمَوْثُوقُ بِهِ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ؛ فَإِنْ مِلْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ أَسْخَطْتُ بْنَيَ هَاشِمٍ، وَإِنْ أَفْرَدْتُ مُحَمَّدًا بِالْأَمْرِ لَمْ آمَنْ تَخْلِيَطَهُ عَلَى الرَّعْيَةِ. فَأَشِرَّ عَلَيَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ بِرَأْيِكَ مُشَوَّرَةً يَعْمَلُ فَضْلَاهَا وَنَفْعَهَا، فَإِنَّكَ بِحَمْدِ اللَّهِ مُبَارَكُ الرَّأْيِ لَطِيفُ النَّظَرِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ كُلَّ زَلْمٍ مُسْتَقَالَةٌ وَكُلَّ رَأْيٍ يَتَلَاقِي خَلَاءً هَذَا الْعَهْدُ، فَإِنَّ الْخَطَا فِيهِ غَيْرُ مَأْمُونٍ، وَالزَّلْمُ فِيهِ لَا تَسْتَدِرُكَ، وَلِلنَّظَرِ فِيهِ مَجْلِسٌ غَيْرُ هَذَا؛ فَعْلَمَ الرَّشِيدُ أَنَّهُ يَرِيدُ الْخَلْوَةَ، فَأَمْرَنِي بِالْتَّنْحِيِّ، فَقَمْتُ وَقَدِعْتُ نَاحِيَةً بِحِيثُ أَسْمَعَ كَلَامَهُمَا، فَمَا زَالَ فِي مَنَاجَاهُ وَمَنَاظِرَةِ طَوِيلَةٍ حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ، وَافْتَرَقَا عَلَى أَنْ عَقَدَ الْأَمْرُ لِعَبْدِ اللَّهِ بَعْدِ مُحَمَّدٍ.

وَدَخَلَتْ أُمُّ جَعْفَرٍ عَلَى الرَّشِيدِ فَقَالَتْ: مَا أَنْصَفْتَ ابْنَكَ مُحَمَّدًا حِيثُ وَلَيْهِ الْعَرَاقُ وَأَغْرَيْتَهُ عَنِ الْعَدْدِ وَالْقَوَادِ، وَصَبَرْتَ ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ دُونَهُ، فَقَالَ لَهَا: وَمَا أَنْتَ وَتَمِيزْتِ الْأَعْمَالِ وَاخْتَبَارِ الرِّجَالِ؟ إِنِّي وَلَيْتَ ابْنَكَ السُّلْطَنَ، وَعَبْدَ اللَّهِ الْحَرْبَ، وَصَاحِبَ الْحَرْبِ أُخْرَجْتُ إِلَى الرِّجَالِ مِنَ الْمَسَالِمِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَا نَتَخُوفُ ابْنَكَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، وَلَا نَتَخُوفُ عَبْدَ اللَّهِ عَلَى ابْنَكَ إِنْ بُوِيعَ.

الْرَّشِيدُ يَعْلَقُ كِتَابَ الْعَهْدِ فِي الْكَعْبَةِ

وَفِي سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَمَائِينَ خَرَجَ الرَّشِيدُ حَاجًا وَمَعَهُ وَلِيًّا عَهْدِهِ: الْأَمِينُ وَالْمَأْمُونُ، وَكَاتِبُ الشَّرْطَيْنِ بَيْنَهُمَا وَغَلَقُوهُمَا فِي الْكَعْبَةِ.

وَحَكِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْحَجَبِيِّ أَنَّ الْكِتَابَ لِمَا رُفِعَ لِيَعْلَقَ بِالْكَعْبَةِ وَقَعَ، فَقَلَتْ فِي نَفْسِي: [وَقَعَ] قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ، إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ سَرِيعُ انتِقَاصِهِ قَبْلَ تَمَامِهِ.

وَحَكِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَامِرِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: حَجَجْتُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَقَدْ اسْتَعْظَمْتُ النَّاسَ أَمْرَ الشَّرْطِ وَالْأَيْمَانِ فِي الْكَعْبَةِ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ هَذِئِنِ يَقُودُ بَعِيرَهُ وَهُوَ يَقُولُ: وَبِسِعَةِ قَدْ نَكَثْتُ أَيْمَانَهَا وَفَتَنَةً قَدْ سَعَرَتْ نِيرَانَهَا

فَقَلَتْ لَهُ: وَيَحْكُمُ مَا تَقُولُ؟! قَالَ: أَقُولُ إِنَّ السَّيْفَ سَتُّسَلَّلُ، وَالْفَتْنَةُ سَتَقْعُ، وَالْتَّنَازُعُ فِي الْمَلْكِ سَيَظْهُرُ؛ قَلَتْ: وَكَيْفَ تَرَى ذَلِكَ؟ قَالَ: أَمَا تَرَى الْبَعِيرَ وَاقْفَأَ وَالرَّجَلَانِ

يتنازعان والغَرَابَانِ قد وقعا على الدَّمِ والتَّطْخَابِ، والله لا يكون آخرُ هذا الأمر إلا محاربة وشَرًا.

ويروى أنَّ الأمين لَمَّا حَلَّ لِلرَّشِيدِ بِمَا حَلَّ لَهُ، وأرَادَ الْخُرُوجَ مِنَ الْكَعْبَةِ رَدَّ جعفر بن يحيى، وقال له: فإنْ غَدَرْتَ بأخِيكَ حَذَّلَكَ اللهُ، حتى فعل ذلك ثلاثة [في] كلها يحلف له، وبهذا السبب اضطغنت أم جعفر على جعفر بن يحيى؛ فكانت أحدَ من حَرَضَ الرَّشِيدَ عَلَى أَمْرِهِ، وبيعته على ما نزل به.

قال المسعودي: وفي سنة سبع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون، فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون كان أمره إليه، إن شاء أن يقره أقره، وإن شاء أن يخلعه خلعه.

وفاة الفضيل بن عياض

في هذه السنة - وهي سنة سبع وثمانين ومائة - توفي **الفضيلُ** بن عياض ويكتفى أبا علي، وكان مولده بخراسان، وقدم الكوفة، وسمع من المنصور بن المعتمر وغيره، ثم تبعه وانتقل إلى مكة فأقام بها إلى أن مات.

حدث سفيان بن عيينة قال: دعانا الرشيد، فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعاً رأسه برداه، فقال لي: يا سفيان، أيهم أمير المؤمنين؟ قلت: هذا، وأوامات إلى الرشيد، فقال [له]: أنت يا حَسَنَ الوجهِ، الذي أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي يَدِكَ وَعَنْكَ؟ لقد تَقَلَّذَتْ أَمْرًا عَظِيمًا، فبكى الرشيد، ثم أتى كل رجلٍ مِنْ بَيْدَرَةٍ، فكُلَّ قَبْلَهَا إِلَّا الفضيل، فقال له الرشيد: يا أبا علي، إن لم تستحلها فأعطيها ذا دين، وأشييع بها جائعاً، وأكشن بها عرياناً، فاستغفاه منها، فلما خرجنا قلت له: يا أبا علي، أخطأت، ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البر، فأخذ بلحيتي ثم قال: يا أبا محمد، أنت فقيه البلد [والمنتظر إليه] وتغلط مثل هذا الغلط؟ لو طابت لأولئك لطابت لي.

موت موسى بن جعفر الطالبي

وقبض موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ببغداد مسموماً، لخمس عشرة سنة خلت من ملك الرشيد، سنة ست وثمانين ومائة، وهو ابن أربع وخمسين سنة، وقد ذكرنا في رسالة بيان أسماء الأئمة القطعية من الشيعة: أسماءهم، وأسماء أمهاتهم، ومواضع قبورهم، ومقادير أعمالهم، وكم عاش كل واحد منهم مع أبيه، ومن أدركه من أجداده اللهم إني أسألك.

من شعر العتابي في الرشيد

ولكلثوم العتابي في الرشيد من أبيات:

إمام لَهُ كَفَّ يَضْمُمُ بَنَائِهَا
وعَيْنٌ مُحِيطٌ بِالْبَرِّيَّةِ طَرْفُهَا
وأَسْمَعَ يَقْظَانًا يَبْيَتْ مُشَاجِيًّا
[سَمِيعٌ إِذَا نَادَاهُ مِنْ قَعْدِ كُرْبَةِ مُسَادٍ كَفَتْهُ دُعَوةً لَا يُعِدُهَا]

العتابي ينال من أبي نواس

حدث يموت بن المزرع قال: حدثني خالد عن عمرو بن بحر الجاحظ، قال: كان كلثوم العتابي يضع من قدر أبي نواس، فقال له راوية أبي نواس يوماً: كيف تضع من قدر أبي نواس وهو الذي يقول:

إذا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ الَّذِي ثَنَى وَفَوْقَ الَّذِي يُثْنِي
وَإِنْ حَرَّتِ الْأَلْفَاظُ مِنَ بِمَدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي تَعْنِي

قال العتابي: هذا سرقة، قال: من؟ قال: من أبي الهذيل الجمحى [قال: حيث يقول ماذا؟ قال:] حيث يقول:

وإذا يقال لبعضهم نعم الفتى فائبُ الْمُغَيْرَةِ ذَلِكَ النَّعْمَ عَقْمَ النِّسَاءِ فَلَا يَجِدُنَّ بِمُثْلِهِ إِنَّ النِّسَاءَ بِمُثْلِهِ عَقْمُ

قال: فقد أحسن في قوله:

فَتَمَسَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَسِّي الْبَرَءِ فِي السَّقَمِ
قال: سرقة أيضاً، قال له: ومن؟ قال: من شوسة الفقusi، [قال: حيث يقول ماذا؟ قال:] حيث يقول:

إذا مَا سَقِيمْ حَلَّ عَنْهَا وَكَاءَهَا تَصْعَدُ فِيهِ بَرْؤَهَا وَتَصَوَّبَا
وَإِنْ حَالَطَتْ مِنْهُ الْحَشَا خَلَّتْ أَنَّهُ عَلَى سَالِفِ الْأَيَّامِ لَمْ يَبْقَ مَوْصِبًا

قال: فقد أحسن في قوله:

وَمَا خُلِقْتُ إِلَّا لِيَذْلِلَ أَكْفَهُمْ وَأَقْدَمُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادَ مِثْبَرِ

قال: قد سرقه أيضاً، قال: ممن؟ قال: من مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ، [قال: حيث يقول ماذا؟ قال:] حيث يقول:

وَمَا خَلَقْتُ إِلَّا لِيُذْلِلَ أَكْفَاهُمْ وَأَسْنَاهُمْ إِلَّا لِتَخْبِيرِ مَنْطِقِ
فِيهِمَا يُبَازِرُونَ الرِّيَاحَ سَمَاحَةً وَيَوْمًا لِيُذْلِلَ الْخَاطِبَ الْمُتَشَدِّقَ
قال: فسكت الرَّاوِيَةَ، ولو أتى بـشعره كله لقال سرقه.

أبو العتاهية وعتبة

وحدث أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال: كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد في عتبة، فوعده بتزويجها وأنه يسألها في ذلك: فإن أجبت جهزها وأعطاه مالاً عظيماً، ثم إن الرشيد سَعَى له شغل استمر به، فَخُجِبَ أبو العتاهية عن الوصول إليه، فدفع إلى مسرور [الخادم] الكبير ثلاث مراوح، فدخل بها على الرشيد وهو يتبعه، وكانت مجتمعة، فقرأ على واحدة منها مكتوباً:

وَلَقَدْ تَنَسَّمْتُ الرِّيَاحَ لِحَاجَتِي فَإِذَا لَهَا مِنْ رَاحَتِيِّهِ شَمِيمٌ
قال: أحسن الخبيت، وإذا على الثانية:

أَعْلَمْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ مَالَهْ عَنْقَ يَحْثُ إِلَيْكَ بِي وَرَسِيمٌ
قال: قد أجاد، وإذا على الثالثة:

وَلَرِبِّما اسْتَيَأْسَثُ ثُمَّ أَقُولُ: لَا إِنَّ الَّذِي ضَمِنَ النِّجَاحَ كَرِيمٌ
قال: قاتله الله!! ما أَخْسَنَ ما قال، ثم دعا به، وقال: ضمنت لك يا أبو العتاهية وفي غد نقضي حاجتك إن شاء الله، وبعث إلى عتبة إن لي إليك حاجة فانتظرني الليلة في متزلك، فأكبرت ذلك وأعظمته، وصارت إليه تستعفيه، فحلف أن لا يذكر لها حاجته إلا في منزلها، فلما كان [في] الليل سار إليها ومعه جماعة من خَوَاصُ خدمه، فقال لها: لست أذكر حاجتي أو تضمين قضاها، قالت: أنا أَمْتُكَ وأُمْرَكَ نافذٌ في ما خلا أمر أبي العتاهية فإني حلفت لأبيك رضي الله عنه بكل يمين يحلف بها بر وفاجر وبالمشي إلى بيت الله الحرام حافية كلما انقضت عن حَجَّةٍ وجبت عليَّ أخرى لا أقتصر [منها] على الكفار، وكلما أفتت شيئاً تصدقت به إلا ما أصلني فيه، وبكت بين يديه، فَرَقَ لها ورحمها وانصرف عنها، وغدا عليه أبو العتاهية [وهو لا يشك في الظفر بها] فقال له الرشيد: والله ما قَصَرْتُ في أمرك، ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شُهُودٌ لي بذلك، وشرح له الخبر، قال أبو العتاهية: فلما أخبرني بذلك مكثت ملياً لا أدرى أين أنا، ثم

قلت: الآن يشتمنها إذ رَدْتَكَ، وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدهك، فلبس أبو العناية الصوف، وقال في ذلك من أبيات:

فَطَغَتْ مِثْكِ حَبَائِلَ الْأَمَالِ وَحَطَطَتْ عَنْ ظَهِيرِ الْمَطِيِّ رِحَالِي
وَوَجَدْتُ بَرْدَ الْيَأسِ بَيْنَ جَوَانِجِي فَغَنِيَتْ حَلَّ وَعَنْ تَرْحَالِ

وذكر أنه لما اتصل بالرشيد قول أبي العناية [في عنبة]:
ألا إن ظَبِيَاً لِلخَلِيفَةِ صَادِنِي وَمَالِي عَلَى ظَبِيِّ الْخَلِيفَةِ مِنْ عَدُوِي
غضب الرشيد. وقال: أسرخ منا فبعث، وأمر بحبسه، فدفعه إلى شَجَاب صاحب عقوبته، وكان فَظَا غَلِيلًا، فقال أبو العناية:

شَجَابٌ لَا تَعْجَلْنَ عَنِي فَلِيَسْ ذَاهِنٌ مِنْ رَأْيِهِ
مَا حَلْتُ هَذَا فِي مَخَالِي ضَوْءَ بَرْقِ سَمَاءِهِ
وكان من أشعاره في الحبس بعدما طال مكثه:

إِنَّمَا أَنْتَ رَحْمَةٌ وَسَلَامَةٌ زَادَكَ اللَّهُ غِبْرَةً وَكَرَامَةً
قِيلَ لِي: قَدْ رَضِيَتْ عَنِي، فَمَنْ لِي أَنْ أَرِي عَلَى رِضَاكَ عَلَامَةً
فقال الرشيد: الله أبوه! لو رأيته ما حبسته، وإنما سمحت نفسي بحبسه لأنه كان
غائباً عنِي، وأمر بإطلاقه.

وأبو العناية الذي يقول:

نُرَاعُ لِذِكْرِ الْمَوْتِ سَاعَةً ذِكْرِهِ وَنَعْتَرُ بِالدُّنْيَا فَلَهُو وَنَلْعَبُ
وَنَحْنُ بِئْنَ الدُّنْيَا خُلِقْنَا لِغَيْرِهَا وَمَا كُنْتُ فِيهِ فَهُوَ شَيْءٌ مُحَبِّبٌ
وهو الذي يقول أيضاً:

خُشُوفُهَا رَصَدٌ وَعِيشُهَا رَثْقٌ وَكَلْدَهَا كَلْدٌ، وَمُلْكُهَا دُولٌ

وهو الذي يقول:

الْمَرْءُ فِي تَأْخِيرِ مُدَّتِهِ كَالثُّوبِ يَبْلُى بَعْدَ جَدَّتِهِ
عَجَباً لِمَنْتَهِ يُضَيِّعُ مَا يَحْتَاجُ فِيهِ لِيَوْمِ رَفَدَتِهِ

وقال:

لَا تَأْمِنُ الدُّنْيَا عَلَى غَدَرِهَا كَمْ غَدَرْتُ قَبْلُ بِأَمْثَالِكَا

قد أجمعَ النَّاسُ عَلَى ذَمِّهَا وَمَا أَرَى مِنْهُمْ لَهَا تِرَاكًا

وقال:

إِنَّمَا أَنْتَ مُسْتَعِيرٌ لِمَا سَوْءٌ فَتَرَدَّنَّ، وَالْمُعَازُ يُرَدُّ
كَيْفَ يَهُوَى امْرُؤُ لِذَادَةِ أَيَا مِنْ عَلَيْهِ الْأَنْفَاسُ فِيهَا تُعَدُّ؟!

وقال:

حَيَاتُكَ أَنْفَاسٌ تَعَدُّ، فَكُلُّمَا مَضَى نَفْسٌ مِنْهَا نَقَصَتْ بِهِ جُزْءًا
[يُمْبَثُكَ مَا يَحِيلُكَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَيُحَدِّدُكَ حَادِّ مَا يَرِيدُ بِكَ الْهَزَاءُ]

وقال:

أَلَا يَا مَوْتَ لَمْ أَرْ مِنْكَ بِدَا
كَانَكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِيبِي

وقال:

نَسِيتَ الْمَوْتَ فِيمَا قَدْ نَسِيْتَ
أَلِيسَ الْمَوْتُ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ
فَمَا لِي لَا أَبَادِرُ مَا يَفْوَتُ

وقال:

وَعَظَّثْتَ أَجْدَاثَ صُمَّثَ
وَنَكَلَمْتَ عَنْ أَغْظَمِ
وَأَرْثَكَ قَبْرَكَ فِي الْقَبْوِ

وقال:

وَمَشِيدٌ دَارًا لِيْسَكُنْ ظَلَاهَا سَكُنَ الْقُبُورَ، وَدَارَةٌ لَمْ يَسْكُنْ

إِسْحَاقُ الْمَوْصَلِيُّ يَغْنِي لِلرَّشِيدِ

حدث إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصَلِيُّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الرَّشِيدِ أَغْنَيْهِ إِذ
طَرَبَ لِغَنَائِيِّ، وَقَالَ: لَا تَبْرُخْ، وَلَمْ أَزْلِ أَغْنِيَهُ حَتَّى نَامْ، فَأَمْسَكْتُهُ، وَوَضَعْتُهُ عَوْدَ فِي
حَجْرِيِّ، وَجَلَسْتُ مَكَانِيِّ، فَإِذَا بِشَابَ [صَبِيعَ الْوَجْهِ] حَسْنَ الْقَدْ عَلَيْهِ مَقْطَعَاتٌ خَرْ وَهِيَةٌ
جَمِيلَةٌ، فَدَخَلَ وَسَلَمَ وَجَلَسَ، فَجَعَلَتْ أَعْجَبَ مِنْ دُخُولِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى ذَلِكَ
الْمَوْضِعِ بِغَيْرِ اسْتِدَانَ، ثُمَّ قَلَتْ فِي نَفْسِيِّ: عَسَى بَعْضُ وَلَدِ الرَّشِيدِ مِنْ لَا نَعْرِفُهُ وَلَمْ

نرَه، فضرب بيده إلى العود، فأخذته ووضعه في حجره وجسّه، فرأيت أنه جس أحسن خلق الله، ثم أصلحه إصلاحاً ما أدرى ما هو، ثم ضرب ضرباً، فما سمعت أذني صوتاً أجود منه، ثم اندفع يعني:

الْأَلَّاْزِي قَبْلَ أَنْ تُتَفَرَّقَا
وَهَاتِ اسْقِنِي صِرَافاً شَرَاباً مَرْوَقاً
فَقَدْ كَادَ ضَوْءَ الصِّبْحِ أَنْ يَفْضُّلَ الدَّجْنِي
وَكَادَ قَمِيسَ اللَّيلِ أَنْ يَتَمَرَّقاً

ثم وضع العود من حجره، وقال: يا عاضٌ بَظْرِ أَمِهِ، إِذَا غَنِيتْ فَغَنِ هَكُذا، ثم خرج، فقمت على أثره، فقلت للحاجب: من الفتى الذي خرج الساعة؟ فقال: ما دخل هنا أحد ولا خرج [قلت: نعم الساعة مَرَّ بين يَدَيِّي فَتَّي صفتَه كَيْت وَكَيْت، قال: لا والله ما دخل أحد ولا خرج] فبقيت متعجباً، ورجعت إلى مجلسِي، وانتبه الرشيد فقال: ما شأنك؟ فحدثته القصة، فبقي متعجباً، وقال: لقد صادفت شيطاناً، ثم قال: أَعْذُّ عَلَيَّ الصوت، فأعدته عليه، فطرب طرباً شديداً، وأمر لي بجائزة، وانصرفت.

جماعة المغنيين عند الرشيد

وحدث إبراهيم الموصلي قال: جمع الرشيد ذات يوم المغنيين، فلم يق أحد من الرؤساء إلا حضر، وكانت فيهم، وحضر معنا مسكين المدْنِي، ويعرف بأبي صدقه، وكان يقع بالقضيب، مطبوعاً حاذقاً، طيب العشرة، مليح البدارة، فاقتصر الرشيد - وقد عمل فيه النبيذ - صوتاً، فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يغنه، ففعل، فلم يطرأ عليه، ثم فعل [مثل] ذلك بجماعة من حضر، فلم يحرك منه أحد، فقال صاحب الستارة لمسكين المدْنِي: يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت فغنِيه [؟]، قال إبراهيم: فاندفع فغناه، فأمسكتنا جميعاً متعججين من جرأة مثله على الغناء بحضورتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة، قال إبراهيم: فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول [وقد رفع صوته]: يا مسكيْن أَعْدَهُ، فأعاده بقوه ونشاط [واجتماع قلب، فأحسن فيه كل الإحسان] فقال الرشيد: أَحْسَنْت [وَاللهِ يَا مَسْكِينَ] وأَجْمَلْتَ، ورفعت الستارة بيننا وبينه، قال مسكيْن: يا أمير المؤمنين إن لهذا الصوت خبراً [عجبياً] قال: وما هو؟ قال: كنت عبداً خياطاً لبعض آل الزبير، وكان لمولاي عليٍّ ضرية أدفع إليه كل يوم درهمين، فإذا دفعت ضريتي تصرفت في حوانجي، [وكنت مُولعاً بالغناء محباً له] فخطّت يوماً قميصاً لبعض الطالبيين، فدفع إليّ درهمين وتغديت [عنده] وسقاني أقداحاً، فخرجت وأنا جذلان، فلقيتني سوداء على رقتها جَرَّة وهي تغنى هذا الصوت،

فأذهلني عن كل مُهِمْ ، وأنساني كل حاجة ، فقلت : بصاحب هذا القبر والمنبر إلا ألقنت
عليَّ هذا الصوت ، فقالت : وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك إلا بدرهمين ،
فأخرجت [والله يا أمير المؤمنين] الدرهمين فدفعتها إليها ، فأنزلت الجرة عن عاتقها
واندفعت ، فما زالت ترددت حتى كأنه مكتوب في صدري ، ثم انصرفت إلى مولاي ، فقال
لهم : هَلْ خراجك ، فقلت : كان وكان ، فقال : يا ابن اللخاء ، [ألم أتقدم إليك أني لا
أقبل لك عذرًا في حبة تكسرها؟] وبطَّحني وضربني [خمسين جريدة بأشد ضرب يكون]
وحلق لحيتي ورأسي ، فبُتْ يا أمير المؤمنين من أسوأ خلق الله حالاً ، وأنسنت الصوت
مما نالني ، فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذي لقيتها فيه ، وبقيت متخيلاً لا أعرف
اسمها ولا منزلها ، إذ نظرت بها مقبلة ، فأنسنت كل ما نالني وملت إليها ، فقالت : أنسنت
الصوت وربُّ الكعبة ، فقلت : الأمر كما ذكرت ، وعرفتها ما مر بي من حلق الرأس
واللحية ، فقالت : وحق القبر ومن فيه لا فعلت إلا بدرهمين ، فأخرجت جلبي ورهنته
على درهمين ، فدفعتها إليها ، فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت ، فمررت فيه ثم قالت :
كأني بك [وقد أخذت] مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار ، [من الخليفة] ، ثم اندفعت
تغييه وتوقع على جرتها ، فلم تزل ترددت حتى رسخ في صدري ، ثم مضت ، و[.] انصرفت
إلى مولاي وجِلَّا ، فقال : هلم خراجك ، فلويت لساني ، فقال : يا ابن اللخاء ، ألم
يكفك ما مر عليك بالأمس؟ فقلت : إني أعرفك أني اشتريت بخرافي أمس واليوم هذا
الصوت ، واندفعت أغنية ، فقال لي : ويحك! معك مثل هذا الصوت [منذ يومين] ولم
تعلمني ، امرأته طالق لو كنت قلت أمس لأعترضك [فاما حلق الرأس واللحية فلا حيلة لي
فيهما ، وأما خراجك فقد وبه الله لك إلى أن ينبت شعرك] ، قال : فضحك الرشيد وقال :
وilyك!! ما أدرى أيما أحسن : حديثك ، أما غناوتك؟ وقد أمرت لك بما ذكرت السوداء ،
فقبضه وانصرف ، والشعر :

قف بالمنازل ساعة فتأمل هل بالديار لرائد من منزل?
ما بالديار من البلى فلقد أرى فلسوف أحمل للبلى في محمل

الرشيد يجري حلبة الخيل

وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقة ، فلما أرسلت صار إلى مجلسه في صدر الميدان
حيث توافي إليه الخيل ، فوقف على فرسه وكان في أوائلها سوابق من خيله يقدمها فرسان

في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه، فتأملها فقال: فرسي والله، ثم تأمل الآخر فقال: فرس ابني المؤمنون، قال: فجاء يحتكان أمام الخيل، وكان فرسه السابق وفرس المؤمنون الثانية، فسر بذلك، ثم جاء الخيل بعد ذلك، فلما انقضى المجلس وهم بالانصراف قال الأصممي - وكان حاضراً [وقد تبيّن سرور الرشيد] - للفضل بن الريبع: يا أبا العباس، هذا يوم من الأيام فأحث أن توصلني إلى أمير المؤمنين، وقام الفضل فقال: يا أمير المؤمنين، هذا الأصممي يذكر شيئاً من أمر الفرسين يزيد الله به أمير المؤمنين سروراً، قال: هاته، فلما دنا قال: ما عندك يا أصممي؟ قال: يا أمير المؤمنين، كنت وأبنتك اليوم في فرسيكما كما قالت النساء:

جَارِي أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَنَازَعَانْ مُلَائِهَ الْحُضْرِ
وَهُمَا كَانُهُمَا وَقَدْ بَرَزَا صَفْرَانِ قَدْ حَطَا عَلَى وَكَرِ
بَرَزَتْ صَفِيحةَ وَجْهِ وَالدَّهِ وَمَضَى عَلَى غُلَوَائِهِ يَجْرِي
أُولَى فَأَوْلَى أَنْ يَقْارِبَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِ وَالْكَبْرِ

طبق سمك يتكلف ألف درهم

حدث إبراهيم بن المهدى قال: استزررت الرشيد بالرقة، فزارني، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد، فلما وضعت البواردرأى فيما قرب إليه منها جام قريص [مثل] قريص السمك، فاستصغر القطع، وقال: لم صُعِرْ طباخك تقطيع السمك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه السنة السمك، قال: فيشبهه أن يكون في هذا العام مائة لسان، فقال مراقب خادمه: يا أمير المؤمنين، فيها أكثر من مائة وخمسين، فاستخلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً دون أن يُخْبِرَهُ أَلْفَ درهم فلما حضر المال أمر أن يتصدق به. وقال: أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم، ثم ناول العjam بعض خدمه وقال: [أخرج من دار أخي، ثم انظر] أول سائل تراه فادفعه إليه، قال إبراهيم: وكان شراء العjam على الرشيد بمائتين وسبعين ديناراً، فغمزت بعض خدمي للخروج مع الخادم ليت Bauer العjam من يصير إليه، وفطن الرشيد فقال له: يا غلام إذا دفعته إلى سائل فقل له يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل من مائتي دينار فإنه خير منها، فعل الخادم ذلك، فوالله ما أمكن خادمي أن يخلصه من السائل إلا بمائتي دينار.

أحسن الأسماء وأسمجها

وقال إبراهيم بن المهدى: كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة وهو يريد نحو

الموصل والمدادون يمدون، والشطرونج بين أيدينا، فلما فرغنا قال لي الرشيد: يا إبراهيم ما أحسن الأسماء عندك؟ قلت: اسم رسول الله ﷺ، قال: فما الثاني بعده؟ قلت: اسم هارون اسم أمير المؤمنين، قال: فما اسم مجها؟ قلت إبراهيم، فزأني وقال: ويلك!! [اليس هو اسم] إبراهيم خليل الرحمن جل وعز، قلت بشؤم هذا الاسم لقي ما لقي من نمرود، قال: وإبراهيم ابن رسول الله ﷺ، قلت: لا جرم لما سمي بهذا الاسم لم يعيش، قال: فإبراهيم الإمام، قلت: بحرفة اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النور، وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد خلع، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل، ولم أجد أحداً سمي بهذا اسم إلا رأيته مقتولاً أو مضروباً أو مطروداً، فما انقضى كلامي حتى سمعت ملائحاً على بعض الحرّاقات يهتف بأعلى صوته: يا إبراهيم يا عاص كذا وكذا من أمه مدّ، فالتفت إلى الرشيد [فقلت: يا أمير المؤمنين، أصدقت قولي إن أشأم الأسماء إبراهيم] فضحك حتى فحص برجله.

أدب مخاطبة الأمراء

قال: و كنت يوماً عنده فإذا رسول عبد الله [قد أتى، و معه أطباق خيزران عليها مناديل، ومعه كتاب، فجعل الرشيد يقرأ الكتاب ويقول: بَرَّهُ اللَّهُ وَوَصَلَهُ [فقلت: يا أمير المؤمنين من هذا الذي أطربت في شكره حتى نشرك في جميل شكره؟] قال: هذا عبد الله بن صالح، ثم كشف المنديل، فإذا [أطباق] بعضها فوق بعض: في أحدها فستق، وفي الآخر بندق، إلى غير ذلك من الفاكهة، فقلت: يا أمير المؤمنين ما في هذا البر ما يستحق به هذا الدعاء، إلا أن يكون في الكتاب شيء قد خفي علىي، فنبذه إلىي، فإذا فيه: دخلت يا أمير المؤمنين بستانًا لي في داري عمرته بنعمتك، وقد أينعت فواكهه، فأخذت من كل شيء، وصبرته في أطباق قضبان وجهته إلى أمير المؤمنين ليصل إلى من بركة دعائه [مثل] ما وصل إلىي من نوافل بره، قلت: ولا والله ما في هذا أيضاً ما يستحق به هذا، فقال: يا غبي أما ترى كيف كني بالقضبان عن الخيزران إعظاماً لأمنا رحمها الله تعالى.

رجل يتعرض للرشيد بقصة فيثبيه بأربعة آلاف دينار
و [يروى أنه] وقف رجل منبني أمية للرشيد على الطريق وبيه كتاب كالقصة، فإذا فيه أربعة أبيات، وهي:

يا أمين الله، إني قائل قول ذي لب وصدق وحسب
لكم الفضل علينا، ولنا بكم الفضل على كل العرب

عِيد شَمْسٍ كَان يَتَلَوْ هَاشِمًا وَهَمَّا بَعْدَ لَأْمَ وَلَأْبَ فَصِيلِ الْأَرْحَامِ مَنَا، إِنَّمَا عَبْدُ شَمْسٍ عُمُّ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ [فَاسْتَحْسِنْ ذَلِكَ الرَّشِيدَ] فَأَمْرَ لَهُ لَكُلَّ بَيْتٍ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: لَوْ زَدْتَنَا لِرَذْنَاكَ.

السكر أطيب أو المشان

[وكان الرشيد ذات يوم وأبو يوسف القاضي وعبد الوهاب الكوفي في مجلسه، فتذاكرروا الرطب، فقال أبو يوسف: السكر أطيب من المشان، وقال عبد الوهاب: المشان أطيب، فقال الرشيد: ليحضر الطعام، ودعا بعدة من بنى هاشم كانوا هناك، فأقبلوا جميعاً على السكر، وتركوا المشان، فقال الرشيد: قضوا عليك يا أبي عبد الرحمن وهم لا يعلمون، فقال أبو عبد الرحمن: إنني لم أر مشان قط أرداً من هذا، فقال له أبو يوسف: هكذا هما إذا اجتمعا].

تعزية وتهنئة

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد، فقال له الحاجب: إن أمير المؤمنين قد أصيب في هذه الليلة بولد وولد له ولد، فعز وهن، فلما مثل قال: يا أمير المؤمنين، سرك الله فيما ساءك، وجعل هذا لهذه ثواباً للصابر وجزاء للشاكر.

علة الرشيد

ولما اشتدت علة الرشيد وصار إلى طوس سنة ثلاثة وتسعين ومائة هون على الأطباء علتة، فأرسل إلى متطلب فارسي كان هناك، فأراه ماءه مع قوارير شتى، فلما انتهى إلى قارورته قال: عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك فليوص؛ فإنه لا براء له من هذه العلة، فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين:

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع محدور القضا
ما لطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرئ منه فيما مضى؟
واشتد ضعفه، وأزجف الناس بموته، فدعا بحمار ليركبه، فلما صار عليه سقطت
فخذاه فلم يثبت على السرج، فقال: أزلوني صدق المرجفون، ثم دعا بأكفان فاختار
منها ما أراد، وأمر بحفر قبر، فلما اطلع فيه قال (ما أعنيه يعني ماليه، هلك عندي سلطانيه)
ثم دعا بأخي رافع، فقال: أزعجتني حتى تجثمت هذه الأسفار مع علتي وضعفي،

وكان أخوه رافع بن الليث ممن خرج عليه، قال: لاقتَنَكَ قتلةً ما قتل مثلها أحد قبلك، ثم أمر ففصل عضواً عضواً، واستأمن رافع بعد ذلك على المأمون؛ وقد ذكرنا خبره في غير هذا الكتاب؛ ثم دعا من كان بعسكره منبني هاشم فقال: إن كل مخلوق ميت، وكل جديد بالي، وقد نزل بي ما ترون وأنا أوصيكم بثلاث: الحفظ لأماناتكم، والنصيحة لأنتمكم، واجتماع كلمتكم؛ وانظروا محمداً وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه، وأقطع في ذلك اليوم أموالاً [كثيرة] وضياعاً [ورباعاً].

شعر لأبي العتاهية يبكي الرشيد

قال الرياشي: قال الأصمعي: دخلت على الرشيد وهو ينظر في كتاب ودموعه تنحدر على خدّيه، فظللت قائماً حتى سكن، وحان منه التفاتة فقال: اجلس يا أصمعي، أرأيت ما كان؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا، ورمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جليل، وهو:

هل أنت مُعتبرٌ بمن خَلِيَتْ منه غَدَاءَ مضى دسَاكِرَه
وبِمَنْ أَذْلَّ الْمَوْتُ مَصْرَعَه
فَتَبَرَّأَتْ منه عَشَائِرَه
وَبِمَنْ خَلَتْ منه مَنابِرَه
وَبِمَنْ أَسْرَأَتْ منه أَسْرَأَهُ
صَارُوا مَصِيرًا أَنْتَ صَائِرَه
أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَيْنَ غَيْرُهُمْ؟
يَا مَؤْثِرَ الدُّنْيَا بِلَذْتَه
وَالْمُسْتَعْدِ لِمَنْ يَفْخَرُه
ثُلُّ ما بَدَا لَكَ أَنْ تَنَالَ مِنَ الدُّنْيَا
فَإِنَّ السَّمْوَتَ آخِرَه

ثم قال الرشيد: كأنني والله أخاطب بذلك دون الناس، فلم يلبث بعد إلا يسيراً حتى مات.

قال المسعودي: قد ذكرنا جملأ [وجوامع] من أخبار الرشيد [فيما سلف من كتبنا، وفي هذا الكتاب، ولم نذكر فيما سلف من أخبار الرشيد في هذا الكتاب شيئاً من أخبار البرامكة، فلنذكر الآن جملأ من أخبارهم في باب نفرده له، نذكر فيه السعود من أيامهم والتحوس، وإن كنا قد أتينا على سائر أخبارهم والزُّفْرِ من أيامهم فيما سلف من كتبنا] والله ولي التوفيق.

ذكر جمل من أخبار البرامكة وما كان منهم في أيامهم

أسمائهم خالد بن برمك

لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده، في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه [ووفور عقله] ولا الفضل في جوده [وبراعته] ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروره وبعد همته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته [وبأسه]، وفيمن ذكرنا يقول [أبو الغول] الشاعر:

أولاد يحيى بن خالد وهم أربعة سيد ومتبعون
الخير فيهم إذا سألت بهم مفرق فيهم ومجموع

سبب نكتتهم

ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد استوزر البرامكة، فاحتازوا الأموال دونه حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه، وكان إيقاعه بهم في سنة سبع وثمانين ومائة، واختلف في سبب ذلك: فقيل احتياز الأموال، وأنهم أطلقوا رجالاً من آل أبي طالب كان في أيديهم، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

الفضل بن يحيى يتشغل بالصيد فيزجره أبوه بأمر الرشيد

ويحكى أنه ورد على الرشيد يوماً كتاب صاحب البريد بخراسان، ويحيى بن خالد بين يديه، يذكر فيه أن الفضل بن يحيى تشغل بالصيد و[إدمان] اللذات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى، وقال له: يا أبا اقرأ هذا الكتاب، واكتبه إليه كتاباً يزدغه عن مثل هذا، فمدّ يده إلى دواة الرشيد وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد: حفظك الله يابني، وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاود ما هو أزيئ

بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه [أو يشينه] لم يعرفه أهل دهره إلا به، والسلام، وكتب في أسفله هذه الآيات:

انصبْ نهاراً في طلاب العلا
حتى إذا الليل بدا مُفِيلًا
في بادر الليل بما تشهي
كم من فتى تحسبه ناسكاً
يستقبل الليل بأمر عجيب
القى عليه الليل أستاره
ولذة الأحمق مكشوفةٌ يسعى بها كل عدو رقيب
والرشيد ينظر إلى ما يكتب [يحيى] فلما فرغ قال [له]: أبلغت يا أبت، فلما ورد
الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهاراً إلى أن انصرف عن عمله.

قال إسحاق [بن إبراهيم الموصلي]: كنت عند الرشيد يوماً، وأحضر البرامكة
الشراب، وأحضر يحيى بن خالد جارية فغفت:

أرْفَثْ حَتَى كَأْنِي أَعْشَقَ الْأَرْقَاءِ وَدَبَّثْ حَتَى كَأْنَ السَّقْمَ لِي خَلَقَ
وَفَاضَ دَمِي عَلَى قَلْبِي فَأَغْرَقَهُ يَا مَنْ رَأَى غَرْقاً فِي الْمَاءِ مَحْتَرِقاً
فقال الرشيد: لمن هذا؟ فقيل: لخالد بن يزيد الكاتب [قال: علىَّ به] قال خالد:
فأحضرت، فقال للجارية: أعيدي، فأعادت، فقال لي: لمن هذا؟ قلت: لي يا أمير
المؤمنين، فيينا نحن كذلك إذ أقبلت وصيفة معها تفاحة عليها مكتوب بغالية:
سرورك ألهاك عن موعدك فصييرت تفاحتني تذكره
فأخذ الرشيد تفاحة [أخرى] وكتب عليها:

تفاضيت وعدني ولم أنسه فتفاحتني هذه معذره
ثم قال [له]: يا خالد، قل في هذا شيئاً، فقال:

تفاحة خرجت بالدر من فيها أشهى إلى من الدنيا وما فيها
بيضاء في حمرة غلت بغالية كأنما قطفت من خد مهديها

جعفر البرمكي عند الأصمسي

حدث الجاحظ [عن أخباره] عن أنس بن أبي شيخ، قال: ركب جعفر بن يحيى ذات يوم، وأمر خادماً له أن يحمل [معه] ألف دينار، وقال [له]: سأجعل طريقي على

الأصمعي، فإذا حدثني فرأيتني ضحكت فاجعلها بين يديه، ونزل جعفر عند الأصمعي، فجعل [الأصمعي] يحدثه بكل أujeوبة ونادرة تطرب وتضحك، فلم يضحك، وخرج من عنده، فقال له أنس [ابن أبي شيخ]: رأيت منك عجباً، أمرت بآلف دينار للأصمعي وقد حركك بكل مضحكة، وليس من عادتك أن تردد إلى بيت مالك ما قد خرج عنه، فقال له: ويحك!! إنه قد وصل إليه من أموالنا مائة ألف درهم قبل هذه المرة، فرأيت في داره حُبًّا مكسوراً وعليه دراعة خلَقَ، ومقعداً وسخاً، وكل شيء [رأيته] عنده رثا، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه، وأن ظهور الصناعة أمدح وأهجي من مدحه وهجائه، فعلى أي وجه أعطيه إذا كانت الصناعة لم تظهر عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه؟ وفي الرشيد وجعفر [بن يحيى] يقول الشاعر:

[لِيهْن الرشيد خلافاته وَأَمَرَ الْذِي قَدْ وَهِيَ عَقْدَه
أَضَافَ إِلَى بِيَعَةَ بِيَعَةَ فَتَامَ بِهَا جَعْفَرَ وَحْدَهُ
سَنُو بَرْمَكِ أَسَسُوا مَلَكَهُ وَشَدُّوا نَسَارَتَهُ عَنْهُدَهُ]

مجلس عند يحيى بن خالد

و (قد) كان يحيى بن خالد ذا [علم ومعرفة و] بحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل [الآراء و] النحل، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده: قد أكثرتم الكلام في الكلمة والظهور، والقدم والحدوث، والإثبات والنفي، والحركة والسكن، والمماسة والمباهنة، والوجود والعدم، والجر والطفرة، والأجسام والأعراض، والتعديل والتجریح [ونفي الصفات وإثباتها، والاستطاعة والأفعال] والكمية والكيفية، والمضاف، والإمامية أنصٌ هي أم اختيار، وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفراء، فقولوا الآن في العشق على غير منازعة، وليرورد كل واحد منكم ما ستح له فيه، وخطر [إيراده] بياله.

حديث لهم عن العشق

قال علي بن هيثم [وكان إمامي المذهب من المشهورين من متكلمي الشيعة]: أيها الوزير، العشق ثمر [ة] المشاكلة، وهو دليل ثمارُج الروحين، وهو من بحر اللطافة، ورقة الصناعة، وصفاء الجوهر [وليس يحدُّ لسعته]، والزيادة فيه نقصان من الجسد. وقال أبو مالك الحضرمي، وهو خارجي المذهب [وهم الشراة]: أيها الوزير، العشق نَفْثُ السحر، وهو أخفى وأحر من الجمر، ولا يكون إلا بازدواج الطَّبعَيْنِ،

وامتزاج الشكلين، وله نفوذ في القلب كنفوذ صَبِّ المُزْنَ في خلل الرمل [وهو ملك على الخصال] تنقاد له العقول، وتستكين له الآراء.

وقال الثالث: وهو محمد بن الهذيل العَلَافُ، وكان معتزلياً المذهب وشيخ البصريين: أيها الوزير، العشق يختم على النوازل، ويطبع على الأفتدة، مرتفق في الأجساد، ومسرعة في الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون، متغير الأوهام، لا يصفو له موجود، ولا يسلم له موعد، تسرع إليه النوايب، وهو جرعة من نقيع الموت، وبقية من حياض الشكل، غير أنه من أريحيات تكون في الطبيع، وطلاوة توجد في الشمائل، وصاحبها جَوَادٌ لا يُضغى إلى داعية المنع، ولا يسنح به نازع العذر.

[وقال الرابع - وهو هشام بن الحكم الكوفي شيخ الإمامية في وقته وكبير الصنعة في عصره - : أيها الوزير، العشق حِبَّةً نَصَبَّها الدهر فلا يصيدها إلا أهل التخلص في النوايب، فإذا عَلِقَ المحب في شبكتها ونشب في أثناها فأبعد به أن يقوم سليمان أو يتخلص وشيكاً، ولا يكون إلا من اعتدال الصورة، وتكافؤ في الطريقة، وملاعنة في الهمة، له مقتل في صميم الكبد ومهجة القلب، يعقد اللسان الفصيح، ويترك المالك مملوكاً والسيد خَوَّلاً حتى يخضع لعبد عبده].

وقال النَّظَامُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَسَارِ الْمَعْتَزِلِيِّ [وكان من نُظَارِ البصريين في عصره: أيها الوزير] العشق أَرَقُّ من السراب، وأَدْبُّ من الشراب، وهو من طينة عَطَرَةِ عِجْنَتٍ في إناءِ الجلالَةِ، حلو المجنَى ما اقتصد، فإذا أفرط عاد خبلاً قاتلاً، وفساداً معصلاً، لا يطمع في إصلاحه، له سحابة غزيرة تهمي على القلوب، فتُعَشِّبُ شعفَاً، وَتُثْمِرُ كلفَاً، وَصَرِيعَه دائم اللوعة، ضيق المتنفس، مُشارفَ الزَّمْنِ، طويل الفكر، إذا أَجَّنَّه الليل أَرَقَّ، وإذا أوضحَه النَّهَارُ قلقاً، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى.

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعشر ومن يليهم، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعانٍ تتقارب وتتناسب، وفيهما من دليل عليه.

العشق وعلة وقوعه

قال المسعودي : تنازع الناس [من تقدم وتأخر] في ابتداء وقوع الهوى وكيفيته، وهل ذلك من نظر وسماع، واختيار واضطرار، وما علة وقوعه بعد أن لم يكن، وزواله بعد كونه؟ وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه؟ .

فقال بقراط : هو امتزاج النفسيين، كما لو امتزاج الماء بماه مثله عسر تخلisce بحيلة من الاحتياط، والنفس ألطف من الماء، وأرق مسلكاً؛ فمن أجل ذلك لا تزيلاه الليلالي،

ولا تخلقه الدهور [ولا يدفعه دافع] دق عن الأوهام مُسْلِكَه، وخفى عن الأ بصار موضعه [وحرارت العقول عن كيفية تمكّنه] غير أن ابتداء حركته من القلب، ثم تسير إلى سائر الأعضاء، فتظهر الرَّغْدَة في الأطراف، والصفرة في الألوان، واللجلجة في الكلام، والضعف في الرأي [والويل والعثار] حتى ينسب صاحبه إلى التقصّ.

وذهب بعض الأطباء إلى أن العشق طمع يتولد في القلب [وينمى] وتتجتمع إليه مواد [من الحرث] فإذا قوي زاد بصاحبها الاهتمام واللجاج والتتمادي والتفكير والأمني والهيمان والأحزان وضيق الصدر وكثرة الفكر وقلة الطعام وفساد العقل وبيس الدماغ، وذلك أن التتمادي في الطعام للدم محرق، فإذا احترق استحال إلى السُّوَدَاء، فإذا قويت جلبت الفكر فتستعلي الحرارة، وتلتهب الصفراء، ثم تستحيل الصفراء إلى الفساد فتلحق حيّثُنَا بالسوداء، وتصير مادة لها، فتقوى، ومن طبائع السوداء الفكر، فإذا فسد الفكر اختلطت الكيموسات [بالفساد، ومع الاختلاط تكون الفدامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون ولا يتم] فحيثُنَا يشتند ما به فيموت أو يقتل نفسه، وربما شهد فتحفي روحه أربعين ساعة فيظن أنه مات فيقبرونه حيّا، وربما تَنَقَّشَ الصُّعَدَاء فتحفي روحه في تامور قلبه، وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت، وربما ارتاح وتشوق بالنظر، ويرى من يحب فجأة، وأنت ترى العاشق إذا سمع ذكر من يحب كيف يهرب دمه ويُحُول لونه.

وقال بعضهم: إن الله خلق كل روح مدورة على هيئة الكرة، وجزأها أنصافاً، وجعل في كل جسد نصفاً؛ فكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه كان بينهما عشق ضرورة للمناسبة القديمة. وتفاوت أحوال الناس في ذلك من القوة والضعف على قدر طبائدهم.

ولأهل هذه المقالة خطب طويل فيما ذكرنا. وأن النفوس نورية جوهر بسيط نزل من علو إلى هذه الأجساد فسكنها، وأن النفوس تلي بعضاً على حسب مجاورتها في عالم النفس في القرب والبعد، وذهب إلى هذا المذهب جماعة من يظهر الإسلام، واعتلوها بدلائل من القرآن والسنة ودلائل القياس عند أنفسهم. من ذلك قوله عز وجل: «إِنَّمَا تَنَقَّشُ الْمُطَمَّئَةُ أَنْجِيعَ إِلَى رَيْكَ رَاضِيَةً مَرْهِيَّةً فَادْتَلُ فِي عَيْدِي وَادْتَلُ جَنَّي» [الفجر: ٢٨] قالوا: فالرجوع إلى الحال لا يكون إلا بعد كون متقدم، ثم قول النبي ﷺ فيما رواه سعيد بن أبي مريم قال: أخبرنا يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «الأرواح جنود مجندة؛ وما تعارف منها اختلف، مما تناكر منها اختلف».

وذهب إلى هذا القول جماعة من الأعراب؛ ففي ذلك يقول جميل بن عبد الله بن مغمر العذري في بيته:

تَعْلَقَ رُوحِي بِرُوحِهَا قَبْلَ خَلْقِنَا وَمِنْ قَبْلِ مَا كُنَّا نِطَافًا، وَفِي الْمَهْدِ فَزَادَ كَمَا زِدَنَا، فَأَصْبَحَ نَامِيًّا وَلَيْسَ إِنْ مُشْتَأْ بِمَنْتَقْضِ الْعَهْدِ وَلَكِنْهُ بَاقٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ وَزَائِرُنَا فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ وَاللَّهُدْ

وقال جاليوس: المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهم في العقل، ولا تقع بين الأحمقين وإن كانوا شكليين في الحمق؛ لأن العقل يجري على ترتيب، فيجوز أن يتفق فيه اثنان على طريق واحدة، والحمق لا يجري على ترتيب، ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان.

وَقَسَّمَ بَعْضُ الْعَرَبِ الْهَوِيِّ فَقَالَ:

ثَلَاثَةُ أَحْبَابٍ، فَحَبُّ عَلَاقَةٍ وَحُبُّ تِمَلَاقٍ، وَحُبُّهُ هُوَ الْقَتْلُ
وقال الصوفية من البغداديين: إن الله عز وجل إنما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهونه، ليشق عليهم سخطه، ويسيرهم رضاه. فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله، إذ كان لا مثل له، ولا نظير [وهو خالقهم غير محتاج إليهم، ورازقهم مبتدئاً بالمن عليهم] فإذا أوجبوا على أنفسهم طاعة سواه، كان تعالى أخرى أن يتبع رضاه.

وللباطنية المتصوفة في هذا كلام كثير [وخطب طويل].

وقال أنلاطون: ما أدرى ما الهوى، غير أنه جنون إلى، والهوى لا محمود ولا مذموم.

وكتب بعض [ظُرَفاء] الْكُتُبَ إِلَى أَخْ لَهُ: إِنِّي صَادَفْتُ مِنْكُوكَ جُوهرَ نَفْسِي، فَأَنَا غَيْرُ مُحَمَّدٍ عَلَى الْإِنْقِيادِ إِلَيْكَ [بِغَيْرِ زَمامٍ] لَأَنَّ النَّفْسَ يَتَّبِعُ بَعْضَهَا بَعْضًا.

وللناس ممن خلف وسلف من الفلاسفة والفلكيين والإسلاميين وغيرهم كلام كثیر في العشق، وقد أتينا على ذلك في كتابنا «أخبار الزمان» ومن أباده الحديثان، من الأمم الماضية والأجيال الخالية، والممالك الدائرة وإنما خرجنا مما كُنَّا فيه آنفاً من أخبار البرامكة عند ذكرنا العشق، فنغلغل بنا الكلام إلى إيراد لمع ما قيل في ذلك.

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه من أخبارهم، واتساق أيامهم، وانتظامها لهم بالسعود، ثم انعكاسها إلى النحوين.

الرشيد يزوج أخته العباسة لجعفر البرمكي

ذكر ذو معرفة بأخبار البرامكة أنه لما بلغ جعفر بن يحيى بن خالد بن بزمك ويحيى بن خالد والفضل وغيرهم من آل برمك ما بلغوا من الملك، وتناهوا إليه من

الرياسة، واستقامت لهم الأمور، حتى قيل: إن أيامهم عَرْوُسٌ وسرور دائم لا يزول، قال الرشيد لجعفر بن يحيى: وَيَحْكُمْ يَا جَعْفَرًا! [إِنَّهُ] لِيْسُ فِي الْأَرْضِ طَلْعَةً أَنَا بِهَا آنِسُ، وَلَا إِلَيْهَا أَمِيلٌ، وَأَنَا بِهَا أَشَدُ اسْتِمْتَاعًا وَأَنْسًا مِنِّي بِرَؤْيَاكَ وَإِنَّ لِلْعَبَاسَةِ أَخْتِي مِنِّي مَوْقِعًا لِيْسُ بِدُونِ ذَلِكَ، وَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِي مَعْكَمًا، فَوُجِدْتُنِي لَا أَصْبِرُ عَنْكَ وَلَا عَنْهَا، وَرَأَيْتُنِي ناقصَ الْحَظْ وَالسُّرُورُ مِنْكَ يَوْمَ أَكُونُ مَعْهَا، وَكَذَلِكَ حَكْمِي [مِنْكَ] فِي يَوْمِ كُونِي مَعَكَ دُونَهَا، وَقَدْ رَأَيْتُ شَيْئًا يَجْتَمِعُ لِي بِهِ السُّرُورُ، وَتَكَافَلَ لِي بِهِ اللَّذَّةُ وَالْأَنْسُ، فَقَالَ: وَفَقْكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَعَزَمَ لَكَ عَلَى الرُّشْدِ فِي أَمْرِكَ كُلَّهَا! قَالَ الرُّشِيدُ: قَدْ زَوْجَتْكَهَا تَرْوِيجًا تَمْلِكَ بِهِ مَجَالِسَهَا وَالنَّظَرَ إِلَيْهَا وَالاجْتِمَاعَ بِهَا فِي مَجَالِسٍ أَنَا مَعْكَمًا فِيهِ [لَا سُوَى ذَلِكَ]; فَزَوْجُهُ الرُّشِيدُ بَعْدَ امْتِنَاعٍ كَانَ مِنْ جَعْفَرٍ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَأَشَهَدُ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ خَدْمَهُ وَخَاصَّةً مَوَالِيهِ، وَأَخْذَ الرُّشِيدَ عَلَيْهِ عَهْدَ اللَّهِ وَمَوَاثِيقَهُ وَغَلِيظَ أَيْمَانِهِ أَنَّهُ لَا يَخْلُوُ بِهِ، وَلَا يَجْلِسُ مَعَهَا، وَلَا يَظْلِمُهَا سَقْفُ بَيْتِ إِلَّا وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الرُّشِيدُ ثَالِثُهُمَا، فَحَلَّفَ لَهُ جَعْفَرٌ عَلَى ذَلِكَ، وَرَضَيَّ بِهِ، وَأَلْزَمَهُ نَفْسَهُ، وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ [الَّتِي وَصَفَنَاهَا] وَجَعْفَرٌ فِي ذَلِكَ صَارِفٌ بَصَرِهِ عَنْهَا، مَزُورٌ بِوْجْهِهِ هَبِيبَ الْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَفَاءَ بِعَهْدِهِ وَأَيْمَانِهِ [وَمَوَاثِيقَهِ] عَلَى مَا وَافَقَهُ الرُّشِيدُ عَلَيْهِ [وَعَلَقَتْهُ الْعَبَاسَةُ، وَأَضْمَرَتْ الْاحْتِيَالَ عَلَيْهِ] وَكَتَبَتْ إِلَيْهِ رُقْعَةً، فَرَدَّ رَسُولُهَا وَشَتَمَهُ وَتَهَدَّدَهُ، وَعَادَتْ فَعَادَ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَلَمَّا اسْتَحْكَمَ الْيَأْسُ عَلَيْهَا قَصَدَتْ لَأْمَهُ، وَلَمْ تَكُنْ بِالْحَازْمَةِ، فَاسْتَمَالَتْهَا بِالْهَدَىِّا مِنْ نَفْيِسِ الْجَوَاهِرِ وَالْأَلْطَافِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ كُثْرَةِ الْمَالِ وَالْأَطْفَالِ الْمُلُوكِ، حَتَّى إِذَا ظَنَنَتْ أَنَّهَا لَهَا فِي الطَّاعَةِ كَالْأَمَمِ، وَفِي النَّصِيحَةِ وَالْإِشْفَاقِ كَالْوَالِدَةِ، أَلْقَتْ إِلَيْهَا طَرْفًا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي تَرِيدُهُ، وَأَعْلَمَتْهَا مَا لَهَا فِي ذَلِكَ مِنْ حَمِيدِ الْعَاقِبَةِ، وَمَا لَابْنَهَا مِنْ الْفَخْرِ [وَالْشَّرْفِ] بِمَصَاهِرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَوْهَمَتْهَا أَنَّ هَذَا الْأَمْرُ إِذَا وَقَعَ كَانَ بِهِ أَمَانٌ لَهَا وَلَوْلَدَهَا مِنْ زَوَالِ النَّعْمَةِ وَسُقُوطِ مَرْتَبَتِهِ، فَاسْتَجَابَتْ لَهَا أَمْ جَعْفَرُ، وَوَعَدَتْهَا بِإِعْمَالِ الْحِيلَةِ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهَا تَلْطِفُ لَهَا حَتَّى تَجْمَعَ بَيْنَهُمَا؛ فَأَقْبَلَتْ عَلَى جَعْفَرٍ يَوْمًا فَقَالَتْ لَهُ: يَا بْنَيَّ، قَدْ وُصَفْتَ لِي وَصِيفَةً فِي بَعْضِ الْقَصُورِ مِنْ تَرْبِيَةِ الْمُلُوكِ قَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْأَدْبِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالظَّرِفِ وَالحَلاوةِ مَعَ الْجَمَالِ الرَّائِعِ وَالْقَدَّ الْبَارِعِ وَالْخَصَالِ الْمَحْمُودَةِ مَا لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، وَقَدْ عَزَّمَتْ عَلَى اشْتِرائِهِ لَكَ، وَقَدْ قَرَبَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنِ مَالِكَهَا، فَاسْتَقْبَلَ [جَعْفَرًا] كَلَامَهَا بِالْقَبُولِ، وَعَلَقَتْ [بِذَلِكَ] قَلْبَهُ، وَتَطَلَّعَتْ إِلَيْهَا نَفْسُهُ، وَجَعَلَتْ تَمْطِلَهُ، حَتَّى اشْتَدَ شَوْقُهُ، وَقَوَيَتْ شَهُوتُهُ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْعُجُ عَلَيْهَا [بِالْتَّحْرِيكِ وَالْاقْتِضَاءِ]، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ عَجَزَ عَنِ الصَّبَرِ وَاشْتَدَ بِهِ الْعَلْقُ قَالَتْ لَهُ: أَنَا مُهَدِّيَتِهِ إِلَيْكَ لِيَلَةً كَذَا وَكَذَا، وَبَعْثَتْ إِلَيْهِ الْعَبَاسَةُ فَأَعْلَمَتْهَا بِذَلِكَ، فَتَأَهَّبَتْ [بِمِثْلِ مَا تَأَهَّبُ بِهِ مَثَلُهَا] وَسَارَتْ إِلَيْهَا [فِي] ذَلِكَ الْلَّيْلَةِ، وَانْصَرَفَ جَعْفَرُ [فِي ذَلِكَ الْلَّيْلَةِ] مِنْ عَنْدِ الرُّشِيدِ، وَقَدْ بَقَى فِي نَفْسِهِ مِنَ الشَّرَابِ

حيث لا يكلم [به] أحداً حتى يصل إلى بغداد، ثم يُفضي بذلك لمن يثق به [من] أهله وأعوانه، فامثل السندي ذلك، وقعد الرشيد وجعفر عنده في موضع يعرف في الأنبار بالعمر، فأقاما يومهما بأحسن هيئة وأطيب عيش، فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد حتى ركب مشيعاً له ثم رجع [الرشيد فجلس على كرسي، وأمر بما كان بين يديه فرفع] فمضى جعفر إلى منزله وفيه فضلة [من] الشراب، ودعا بأبي زكار المعني الطنبوري وابن أبي شيخ كاتبه ومُدّت ستارة، وجلس جواريه خلفها يضربن وينغنين، وأبو زكار يغنيه:

ما يرِيدُ النَّاسُ مِثْـا مَا يَنْأِمُ النَّاسُ عَنَّا
إِنَّمَا هِمْ مُشْهُـمْ أَنْ يُظْهِـرُوا مَا قَدْ دَفَـمْـا

وأمر الرشيد من ساعته ياسرًا خادمه المعروف برحلة فقال له: إنني أندبك لأمر ما أرى محمدًا ولا القاسم له أهلاً ولا موضعاً، ورأيتك به مستقلًا ناهضاً، فحق ظني، واحذر أن تخالف [أمري فيكون ذلك سبباً لسقوط منزلك عندي وفساد حalk لدئي] فقال: يا أمير المؤمنين، لو أمرتني أن أدخل السيف في بطني وأخرجه من ظهري بين يديك لفعلت، فمُر [ني] بأمرك فإني والله مسرع، فقال: ألسست تعرف جعفر بن يحيى البرمكي؟ قال: يا أمير المؤمنين وهل أعرف سواه؟ أو يُنكر مثل جعفر؟ قال: ألم ترتشيعي إياه عند خروجه؟ قال: بلـى، قال: فامض الساعة إليه فأتني برأسه على أي حالة تجدـه عليها، فأرتـجـ على يـاسـرـ الكلـامـ وأخذـتـهـ رـغـدةـ ووقفـ لاـ يـحـيرـ جـوابـاـ،ـ قالـ:ـ ياـ يـاسـرـ،ـ أـلـمـ أـقـدـمـ إـلـيـكـ بـتـركـ الـخـلـافـ عـلـيـ؟ـ قـالـ:ـ بـلـىـ يـاـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ،ـ وـلـكـنـ الـخـطـبـ يـاسـرـ،ـ أـلـمـ أـقـدـمـ إـلـيـكـ بـتـركـ الـخـلـافـ عـلـيـ؟ـ قـالـ:ـ بـلـىـ يـاـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ،ـ وـلـكـنـ الـخـطـبـ دـخـلـ عـلـىـ جـعـفـرـ وـهـوـ عـلـىـ حـالـ لـهـوـ،ـ قـالـ لـهـ:ـ إـنـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ قـدـ أـمـرـنـيـ فـيـكـ بـكـيـتـ وـكـيـتـ،ـ قـالـ جـعـفـرـ:ـ إـنـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ يـمـازـحـنـيـ بـأـصـنـافـ مـنـ الـمـزـاحـ فـأـحـسـبـ أـنـ هـذـاـ جـنـسـ مـنـ،ـ قـالـ:ـ وـالـلـهـ [ـمـاـ رـأـيـتـ إـلـاـ جـادـاـ،ـ قـالـ:ـ إـنـ يـكـنـ الـأـمـرـ كـمـاـ قـلـتـ فـهـوـ إـذـاـ جـنـسـ مـنـ،ـ قـالـ:ـ لـاـ وـالـلـهـ]ـ مـاـ اـفـقـدـتـ مـنـ عـقـلـهـ شـيـئـاـ،ـ وـلـاـ ظـنـتـهـ شـرـبـ نـبـيـداـ فـيـ يـوـمـهـ مـعـ مـاـ سـكـرـانـ،ـ قـالـ:ـ لـاـ وـالـلـهـ]ـ مـاـ اـفـقـدـتـ مـنـ عـقـلـهـ شـيـئـاـ،ـ وـلـاـ ظـنـتـهـ شـرـبـ نـبـيـداـ فـيـ يـوـمـهـ مـعـ مـاـ رـأـيـتـ مـنـ عـبـادـتـهـ،ـ قـالـ لـهـ:ـ إـنـ لـيـ عـلـيـكـ حـقـوقـاـ لـمـ تـجـدـ لـهـ مـكـافـأـةـ فـيـ وـقـتـ مـنـ الـأـوـقـاتـ إـلـاـ هـذـاـ الـوـقـتـ،ـ قـالـ:ـ تـجـدـنـيـ إـلـىـ ذـلـكـ سـرـيـعـاـ إـلـاـ فـيـمـاـ خـالـفـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ،ـ قـالـ:ـ فـارـجـعـ إـلـيـهـ فـأـعـلـمـ أـنـكـ قـدـ نـفـذـتـ مـاـ أـمـرـكـ بـهـ إـنـ أـصـبـحـ نـادـمـاـ كـانـتـ حـيـاتـيـ عـلـىـ يـدـيـكـ جـارـيـةـ،ـ وـكـانـتـ لـكـ عـنـدـيـ نـعـمـةـ مـجـدـدـةـ،ـ إـنـ أـصـبـحـ عـلـىـ مـثـلـ هـذـاـ الرـأـيـ نـفـذـتـ مـاـ أـمـرـتـ بـهـ فـيـ

غد، قال: ليس إلى ذلك سبيل، قال: فأصبر معك إلى مضرب أمير المؤمنين حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك، فإذا أبديت عذراً ولم يقنع إلا بمصيرك إليه برأسى خرجت فأخذت رأسي من قرب، قال له: أما هذا فنعم، فمضيا جميعاً إلى مضرب الرشيد فدخل إليه ياسر فقال: قد أخذت رأسه يا أمير المؤمنين، وهذا هو ذا بالحضره، فقال له: ائتي به وإلا والله قتلتكم قبله، فخرج فقال [له]: أسمعت الكلام؟ قال: فشأنك وما أمرت به، فأخرج جعفر من كمه مديلاً صغيراً فعصب به عينيه ومدّ رقبته فضربها [ياسر] وأدخل رأسه إلى الرشيد، فلما رأى الرأس بين يديه أقبل عليه، وجعل يذكره بذنبه، ثم قال: يا ياسر ائتي بفلان وبفلان، فلما أتى بهم قال لهم: اضربوا عنق ياسر، فإني لا أقدر [آن] أنظر إلى قاتل جعفر.

وقال الأصمعي: وجَهَ إِلَيِّ الرَّشِيدَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا أَدْخَلْتُ إِلَيْهِ قَالَ: يَا أَصْمَعِي، قَدْ قَلْتُ شِعْرًا فَاسْمَعْهُ، قَلَتْ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَنْشَدَ:

لَوْ أَنْ جَعْفَرَ هَابَ أَسْبَابَ الرَّدَى لَتَجَا بِمَهْجَتِه طَمِيرٌ مُلْجَمٌ
وَلَكَانَ مِنْ حَذَرِ الْمُنْتَوْنَ بِحِيثُ لَا يَسْمُو إِلَيْهِ بِالْعَقَابِ الْقَشْعَمُ
لَكَنَّهُ لَمَّا تَقَارَبَ وَقْتُهُ لَمْ يَدْفعُ الْحَدَائِقَ عَنْهُ مُتَجَمِّمٌ

مدة سلطان البرامكة ورثاء الشعراة لهم

قال الأصمعي: ورجعت إلى منزله فلم أصل إليه حتى تحدث الناس بقتل جعفر، وأصيب على باب قصر علي بن عيسى بن ماهان بخراسان في صبيحة الليلة التي قتل فيها جعفر وأوقع بالبرامكة مكتوب بقلم جليل:

إِنَّ الْمَسَاكِينَ بَنُو بَرْمَكٍ صُبِّتْ عَلَيْهِمْ غَيْرُ الدَّهْرِ
إِنَّ لَنَا فِي أَمْرِهِمْ عَبِّدَ فَلِيُعْتَبِرْ سَاكِنُ ذَا الْقَصْرِ

قال المسعودي: وكان مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف هارون الرشيد إلى أن قتل جعفر [بن يحيى بن خالد بن برمك] سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً، وقد رثتهم الشعراة [بمراث كثيرة، وذكرت أيامهم] فمن ذلك قول [علي] بن أبي معاذ:

يَا أَيَّهَا الْمَغْشَرُ بِالدَّهْرِ وَالدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ وَذُو عَذْرٍ
لَا تَامِنِ الدَّهْرَ وَصَوْلَاتِهِ وَكُنْ مِنَ الدَّهْرِ عَلَى حِذْرٍ
إِنْ كُنْتَ ذَا جَهْلٍ بِتَعْصِيرِهِ فَانظُرْ إِلَى الْمَصْلُوبِ بِالجَسْرِ

يَا ذَا الْحِجَّا وَالْعُقْلِ وَالْفَكْرِ
وَاجْرِ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَخْرِي
وَذَا الْحِجَّا وَالْفَضْلِ وَالْذُكْرِ
إِلَيْهِ فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ
وَكَانَ فِيهِ نَافِذًا لِلأَمْرِ
عَشِيَّةَ الْجَمْعَةِ بِالْعُمْرِ
يَأْمُلُ طَوْلَ الْخُلُدِ وَالْعُمْرِ
يَا وَيْلَنَا مِنْ عَشَرَةِ الدَّهْرِ
كَانَتْ لَهُ قَاصِمَةُ الظَّهَرِ
سَبَبَتْ قَتِيلًا مَطْلَعَ الْفَجْرِ
أُحْيِطَ بِالشِّيخِ وَمَا يَدْرِي
يَحْيِي مَعًا فِي الْغُلُّ وَالْأَسْرِ
مَنْ كَانَ فِي الْآفَاقِ وَالْمِضْرِ
كَمْوَدُ النَّاسِ إِلَى الْحَسْرِ
سَبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ وَالْأَمْرِ

وَمِنْ رَثَامِ فَاسْتُحْسَنْ قَوْلُهُ أَشْجَعُ السُّلْمَى، فَقَالَ مِنْ قَصِيدَةِ:

وَأَسْكَنَ مَنْ يُجْدِي وَمَنْ كَانَ يَجْتَدِي
وَطَيْيُ الْفَيَافِي فَدَفَدَ بَعْدَ فَدَدَ
وَقَلْ لِلرِّزَايَا: كُلَّ يَوْمٍ تَجَدَّدِي
أَصَبَّ بِسِيفِ هَاشِمِيًّا مُهَنَّدِي

فَإِنْ فِيهِ عِبْرَةٌ؛ فَاعْتَبِرْ
وَخَذْ مِنَ الدُّنْيَا صَفَا عِيشَهَا
كَانَ وزِيرَ الْقَائِمِ الْمُرْتَضَى
وَكَانَتِ الدُّنْيَا بِأَقْطَارِهَا
يُشَيِّدُ الْمُلْكَ بِأَرَائِهِ
فَبَيْنَمَا جَعَفَرُ فِي مُلْكِهِ
يَطِيرُ فِي الدُّنْيَا بِأَجْنَاحِهِ
إِذْ عَثَرَ الدَّهْرُ بِهِ عَثَرَةً،
وَزَلَّتِ الْمَسْعَلُ بِهِ زِلَّةً
فَعُودَرَ الْبَائِسُ فِي لَيْلَةِ الْ
وَأَصْبَحَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى وَقَدْ
وَجَيَءَ بِالشِّيخِ وَأَوْلَادِهِ
وَالْبَرْمَكِيَّينَ وَأَتَبَاعِهِمْ
كَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مَوْعِدِهِ
وَأَصْبَحُوا لِلنَّاسِ أُخْدُوئَةً

أَلَّا أَرْخَنَا وَاسْتَرَاحْتُ بِرَكَابِنَا
فَقُلْنَا لِلْمَطَايَا: قَدْ أَمِنْتُ مِنْ الشَّرِّي
[وَقَلْ] الْعَطَايَا بَعْدَ فَضْلِي: تَعَطَّلِي
وَدُونَكَ سِيفًا بِرْمَكِيًّا مُهَنَّدِي

وَقَالَ فِيهِمْ سَلْمُ الْخَاسِرِ:

خَوَتْ أَنْجُمُ الْجَدْوِي وَشَلَّتْ يَدُ الدَّنَدِي
خَوَتْ أَنْجُمُ كَانَتْ لِأَبْنَاءِ بَرْمَكِ

وَقَالَ فِيهِمْ صَالِحُ الْأَعْرَابِيِّ:

لَقَدْ خَانَ هَذَا الْدَّهْرُ أَبْنَاءَ بَرْمَكِ
وَأَيَّ مُلُوكٍ لَمْ تَخْنَهَا دُهُورُهَا؟
أَلَمْ يَكُنْ يَحْيَى وَالَّيَّ الْأَرْضَ كَلَاهَا
فَأَضْحَى كَمْ وَارَنْهُ مِنْهَا قُبُورُهَا

وَقَالَ فِيهِمْ أَبُو حَرْزَةَ الْأَعْرَابِيِّ، وَقَيلَ أَبُو تُوَاسَ:

ما رَمَى الدُّهْرُ آلَ بِرْمَكَ لِمَا أَنَّ رَمَى مُلْكُهُمْ بِأَمْرِ بَدِيعِ
إِنَّ دُهْرًا لَمْ يَرْعِ حَقًا لِيَحِيَيِّ غَيْرَ رَاعِ حَقًا لَآلِ الرَّبِيعِ

وقال [فيهم بعض الشعراء فأحسن]:

يَا بَنِي بِرْمَكَ وَاهَا لَكُمْ
وَلَا يَامَكُمُ الْمُفْتَبَلَةَ
[كَانَتِ الدُّنْيَا عَرُوسًا بَكُمْ]
وَهِيَ الْيَوْمُ شَكُولُ أَرْمَلَةَ

وقال أشجع فيهم:

وَلَىٰ عَنِ الدُّنْيَا بَنُو بَرْمَكَ
كَانَتْ أَيَامَهُمْ كُلُّهَا
فَلَوْ تَوَالَىَ النَّاسُ مَا زادَ
كَانَتْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ أَعْيَادًا

[ولآخر فيهم من أبيات:]

كَانَ أَيَامَهُمْ مِنْ خُسْنٍ بَهْجَتِهَا
مواسمُ الْحَجَّ وَالْأَعْيَادِ وَالْجَمْعِ]

وقال منصور النمري:

أَنْدُبُ بَنِي بِرْمَكَ لِدُنْيَا
كَانَتْ بِهِمْ بُرْهَةً عَرُوسًا
تَبْكِي عَلَيْهِمْ بِكْلَ وَادٍ
فَأَضْحَتِ الْيَوْمَ فِي حِدَادٍ

وقال دعبدل [الخزاعي]:

أَلْمَ تَرَ صَرْفُ الدَّهْرِ فِي آلِ بِرْمَكِ
وَفِي ابْنِ نَهِيكِ وَالْقُرُونِ الَّتِي تَخْلُو
الْقَدْ غَرَسَ [الْقَوْمُ] التَّخْلِيلَ تَمْكَنَّا
فَمَا حَصَدُوا إِلَّا كَمَا حَصَدَ الْبَقْلَ

وقال أشجع فيهم أيضاً:

قَدْ سَارَ دُهْرٌ بَنِي بَرْمَكٍ
كَانُوا أُولَئِي الْخَيْرِ وَهُمْ أَهْلُهُ
وَلَمْ يَدْعُ فِيهِمْ لَنَا بُقْيَا
فَارْتَفَعَ الْخَيْرُ عَنِ الدُّنْيَا

[ولما قتل جعفر وقبض على يحيى والفضل، وضيق عليهم المحابس، واشتد بهما الجهد، وترافق عليهم البلاء] قال الفضل بن يحيى يذكر ما هما فيه:

إِلَى اللهِ فِيمَا نَابَنَا تُرْفَعُ الشَّكْوَى
فِي يَدِهِ كَشْفُ الْمَضَرَّةِ وَالْبَلُوغِ
خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنَ أَهْلِهَا
فَلَا نَحْنُ فِي الْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَا
إِذْ جَاءَنَا السَّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ عَجَبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

وكان الرشيد كثيراً ما ينشد بعد نكبة البرامكة:

إِنْ اسْتَهَانَتْهَا إِذَا وَقَعَتْ لِبِقَدْرِ مَا تَعْلُو بِهَا رُتبَةُ
وَإِذَا بَدَثْ لِلنَّمَلِ أَجْنَحَةً حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَظَمَةُ

وقال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي : دخلت على والدتي يوم تخر، فوجدتها وعندها [امرأة] بَرَزَّةً متكلمة [في ثواب رَتَّةٍ] فقالت لي : أتعرف هذه؟ قلت : لا ، قالت : هذه عبادة أم جعفر بن يحيى ، فأقبلت عليها بوجهي أحدهما وأعظمها ثم قلت لها : يا أماه أَغَجَّبُ ما رأيت؟ قالت : يا بني لقد أتى على عيْدٍ مثلُ هذا وأنا على رأسِي أربعَمائة وصيفة ، وإنِي لأُعَذِّبُ ابْنِي عَافًا [لي] ولقد أتى عَلَيَّ هذا العيْدُ وما أَتَمْنِي سُوَى جَلْدِ شَاتِينَ أَفْرَشَ أَحْدَهُمَا وَأَلْتَحَفَ الْآخَرَ ، قال : فَدَفَعَتْ إِلَيْهَا خَمْسَمِائَةً درهم ، فَكَادَتْ تَمُوتُ فَرَحَا بِهَا ، وَلَمْ تَزُلْ تَخْتَلِفْ إِلَيْنَا حَتَّى فَرَقَ الْمَوْتَ بَيْنَنَا .

وَحَكَى عَنْ بَعْضِ عَوْمَةِ الرَّشِيدِ أَنَّهُ صَارَ إِلَيْهِ [بن خالد] عِنْدَ تَغْيِيرِ الرَّشِيدِ لِهِ قَبْلِ الْإِيقَاعِ بِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَحَبَ جَمْعَ الْأَمْوَالِ ، وَقَدْ كَثُرَ وَلَدُهُ [فَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَعْقِدَ لَهُمُ الْضِيَاعَ] ، وَقَدْ كَثُرَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَصْحَابِكَ [عِنْدَهُ] فَلَوْ نَظَرْتَ إِلَى ضِيَاعِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَجَعَلْتَهَا لَوْلَدَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَقْرَبْتَ [إِلَيْهِ] بِهَا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ لَكَ السَّلَامَةُ ، وَأَنْ يَرْجِعَ لَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : وَاللَّهِ لَأَنْ تَزُولَ النِّعْمَةُ عَنِي أَحَبُّ إِلَيْيَّ مَنْ أَزِيلُهَا عَنْ قَوْمٍ كُنْتْ سَبِيبَهَا إِلَيْهِمْ .

وَذَكَرَ الْخَيْلُ بْنُ الْهَيْشَمَ [الشعبي] - وَكَانَ قَدْ وَكَلَ الرَّشِيدَ بِيَحْيَى وَالْفَضْلِ فِي الْحَبْسِ - قَالَ : أَتَانِي مَسْرُورُ الْخَادُمُ وَمَعْهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْخَدْمِ ، وَمَعَهُ خَادِمٌ مِنْ دِيلِ مَلْفُوفٍ ، فَسَبَقَ إِلَيْنِي نَفْسِي أَنَّ الرَّشِيدَ قَدْ تَعَطَّفَ عَلَيْهِمْ ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ بِلَطْفٍ ، فَقَالَ لَيْ مَسْرُورٌ : أَخْرَجَ الْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدِيهِ قَالَ [لَهُ] : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ لَكَ : إِنِّي قَدْ أَمْرَتُكَ أَنْ تَصْدِقَنِي عَنْ أَمْوَالِكَ فَزَعَمْتَ أَنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ ، وَقَدْ صَحَّ عَنِي لَكَ أَبْقَيْتَ لَكَ أَمْوَالًا ، وَقَدْ أَمْرَتَ مَسْرُورًا إِنْ لَمْ تَطْلَعْهُ عَلَيْهَا أَنْ يَضْرِبَكَ مَا تَهِي سُوطُ ، فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ : قُتِلْتُ وَاللَّهِ يَا أَبَا هَاشِمَ ، فَقَالَ لَهُ مَسْرُورٌ : يَا أَبَا العَبَاسِ أَرِي لَكَ أَنَّكَ لَا تَؤْثِرُ مَالَكَ عَلَى مَهْجَبِكَ ، فَإِنِّي لَا آمِنُ إِنْ أَنْفَذَ مَا أَمْرَتَ بِهِ فِيْكَ أَنْ آتَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، فَرَفَعَ الْفَضْلُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا هَاشِمَ ، مَا كَذَبْتَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَوْ كَانَ الدِّينُ لِي وَخَيْرُ بَيْنِ الْخَرْجَةِ مِنْهَا وَبَيْنِ أَنْ أَقْرَعَ مَقْرَعَةً لَا حَرَتْ الْخَرْجَةُ مِنْهَا ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَعْلَمُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَا كَنَا نَصُونُ أَعْرَاضَنَا بِأَمْوَالِنَا ، وَكَيْفَ صَرَنَا الْيَوْمَ نَصُونُ أَمْوَالَنَا مِنْكُمْ بِأَنْفُسِنَا؟ فَإِنْ كُنْتَ أَمْرَتَ بِشَيْءٍ فَامْضِ لَهُ ، فَأَمْرَ بِالْمَنْدِيلِ فَنَفَضَ ، فَسَقَطَ مِنْهُ أَسْوَاطُ بِأَثْمَارِهَا ، فَضَرَبَ مَا تَهِي سُوطُ ، وَتَوَلَّ ضَرِبَهُ أَوْلَئِكَ الْخَدْمِ ، فَضَرَبُوهُ أَشَدَ الضَّرَبِ الَّذِي يَكُونُ بِغَيْرِ مَعْرِفَةٍ ، فَكَادُوا يَأْتُونَ عَلَى نَفْسِهِ ، فَخَفَنَا عَلَيْهِ الْمَوْتُ ، فَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ الْهَيْشَمَ

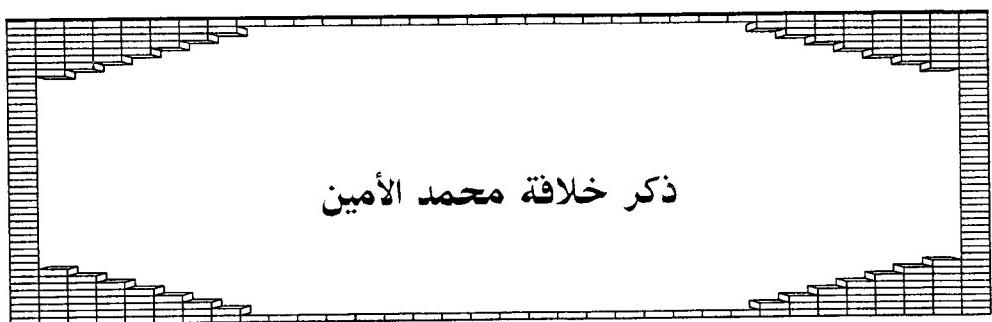
لوكيله المعروف بأبي يحيى: إن هنا رجلاً قد كان في الحبس، وهو بصير بالعلاج لمثل هذا أو شبيهه، فصر إلىه وسائله أن يعالجها، قال: فأنهيت إليه ذلك، فقال: لعلك تريد أن تعالج الفضل بن يحيى، فقد بلغني ما صنع به؟ فقلت: إيه أريد؟ قال: فامض بنا إليه حتى أعالجه؛ فلما رأه قال: أحسي به ضربه خمسين سوطاً، قال: إنه ضرب ماتي سوط، قال: ما أظن إلا أن هذا أثر خمسين سوطاً، ولكن يحتاج أن ينام على بارئته وأدوس صدره ساعة، فجزع الفضل من ذلك، ثم أجاب إليه، ففعل ذلك به، ولم يزل يدوس صدره، ثم أخذ بيده فجذبه حتى أقامه عن البارئية، فتعلق بها من لحم ظهره شيء كثير، ثم جعل يختلف إليه ويعالجه إلى أن نظر يوماً إليه فخر ساجداً، فقلت: ما لك؟ فقال: يا أبا يحيى، قد برئ أبو العباس، أذنْ مني حتى ترى، قال: فدنوت منه فأراني في ظهره لحمة نابت، ثم قال لي: أتحفظ قولي هذا أثرُ خمسين سوطاً؟ قلت: نعم، قال: والله لو ضربَ ألف سوط ما كان أثراً باشد من ذلك الأثر، وإنما قلت ذلك لكي تقوى نفسه فيعيني على علاجه، فلما خرج الرجل قال لي الفضل: يا أبا يحيى، قد احتجت عشرة آلاف درهم، فبىء إلى المعروف بالنسائي وأعلم حاجتي إليها، قال: فأنتهي بالرسالة، فأمر بحملها إليه، فقال: يا أبا يحيى، أحب أن تمضي بها إلى هذا الرجل، وتعذر إليه، وتسأله قبول ما وجئت به، قال: فمضيت إليه فوجده قاعداً على حصير وطنبور له معلم ودساتيج فيها نبيذ وأداة رثة، فقال: ما حاجتك يا أبا يحيى؟ فأقبلت أعذر عن الفضل، وأذكر ضيق الأمر عليه، وأعلمه بما وَجَهَ به إليه، فامتعض من ذلك [ونخر] حتى أفرعنى، وقال: عشرة آلاف درهم، يرددوا؛ فجهدت كل الجهد أن يقبلها، فأبى؛ فصرت إلى الفضل، فأعلمه، فقال لي: استقلها والله، ثم قل لي الفضل: أحب أن تعود إلى النسائي ثانية وتتعلم أنه احتجت إلى عشرة آلاف درهم أخرى؛ فإذا دفعها إليك فسر بالكل إلى الرجل، قال: فقبضت من النسائي عشرة آلاف أخرى ورجعت إلى الرجل ومعي المال، وعرّفت الخبر؛ فأبى أن يقبل شيئاً منه، فقال: أنا أعالج فتى من الأبناء يكراء؟ اذهب عنى، فوالله لو كانت عشرين ألف دينار ما قبلتها، فرجعت إلى الفضل وأخبرته الخبر، فقال لي: يا أبا يحيى، حدثني بأحسن ما رأيت أو بلغك من أفعالنا، قال: فجعلت أحدهه [ملياً]، فقال: دع عنك هذا، فوالله إن ما فعله هذا الرجل أحسن من كل ما فعلناه في أيامنا كلها.

وقتل جعفر بن يحيى وهو ابن خمس وأربعين سنة، [وقيل أقل من ذلك] ومات يحيى [بن خالد] بالرقعة في سنة تسع وثمانين ومائة على ما قدمنا.

قال المسعودي: وللرشيد أخبار حسان وسير، وقد قدمنا ذكرها فيما سلف من

كتبنا في ذكر أخبار ملوك الروم بعد ظهور الإسلام، وما كان بينه وبين تأثُّر فيما تقدم من هذا الكتاب.

وللبرامكة أخبار حسان، وما كان منهم من الإفضال بالمعروف واصطناع المكارم، وغير ذلك من عجائب أخبارهم وسيرهم وما مدحthem الشعراء به، ومراثيهم، وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا «أخبار الزمان» والكتاب الأوسط، وإنما نورد في هذا الكتاب لمعاً من الأخبار لم يتقدم لها إيراد في ما تقدم من كتبنا، وكذلك ذكرنا بهذه أخبارهم قبل ظهور الإسلام وكونهم على بيت النوبهار، وهو بيت النار ببلخ المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب، وعلة تسميتها بزَمَك، وخبر برمه الأكبر مع ملوك الترك، وخبرهم بعد ظهور الإسلام، وما كان منهم في أيام بنى أمية كهشام بن عبد الملك وغيره، وما كان منهم في أيام المنصور، واكتفينا بما ذكرناه في هذا الكتاب من [هذه] التلويحات من أخبارهم وللمع من آثارهم.



ذكر خلافة محمد الأمين

موجز

وبويع محمد بن هارون في اليوم الذي مات فيه هارون الرشيد، وهو يوم السبت لأربع ليالٍ خَلَوْنَ من جمادى الأولى، بطُوسَ، سنة ثلث وتسعين ومائة، وتقدم بيته رجاء الخادم، وكان القيم بيته الفضل بن الربيع، وكان محمد يكنى بأبي موسى - وأمه زَبِيْدَة ابنة جعفر بن أبي جعفر [بالرصافة] وكان مولده بالرصافة - وُقُتِلَ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة [وستة أشهر] وثلاثة عشر يوماً، ودُفِنت جثته ببغداد. وَحُمِّلَ رأسه إلى خراسان.

وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر [وقيل: تسعه أشهر، وقيل: ثمانية أشهر وستة أيام، على حسب ما وجدنا من اختلاف التواريخ وتبainها].

وقيل: إن محمداً أفضَّلَ الخلافة إليه وهو ابن الثتين وعشرين سنة وسبعة أشهر وأحد وعشرين يوماً، وكان أصغر من المأمون بستة أشهر، وكانت أيامه [في الحصار] من خَلْيَه إلى مقتله سنة ونصفاً وثلاثة عشر يوماً، حبس فيها يومين.

ذكر جمل من أخباره، وسيره، ولمع مما كان في أيامه

كيف جاءه خبر الولاية

قبض الرشيد والمأمون بمزرو، وبعث صالح بن الرشيد رجاء الخادم مولى محمد الأمين، إلى محمد، فأتاه بالخبر في الثني عشر يوماً إلى مدينة السلام يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة.

رؤيا زبيدة أيام حملت بالأمين وعنده ومولده وبعده

وذكر [جماعة من الأخباريين ومنهن عُيَّن بأخبار العباسين كالمدائني، و] العتبى وغيرهما أن زَيْنَدَة رأت في المنام ليلة عَلِقَّت بِمُحَمَّدَ كَأَنْ ثَلَاثَ نَسْوَةَ دَخَلْنَ عَلَيْهَا وَهِيَ بِمَجْلِسٍ، فَقَدِّت اِثْنَتَانِ عَنْ يَمِينِهَا وَوَاحِدَةً عَنْ يَسَارِهَا، فَدَنَت إِحْدَاهُنَّ، فَجَعَلَت يَدَهَا عَلَى بَطْنِ أُمِّ جَعْفَرٍ، ثُمَّ قَالَتْ: مَلِكٌ [فَخْمٌ] عَظِيمٌ الْبَذْلُ، ثَقِيلُ الْحَمْلِ، نَكِدُ الْأَمْرِ، ثُمَّ فَعَلَت الثَّانِيَةُ كَمَا فَعَلَت الْأُولَى، وَقَالَتْ: مَلِكٌ نَاقِصُ الْجَدِّ، مَفْلُولُ الْحَدِّ، مَمْذُوقُ الْوَدِّ، تَجُورُ أَحْكَامَهُ وَتَخُونُهُ أَيَّامَهُ، ثُمَّ فَعَلَت الثَّالِثَةُ كَمَا فَعَلَت الثَّانِيَةُ، وَقَالَتْ: مَلِكٌ قَصَافٌ، عَظِيمُ الْإِلَيْافِ، كَثِيرُ الْخَلَافِ، قَلِيلُ الْإِنْصَافِ، قَالَتْ: فَاسْتِيقَضَتْ وَأَنَا فَزِعَةٌ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْلَّيْلَةِ الَّتِي وَضَعَتْ فِيهَا مُحَمَّداً دَخَلَنَ عَلَيَّ وَأَنَا نَائِمَةٌ كَمَا كُنَّ دَخَلْنَ. فَقَعَدَنَ عَنْ رَأْسِي، وَنَظَرُنَ فِي وَجْهِي، ثُمَّ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: شَجَرَةُ نَضْرَةٍ، وَرِيحَانَةُ حَسْنَةٍ، وَرَوْضَةُ زَاهِرَةٍ، ثُمَّ قَالَتْ الثَّانِيَةُ: عَيْنُ غَدِيقَةٍ، قَلِيلٌ لِبَهَا، سَرِيعٌ فَنَاؤُهَا، عَجِيلٌ ذَهَابُهَا، وَقَالَتْ الثَّالِثَةُ: عَدُوُّ لِنَفْسِهِ، ضَعِيفٌ فِي بَطْشِهِ، سَرِيعٌ إِلَى غَشِّهِ، مُزَالٌ عَنْ عَرْشِهِ، فَاسْتِيقَضَتْ [مِنْ نُومِي] وَأَنَا فَزِعَةٌ بِذَلِكَ، وَأَخْبَرَتْ بِذَلِكَ بَعْضَ قَهَّارِيَّتِي، فَقَالَتْ: بَعْضُ مَا يَطْرُقُ النَّائِمَ، وَعَبَثُ مِنْ عَبَثِ التَّوَابِعِ، فَلَمَّا تَمَّ فَصَالَهُ أَخْذَتْ مَرْقَدِي [لَيْلَةً] وَمُحَمَّدَ أَمَامِي فِي مَهْدِهِ، إِذْ بَهْنَ قَدْ وَقَنَ عَلَى رَأْسِي وَأَقْبَلَنَ عَلَى وَلْدِي مُحَمَّدَ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: مَلِكٌ جَبَّارٌ، مِتَّلَافٌ مَهْذَارٌ، بَعِيدٌ الْأَثَارُ، سَرِيعُ الْعَثَارُ، ثُمَّ قَالَتْ الثَّانِيَةُ: نَاطِقٌ مَخْصُوصٌ، وَمَحَارِبٌ مَهْزُومٌ، وَرَاغِبٌ مَحْرُومٌ، وَشَقِيقٌ مَهْمُومٌ، وَقَالَتْ الثَّالِثَةُ: احْفَرُوا قَبْرَهُ، ثُمَّ شَقُّوا

لحده، وقدموا أكفانه، وأعدوا جهازه؛ فإن موته خير من حياته. قالت: فاستيقظت وأنا مضطربة وَجْلةً، وسألت مفسري الأحلام والمنجمين، فكل يخبرني بسعادته وحياته وطول عمره، وقلبي يأتي ذلك، ثم زجرت نفسي وقلت: وهل يدفع [الإشفاق والحزن والاحتراز واقع] القدر، أو يقدر أحد أن يدفع عن أحبابه الأجل؟ .

موت ابن عياش

وفي سنة ثلاثة وتسعين ومائة مات أبو بكر بن عياش الكوفي [الأستدي] وهو ابن ثمان وتسعين سنة، بعد موت الرشيد بثمانية عشرة ليلة.

عزم الأمين على خلع أخيه

ولما همّ محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم، فقال له: أشدك الله يا أمير المؤمنين، ألا تكون أول الخلفاء نكث عهده، ونقض ميثاقه. واستخف بيمنيه، فقال: اسكت أنسَكَ الله فاك؛ فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأياً حيث يقول: لا يجتمع فحلان في هجمة. وجَمِعَ القواد وشاورهم فاتبعوه في مراده إلى أن بلغ إلى هرثمة بن حازم، فقال: يا أمير المؤمنين: لن ينصحك من كذبك، ولن يغشك من صدقك، لا تجريء القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهdk ويبيتك، فإن الغادر مخدول، والناكث مغلول. ودخل علي بن عيسى بن ماهان، فتبسم محمد وقال: لكن شيخ هذه الدعوة، وباب هذه الدولة، لا يخالف إمامه، ولا يوهن طاعته، ثم رفعه إلى موضع ما رفعه إليه فيما مضى، فكان علي بن عيسى أول من أجاب إلى خلع المأمون، فسَرَّه في جيش عظيم نحو خراسان، فلما قرب من الري قيل له: إن طاهر بن الحسين مقيم بها، وقد كان يظن أن طاهراً لا يثبت له، فقال: [والله] ما طاهر إلا شوكة من أغصاني وشرارة من ناري، وما مثل طاهر يؤمّر على جيش، وما بينه وبين الموت إلا أن تقع عينه على سوادكم، فإن السُّخَال لا تقوى على نطاح الكباش، والثعالب لا تقدر على لقاء الأسد، فقال له ابنه: ابعث طلائع وآرْتَدْ موضعًا لعسكرك، فقال: ليس [مثل] طاهر يستعد له بالمكان [ويستظر له بالاحتراز] والتحفظ، إنَّ حال طاهر يؤدي إلى أمرتين: إما أن يتحصَّن بالري فيثبت به أهلها ويكتفونا مؤنته، أو يخليها ويُذْبَر راجعاً، لو قد قربت خيولنا منه، فقال له ابنه: إن الشرارة ربما صارت ضِرَاماً، فقال: [اسكت] إن طاهراً ليس قرناً في هذا الموضع، وإنما تحرس الرجال من أقرانها، وسار علي بن عيسى حتى دنت عساكره من الري، وتبيّن ما عليه طاهر من الجد وأهبة

الحرب وضم الأطراف، فعدل إلى رُستاق من رساتيق الري متيسراً عن الطريق، فنزل به، وانبسطت عساكره، وأقبل طاهر في نحو من أربعة آلاف فارس، فأشرف على عساكر علي بن عيسى وتبيّن كثرتها وعدة ما فيها، فعلم أن لا طاقة له بذلك الجيش، فقال لخواص من معه: نجعلها خارجية، وَكَرْدَسَ خيله كراديس، وصمد في نحو القلب في سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان، وخرج إليه من القلب العباس بن الليث مولى المهدي، وكان فارساً، فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فانثنى العباس وانضم المعروف بداود سياه إلى علي بن عيسى وقد اخْتَلَطَ الناس، فضربه ضربة فأماته، وكان علي [في ذلك الوقت] على برذون كميت أزجل، وتماماً على رأسه الرجال، وتنازعوا في خاتمه ورأسه، فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجي، وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته، وأخر على خاتمه، وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعاً للعباس بن الليث، وبذلك سمي طاهر ذا اليمينين؛ لجمعه يَدَيه على السف.

وذكر أحمد بن هشام - وكان من وجوه القواد - قال: جئت إلى مضرب طاهر وقد توهם أني قُتلت في المعركة ومعي رأس علي وقد شد، فقال: البشري، هذه خصلة من رأس علي مع غلامي في المخلافة، فطرحه قَدَّامَه، ثم أتى بجثته، وقد شدَّت يداه ورجلاه، كما يفعل بالدواب إذا ماتت، فأمر به طاهر فألقى في بئر، وكتب إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل بالخبر، فكان في الكتاب: أطال الله بقاءك، وَكَبَّتْ أعداءك، كتابي إليك، ورأس علي بن عيسى بين يدي وخاتمه في أصبعي، والحمد لله رب العالمين؛ فسر المؤمنون بذلك، وَسُلِّمَ عليه في ذلك الوقت بالخلافة.

وقد كانت أم جعفر لا تعلق من الرشيد؛ فشاور بعض مجالسيه من الحكماء وشكوا ذلك إليه، فأشار عليه بأن يغيّرها، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة، فلم تكن تعلق منه، فلما وهبت له هاجر علقت منه بإسماعيل فغارت سارة عند ذلك، فعلقت بإسحاق، فاشترى الرشيد أم المأمون، فاستخلصاها، فعلقت بالمأمون، فغارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد.

قال المسعودي: وقد قَدَّمنا التنازع في ذلك - أعني قصص إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليه السلام، وقول من ذهب إلى أن إسحاق هو المأمور بذبحه، ومن قال: بل إسماعيل، وما ذكر كل فريق منهم في ذلك، وقد تناظر في ذلك السلف والخلف، فمن ذلك ما جرى بين عبد الله بن عباس وبين مولاه عُكْرمة، وقد قال عكرمة: من المأمور

بذهبـه؟ فقال: إسماعيل، واحتـج بقول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ وَرَأْءِهِ لَا سَحْقَ يَعْقُوب﴾ [هود: ٧١] ألا ترى أنه بـشـر إبراهيم بـولادة إسحـاق فـكيف يـأمره بـذهبـه؟ فقال له عـكرمة: أنا أوجـدك أن الذـبـح إسـحـاق من القرآن، واحتـج بـقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ يَعْتَبِرُكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُثِيرُ فَعْلَمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ مَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَهَا عَلَىٰ أَبَوِيهِكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَلَا سَحْقَ﴾ [يوسف: ٦] فـنعمـته على إبراهـيم: أن نـجـاه من النار، ونعمـته على إسـحـاق: أن فـداء بالذـبـح، وكانت وفـاة عـكرمة مـولـي ابن العـباس سنة خـمس وـمائـة، ويـكـنـى أبا عبد الله، مـات فيـ اليوم الذي مـات فيه كـثير عـزـة، فقال النـاس: مـات عـظـيم الفـقهـاء [وـأـهـلـالـعـلـم] وكـبيرـالـشـعـراء، وفيـها كانت وفـاة الشـعـبيـ.

الأمين يـنـصـب مجلس غـنـاء وـهـو مـحاـصـر

وـحدـث [يـوسـفـبنـإـبـراهـيمـالـكـاتـبـ]ـقـالـ: حـدـثـنيـأـبـوـإـسـحـاقـ]ـإـبـراهـيمـبـنـالمـهـديـقـالـ: بـعـثـ إـلـيـأـمـيـنـمـحـمـدـ، وـهـوـمـحـاـصـرـ، فـصـرـتـإـلـيـهـ، فـإـذـاـهـوـجـالـسـفـيـ طـارـمـةـخـشـبـهـمـنـعـودـوـصـنـدـلـعـشـرـةـفـيـعـشـرـةـ، وـإـذـاـسـلـيـمـانـبـنـ[أـبـيـجـعـفرـ]ـالـمـنـصـورـ مـعـهـفـيـ[جـوـفـ]ـالـطـارـمـةـ، وـهـيـقـبـةـكـانـاتـخـذـلـهـفـرـاشـأـمـبـطـنـاـبـأـنـوـاعـالـحـرـيرـوـالـدـيـبـاجـ المـنسـوـجـبـالـذـهـبـالـأـحـمـرـوـغـيـرـذـلـكـمـنـأـنـوـاعـالـإـبـرـيسـمـ، فـسـلـمـتـفـإـذـاـقـدـامـهـقـدـحـبـلـورـ فـحـرـوـزـفـيـهـشـرـابـيـنـفـذـمـقـدـارـهـخـمـسـةـأـرـطـالـ، وـبـيـنـيـدـيـسـلـيـمـانـقـدـحـمـلـهـ، فـجـلـسـتـبـإـزـاءـ سـلـيـمـانـ، فـأـتـيـتـبـقـدـحـكـالـأـوـلـوـالـثـانـيـ، قـالـ: قـالـ: إـنـمـاـبـعـثـإـلـيـكـمـاـلـمـاـبـلـغـنـيـقـدـومـ طـاهـرـبـنـالـحـسـينـإـلـيـالـنـهـرـوـانـ، وـمـاـقـدـصـنـعـفـيـأـمـرـنـاـمـنـالـمـكـرـوـهـ، وـقـابـلـنـاـبـهـمـ إـلـإـسـاءـةـ، فـدـعـوـتـكـمـاـلـأـفـرـجـبـكـمـوـبـحـدـيـشـكـمـ، فـأـقـبـلـنـاـنـحـدـثـهـوـنـؤـنـسـهـحـتـىـسـلـأـعـماـكـانـ يـجـدهـوـفـرـحـ، وـدـعـاـبـجـارـيـةـمـنـخـواـصـجـوارـيـهـتـسـمـيـضـعـفـاـ، قـالـ: فـتـطـيـزـتـمـنـاسـمـهـاـ وـنـحـنـعـلـىـتـلـكـالـحـالـ، فـقـالـلـهـاـ: غـنـيـاـ، فـوـضـعـتـعـودـفـيـحـجـرـهـاـوـغـنـتـ:

كـلـيـبـ لـعـمـريـكـانـأـكـثـرـنـاصـرـاـ وـأـكـثـرـحـزـمـاـمـنـكـضـرـجـبـالـدـمـ
فتـطـيـزـمـنـقـوـلـهـاـ، ثـمـقـالـلـهـاـ: اـسـكـتـيـقـبـحـكـالـهـ، ثـمـعـادـإـلـىـمـاـكـانـعـلـيـهـمـنـالـغـمـ وـإـلـقـاطـبـفـأـقـبـلـنـاـنـحـادـهـوـنـبـسـطـهـ، إـلـىـأـنـسـلـاـوـضـحـكـ، ثـمـأـقـبـلـعـلـيـهـوـقـالـ[لـهـاـ]: هـاتـ ماـعـنـدـكـ، فـغـنـتـ:

هـمـقـتـلـوـهـكـيـيـكـونـوـمـكـانـهـ كـمـاـغـدـرـتـيـوـمـاـبـكـسـرـىـمـرـازـبـهـ
فـأـسـكـتـهـوـزـأـرـهـوـعـادـإـلـىـالـحـالـأـوـلـيـ، فـسـلـيـنـاهـحـتـىـعـادـإـلـىـالـضـحـكـ، فـأـقـبـلـ عـلـيـهـالـثـالـثـةـقـالـ: غـنـيـ، فـغـنـتـ:

كأن لم يكن بين الحجّون إلى الصّفا
أنيس ولم يَسْمُرْ بمكة سامر
بلى نحن كنَا أهْلَها فَأَبَادَنَا صَرْوفُ اللِّيالِي وَالْجَدُودُ الْعَوَاثِرُ

وقيل: بل إنها غنت:

أَمَا وَرَبُّ السُّكُونِ وَالْحَرَكَ إِنَّ الْمَنَابِيَا كَثِيرَةُ اِنْشَرَكَ

فقال لها: قومي عني فعل الله بك [كذا وكذا] وصنع بك، فقامت فغترت بالقلدح
الذى كان بين يديه فكسرته، فانهرق الشراب، وكانت ليلة قمراء، ونحن على شاطئِ
ِدجلة في قصره المعروف بالخلد: فسمعنا قائلًا يقول «قضى الأمرُ الَّذِي فِيهِ تَسْقِيَانٌ»
[يوسف: ٤١] قال ابن المهدى: فقمت وقد وثب، فسمعت منشدًا من ناحية القصر ينشد
هذين البيتين:

لَا تَعْجَبْنَ مِنَ الْعَجَبِ قَدْ جَاءَ مَا يَقْضِيُ الْعَجَبَ
قَدْ جَاءَ أَمْرٌ فَادْعُ فِيهِ لَذِي عَجَبٍ عَجَبَ
قال: فما قعدنا معه بعدها إلى أن قتل.

وكان الأمين معجبًا بأم ولده نظم وهي أم موسى الذي كان سماه الناطق بالحق،
وأراد خلع المؤمنون والعقد له من بعده، فهلكت أم موسى نظم، فجزع عليها جزعاً
شديداً، فلما اتصل الخبر بأم جعفر زبيدة قالت: أحملوني إلى أمير المؤمنين؛ فحملت
إليه، فاستقبلتها وقال: يا سيدتي ماتت نظم، فقالت:

نَفْسِي فَدَأْوِكَ لَا يَذْهَبْ بِكَ الْهَفْ فَفِي بَقَائِكَ مَا قَدْ مَضِيَ خَلْفُ
غُرُوضُتْ مُوسَى فَهَانَتْ كُلَّ مَرْزَةٍ مَا بَعْدَ مُوسَى عَلَى مَفْقُودِهِ أَسْفُ

لهم الأمين وقت الحصار

وذكر إبراهيم بن المهدى قال: استأذنت على الأمين يوماً، وقد اشتد الحصار عليه
من كل وجه، فأبوا أن يأذنوا لي بالدخول عليه، إلى أن كاثرت ودخلت، فإذا هو قد تطلع
إلى دجلة بالشباك، وكان في وسط قصره بركة عظيمة لها مخترق إلى الماء في دجلة،
وفي المخترق شباك حديد، فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم، والعلماني قد
انتشروا إلى تفتيش الماء، وهو كالواله، فقال لي وقد ثنيت بالسلام وكررت: لا تدرى يا
عمى؛ فمقرطتي قد ذهبت في البركة إلى دجلة، والمقرطه: سمكه كانت قد صيدت له
وهي صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبَّةً در [وقيل: ياقوت] قال: فخرجت وأنا
آيس من فلاحة، وقلت: لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت.

صفات الأمين

وكان محمد في نهاية الشدة والقوة والبطش والبهاء والجمال، إلا أنه كان عاجز الرأي، ضعيف التدبير، غير مفكر في أمره.

وبحكي أنه اصطبغ يوماً، وقد كان خرج أصحاب البابيد والحراب على البغال - وهم الذين كانوا يصطادون السباع - إلى سبع كان بلغهم خبره بناحية كوشى والقصر، فاحتالوا في السبع إلى أن أتوا به في قفص من خشب على جمل بختي، فحط بباب القصر وأدخل، فمثل في صحن القصر والأمين مصطبغ، فقال: خلوا عنه وشيلوا باب القفص، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنه سبع هائل أسود وحش، فقال: خلوا عنه، فشالوا باب القفص، فخرج سبع أسود له شعر عظيم مثل الثور، فزار وضرب بذنبه إلى الأرض، فنهارب الناس، وغلقت الأبواب في وجهه، وبقي الأمين وحده جالساً [في] موضعه غير مكترث بالأسد، فقصده الأسد حتى دنا منه، فضرب الأمين بيده إلى مرفة أرمنية، فامتنع منها بها، ومَدَ السبع يده إليه، فجذبها الأمين وقبض على أصل أذنيه، وغمزه ثم هَزَهُ أو دفع به إلى خلف فوق السبع ميتاً على مؤخره، وتبدّل الناس الأمين فإذا أصابعه ومفاصل يديه قد زالت عن مواضعها، فأتى بمجرب فرد عظام أصابعه إلى مواضعها، وجلس كأنه لم يعمل شيئاً، فشقوا بطن الأسد فإذا مرارته [قد] انشقت عن كبده.

نبوءة بخلع الأمين

وبحكي أن المنصور جلس ذات يوم ودخل إليه بنو هاشم من أهله، فقال لهم وهو مستبشر، أما علمتم أن محمداً المهدي ولد البارحة له ولد ذكر، وقد سميـناه موسى؟ فلما سمع القوم ذلك وجموـوا وكأنـما حـثـا في وجوـهم الرـمـادـ، [وسـكتـوا] ولم يـحـيرـوا جـوابـاـ، فنظر إليـهم المنصور فقال لهم: هذا موضع دعاء وتهنـةـ، وأراكـمـ قد سـكتـمـ، ثم استـرجـعـ، فقال لهم: كـأـنـيـ بـكـمـ لـمـ أـخـبـرـتـكـمـ بـتـسـمـيـ إـيـاهـ مـوـسـىـ اـغـتـمـمـتـ بـهـ، لأنـ المـولـودـ المـسـمـيـ بـمـوـسـىـ بـنـ مـحـمـدـ هوـ الـذـيـ عـلـىـ رـأـسـهـ تـخـلـفـ الـكـلـمـةـ [وـتـسـفـكـ الدـمـاءـ] وـتـتـهـبـ الـخـازـائـنـ، وـيـضـربـ الـمـلـكـ، وـيـقـتـلـ أـبـوهـ، وـهـوـ الـمـخـلـوـعـ مـنـ الـخـلـافـةـ، لـيـسـ هـوـ ذـاـ، لـاـ، وـلـاـ هـذـاـ زـمـانـهـ، وـاـللـهـ إـنـ جـدـ هـذـاـ المـولـودـ - يعني هارون الرشيد - لم يولد بعد، قال: فدعوا له وهنـواـ المـهـدـيـ، وـكـانـ هـذـاـ مـوـسـىـ الـهـادـيـ أـخـ الرـشـيدـ.

وكان العهد الذي كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون وأودعه الكعبة أن الغادر منها خارج من الأمر، أيهما غدر بصاحبـهـ، والخلافـةـ للمـغـدـورـ بـهـ .

وذكر ياسر [خادم أم جعفر، وكان من خواصـهاـ] أنه لما أحـيـطـ بـمـحـمـدـ

دخلت [عليه] أم جعفر باكية، فقال لها: مه، إنه ليس بجزع النساء وهلعنهن عَقِدَتْ التيجان، وللخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع، وراءك وراءك.

ويقال: إن محمداً قصف عند طاهر، فبینا طاهر في بستانه إذ ورد كتاب من محمد بخطه، فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم أنه ما قام لنا مذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه منا إلا السيف، فانظر لنفسك أو دع» قال: فلم يزل والله يتبيّن موقع الكتاب من طاهر، فلما رجع إلى خراسان أخرجه إلى خاصته، وقال لهم: والله ما هذا كتاب مضبوّف، ولكنه كتاب مخدول.

ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء إلى وقتنا هذا - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - من أبوه وأمه منبني هاشم، إلا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومحمد بن زبيدة.

وفي محمد بن زبيدة يقول أبو الغول:

ملك أبوه وأمه من تَبْعَةٍ منها سراجُ الأَمَةِ الْوَهَاجُ
شربت بمكة من ذرى بطحائها ماء النبوة ليس فيه مِرَاجٌ
وفي سنة أربع وتسعين ومائة كان ابتدأه بالغدر بالمؤمنون.

عبد الملك بن صالح بن علي

وفي سنة سبع وتسعين ومائة مات بالرقعة عبد الملك بن صالح بن علي في أيام الأمين، وكان عبد الملك أبغض ولد العباس في عصره، يقال: إن الرشيد لما اجتاز ببلاد متّيّج من أرض الشام نظر إلى قصر مشيد، وبستان مُغْتَمَّ بالأشجار كثير الشمار، فقال عبد الملك: لمن هذا القصر؟ قال: [هو] لك ولّي بك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف ببناء القصر؟ قال: دون منازلك وفوق منازل الناس، قال: فكيف مدّيتك؟ قال: عَذْبة الماء، باردة الهواء، صلبة الموطأ، قليلة الأدواء، قال: كيف ليّلها؟ قال: سَحْرٌ كله، وقال له يا أبا عبد الرحمن، ما أحسن بلادكم!! قال: فكيف لا تكون كذلك وهي تربة حمراء، وسبلة صفراء، وشجرة خضراء، فَيَافِي فيح، وجبال وضيع، بين قيسوم وشيح، فالتفت الرشيد إلى الفضل بن الربيع فقال: ضربُ السيّاط أهونَ عَلَيَّ من هذا الكلام.

ولما سمي محمد ابنه «موسى الناطق بالحق» وأخذ له العهد على الناس الفضل بن الربيع وزيره، وموسى يومئذ لا ينطق بأمر، ولا يعرف حسناً ولا يعقل قبيحاً، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه في ليله ونهاره ويقطنه [ومناته] وقيامه وقعوده، وأخضنته علي بن عيسى بن ماهان، قال في ذلك رجل أعمى من أهل بغداد يعرف

بعلي بن أبي طالب:

أضاع الخليفة غُشِّ الوزير
وما ذاك إلا طريق الغُرُور
فعال الخليفة أَعْجَوبَة
وأَعْجَبَ من ذَا وَذَا أَنَّا
وَمَنْ لِيْسَ يُخْسِنْ مسحَ أَنْفَهِ
وَمَا ذاك إلا بِبَيْاعَ وَغَارِ
يَرِيدان تَقْضَ الكتاب المُنِيرِ
وَهَذَا لَوْلَا انقلابَ الزَّمَانِ
ولَكُنْهَا فِشَنْ كَالْجَبَا

أَصْبَحَ الْإِمامَ وَرَأْيُ المشير
وَشَرِّ الْمَسَالِكَ طُرْقُ الْغُرُورِ
وَأَعْجَبَ مِنْهُ فَعَالُ الْوَزِيرِ
نَبَايَعُ لِلطَّفَلِ فِينَا الصَّغِيرِ
وَلَمْ يَخْلُ مِنْ نَتْنَهِ حَجْرُ ظِيرِ
يَرِيدان تَقْضَ الْكِتَابَ الْمُنِيرِ
أَفِي الْعِيرِ هَذَا أَمْ فِي النَّفِيرِ
لَنْرَتِعَ فِيهَا بِصُنْعِ الْحَقِيرِ

ولما قتل طاهر بن الحسين علي بن عيسى بن ماهان سار فنزل حلوان، وذلك على خمسة أيام من مدينة السلام، فتعجب الناس من [زيادة] أمره، وإدبار أصحاب الأمين وهزيمتهم على كل حال، وأيقنت القلوب بغلبة طاهر وظهور المأمون، وأسقط في يدي الفضل بن الربيع وأصحابه، فقال الشاعر [الأعمى في ذلك]، وكان مأمونياً متعصباً على محمد بن زبيدة مع المأمون، وكان من أهل بغداد، ومقامه بها، من آيات:] :

عَجِبْتُ لِمَعْشِرِ يَرْجُونَ نُجْحًا
وَكَيْفَ يَتَمُّمُ مَا عَقَدُوا وَرَامُوا
أَهَابَ إِلَى الضَّلَالِ بِهِمْ غَوِيَ
يَصِيبُ بِهِمْ وَيَلْعَبُ كُلَّ لَعْبٍ
وَكَادُوا الْحَقَّ وَالْمَأْمُونَ غَدَرَا
هُوَ الْعَدْلُ النَّجِيبُ الْبَرُّ فِينَا
وَعَاقِبَةُ الْأَمْرَ لَهُ يَقِينًا
فِيمِلِكُ أَرْبِيعَنَ لَهَا وَفَاءٌ
فَكَيْدُوا أَجْمَعِينَ بِكُلِّ كِيدٍ

لَأَمْرٍ مَا تَتَمَّ لَهُ الْأَمْرُ
وَأَئْسٌ بِنَائِهِمْ مِنْهُ الْفُجُورُ
وَشَيْطَانٌ مَوَاعِدُهُ غَرُورٌ
كَمَا لَعِبَتْ بِشَارِبَهَا الْخَمُورُ
وَلَيْسَ بِمَفْلُحٍ أَبْدًا عَدُوزٌ
تَضَمَّنَ حَبَدَهُ مِنَا الصَّدُورُ
بِهِ شَهَدَ الشَّرِيعَةُ وَالزَّبُورُ
تَتَمَّ بِهِ الْأَهْلَةُ وَالشَّهُورُ
وَكَيْدُكُمْ لَهُ فِيهِ السَّرُورُ

وبلغ محمداً فجمع قواده [وبياته] عندما ظهر من أمر طاهر، وشاورهم وقال: أحضروا لي غنائمكم كما أحضرت خراسان لعبد الله غنائمها، وكانت كما قال أعشى ربيعة:

ثُمَّ مَا هَابُوا وَلَكِنْ قَدَمُوا كَبَشَ غَارَاتٍ إِذَا لَاقَى نَطْخَ

أما والله لقد حَدَثَتْ بأحاديث الأمم السالفة، وقرأت كتب حروبها وقصص من أقام دولها، فما رأيت في حديثهم حديثاً لرجل منهم - وأبي - كهذا الرجل في إقدامه وسياسته، وقد قصدني واجترأ عليَّ، وتملى الهامة العظيمة من الجندي ومجمع القواد وساحة العروب، فهاتوا [اليوم] ما عندكم، فقالوا: يُبَقِّيَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، يكفيه كما كَفَىُ الخلفاء قبله بَعْدَهُ من بَعْدِهِمْ.

ولما انهزم جيش محمد بن يدي طاهر، ولم يقم له قائمة منهم قال سليمان بن أبي جعفر: لعن الله الغداء، ماذا جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه، وأبعد الله نسبه من أهل الفضل، ما أنسَعَ ما انتصر الله للمؤمن بكبس المشرق [يعني طاهراً] وفي ذلك يقول الشاعر:

مَاذَا دَعَاهُ إِلَى الْعَظِيمِ الْمُوْبِقِ
وَالغَدَرُ بِالْبَرِ الزَّكِيِّ أَخِي التَّقِيِّ
زَيْنُ الْخَلَافَةِ وَالإِمَامَةِ وَالنَّهْيِ
إِنْ تَغْدِرُوا جَهَلًا بُوَارَثُ أَحْمَدَ
فَاللهُ لِلْمَأْمُونِ خَيْرٌ مُّوازِرٌ
مَائِدَةِ الْقَمَقَامِ كَبِشِ الْمَشْرَقِ

ولما أحيط بمحمد من الجانب الشرقي والغربي، وكان هرثمة بن أغين نازلاً مما يلي النهر وان بالقرب من باب حُرَّاسَانَ، وثلاثة أبواب، وطاهر من الجانب الغربي مما يلي الياسرية وباب المحول والكتنasse؛ جمع قواه فقال: الحمد لله الذي يضع من يشاء بقدرته ويرفع، والحمد لله الذي يعطي بقدرته من يشاء ويمنع، والحمد لله الذي يقبض ويحيط وإليه المصير، أحمده على نوائب الزمان، وخذلان الأعون، وتشتت الحال، وكسوف البال، وصلى الله على محمد رسوله وأله وسلم، وقال: إني لأفارقكم بقلب مُوحِّعٍ، ونفس حزينة، وحُسْنَة عظيمة، وإنني محتال لنفسي، فأسأل الله أن يلطف بي بمعونته.

من الأميين إلى طاهر بن الحسين

ثم كتب إلى طاهر: أما بعد، فإنك [عبدُ مأمور] تتصحّت فتصحّت، وحاربت فنصرت، وقد يُغلبُ الغالبَ، ويُخذلُ المفلحَ، وقد رأيت الصلاح في معاونة أخي، والخروج إليه من هذا السلطان؛ إذ كان أولى به وأحقَّ، فأعطاني الأمان على نفسي وولدي وأمي وجدتي [وخدمي] وحاشيتي وأنصاري وأعواني حتى أخرج إليك وأتبرأ من هذا الأمر إلى أخي، فإن رأى الوفاء لي بأمانك وإلا كان أولى وأحق، قال: فلما قرأ طاهر

الكتاب قال: الآن لما ضيق خناقه، وهِيَضْ جناحه، وانهزم فُسَّاقُه؟ لا والذى نفسى بيده حتى يضع يده في يدي وينزل على حكمي، فعند ذلك كتب إلى هرثمة يسأله التزول على حكم أمانه.

وقد كان المخلوع جَهَّزَ جماعة من رجاله من الأبناء وغيرهم ممن استأمن إليه لدفع المأمونية عنه، فمالوا نحو هرثمة، وكان طاهر بن الحسين يمد هرثمة بالرجال، ولم يلق هرثمة مع ذلك كثيرَ كَيْدِ، فلما مال مَنْ ذكرنا إلى حرب هرثمة وعلى الجيش بشر وبشير الأَرْدِيَانِ بعث إليهما طاهر يتوعَّدُهما، فلم يأْمَنَا صَوْلَتَهُ، لإِشْرَافِه على الفتح، فخلياً عن الجيش وانفَضَّ الجمع، وكان طاهر قد نزل في البستان المعروف بباب الكباش الطاهري؛ ففي ذلك يقول بعض العيَّارين من أهل بغداد ومن أهل السجون:

لنا من طاهر يوم عظيم الشأن والخطب
عليينا فيه بالأنجاد عن هرثمة الكلبِ
ومنا لأبي الطيب يوم صادق الْكَرْبَلَةِ
أتاه كل طَرَارٍ ولصَّ كان ذا ثَقْبٍ
وعريان على جنبيه آثار من الضُّربِ
إذا ما حلَّ من شرق أتيناه من الغربِ

وضاق الأمر بمحمد الأمين ففرق في قُوَّادِهِ الْمُحَدِّثِينَ دون غيرهم خمسمئة ألف درهم وقارورة غالية، ولم يُغْطِ قدماء أصحابه شيئاً، فأتت طاهراً عيونه وجوابيسه بذلك، فراسلهم وكاتبهم، ووَعَدَهم ومتَاهُمْ، وأغرى الأصاغر بالقيادة حتى غضبوا لذلك، وشعَّبُوا على الأمين، وذلك يوم الأربعاء لست ليال خلون من ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائة، فقال رجل من المشتبة على الأمين:

فل لأمين الناس في نفسه ما شئتَ الجُنْدَ سوى الغاليه
وطاهر - نفسي فدى طاهر -
برُسْلِهِ والعلَّةِ الْكَافِيهِ
أضحي زِمامَ الملك في كفه
[إِيَا ناكشاً أسلمه نكشه
عيوبه من حَيْنَه فاشيه]
مقابلاً للفئه الْبَاغِيَه
قد جاءك الليث بشَدَّاتهِ
مستكلاً في أُسُدِّ ضاربه
فاها رب فلا مهرب من مثله إلا إلى النار أو الهاويه
ونقل طاهر من الياسيرية، فنزل بباب الأنبار، وحاصر أهل بغداد، وغادى القتال

وراواحَة، حتى تواكل الفريقيان، وخررت الديار، وعفت الآثار، وغلت الأسعار، وذلك في سنة ست وسبعين ومائة، وقاتل الأخ أباه، والابن أباه، هؤلاء محمدية وهؤلاء مأمونية، وهدمت المنازل، وأحرقت الديار، وانتهت الأموال، فقال الأعمى في ذلك [المعروف بعلي [بن] أبي طالب]:

وأسلمهم أهل التقى والبصائر
لما اجترموه من ركوب الكبائر
ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
فينجع فيما وعْظُناه وآمر
رجاه، ورجى حُيُّرها كل كافر
فمن بين م فهو ذليل وقاهر
وصار رئيساً فيهم كُلُّ شاطر
ولا يستطيع البُرُّ دفعاً لفاجر
ومن أول قد سن عنا لآخر
فأمته لا تلوى على زجر زاجر
بسعيهم قاموا بهدم الأواخر
تحثهم بالمرهفات البوادر
تشد على أقرانها بالخناجر
كريم، ومن جار شقيق مجاور
فيبيكي لها من رحمةٍ كُلُّ طائر
وتبكى عليه بالدموع البوادر
فَغَيَّبَ عنِي الْيَوْمَ عِزِّي وناصري
وقتل وإنها بـاللهـي والذخائر
خرجـنـ بلاـ خـمـرـ ولاـ بماـزـرـ
نوافـرـ أمـثالـ الـظـباءـ النـوافـرـ
وـمـلـهـيـ رـأـتـهـ عـيـنـ لـاـ وـنـاظـرـ
وـبـدـدـ مـنـهـاـ الشـمـلـ حـكـمـ المـقـادـرـ
فـأـضـحـواـ أـحـادـيـشـ لـيـاـدـ وـحـاضـرـ
صـنـوفـ الـمـنـىـ،ـ يـاـ مـسـتـقـرـ الـمـنـابـرـ

تقطعت الأرحام بين العشير
فذاك انتقام الله من خلقه بهم
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة
ولم نستمع من واعظ ومذكرة
فنبكي على الإسلام لما تقطعت
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم
وصار رئيس القوم يحمل نفسه
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة
فمن قائم يدعو إلى الجهد عامداً
تراهم كأمثال الذئاب رأت دمًا
إذا هدم الأعداء أول منزل
فأصبح الأغتاب بين بيوتهم
فنبكي لقتلي من صديق ومن أخ
والدة تبكي بحزن على ابنها
وذات حليل أصبحت وهي أيام
تقول له: قد كنت عزاً وناصراً
وابت لإحراق وهدم منازل
وإبراز ربات الخدور حواسراً
تراها حيارى ليس تعرف مذهبها
كأن لم تكن بغداد أحسن منظراً
بلى، هكذا كانت فاذهب حسنها
وخل بهم ما حل بالناس قبلهم
أبغداد، يا دار الملوك، ومجتنبي

ويا جنة الدنيا، ويا مطلب الغنى
أيني لنا: أين الذين عهدهم
يحلون في روض من العيش زاهر؟
وأين الملوك في المراكب تغتدي
تشبه حسناً بالنجوم الزواهر؟
وأين القضاة المحاكمون برأيهم
لورد أمور مشكلات الأوامر؟
أو القائلون الناطقون بحكمة
وأين مراح للملوك عهدهما
مزخرفة فيها صنوف الجواهر
ترشّ بماء المسك والورد أرضها
يفوح بها من بعد ريح المجامِر
إلى كل فَيَاضٍ كريم العناصر
ولهم قيَان تستجيب لنغمها
إذا هو لبَاهَا حنين المزاهِر
فما للملوك العُرُّ من آل هاشم
وأشياعهم فيها اكتفوا بالمفاخر
يروحون في سلطانهم وكأنهم
وأنصافهم بالكره أيدي الأصغر
تخاذل عما نَالُهُمْ كبراؤهم
لذلَّت لها خوفاً رقاب الجبار
فأقسم لو أن الملوك تناصَرُوا

قف على ألقاب قادة الجيش (الضباط)

وبعث هرثمة بن أعين بزهير بن المسيب الضبي من الجانب الشرقي، فنزل
الماء على كلواذاً، وعشرون سفناً في الواردة من البصرة وواسط،
ونصب على بغداد المنجنيقات، ونزل في رقة كلواذاً والجزيرة، فتأذى الناس به، وصمد
نحوه خلق من العيارين وأهل السجون، وكانوا يقاتلون عَرَاءً في أوساطهم التباين
والميابر، وقد اتخذوارؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ، ودرقاً من الخوص
والبواري قد قَيَّرت وحشيت بالحصى والرمل، على كل عشرة منهم عريف، وعلى كل
عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذي
مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده؛ فالعرife له أناس مرتكبهم غير ما ذكرنا من
المقاتلة، وكذلك النقيب والقائد والأمير ونَاسُ عَرَاءً قد جعل في أعناقهم الجلاجل
والصوف الأحمر والأصفر، ومقاؤد قد اتخذت لهم، ولجم وأذناب من مكاني ومذابٌ،
فيأتي العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة على رؤوسهم خوذ [الخصوص]
وَدَرَقُ البواري، ويأتي النقيب والقائد والأمير كذلك، فتفتف النظارة ينظرون إلى حربهم
مع أصحاب الخيول الفُرَّهَ الجواشن والدروع والتجافيف [والسواعد] والرماح والدرق
التبتية؛ فهو لاء عراة وهو لاء على ما ذكرنا [من العَدَّة] فكانت للعراة على زهير، وأتاه

المَدُّ من هرثمة، فانهزمت العِرَّا، ورمت بهم خُيُولُهم، وتحاصروا جميعاً، وأخذهم السيف، فقتل منهم خلق، وقتل من النظارة خلق، فقال في ذلك الأعمى، وذكر رمسي زهير بالمنجنيق:

لَا تقرب المنجنيق والخَجْرَا
بَاكَرَ كِيلَا يفُوتُه خَبَرٌ
[أَرَادَ أَلَا يَقُولُ: كَانَ لَهُمْ
يَا صَاحِبِ الْمَنْجَنِيقِ مَا فَعَلَ
كَيْانَ هَوَاهُ سَوْيَ الَّذِي أَمْرَأَ
هِيَهَاتٌ أَنْ يَغْلُبَ الْهَوَى الْقَدْرَا
كَفَاكَ؟ لَمْ تُبْقِيَا وَلَمْ تَذْرَا
أَمْرًا، فَلَمْ يَدْرِ مَا بِهِ أَمْرًا]
أَرَادَ كِيلَا يَفُوتُه خَبَرٌ
رَاحَ قَتِيَّلًا وَخَلَفَ الْخَبْرَا
وَقَدْ رَأَيْتَ الْقَتِيَّلَ إِذْ قَبَرَا

فلمما ضاق الأمر بالأمين في أزق الجند ضرب آنية الذهب والفضلة سرّاً، وأعطي
رجاله، وتحيز إلى طاهر الحرية وغيرها من الأرضين مما يلي باب الأنبار، وباب
حرب، وباب قطربيل، فصارت الحرب في وسط الجانب الغربي، وعملت المنجنيقات
بين الفريقين، وكثُر الحريق والهدم ببغداد والكرخ وغيره من الجانبين، حتى درست
محاسنها، واشتد الأمر، وتقل الناس من موضع إلى موضع، وعم الخوف، فقال
الشاعر:

أَلَمْ تَكُونِي زَمَانًا قَرَّةَ الْعَيْنِ؟
وَكَانَ مَسْكُنَهُمْ زِينًا مِنَ الزَّيْنِ؟
مَاذَا لَقِيتُ بِهِمْ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ؟
إِلَّا تَحَدَّرَ مَاءُ الدَّمْعِ مِنْ عَيْنِي
وَالدَّهْرِ يَصْدِعُ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
مِنْ ذَا أَصَابَكِ يَا بَغْدَادَ بِالْعَيْنِ
أَلَمْ يَكُنْ فِيكَ قَوْمٌ كَانَ قَرْبَهُمْ
صَاحَ الزَّمَانَ بِهِمْ بَالْبَيْنِ فَانْقَرَضُوا
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ قَوْمًا مَا ذَكَرْتُهُمْ
كَانُوا فَفَرَقُهُمْ دَهْرٌ وَصَدَعُهُمْ

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين أربعة عشر شهرًا، وضاقت بغداد بأهلها، وتعطلت المساجد، وتركت الصلاة، ونزل بها ما لم ينزل بها قط مظله، مذ بناها أبو جعفر المنصور، وقد كان لأهل بغداد في أيام حرب المستعين والمعتز حرب نحو هذا من خروج العيّارين إلى الحرب [وقد اتخذوا خيلًا منهم وأمراء كالملقب بنينيه خالويم وغيرهم، يركب الواحد منهم على واحد من العيّارين وي sisir إلى الحرب] في خمسين ألف عرّة، ولم ينزل بأهل بغداد شر من هذا الحرب حرب المأمون والمخلوع، وقد استعظم أهل بغداد ما نزل بهم في هذا الوقت في سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة من خروج أبي إسحاق المتقى لله عنهم، وما كان قبل هذا الوقت من البريديين، وابن رائق وتوزون التركي، وما دفعوا إليه من الوحشة بخروج أبي محمد الحسن بن أبي الهيجاء

عبد الله بن حمدان الملقب بناصر الدولة، وأخيه علي بن عبد الله الملقب بسيف الدولة عليهم، وبعد العهد مما حل بالمنازل بها، وطول السنين، وغيبة ذلك عنهم وبعدهم منه، وتقدم مثل أولئك العيارين الذين كانوا في ذلك العصر، واشتد الأمر بين المأمونية وال العراة وغيرهم من أصحاب المخلوع، وَحُوصِرَ محمد في قصره من الجانب الغربي، فكان بينهم في بعض الأيام وقعة تفائي فيها خلق كثير من الفريقين، فقال في ذلك حُسين الخليع:

لنا النصر بعون الله والكرّة لا الفرّة
ولسلمراقي أعدائك يَوْمُ الشّوء والبرّة
وكأس تلفظ الموت كريه طعمها مرّة
سَقَوْنَا وسقيناهم ولكن لهم أخرى
أمين الله ثق بالله تُعطَ الصبر والثبات
كل الأمر إلى الله كَلَّاكَ الله ذو القدرة
كذاك الحرب أحياناً علينا ولنا مرّة

وقعة دار الرقيق

وكانت وقعة أخرى عظيمة بشارع دار الرقيق هلك فيها خلق كثير، وكثير القتل في الطرق والشوارع، ينادي هذا بالمؤمن والآخر بالمخلوع، ويقتل بعضهم بعضاً، وانتهت الدور، فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة بما يسلم معه إلى عسكر طاهر فيأمان على نفسه وماليه، وفي ذلك يقول الشاعر:

بَكَتْ عيّني عَلَى بغداد لما
شَبَدَّلنا هموماً من سرور
أصابتنا من الحُسَادِ عين
فقوم أحرقوا بالنار قصراً
وصائحة تنادي: يا صاحبي
وَحَوْرَاءَ المدامع ذات ذلٌّ
تنادي بالشفيق، فلا شفيق
وقوم أخرجوا من ظل دُنياً
ومفترب بعيد الدار مُلْقى
توسّطَ من قتالهم جميعاً

فلا ولد يقيم على أبيه وقد هرب الصديق عن الصديق
ومهما أنس من شيء تولى فإنه ذاكر دار الرقيق

صرامة العرادة

وسائل قائد من قُوَّاد خراسان ظاهراً أن يجعل له الحرب في يومها له فيه، ففعل طاهر له ذلك، فخرج القائد وقد حقرهم، وقال: ما يبلغ من كيد هؤلاء، ولا سلاح معهم، مع ذوي البأس والنجدة والسلاح والعدة؟ فبصر به بعض العراة وقد راما مدة طويلة حتى فنيت سهام الفائد، وظن أن العريان فنيت حجارته، فرمى بحجر بقيت في المخلة، وقد حمل عليه القائد، فما أخطأ عينه، وثناء بحجر آخر، فكاد يصرع القائد عن فرسه، ووقعت البيضة عن رأسه، فكر راجعاً وهو يقول: ليس هؤلاء بناسٍ، هؤلاء شياطين، ففي ذلك يقول أبو يعقوب الخريمي:

الْكَرْنَخُ أَسْوَاقُهُ مُعَطَّلٌ يَسْتَنِ عَيْارُهَا وَعَابِرُهَا
خَرَجَتِ الْحَرْبُ مِنْ أَرَادَلَهُمْ أَسْوَدُ غِيلٍ عَلَتْ قَسَّاَرُهَا

وقال علي الأعمى:

خَرَجَتْ هَذِهُ الْحُرُوبُ رَجَالًا لِقَحْطَانَ، لَا، وَلَا لِنَزَارٍ
مُعْشَرٌ فِي جَوَشِنَ الصَّوْفِ يَغْدُو
نَإِلَى الْحَرْبِ كَالْلِيُوتِ الضَّوَارِيِّ
لَيْسَ يَدْرُونَ مَا الْفَرَارِ إِذَا مَا أَلَّا
بَطَالَ عَادُوا مِنَ الْفَنَا بِالْفِرَارِ
وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَشَدُّ عَلَى الْأَلْفِ
وَيَقُولُ الْفَتَى إِذَا طَعَنَ الطَّعْنَةَ: خُذْهَا مِنَ الْفَتَى الْعَيَّارِ

الواقع الحاسم

واشتَدَ القتال في كل يوم، وصبر الفريقيان جميعاً، وصار حاميَّة المخلوع وجنده العرَّاة أصحابَ خوذِ الخوْص ودرقِ البواري، وضائقَ طاهرِ القوم، وأقبلَ يقطّع من بغداد الشارعَ بعد الشارع، ويصيّر في حيزه أهل تلك الناحية معاونين له في حربِه، وأقبلَ الهدم يكثرُ فيما ليس من حيزه، ثم جعلَ يحفرُ الخنادق بينه وبين أصحابِ المخلوع في مواضع الدور والمنازل والقصور، وأصحابَ طاهر في قوة وإقبال، وأصحابِ المخلوع في نقص وإدبار، وأصحابَ طاهر يهدمون، وأصحابِ المخلوع يأخذون بعض الدور من خشب وأثوابٍ وغير ذلك، وينهبون الممتع، فقالَ رجلٌ من المحمدية:

لنا كل يوم ثلعة لا نسدّها
إذا هدموا داراً أخذنا سقوفها
ونحن لأخرى مثلها نترصّع
يثيرون بالطبل القنيص، وإن بدا
لهم وجْهٌ صيدٌ من قريب تقضُوا
عليينا فما تذرِي إلى أين نشخص
وقد أفسدوا شرق البلاد وغربها
إذا حضرروا قالوا بما يبصرونَه
وإن لم يروا شيئاً قبيحاً تخرصوا
وقد رخصت قراؤنا في قتالهم وما قتل المقتول إلا المرخص

ولما نظر طاهر إلى صبر أصحاب المخلوع على هذه الحال الصعبة قطع عنهم مواد الأقوات وغيرها من البصرة وواسط وغيرهما من الطرق، فكان الخبز في حد المأمونية عشرين رطلاً بدرهم، وفي حد المحمدية رطل بدرهم، وضاقت النفوس وأيسّوا من الفرج، واشتد الجوع، وسر من سار إلى حيز طاهر، وأسف من بقي مع المخلوع، وتقدم طاهر في سائر أصحابه من مواضع كثيرة، وقد صد باب الكباش فاشتد القتال، وتبادرت الرؤوس، وعمل السيف والنار، وصبر الفريقان، وكان القتل [أعم] في أصحاب طاهر، وفني خلق من العرّاة أصحاب مخالي الحجارة والآجر وخوذ الخوص ودرق الحصر والبواري ورماح القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر، وكان ذلك في يوم الأحد؛ ففي ذلك يقول الأعمى:

وَقَعَةٌ يَوْمَ الْأَحَدِ كَانَتْ حَدِيثَ الْأَبْدِ
كَمْ جَسَدٌ أَبْصَرَتْهُ مُلْفَى وَكَمْ مِنْ جَسَدٍ
وَنَاظَرَ كَانَتْ لَهُ مَذْيَةٌ بِالرَّاصِدِ
أَتَاهُ سَهْمٌ عَائِرٌ
وَآخَرُ مُلْتَهِبٌ
وَقَائِلٌ: قَدْ قَتَلُوا
فَقَائِلٌ: أَكْثَرُ، بَلْ
مَا لَهُمْ مِنْ عَدْدٍ
قَلْتُ لَمْ طَعُونَ وَفِيهِ
مِنْ أَنْتَ؟ يَا وَيْلَكَ يَا
فَقَالَ: لَا مِنْ نَسْبٍ
وَلَا أَنَا لِلْغَيِّ قَا
وَلَا لِشَيءٍ عَاجِلٍ
يَصِيرُ مِنْهُ يَدِي

ولما ضاق بمحمد الحال واشتدَّ به الحصار أمر قائداً من قواده يقال له ذريح أن يتبع أصحاب الأموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم، وقرَّ معه آخر يعرف بالهرش، فكانا يهجمان على الناس، ويأخذان باللِّئَنَة، فاجتبا بذلك السبب أموالاً كثيرة، فهرب الناس بعلة الحج، وفرَّ الأغنياء من ذريح والهرش.

ففي ذلك يقول عليُّ الأعمى:

أظهروا الحج وما يبغونه
كم أنس أصبحوا في غبطة ركض الليل عليهم بالعطَّب
[كلَّ مَنْ زار ذريح بينه لقي الذلّ ووافاءُ الْحَرَبْ]
في شعر له طويل.

ولما عَمَّ البلاد أهل الستر اجتمع التجار بالكرخ على مكتبة طاهر أنهم ممنوعون [منه و] من الخروج إليه، ومغلوبٌ [عليهم و] على أموالهم، وأن العرَاة والباعة هم الآفة، فقال بعضهم: [إنكم] إن كاتبتم طاهراً لم تأمنوا صولة المخلوع بذلك، فدعوهם فإن الله مهلكهم، وقال قائلهم:

دعوا أهل الطريق فعن قريب تناهُم مخالفٍ
فتنهتك حجبَ أكباد شداد وشيكًا ما تصير إلى القبور
فإن الله مهلكهم جميًعاً لأسباب التمرد والفسور

وثارت العرَاة ذات يوم في نحو مائة ألف بالرماح والقصب والطرادات [من] القراطيس على رؤوسها، ونفخوا في [بوقات] القصب وقرون البقر، [ونهضوا مع] غيرهم من المحمدية، وزحفوا من مواضع كثيرة نحو المأمونية، فبعث إليهم طاهر بعدة قُوَّاد وأمراء من وجوه كثيرة، فاشتد الجلاَد، وكثُر القتل، وكانت للعراة على المأمونية إلى الظهر، وكان يوم الاثنين، ثم ثارت المأمونية على العرَاة من أصحاب محمد؛ فغرق منهم وقتل وأحرق نحو عشرة آلاف، وفي ذلك يقول [الشاعر] الأعمى:

بِالأَمِيرِ الطَّاهِرِ بْنِ الْحَسِينِ صَبَحُونَا صَبِيحةَ الاثْنَيْنِ
جَمَعُوا جَمِيعَهُمْ فَشَارُوا إِلَيْهِمْ كُلُّ صُلْبِ الْقَنَاءِ وَالسَّاعِدِينَ
يَا قَتِيلَ الْعَرَاةِ مُلْقَى عَلَى الشَّطَّ تَطَاهُ الْخَيُولُ فِي الْجَانِبِينَ
[مَا الَّذِي كَانَ فِي يَدِيكِ إِذَا مَا اصْطَلَعَ النَّاسُ أَيَّةَ الْخَلْتَيْنِ]
أَوْ وَزِيرٌ أَمْ قَائِدٌ، بَلْ بَعِيدٌ أَنْتَ مِنْ ذِينَ مَوْضِعِ الْفَرْقَدِيْنِ
كُمْ بَصِيرٌ غَدَا بَعِينِيْنِ كَيْ يَنْظُرَ مَا حَالَهُمْ فَرَاحَ بَعِينَ

[ليس يُخْطُونَ مَا يَرِيدُونَ، مَا إِنْ يَقْصِدُوا مِنْهُمْ سُوَى النَّاظِرِينَ]
 واشتد الأمر بمحمد المخلوع، فباع ما في خزائنه سراً، وفرق ذلك أرزاقاً فيمن معه، ولم يبق معه ما يعطيهم، وكثرت مطالبهم إياه، وضيق عليه ظاهر، وكان نازلاً بباب الأنبار في بستان هنالك، فقال محمد: وددت أن الله قتل الفريقين جميعاً؛ فما منهم إلا عدو: مَنْ مَعِيْ، وَمَنْ عَلَيْ؛ أما هؤلاء في يريدون مالي، وأما أولئك في يريدون نفسي،
 وقال:

تَفَرَّقُوا وَذَعْوَنِي يَا مِعْشَرَ الْأَعْوَانِ
 فَكَلَمُ ذُو وَجْهٍ كَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ
 وَمَا أَرَى غَيْرَ إِفْلَكَ وَتُرَهَّاتُ الْأَمَانِي
 وَلَسْتُ أَمْلَكُ شَيْئاً فَسَائِلُوا إِخْوَانِي
 فَالْوَيْلُ فِيمَا دَهَانِي مِنْ نَازِلِ الْبَسْتَانِ

يعني طاهر بن الحسين.

ولما اشتَدَّ الأمر عليه [وَجَدَ بِهِ] ونزل هرثمة بن أعين بالجانب الشرقي، وظاهر بالجانب الغربي، وبقي محمد في مدينة أبي جعفر، شاور من حضر [هـ] من خواصه في النجاة بنفسه؛ فكل أذلى برأي، وأشار بوجهه؛ فقال قائل منهم: تكاتب ابن الحسين وتحلف له [بِمَا يُثْقَبُ بِهِ] أنت مفوض أمرك إليه، لعله أن يجيئك إلى ما تريده منه، فقال: ثكلتك أمرك! لقد أخطأت الرأي في طلبي المشورة متك، أما رأيت ثار رجل لا يؤول إلى عذر؟ وهل كان المأمون لو اجتهد لنفسه وتولى الأمر برأيه بالغاً عُشرَ ما بلغه له طاهر؟ ولقد دَسَّست وفحصت عن رأيه؛ فما رأيته يطلب [إِلَّا] تأنيل المكارم وينعد الصيت والوفاء، فكيف أطمع في استذلاله بالأموال وفي غدره [وَالاعْتِمَادُ فِي عَقْلِهِ]؟ ولو قد أجب إلى طاعتي وأنصرف إلى، ثم ناصبني جميع الترك والدليل ما اهتممت بمناصبهم، ولكنك كما قال أبو الأسود الدؤلي في الأزد عند إجاراتها زياد ابن أبيه:

فَلَمَّا رَاهُمْ يَطْلَبُونَ وَزِيرَهُ وَسَارُوا إِلَيْهِ بَعْدَ طَوْلِ تَمَادٍ
 أَتَى الْأَزْدَ إِذْ خَافَ التَّيْ لَا بَغَالَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ الرَّأْيُ رَأْيُ زَيَادٍ
 فَقَالُوا لَهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا أَصْبَبَتْ فَكَاشِفُ مِنْ أَرْدَتْ وَعَادَ
 فَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ عَدُواً، وَلَوْ مَا لَوْا بِقُوَّةٍ عَادَ

والله لوددت أنه أجباني إلى ذلك فأبنته خرائني، وفُوِّضَتْ إِلَيْهِ ملكي، ورضيت بالمعاش تحت يديه، ولا أظنتني مُفْلِتةً، ولو كانت [لي] ألف نفس. فقال السندي: صدقت [والله] يا أمير المؤمنين، ولو أنك أبوه الحسين بن مصعب ما استبقاك، فقال محمد: وكيف لنا بالخلاص إلى هرثمة ولا ت حين مناص؟ وراسل هرثمة، ومال إلى جنبته، فوعده هرثمة بكل ما أحب، وأنه يمنعه ممن يريد قتله؛ وبلغ ذلك طاهراً، فاشتد عليه وزاد غيظه وحنته، ووعده هرثمة أن يأتيه في حرّاقة إلى مشرعة باب خراسان فيصير به إلى عسکره [هو] ومن أحبّ، فلما همَّ محمد بالخروج في تلك الليلة - وهي ليلة الخميس، لخمس ليالٍ يقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة - دخل إليه الصعاليك من أصحابه، وهم فتيان الأبناء والجند، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، ليس معك من ينصحك، ونحن سبعة آلاف رجل مقاتلة، وفي إصطبلك سبعة آلاف فرس [يحمل كل منا على فرس] وفتح بعض أبواب المدينة، وتخرج في هذه الليلة، فما يقدِّم علينا أحد إلى أن نصير إلى بلد الجزيرة وديار ربعة، فنجبي الأموال، ونجتمع الرجال، ونتوسط الشام، وندخل مصر، ويكثر الجيوش والمآل، وتعود الدولة مقبلة جديدة، فقال: هذا والله الرأيُّ، فعزم على ذلك وهوَّ به وجَّهَ إليه، وكان الطاهر في جوف دار الأمين غلماً وخدم من خاصة الأمين يبعثون إليه بالأخبار ساعة فساعة، فخرج الخبر إلى طاهر من وقته، فخف طاهر، وعلم أنه الرأي إن فعله، فبعث إلى سليمان بن أبي جعفر وإلى ابن نهيك والسندي بن شاهك - وكانوا مع الأمين - إن لم تزيلوه عن هذا الرأي لأخرَبَنَ [دياركم و] ضياعكم ولا زيلَنَ نعمكم ولا تلقنَ نفوسكم، فدخلوا على الأمين في ليلتهم، فازْلَوه عن ذلك الرأي، وأتاه هرثمة في الحرّاقة إلى باب خراسان، ودعا الأمين بفرس يقال له الزهيري، أغر محجل أدهم ممحذف، ودعا الأمين بابنه موسى وعبد الله فعائقهما وشممها وبكي، وقال: الله خليفتي عليكم، فلست أدرِي أَلْتَقِي معكم بما بعدها أو لا؟ وعليه ثياب بيض وطيسان أسود وقدَّمه شمعة، حتى أتى بباب خراسان إلى المشرعة والحرّاقة قائمة فنزل ودخل الحرّاقة، فقبل هرثمة بين عينيه؛ وقد كان طاهر نمي إليه خروجه، فبعث بالرجال من الهرَوة وغيرهم والملاحين في الزوارق على الشط، دفعت الحرّاقة، ولم يكن مع هرثمة عدة من رجاله؛ فأتى أصحاب طاهر عَرَةً فغاصوا تحت الحرّاقة فانقلب بمَنْ فيها، فلم يكن له هرثمة شاغل إِلَّا [أنْ نجا] بِحُشَاشَةِ نفسه، فتعلق بزورق وصعد إليه من الماء ومضى إلى عسکره من الجانب الشرقي، وشق محمد ثيابه عن نفسه وسبَّحَ فوق نحو السراة إلى عسکر قرين الديرانِي غلام طاهر، فأخذَه بعض السواس حين شم منه رائحة المسك والطيب، فأتى به [قريناً] فاستأدنَ في طاهراً، فأتاه الإذن في الطريق وقد حمل إلى طاهر، فقتل في الطريق وهو يصيح: «إِنَّا لِلَّهِ وَلَنَا إِلَيْهِ»

رَجِيعُونَ》 [البقرة: ١٥٦] ، أنا ابن عم رسول الله ﷺ وأخو المأمون ، والسيوف تأخذه حتى يَرَدَ ؛ وأخذوا رأسه ، وكانت ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

وذكر أحمد بن سلام - وقد كان مع الأمين في العَرَاقَةِ حين انقلبت - فسبع فقبض عليه بعض أصحاب طاهر وأراد قتله ، فأرغبه في عشرة آلاف درهم ، وأنه يحملها إليه في صبيحة تلك الليلة ، قال : فاذْخِلْنِي بيتاً مظلماً فَيَئِنَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ دَخَلْتُ عَلَيْ رَجُلَ عَزِيزَانَ عَلَيْهِ سَرَاوِيلَ وَعَمَامَةَ قَدْ تَلَثَّمَ بِهَا ، وَعَلَى كَنْفِهِ حِرْقَةً ، فَجَعَلُوهُ مَعِيَ ، وَتَقَدَّمُوا إِلَيَّ مَنْ فِي الدَّارِ فِي حَفْظَنَا ، فَلَمَّا اسْتَقَرَ فِي الدَّارِ حَسَرَ الْعَمَامَةَ عَنْ وَجْهِهِ فَإِذَا هُوَ مُحَمَّدٌ ، فَاسْتَعْبَرَتْ وَاسْتَرْجَعَتْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنِ نَفْسِي ، وَجَعَلَ يَنْظَرُ إِلَيَّ ثُمَّ قَالَ : أَيُّهُمْ أَنْتَ؟ قَالَ : أَنَا مُولَاكَ يا سَيِّدِي ، قَالَ : وَأَيُّ الْمَوَالِي أَنْتَ؟ قَالَ : أَحْمَدُ بْنُ سَلاَمَ ، قَالَ : أَعْرَفُكَ بِغَيْرِهِ ، كَنْتَ تَأْتِينِي بِالرَّزْقَ؟ قَالَ : نَعَمْ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَحْمَدَ ، قَالَ : لَيْكَ يا سَيِّدِي ، قَالَ : إِذْنُ مِنِي وَضُمِّنَي إِلَيْكَ فَإِنِّي أَجِدُ وَحْشَةً شَدِيدَةً ، قَالَ : فَضَمَّمْتَهُ إِلَيَّ ، فَإِذَا قَلْبِهِ يَخْفَقُ خَفْقَانًا شَدِيدًا ، ثُمَّ قَالَ : أَخْبَرْنِي عَنْ أَخِي الْمَأْمُونِ أَحَيْ هُوَ؟ قَالَ لَهُ : فَهَذَا الْقَتَالُ عَنْ إِذْنِ؟ قَالَ : قَبْحُهُمُ اللَّهُ أَذْكُرُوا أَنَّهُ مَاتَ ، قَالَ : قَبْحُ اللَّهِ وَزَرَاعُكَ! فَهُمْ أُورْدُوكُ هَذَا الْمَوْرِدَ ، فَقَالَ لَيِّ : يَا أَحْمَدَ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ عِتَابٍ؟ فَلَا تَقْلِ فِي وَزَرَائِي إِلَّا خَيْرًا فَمَا لَهُمْ ذَنْبٌ ، وَلَسْتُ بِأَوْلِ مَنْ طَلَبَ أَمْرًا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، قَالَ : الْبَسْ إِزَارِي هَذَا وَازْمَ بِهِذِهِ الْخَرْقَةِ الَّتِي عَلَيْكَ ، فَقَالَ : يَا أَحْمَدَ مَنْ كَانَ حَالَهُ مِثْلُ حَالِي فَهَذَا لَهُ كَثِيرٌ ، ثُمَّ قَالَ لَيِّ : يَا أَحْمَدَ مَا أَشْكُ أَنَّهُمْ سَيَحْمِلُونِي إِلَى أَخِي أَفْتَرَى أَخِي قَاتَلَنِي؟ قَالَ : كَلَّا ، إِنَّ الرَّحْمَةَ سَتَعْطِفُهُ عَلَيْكَ ، فَقَالَ لَيِّ : هَيَّاهاتٌ؟! الْمُلْكُ عَقِيمٌ لَا رَحْمَ لَهُ ، فَقَلَتْ لَهُ : إِنَّ أَمَانَ هَرْثَمَةَ أَمَانُ أَخِيكَ ، قَالَ فَلَقْتَهُ الْإِسْتَغْفَارَ وَذَكْرَ اللَّهِ ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ فَتَحَ بَابَ الْبَيْتِ فَدَخَلَ عَلَيْنَا رَجُلٌ عَلَيْهِ سَلاَحٌ فَاطَّلَعَ فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ مُسْتَبْشِلًا لَهُ ، فَلَمَّا أَثْبَتَهُ مَعْرَفَةً خَرَجَ وَأَغْلَقَ الْبَابَ ، وَإِذَا هُوَ مُحَمَّدُ الطَّاهِرِي ، قَالَ : فَعْلَمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ مَقْتُولٌ ؛ وَقَدْ كَانَ يَقِي عَلَيِّ مِنْ صَلَاتِي الْوَتَرِ ، فَخَفَقْتُ أَنْ أُقْتَلَ وَلَمْ أُوتِرْ ، فَقَمْتُ لِأَوْتِرَ ، فَقَالَ لَيِّ : يَا أَحْمَدَ لَا تَبْعِدْ مِنِي وَدَقَّ بَابَ الدَّارِ ، فَفَتَحَ الْبَابَ إِذَا قَوْمٌ مِنَ الْعَجمِ بِأَيْدِيهِمُ السَّيُوفُ مُضَلَّةً ، فَلَمَّا أَحْسَسْ بِهِمْ مُحَمَّدٌ قَامَ قَائِمًا وَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَجِيعُونَ》 [البقرة: ١٥٦] ، ذَهَبَتْ وَاللَّهُ نَفْسِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَمَا مِنْ حِيلَةٍ؟ أَمَا مِنْ مُغِيَثٍ؟ وَجَاؤُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى بَابِ الْبَيْتِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ ، وَجَعَلُ بَعْضُهُمْ يَقُولُ [البعض] : تَقْدِمْ ، وَيَدْفَعُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ؛ فَأَخْذَ مُحَمَّدَ بِيَدِهِ وَسَادَةً وَجَعَلَ يَقُولُ : أَنَا بْنُ عَمِ رَسُولِ اللَّهِ ، أَنَا بْنُ هَارُونَ الرَّشِيدِ ، أَنَا أَخُو الْمَأْمُونِ ، اللَّهُ فِي دَمِيِّ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُولَى لَطَاهِرٍ فَصَرَبَهُ [بِالسَّيْفِ] ضَرِبَةً [وَقَعَتْ] فِي

مقدم رأسه، وضرب محمد وجهه بالوسادة التي كانت في يده، واتكأً عليه ليأخذ السيف من يديه، فصاح بالفارسية: قتلني الرجل، فدخل منهم جماعة فنحَّسَ أحدهم بسيفه في خاصرته، وَكَبُوْه فذبحوه من قَفَاه، وأخذوا رأسه، ومضوا به إلى طاهر.

وقد قيل في كيفية قتله غير هذا، وقد أتينا على التنازع في ذلك في الكتاب الأوسط.

وأئى بخادمه كوثر [وكان حَظِيَّة، معه الخاتم والبَزْدُ والسيف والقضيب، فلما أصبح طاهر أمر برأسه] فنصب على باب من أبواب بغداد يعرف بباب الحديد نحو قُطْرِيَّلَ في الجانب الغربي، إلى الظهر، ودفنت جثته في بعض تلك البساتين.

ولما وضع رأس الأمين بين يدي طاهر قال: [اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنتزع الملك من من تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيده الخير، إنك على كل شيء قدير] وَحُمِّلَ الرأس إلى خراسان إلى المأمون في منديل والقطن عليه وَالْأَطْلِيَّةُ، فاسترجع المأمون وبكي واشتَدَّ تأسفه عليه؛ فقال له الفضل بن سهل: الحمد لله يا أمير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة؛ فإنَّ مُحَمَّداً كان يتمنى أن يراك بحيث رأيته، فأمر المأمون بنصب الرأس في صحن الدار على خشبة، وأعطى الجندي، وأمر كل من قبض رزقه أن يلعنه، فكان الرجل يقبض ويلعن الرأس، فقبض بعض العجم عَطَاءَه، فقيل له: العن هذا الرأس، فقال: لعن الله هذا ولعن والديه [وَمَا ولَدَا] وأدخلهم في كذا وكذا من أمهاتهم، فقيل له: لعنت أمير المؤمنين، وذلك بحيث يسمعه المأمون منه [فَتَبَسَّمَ] وتغافل، وأمر بحَطِّ الرأس، وترك ذلك المخلوع، وطيب الرأس وجعله في سَقْطٍ، ورَدَّه إلى العراق فدفن مع جشه، ورحم الله أهل بغداد وخلصهم مما كانوا فيه الحصار والجزع والقتل، ورثاه الشعراء، وقالت زبيدة أم جعفر [والدته]:

أودي بالفلك من لم يترك الناسا
فامنح فؤادك عن مقتولك الياسا
لَمَّا رأيْتُ المَنَائِيَا قد قَصَدْنَ لَه أَصَبْنَ منه سواد القلب وَالرَّاسَا
فبَثَ متكثَّاً أَرْعَى الشُّجُومَ لَه إِخَالُ سُنْتِه في الليل قِرْطَاسَا
وَالْمَوْتُ دَانِ لَه، وَالْهَمُ قَارَنَه حتى سَقَاه التي أودي بها الكَاسَا
رَزْئَتِه حين بَاهِيَّتُ الرِّجَالَ بِه وقد بنيت به للدهر آسَا
فليس مَنْ مات مَرْدُوداً لنا أبداً حتى يَرُدَّ علينا قبله نَاسَا

ورثَتْه زوجته لُبَابَة بنت علي بن المهدى، ولم يكن دخل بها، فقالت:

أَبْكِيَكَ لَا لِنَعِيمِ الْأَتَيْنِ بل لِلْمَعَالِيِّ وَالسِّيفِ وَالْمَرْسِ

أبكي على سيد فُجِّعْتَ به أَرْمَلَنِي قَبْلَ لَيْلَةِ العِرْسِ
يَا مَالِكًا بِالْعَرَاءِ مُطَرَّحًا خَانْتَهُ أَشْرَاطُهُ مَعَ الْحَرْسِ
ولما قتل محمد دخل إلى زبيدة بعض خدمها، فقال [لها]: ما يجلسك وقد قتل
أمير المؤمنين محمد؟! فقالت: وَيْلَكَ! وما أصنع؟ فقال: تخرجين فتطلين بثأره كما
خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: اخْسأْ لَأْمَ لَكَ، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة
الأبطال؟ ثم أمرت بشبابها فسودت، ولبست مسحًا من شعر، ودعت بدواة وقرطاس،
وكتب إلى المأمون:

لخِيرِ إِمَامٍ قَامَ مِنْ خَيْرٍ عَنْصِرٌ
وَوَارَثَ عَلَمَ الْأُولَئِينَ وَفَخَرَهُمْ
كَتَبْتُ وَعِينِي تَسْتَهَلُّ دَمْوَعَهَا
أَصِبْتُ بِأَدْنِي النَّاسِ مِنْكَ قَرَابَةً
أَنِّي طَاهِرٌ، لَا طَاهِرٌ اللَّهُ طَاهِرًا،
فَأَبْرَزَنِي مَكْشُوفَةً الْوَجْهَ حَاصِرًا
وَمَنْ زَالَ عَنْ كَبْدِي فَقَلَّ تَصْبِيرِي
وَمَا طَاهِرٌ فِي فَعْلِهِ بِمُطَهِّرٍ
وَأَنْهَبَ أَمْوَالِي وَأَخْرَبَ أَدْوَرِي
وَمَا نَالَنِي مِنْ ناقصِ الْخَلْقِ أَغْوَرَ
إِنَّ كَانَ مَا أَسْدَى لِأَمْرٍ أَمْرَتَهُ صَبَرْتُ لِأَمْرٍ أَمْرَتَهُ

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال: اللهم إني أقول كما قال أمير المؤمنين علي
ابن أبي طالب كرم الله وجهه لما بلغه قتل عثمان: «والله ما قلت، ولا أمرت، ولا
رضيت» اللهم جَلَّنِي قلب طاهر حزناً.

قال المسعودي: وللمخلوع أخبار وسير غير ما ذكرنا قد أتينا عليها في كتابينا
في «أخبار الزمان» وفي الكتاب الأوسط، فأغنى ذلك عن ذكرها في هذا الكتاب، والله
سبحانه - ولي التوفيق.

قد تم - بحمد الله وحْسِنْ توفيقه - الجزء الثالث من
كتاب «مروج الذهب» للمسعودي، بعد مراجعته أدق
مراجعة وأوفاها، ويليه - إن شاء الله تعالى - الجزء
الرابع، مفتتحاً بذكر خلافة المأمون بن هارون الرشيد،
نسأل الله أن يمن بإنعامه والمعونة فيه، إنه ولي ذلك.

الفهرس	
ذكر خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهمَا!	٥
موجز	٥
ذكر لمع من أخباره وسيره، رضي الله عنهمَا!	٦
اسم الحسن رضي الله عنه	٦
ذكر الذي سمه	٦
رثاء ابن الحنفية للحسن	٧
ومن رثاء ابن الحنفية للحسن	٧
سرور معاوية بموت الحسن	٨
خطبة للحسن	٩
خطبة أخرى	٩
ذكر خلافة معاوية بن أبي سفيان	١١
موجز	١١
ذكر لمع من أخباره وسيره ونواذر من بعض أفعاله	١٢
مقتل حجر الكندي	١٢
عدي بن حاتم ومعاوية	١٣
بين عمرو بن عثمان وأسامة عند معاوية	١٣
إحراق زياد بأبي سفيان	١٤
بين معاوية وعبد الله بن هاشم المرقال	١٦
بين معاوية ومحمد بن أبي بكر	١٧
من معاوية إلى علي	١٩
جواب علي لمعاوية	١٩
بين سعد ومعاوية	٢٠
بين معاوية وأبي الطفيل الكناني	٢١
بين معاوية وقيس بن سعد	٢١
من مناقب قيس بن سعد	٢٢
بين معاوية وعمرو	٢٢

٢٢	العباس بن ربيعة
٢٥	بسر بن أرطاة
٢٦	بين معاوية وعمرو بن العاص ووردان
٢٦	وفاة عمرو بن العاص
٢٦	تركته
٢٧	أبو أيوب الأنصاري
٢٧	المغيرة بن شعبة
٢٨	موت زياد
٢٩	البيعة ليزيد
٣١	ذكر جمل من أخلاقه و سياساته و طرائف من عيون أخباره
٣١	من أخلاق معاوية و عاداته
٣٢	من دهاء معاوية
٣٣	من غفلة أهل الشام وال伊拉克
٣٤	متطلب في عهد الرشيد
٣٤	من أخلاق العامة
٣٥	كلام في العادة
٣٦	عقيل بن أبي طالب و معاوية
٣٦	وصف بني صوحان
٣٧	من صعصعة إلى عقيل
٣٧	بين علي ووجوه أصحابه
٣٩	معاوية وجماعة من أصحاب علي
٣٩	صعصعة بن صوحان عند معاوية يصف له أهل البلاد
٤٠	صعصعة أيضاً
٤١	من أخبار صعصعة
٤٣	أبو أيوب وصعصعة
٤٤	من قول علي في ربيعة
٤٤	معاوية وجحيل بن كعب
٤٥	معاوية عند موته
٤٧	ذكر الصحابة ومدحهم وعلي، والعباس، وفضلهما
٤٧	معاوية وعبد الله بن العباس

وصف أبي بكر ٤٧	
وصف عمر ٤٧	
وصف عثمان ٤٧	
وصف علي ٤٨	
وصف العباس ٤٨	
وصف الصحابة على ٤٨	
ذكر أيام يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ٥٠	
موجز ٥٠	
ذكر مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب <small>عليه السلام</small> ومن قتل معه من أهل بيته وشيعته ٥١	
أهل الكوفة يدعون الحسين ٥١	
مسلم بن عقيل يتقدم إلى الحسين إلى الكوفة ٥١	
ابن عباس ينصح الحسين ٥١	
الحسين وابن الزبير ٥٢	
نصيحة أبي بكر بن هشام ٥٢	
يزيد يستعد ٥٣	
أول الغدر ٥٣	
قتل مسلم بن عقيل ٥٤	
مقتل هانئ بن عمرو ٥٥	
الحسين يقاتل جيش ابن زياد ٥٦	
مقتل الحسين ٥٦	
من قتل مع الحسين ٥٦	
ذكر أسماء ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه! ٥٨	
أسماء ولد علي وأمهاتهم ٥٨	
ذو العقب من أولاد علي ٥٨	
رثاء قتيل الطف ٥٩	
ذكر لمع من أخبار يزيد، وسيره ونواتر من (بعض) أفعاله ٦٠	
خروج يزيد لوفود العرب ٦٠	
بين يزيد وعبد الملك ٦١	
فسوق يزيد وعماله ٦١	
ما قيل في مقتل الحسين ٦٢	

أهل المدينة وعمال يزيد	٦٣
صنع مسلم بن عقبة بالمدينة	٦٣
وقعة الحرة	٦٣
رمي الكعبة بالمجانق	٦٥
ذكر أيام معاوية بن يزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم والمخтар بن أبي عبيد، وعبد الله بن الزبير وللع من أخبارهم، وبعض ما كان في أيامهم	٦٦
موجز أخبار معاوية بن يزيد	٦٦
المختار في الكوفة	٦٧
حال ابن الزبير	٦٨
ابن الزبير وأخوه عمرو	٦٨
ابن الزبير والحسن بن محمد ابن الحنفية	٦٨
ابن الزبير وأآل بيت الرسول	٦٩
الكيسانية وقولهم في ابن الحنفية	٧٠
بين ابن عباس وابن الزبير	٧١
بين ابن الحنفية وابن الزبير	٧٢
ابن الزبير يتقصى ابن العباس	٧٢
بين ابن الزبير والحسين بن نمير	٧٣
ابن الزبير يبني الكعبة على قواعد إبراهيم	٧٤
عبيد الله بن زياد والخلافة	٧٤
الكوفة تأبى الانقياد له	٧٥
تدبير مروان بن الحكم	٧٥
البيعة لمروان	٧٦
لقاء مروان والضحاك بن قيس	٧٦
موت مروان بن الحكم	٧٨
ترجمة مروان	٧٩
ولد يزيد بن معاوية	٧٩
ولد معاوية	٧٩
ذكر أيام عبد الملك بن مروان	٨٠
موجز	٨٠
ذكر جمل من أفعاله، وسيره وللع مما كان في أيامه، ونواتر من أخباره	٨١

٨١	منادمة الشعبي لعبد الملك
٨١	أدب النديم
٨١	مهر الرياح
٨١	حركة للشيعة
٨٢	موقع عين الوردة
٨٤	وصف القرآن لعلي كرم الله وجهه
٨٥	مقتل عبد الله بن زياد
٨٥	اضطراب في كل حية
٨٥	من سياسة عبد الملك
٨٦	بين مصعب والمختار والثقفي ومقتل المختار
٨٧	وفاة عبد الله بن العباس
٨٨	مقتل عمرو بن سعيد الأشدق
٩٤	أربع رؤوس في مكان واحد
٩٤	الناس يباعون عبد الملك
٩٤	روح بن زنباع وبشر بن مروان
٩٥	عبد الله بن الزبير ينعي أخاه مصعباً
٩٦	الحجاج في مكة
٩٦	ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر
٩٨	ولاية الحجاج الحجاز
٩٨	جابر بن عبد الله
٩٩	محمد ابن الحنفية
٩٩	ملك الروم والشعبي
١٠٠	وصف معاوية عبد الملك
١٠٠	عبد الملك وعامل له قبل هدية
١٠٠	عبد الملك وعمرو بن بلايل يصلح بينه وبين زوجته
١٠١	الحجاج يصف الفتنة
١٠٢	كتاب من عبد الملك إلى الحجاج لم يفهمه
١٠٢	عبد الملك يحج
١٠٤	عبد الملك الهمذاني وسليمان بن المنصور
١٠٦	ذكر طرف من أخبار الحجاج، وخطبه وما كان منه في بعض فعاله

سبب ولوح الحجاج بسفك الدماء	١٠٦
عبد الملك يولي المهلب قتال الخوارج	١٠٦
عبد الملك يولي الحجاج العراق	١٠٧
خطبه الحجاج مقدمه العراق	١٠٧
خروج ابن الأشعث	١١٠
وقائع دير الجمامجم وقتل ابن الأشعث	١١١
من عبد الملك إلى الحجاج	١١٢
جواب الحجاج	١١٣
الحجاج يتلمس محدثاً مؤنساً	١١٤
بعض ما اتفق عليه الخوارج وما اختلفوا فيه	١١٥
ذكر بعض أخبار الخوارج	١١٦
الحجاج وشبيب الخارجي	١١٦
غزالة امرأة شبيب	١١٧
ابن القرية	١١٧
ليلي الأخيلية والحجاج	١١٨
بعض عادات العرب	١١٨
خطبة علي بن أبي طالب يعاتب أصحابه	١١٨
الحجاج يسأل عن النعمة	١١٩
خطبة للحجاج وقد أرجف الناس بموته	١١٩
خطبة للحجاج يهدد ويترعد	١٢٠
الحجاج وعبد الله بن هانئ	١٢٠
الحجاج والشعبي	١٢١
الحجاج يريد الحج	١٢١
عبيد بن أبي المخارق يتولى عملاً ويطلب المشورة	١٢٢
الغضبان بن القبعشري	١٢٢
وصف البصرة والكوفة	١٢٥
الحجاج يصف الدنيا	١٢٥
رسول المهلب إلى الحجاج	١٢٥
الحجاج وجرير بن الخطفي	١٢٦
بين الحجاج وأعشى همدان	١٢٧

ذكر أيام الوليد بن عبد الملك ١٣٠	موجز ١٣٠
ذكر لمع من أخباره، وسيره وما كان من الحجاج في أيامه ١٣١	خلق الوليد وولده ١٣١
بناء مسجدي دمشق والمدينة ١٣١	بين الوليد والحجاج ١٣٢
بين الحجاج وأم البنين ١٣٢	موت علي بن الحسين السجاد ١٣٣
موت عبد الملك بن مروان ١٣٣	وصية عبد الملك عند موته ١٣٤
موت عبيد الله بن العباس ١٣٤	موت عبيد الله بن العباس ١٣٤
عبيد الله بن العباس وبسر بن أرطاة ١٣٥	موت عبد الله بن عتبة بن مسعود الهنلي ١٣٦
مقتل سعيد بن جبير ١٣٦	بين الوليد وأخيه سليمان ١٣٦
وصية عبد الملك لأولاده ١٣٧	موت الحجاج ١٣٨
موت عبد الله بن جعفر ١٣٨	موت عبد الله بن عبد الملك إلى الحجاج لم يفهمه ١٤٠
كتاب من عبد الملك إلى المهلب ١٤٠	كتاب من الحجاج إلى المهلب ١٤٠
ليل الأخيلية والحجاج ١٤٠	لليل الأخيلية والحجاج ١٤٠
ابن عم للحجاج يطلب منه أن يوليه فيمتحنه فيوليه فينجح ١٤١	إبراهيم التميمي في سجن الحجاج ١٤٢
الحجاج يسأل ابن القرية عن النساء ١٤٢	الحجاج ١٤٢
ذكر أيام سليمان بن عبد الملك ١٤٣	ذكر أيام الوليد بن عبد الملك ١٤٣
موجز ١٤٣	ذكر لمع من أخباره، وسيره ١٤٤
خطبته أول ما ولى الخلافة ١٤٤	خالد القسري في مكة ١٤٤
كان سليمان أكولاً ١٤٤	كان سليمان أكولاً ١٤٤

١٤٥	لبس سليمان فأعجبته نفسه
١٤٦	بين سليمان وكاتب الحجاج
١٤٦	بين سليمان وأبي حازم الأعرج
١٤٧	بين سليمان وأعرابي
١٤٧	سليمان يصف معاوية
١٤٨	خالد القسري في العراق
١٤٨	بين سليمان وعمر بن عبد العزيز
١٤٨	سليمان على الضد من الوليد
١٤٩	غضب سليمان على خالد القسري
١٤٩	بعض الكتاب ينعي سليمان
١٥٠	ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم
١٥٠	موجز
١٥١	ذكر لمع من أخباره، وسيره، وزهده (رضي الله عنه)
١٥١	كيف آلت الخلافة لعمر
١٥١	خلق عمر ودينه
١٥٢	بين السدي وعمر
١٥٢	من طاوس إلى عمر
١٥٢	أول خطبة لعمر
١٥٢	بين عمر وعامله على المدينة
١٥٢	خطبة أخرى
١٥٣	تقدير ملك الروم لعمر
١٥٣	وصية الأعرج
١٥٣	توقع لعمر إلى عامل له
١٥٣	زهده بعد الخلافة
١٥٤	من مطرف إلى عمر
١٥٤	بين عمر وعبد له
١٥٤	بين عمر وغلام ورد عليه في وفد الحجاز
١٥٥	قصة جارية عند قاضي المدينة
١٥٦	بين فتى أموي وجارية لبعض قريش
١٥٧	عمر والخوارج

بعض شعراء الخوارج	١٥٩
بعض علماء الخوارج	١٥٩
رأي عمرو بن عبيد فيه	١٦٠
الفرزدق يرثي عمر	١٦٠
ذكر أيام يزيد بن عبد الملك بن مروان	١٦١
موجز	١٦١
ذكر لمع من أخباره وسيره و (جمل من) ما كان في أيامه	١٦٢
حبه سلامة القس	١٦٢
يزيد وحبابة وشعر للفند الزماني	١٦٣
موت حبابة وجزع يزيد عليها	١٦٤
يزيد بن المهلب يخرج على يزيد بن عبد الملك	١٦٤
صنيع يزيد في آل المهلب	١٦٥
بين ابن هبيرة والشعبي وابن سيرين والحسن البصري	١٦٦
بين يزيد وأخيه هشام	١٦٦
وفاة عطاء بن يسار	١٦٧
موت جماعة من العلماء	١٦٧
محمد بن سيرين ولآخرته	١٦٨
ذكر أيام هشام بن عبد الملك بن مروان	١٦٩
موجز	١٦٩
ذكر لمع من أخباره، وسيره	١٧٠
أوصافه وأخلاقه	١٧٠
استشهاد زيد بن علي	١٧٠
صنيع العباسين بقبور الأمويين	١٧١
فرق الزيدية من الشيعة	١٧٢
بين هشام ورجل من أهل حصن	١٧٣
هشام والأبرش الكلبي وجارية من جواري هشام	١٧٣
أمثلة من بخل هشام	١٧٤
السواس من بنى أمية	١٧٤
ذكر أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن (مروان)	١٧٦
موجز	١٧٦

ذكر لمع من أخباره، وسيره ١٧٧
ظهور يحيى بن زيد ومقتله ١٧٧
لهو الوليد وخلالعه ١٧٧
الوليد وشراعة بن زيد ١٧٨
من قوله في الشراب ١٧٩
سمير الوليد يتحدث عنه ١٧٩
ورث الوليد الخلاعة عن يزيد أبيه ١٧٩
فعله بالصحف وقد استفتح به ١٨٠
شعر له أخذ فيه ١٨٠
نسب أمها ١٨٠
من خواص اليشب ١٨٠
كان مغرى بالخيل ١٨١
مراتب خيل الحلبة ١٨١
وفاة أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ١٨٢
ذكر أيام يزيد وإبراهيم ابني الوليد ابن عبد الملك بن مروان ١٨٣
موجز ١٨٣
ذكر لمع ما كان في أيامهما ١٨٤
وصف يزيد الناقص ١٨٤
قول المعتزلة في التوحيد ١٨٤
قولهم في العدل ١٨٤
قولهم في الوعيد ١٨٥
قولهم في المترلة بين المترلتين ١٨٥
قولهم في الأمر بالمعروف ١٨٥
الاختلاف في الإمامة ١٨٥
أم يزيد أم ولد ١٨٨
ظهور مروان بن محمد (الحمار) ١٨٨
سبب زوال ملك الأمويين ١٨٩
ذكر السبب في العصبية بين النزارية واليمانية ١٩٠
الكميت يعرض شعره على الفرزدق ١٩٠
الكميت يعرض شعره على أبي جعفر محمد بن علي ١٩١

ثم يعرضه على عبد الله بن الحسن ١٩١
عبد الله بن جعفر الكمي ١٩١
أول اثارة العصبية ١٩٢
دعبل الخزاعي يرد على الكمي ١٩٢
كانت العصبية من دواعي زوال ملكبني أمية ١٩٣
ذكر أيام مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم، وهو الجعدي ١٩٤
موجز ١٩٤
ذكر مقدار المدة من الزمان وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام ١٩٦
المدة إجمالاً ١٩٦
تفصيل المدة ١٩٧
مدة ملك بنى العباس ١٩٧
ذكر الدولة العباسية وملع من أخبار مروان، ومقتله وجوابع من حربه، وسيره ١٩٨
قول الروندية في الخلقة ١٩٨
من حوار فاطمة الزهراء وأبي بكر الصديق ١٩٨
العثمانية للجاحظ ١٩٩
كتب أخرى للجاحظ ١٩٩
نقض الشيعة لكتب الجاحظ ١٩٩
والمعزلة تنقض العثمانية ١٩٩
رأي الجريانية في الإمامة ١٩٩
أصل أبي مسلم الخراساني ٢٠٠
بين نصر بن سيار ومرwan بن محمد الجعدي ٢٠٠
بعض خلال وأعمال مروان بن محمد الجعدي ٢٠١
نصر يكتب لابن هبيرة يستنجد به ٢٠٢
دعاة إلى طالب الحق بالحجاز ٢٠٢
مروان يجهز لحرب الخوارج ٢٠٢
موت نصر بن سيار ٢٠٣
خديعة مروان للقبض على إبراهيم الإمام ٢٠٣
مقتل إبراهيم وجماعة معه ٢٠٤
موقعه الراب بين عبد الله بن علي ومروان ٢٠٥
أهل حران ومروان ٢٠٥

دخول عبد الله بن علي دمشق، وقتله كثيراً منبني أمية وشيعتهم ٢٠٥	
مقتل مروان ٢٠٦	
بنات مروان بين يدي صالح بن علي ٢٠٦	
عبد الحميد بن يحيى الكاتب ٢٠٧	
مروان يعتزم الفرار إلى أرض الروم فيرده إسماعيل القشيري ٢٠٨	
ذكر خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد السفاح ٢١٠	
موجز ٢١٠	
ذكر جمل من أخباره وسيره، ولع ما كان في أيامه ٢١١	
وصية إبراهيم الإمام له ٢١١	
مقدم السفاح الكوفة ٢١٢	
كيف آلت الإمام للسفاح ٢١٣	
عامر بن إسماعيل قاتل مروان ٢١٤	
بين السفاح وعامر بن إسماعيل ٢١٤	
رأس مروان بين يدي السفاح ٢١٥	
بين عبد الله بن علي وأخيه داود في ولادة عهد السفاح ٢١٧	
زواج السفاح بأم سلمة بنت يعقوب ٢١٧	
خالد يصف النساء للسفاح ويغريه بالزواج ٢١٨	
كان السفاح يحب مسامرة الرجال ٢٢٠	
السفاح وأبو نحيلة ٢٢٠	
كان أبغض وجهها إذا حضر طعامه ٢٢٠	
بعض عادات وسياسات السفاح ٢٢١	
من النصائح في مخالطة الملوك ٢٢٨	
أحسن الواقع من الملوك ٢٢٣	
معاوية وابن شجرة الراهاوي ٢٢٣	
تعليق ٢٢٤	
حسن الاستماع ٢٢٤	
من أدب الحديث ٢٢٤	
أول وزير في الدولة العباسية ٢٢٥	
مسامرات السفاح ٢٢٦	
ذكر خلافة أبي جعفر المنصور ٢٣٤	

موجز	٢٣٤
ذكر جمل من أخباره، وسيره ولع ما كان في أيامه	٢٣٥
رؤيا أم المنصور	٢٣٥
المنصور ورفيق سفر ضرير شاعر	٢٣٥
المنصور وأهله يتحدثون عن سيربني أمية	٢٣٦
وفاة محمد بن جعفر الطالبي	٢٣٧
وزراء المنصور	٢٣٧
المنصور يسأل عن تدبيرات هشام بن عبد الملك	٢٣٨
المنصور ومعن بن زائدة	٢٣٨
المنصور يقع بين يديه سهم كتب عليه شعر وسلامة	٢٣٩
المنصور يستشير في أمر أبي مسلم	٢٤٠
خروج عبد الله بن علي	٢٤١
خلاف أبي مسلم للمنصور وقتله	٢٤١
خطبة المنصور بعد قتل أبي مسلم	٢٤٣
الخرمية الفرقة التي تتولى أبي مسلم	٢٤٤
بين الخرمية وجيش المنصور	٢٤٤
ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية)	٢٤٥
ترقى اخوة محمد بن عبد الله في البلاد	٢٤٦
الأدارسة	٢٤٦
بين المنصور والربيع	٢٥٠
بين المنصور وعمرو بن عبيد	٢٥٠
موت عمرو بن عبيد	٢٥١
موت هشام بن عروة	٢٥٢
موت أبي حنيفة النعمان وجاءة	٢٥٢
مقتل عبد الله بن علي، عم المنصور	٢٥٢
وفاة المنصور	٢٥٤
صفات المنصور	٢٥٤
أولاده	٢٥٥
ذكر خلافة المهدي محمد بن عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس	٢٥٦
موجز	٢٥٦

٢٥٧	ذكر جمل من أخبار وسيره، ولع ما كان في أيامه
٢٥٧	المهدي وشريك القاضي
٢٥٧	المهدي وعمرو بن الربيع يجوعان في طريقهما للصيد
٢٥٨	ومرة أخرى يجوع المهدي في طريقه للصيد
٢٥٩	وزراء المهدي
٢٥٩	خصال المهدي وأعماله
٢٥٩	الخيزران وامرأة مروان بن محمد
٢٦١	عبد الله بن عمرو بن عتبة يعزى المهدي ويئنه
٢٦١	عتبة الجارية وأبو العتاهية
٢٦٢	من أبي العتاهية إلى المهدي
٢٦٣	من طرف أبي العتاهية
٢٦٥	محمد المهدي والشرقي بن القطامي
٢٦٦	المهدي ومروان بن أبي حفصة
٢٦٦	بين المهدي وسفيان الثوري
٢٦٧	رؤيا المهدي قبيل وفاته
٢٦٧	وفاة زفر بن الهذيل وجماعة من العلماء
٢٦٩	ذكر خلافة موسى الهادي
٢٦٩	موجز
٢٧٠	ذكر جمل من أخباره وسيره، ولع ما كان في أيامه
٢٧٠	أوصاف الهداي
٢٧٠	مثل من شجاعته
٢٧٠	بين المهدي وعيسي بن دأب
٢٧٠	جريمة غلام سندي
٢٧١	وزراء المهدي
٢٧١	ظهور الحسين بن علي بن الحسين
٢٧٢	من مرائي الحسين بن علي صاحب فخ
٢٧٢	طاعة الهداي لأمة الخيزران
٢٧٣	أخذ العباسيون ثأربني هاشم منبني مروان
٢٧٣	بعض فضائل مصر وبعض أخبارها وبعض عيوبها
٢٧٤	مدينة دنقلة

٢٧٤	بين البصرة والكوفة
٢٧٦	رغبة الهادي في خلع الرشيد من ولاية العهد
٢٧٧	الهادي ورجل ذو ذنوب
٢٧٧	بين الهادي والرشيد
٢٧٧	رؤيا المهدى لولديه الهادى والرشيد
٢٧٨	حاذر الهايدي سيف عمرو بن معبد يكرب (الصمصامة)
٢٧٩	ذكر خلافة هارون الرشيد
٢٧٩	موجز
٢٨٠	ذكر جمل من أخباره، وسيره (ولمع ما كان في أيامه)
٢٨٠	الرشيد يستوزر يحيى بن خالد البرمكي
٢٨٠	محمد بن سليمان وسوار القاضي يعترضهما مجانون
٢٨١	موت الليث بن سعد
٢٨١	موت شريك النخعي القاضي
٢٨٢	موت مالك بن أنس الإمام
٢٨٢	حماد بن زيد
٢٨٢	ابن المبارك
٢٨٢	القاضي أبو يوسف
٢٨٣	بين عبد الله بن مصعب الزبيري
٢٨٣	وموسى بن عبد الله بن الحسن الطالبي بحضوره الرشيد
٢٨٤	ظهور محمد بن جعفر، ثم هربه إلى المغرب
٢٨٤	الرشيد يجتمع آخر حجة
٢٨٥	موت الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني
٢٨٥	يحيى بن خالد سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح
٢٨٦	أهديت للرشيد سمكة فمنعها عنه ابن يختيشوع الطيب
٢٨٧	رؤيا الرشيد يؤمر بالتخلية عن موسى بن جعفر
٢٨٧	إبراهيم بن المهدى يعني الأسود
٢٨٩	بين الرشيد ومعن بن زائدة
٢٨٩	بين الرشيد والكسائي
٢٩١	وصية الرشيد لمؤدب الأمين الأحرن التحوي
٢٩١	العمانى عند الرشيد يحرضه على تجديد العهد للأمين

٢٩١	حرص الرشيد على ولاية عهده
٢٩٢	الرشيد يعلق كتاب العهد في الكعبة
٢٩٣	وفاة الفضيل بن عياض
٢٩٣	موت موسى بن جعفر الطالبي
٢٩٤	من شعر العتاي في الرشيد
٢٩٤	العتاي ينال من أبي نواس
٢٩٥	أبو العتاهية وعتبة
٢٩٧	إسحاق الموصلي يعني للرشيد
٢٩٨	جاعة المغنين عند الرشيد
٢٩٩	الرشيد يجري حلبة الخيل
٣٠٠	طبق سمك يتكلف ألف درهم
٣٠٠	أحسن الأسماء وأسمجها
٣٠١	أدب مخاطبة الأمراء
٣٠١	رجل يتعرض للرشيد بقصة فيشيء بأربعة آلاف دينار
٣٠٢	السكر أطيب أو المشان
٣٠٢	تعزية وتهنئة
٣٠٢	علة الرشيد
٣٠٣	شعر لأبي العتاهية يبكي الرشيد
٣٠٤	ذكر حمل من أخبار البرامكة وما كان منهم في أيامهم
٣٠٤	أسمائهم خالد بن برمك
٣٠٤	سبب نكتتهم
٣٠٤	الفضل بن يحيى يتشغل بالصيد فيزجره أبوه بأمر الرشيد
٣٠٥	جعفر البرمكي عند الأصمسي
٣٠٦	مجلس عند يحيى بن خالد
٣٠٦	حديث لهم عن العشق
٣٠٧	العشق وعلة وقوعه
٣٠٩	الرشيد يزوج أخته العباسة لجعفر البرمكي
٣١٣	مدة سلطان البرامكة ورثاء الشعراء لهم
٣١٩	ذكر خلافة محمد الأمين
٣١٩	موجز

٣٢٠	ذكر جمل من أخباره، وسيره،
٣٢٠	كيف جاءه خبر الولاية
٣٢٠	رؤيا زبيدة أيام حملت بالأمين وعند مولده وبعده
٣٢١	موت ابن عياش
٣٢١	عزم الأمين على خلع أخيه
٣٢٣	الأمين ينصب مجلس غناء وهو محاصر
٣٢٤	لهو الأمين وقت الحصار
٣٢٥	صفات الأمين
٣٢٥	نبوءة بخلع الأمين
٣٢٦	عبد الملك بن صالح بن علي
٣٢٨	من الأمين إلى طاهر بن الحسين
٣٣١	قف على ألقاب قادة الجيش (الضباط)
٣٣٣	وقعة دار الرقيق
٣٣٤	صرامة العراة
٣٣٤	الواقع الخامسة
٣٤٣	الفهرس